



لطائف البَيِّنَات في تفسير القرآن

تفسير بُرْهَنِي تَبَارَكَ وَعَمَّ

تَأْلِيفُ

أ. د. حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ شَيْبَانِي

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إرب





لطائف البَيِّنَات
في تفسير القرآن

تفسير جُرِّي تبارك وعمّ



العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي تبارك وعم.

تأليف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (٦٦١).

الطبعة: الأولى، ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (١٢٦) ٢٠٢٤ م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

من أراد طبعه وتوزيعه مجاناً،
فليتواصل مع المؤلف للإذن له به.

النَّاشِر



غافق للدراسات والنشر
GAFeq for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFeq.S.P



782 16 12 14



لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزي تبارك وعم

تأليف

د. / حسين بن محمد بن علي شيبان
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إرب



GAFÉQ for studies and publishing



المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسماوات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، **وقد يسّر الله لنا** إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار - جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالباً، مع أخذ الدروس والعبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب



لطائف البيان في تفسير القرآن

٦

ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: **«لطائفُ البيان في تفسير القرآن»**.

وقد تم والله الحمد إنجاز الكتاب الأول من السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (تبارك، وعم).

ويسرني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القراء الكرام إلى أننا نفتتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء - اليمن

١ رمضان ١٤٤٥ هـ



تفسير جزء تبارك





تفسير سورة الملك

تفسير المقطع الأول من سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَيَسَّى الْمَصِيرُ ۝ (٦) إِذَا الْفُتُورُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (١٠) فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (١١)﴾.

شخصية السورة:

سورة الملك؛ سورة مكية، وآياتها ثلاثون آية^(١)، وقد ورد في فضلها عدة أحاديث، منها: "هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر"^(٢)، وحديث:

(١) وتسمى الواقعة والمنجية، ينظر: تفسير القرطبي: (٢٠٥ / ١٨).

(٢) سنن الترمذي - ط دار إحياء التراث (١٦٤ / ٥)، برقم: (٢٨٩٠)، وإثبات عذاب القبر

للبهقي (ص: ٩٩)، برقم: (١٥٠)، وهو ضعيف يشهد له ما بعده.

"سورة تبارك؛ هي المانعة من عذاب القبر"^(١)، **وحديث**: "إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجلٍ حتى غُفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك"^(٢)، **ومن أعظم مقاصد هذه السورة**؛ الحديث عن كمال مُلك الله، وكمال قدرته حتى يخشاه الناس، ويعبدوه ويحذروا من عقابه وبطشه.

وقد ابتدأت السورة بتعظيم الله تعالى وتقديسه، في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، **أي**: تعظم وتعالى وتقدس وتمجد، فقدس نفسه، ومجد نفسه، وعظم نفسه، وتبارك من البركة، والبركة كثرة الخير ولزومه، **والمعنى**: تعظم الله مالك المُلْك، وكثر خيرُه ونزلت بركتُه إلى الخلق، ومعنى الملك هنا السيطرة والسلطة والهيمنة، فلا شيء يخرج عن سيطرة الله وهيمنته وملكه، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، الضمير يعود على الله، فالله على كل شيء قدير، ولا يُعجزه شيء ولا يقف أمام قدرته شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم وصف نفسه بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، بدأ بذكر الموت لأثره على النفوس، فإن النفوس تتأثر بالموت، أو بدأ بالموت لأنه الأصل فإن الإنسان يكون عدماً ثم يُحيى، والأشياء تكون معدومة ثم توجد، **وقيل**^(٣): إن الموت ليس هو العدم المطلق وإنما هو انفكاك وانتقال الروح عن الجسد؛ فحينما يموت الحي تذهب روحه في مكان ويذهب جسده في مكان، فإذا انتقل

(١) مستدرک الحاكم (٢/ ٤٩٨)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، برقم: (٣٦٤٣).

(٢) سنن أبي داود، برقم: (١٤٠٠)، الترمذي، ت بشار: (١٤ / ٥)، برقم: (٢٨٩١)، **وقال**: هذا

حديث حسن.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨ / ٢٠٦).



إلى البرزخ رجعت الروح إلى الجسد، وصارت الحياة البرزخية الأولى، ثم إذا جاء البعث كانت الحياة بالروح والجسد معاً في الآخرة، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، **اللام** هنا لام التعليل والحكمة من خلق الموت والحياة، وهي الابتلاء، وهو الاختبار، حيث يختبر المكلفين، وهم الإنس والجن، فانتقل الخطاب من إيجاد الحياة المطلقة في الخلق كله إلى مخاطبة المكلف منهم، والإنس والجن تبع لهم.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لننظر من يكون منكم أتقن عملاً في هذه الحياة، **ولم يقل: أكثر عملاً؛** لأن الكثرة بدون إتقان لا فائدة منها، والعمل الحسن المتقن **لا بدَّ أن يجتمع فيه شرطان، وهما:** الإخلاص لله تعالى في العمل، ومتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك العمل، أي يعبد الله على وفق ما شرعه الله على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، هذان اسمان من أسماء الله يذكرهما الله تعالى في خواتم بعض الآيات من أجل أن يُعرّف خلقه على بعض أسمائه وصفاته من جهة، ومن جهة أخرى هناك علاقة بين مدلول الاسم وما تتضمنه الآية من مفهوم، وإذا جمع بين اسمين؛ فلحكمة ثالثة في ذلك الجمع، وهي هنا: أن الخلق والإيجاد يحتاج إلى عزة وقوة ومنعة وعظمة، فيناسب معها اسم العزيز، وصفات العباد الناقصة التي فيها الخطأ والذنب والتقصير، يُناسب معها اسم الغفور الذي يغفر لعباده ما وقعوا فيه من ذنبٍ وتقصير.

ثم وصف نفسه أيضاً بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، أخبر عن نفسه أنه الخالق لسبع سموات، كل سماء فوق سماء، وبين كل سماء وسماء فراغ،



ورد تقديره في بعض الآثار بمسيرة خمسمائة سنة^(١)، فالسماء الأولى طبقة، والسماء الثانية طبقة، والسماء الثالثة طبقة، وهكذا، **وقوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾**، الخطاب موجه لكل راءٍ، وخلق الرحمن المقصود به الخلق المطلق، ولكن السياق هنا عن السماء، **فالمعنى:** إذا نظرت إلى السماء فهل تجد فيها اضطراباً أو اختلافاً أو خلافاً؟! والجواب: لا تجد فيها ذلك، بل تجدها منتظمة سليمة، **وقوله: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾**^(٢)، **أي:** كرر النظر إلى السماء؛ لأنه من نظرة واحدة قد لا تكتشف الخلل، وفي هذا إشارة إلى أن من يريد أن يدقق في شيء أن يُعيد النظر فيه مرة واثنين وثلاثاً؛ حتى يكتشف الخلل، والفتور، هو: الخروق أو الشقوق، فهل تجد خرقاً أو شقاً في السماء؟!، بل تجدها سليمة لا عيب فيها ولا خلل.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^(٣)، **أي:** كرر النظر ودققه في السماء مرتين، وليس المقصود هذا العدد بعينه، وإنما المقصود هنا به مرات كثيرة، **والمعنى:** أكثر من النظر في السماء والتأمل فيها فإنك لن تجد فيها خلافاً ولا نقصاً ولا اضطراباً ولا شقوقاً، بل سيرجع بصرك بعد النظر في السماء مراراً وتكراراً كليلاً، **أي:** لم يجد شيئاً ناقصاً، حال كونه ذليلاً، وهو كليل، لأن خلق الله متقن لا عيب فيه ولا خلل، ففي الآيات الأولى أظهر كمال خلق السماء، وإتقان الله لها.

(١) سنن الترمذي ت شاكر (٥ / ٤٠٤)، برقم: (٣٢٩٨)، والرد على الجهمية، للدارمي (ص:

٥٥)، برقم: ٨١.



وفي الآيات الآتية حدثنا عن جمال السماء، لأنه خلق الله؛ جمع بين الإتيان والجمال، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾، السماء الدنيا هي الطبقة الأولى من جهة الأرض، ولذلك سماها الدنيا أي: القريبة من الخلق الذين يسكنون على الأرض، وقد زينها الله بمصابيح، وهي الكواكب، وسمى الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء من الشمس، فضوؤها ليس منها، بل تعكس ضوء الشمس وتضيء في الليل بعد غروب الشمس، ولذلك لو نظرت في السماء نهاراً؛ فلن تجد ضوءاً للكواكب؛ لأن الشمس موجودة وضوؤها أشد وأقوى؛ فيطمس نور هذه المصابيح، وهل هذه الكواكب داخل السماء، أم خارج السماء؟ **على قولين لأهل العلم^(١)**، فأصحاب الفلك يقولون: هي خارج السماء أو فوق السماء ولأن وصف السماء شفاف فالمصباح يظهر كأنه داخل السماء ولو كان فوقها، **والقول الآخر:** أنهما داخل السماء، ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ الضمير يعود إلى أقرب مذكور، قاعدة في اللغة، أقرب مذكور وهي المصابيح، وهل تُرجم الشياطين بالكواكب الموجودة في أفلاكها الذي تسير فيه، فالفلك في اللغة هو الشيء الدائري^(٢)، فالفلك هنا الذي تسير فيه الكواكب وتعود إلى مكانها ولا تخرج عن إطارها، كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فهي إذن باقية في أماكنها؟! **!! الجواب:** ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن يفصل من الكواكب شعل ترمى

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠ / ٥٨٤).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (٢ / ٧٠١).



الشياطين بها، وتلك الشعل هي الشهب، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار باقية^(١)، **والمعنى:** جعلنا شهبًا من هذه النجوم تُتابع الشياطين، إذا استرقوا السمع، فُتحرقُهم، وهذا ما تشاهدونه أحيانًا في السماء.

ثم قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾^(٥)، الضمير عائد على الشياطين وقد جمع لهم بين عذابين: عذاب الدنيا الاحترق بالشهب إذا حاولوا يسترقون السمع من السماء، **كما في قوله:** ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]، وفي الآخرة توعدهم بعذاب السعير، وهو عذاب جهنم، وسمى عذاب جهنم سعيرًا؛ لأنه لا ينطفئ، بل يستمر مشتعلًا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، الواو حرف عطف، واللام للمشاركة، أي: أن عذاب السعير ليس خاصًا بالشياطين، بل سيشارك فيه الذين كفروا بربهم، أولئك الشياطين بسبب كفرهم وشطنهم عن الحق واتباع الصراط المستقيم يُحرقون في نار الدنيا بالشهب وفي الآخرة في السعير، ويُشاركهم في عذاب جهنم وعذاب السعير الذين كفروا بربهم، وعبر بالرب ليشعرهم بقبح ذنبهم، فكيف تكفر بالله تعالى الذي خلقك ورباك؟!، والأصل أن تكون عابدًا له مطيعًا لأمره، وعذاب جهنم هو عذاب السعير، ولكنه نوع في اسم جهنم من أجل تهويلها، فالعرب إذا أرادوا أن يهولوا ويُعظموا شيئًا ذكروا له عدة أسماء، كالسيف، والأسد، ونحوها، وكذلك تنوعت أسماء يوم القيامة، وأسماء جهنم من أجل تعظيمها وتهويلها في نفوس الناس لعلهم يخافون منها فيستعدون لها.

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥٨٣/٣٠).



وقوله: ﴿وَيُنْسُ الْمَصِيرُ ٦﴾، أي: بنس المرجع والمكان والمأوى الذي سيرجع الكفار إليه، وهو جهنم.

ثم بين حال هؤلاء الكفار في جهنم، فقال: ﴿إِذَا الْقُوفَى سِعُوهَا شَيْقًا﴾، إذا هنا ظرفية شرطية، معنى ظرفية **أي:** أنها تكون ظرف زمان أو ظرف مكان، وشرطية، **أي:** لا بد لها من جواب الشرط، وهي هنا ظرف زمان، أي: حين الإلقاء، أو وقت الإلقاء، والإلقاء هو: الرمي للشيء بدون احترام، مما يدل على احتقارهم وألقوا: فعل مبني للمجهول، حُذف فاعله للتعظيم، وإن كان الذين يُلقون بالكفار في جهنم هم ملائكة العذاب، **كما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصَّى وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]**، حيث تأخذهم الملائكة الشداد الغلاظ وترميهم في جهنم؛ لأن الشخص حينما يرى جهنم وسعيرها يهرب منها، ولا يدخلها بنفسه، فيُدفع إليها دفعًا، بخلاف الجنة، فإنه يفرح، ويجري إليها جريًا!!، **والشهيقي في اللغة^(١):** ضد الزفير، فالشهيقي رد النفس، والزفير إخراجها، **وقيل^(٢):** الشهيقي لجهنم عند إلقاء الكفار فيها كشهيقي البغلة للشعير، وهو ما تسمعه من الحيوان حينما يُقدم له الطعام من صوت قبل أن يأكل، كأنه صوت فرح بما أعطيته، فجهنم يحصل لها ما يحصل لهذا الحيوان الذي يفرح بطعامه، فهذا الشهيقي هو الصوت المتلطف لأجساد أهل النار التي تُحرقها، نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَقُورُ ٧﴾، أي: تغلي، كالقدر الذي يغلي بالماء الذي فيه إذا اشتدت الحرارة.

(١) ينظر: العين: (٣/ ٣٦١).

(٢) ينظر: الباب في علوم الكتاب: (١٩/ ٢٣٧).



ثم قال: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غضبها وحنقها على الكفار، وهو كناية عن شدة الغضب، **ثم قال:** ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمُ الْيَتِيمَ الَّذِي أَنذَرَكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨)، كلما دفعت الملائكة منهم مجموعة إلى النار، الفوج: الجماعة من الناس، يُبَكِّتُهُمْ خزنة جهنم من الملائكة بالسؤال، فيقولون لهم: ما جاءكم رسول؟ ما بلغكم الله تعالى أن هناك جنة وأن هناك ناراً، وأن الله أعد النار للمكذبين؟! وهذا من إظهار عدل الله على خلقه، فالملائكة خزنة جهنم تريد أن تسمع الجواب من الكافر الملقى في جهنم، **فأجابوا:** ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾، قالوا: نعم، ولكن لم نؤمن ولم نُصَدِّق به، وهذا من عدل الله تعالى، **كما قال:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥)، [الإسراء: ١٥]، فما دام النذير قد جاء البشير وبلغ الناس فكفروا؛ فإنهم يستحقون العقوبة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (٩)، واعترفوا أنهم أقلوا أدهم على الرسل، وقالوا لهم: أنتم كذابون، فالله ما أرسل رسلاً، وما أنزل كتباً، بل أنتم تفترون على الله، وأنتم بعيدون عن الحق الصواب.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠)، وبعد أن دخلوا جهنم رجعوا إلى أنفسهم يقولون لها، **أو يقول بعضهم لبعض:** لو كنا في الدنيا نسمع سماعاً ينفعنا نفهم وتندبر ما أنزل الله إلينا، فهم يعترفون أن عقولهم لم تكن عقولاً سليمة، ولم يكونوا يستخدمون سمعهم بطريقة صحيحة، ولا تظنوا أنهم مجانين أو أنهم صُم، لا، فلو كانوا مجانين لكانوا غير مكلفين، بل المقصود أنهم ما استخدموا عقولهم في طاعة الله، ولا البحث عن هداية الله، ولا استخدموا



أسماعهم في الوصول إلى الحق مثلهم مثل الحمير والبغال والحيوانات التي تسمع لكن لا تفهم، فلو قرأت قرآنًا على حمار فإنه لا يفهم ما فيه من أحكام، فهل معناه أن الحمار لا يسمع؟ لا، هو يسمع، ولكن سمعه خاص بأكله وشربه وحياته، وليس سمع تكليف، فالكفار شابهوا الحيوانات في هذا النوع من السمع، **كما قال:** ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فهل ينفعهم هذا الاعتراف؟، **الجواب:** لا، وإنما هذا يُفيد في بيان عدل الله، وأن الله لم يُعذب أحدًا بدون حق.

وقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ١١، هذا التعقيب من الله، والكلام الأول من كلامهم، والتعقيب يبين أن الاعتراف في غير وقته لا ينفع، والندم في غير وقته لا ينفع، قبل أن تبلغ الروح الحلقوم، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، أما أن تعترف بعد أن تموت، فالآخرة دار جزاء، لا دار عمل، وسحقًا، أي: بُعْدًا لهم عن رحمة الله، وبُعْدًا لهم عن الجنة، وبُعْدًا لهم عن النجاة، وأطلق عليهم أصحاب السعير؛ لأنهم سيُلازمونها ولن يخرجوا منها، ولا يُسمى الصاحب صاحبًا إلا إذا كان مُلازمًا لصاحبه.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من البعيدين عن النار، القريبين من الجنة الذين وفقهم الله للأعمال الصالحة فتاب عليهم وغفر لهم وأدخلهم في جناته جنات النعيم إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.



تفسير المقطع الثاني من سورة الملك

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) .

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة مصير الكفار وأنهم أصحاب السعير، ذكر بالمقابل مصير المؤمنين وأنهم في الجنات، وهذا من أسلوب القرآن المتكرر أنه إذا حدثنا عن النار وأهلها لا بد أن يُردف الحديث عن الجنة وأهلها؛ حتى يتبين الفريقان ويتضح الطريقان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ ، هذا إخبارٌ عن وصف من يستحقون الجنة، وهم الذين يخشون الله، أي: يخافونه مع تعظيم له، فإن الخشية خوف مع تعظيم^(١)، والخشية أبلغ من الخوف، فإذا كنت تُعظم من

(١) ينظر: تاج العروس (٣٧/ ٥٥٠).

تخافه فهذه خشية، ولذا غالبًا تُطلق على الله لأن الله مُعظم في النفوس، ويمكن أن تخاف شخصًا وتُعظمه، **فيصح أن يُقال: أنك تخشاه، مثلًا أن تقول: أخشى من غضب أبي مثلًا، لأنك تُعظم والدك، وفي نفس الوقت تخاف منه، ولكن لا يصلح أن تقول: أخشى من الكلب!**، لعدم توفر التعظيم له، **وإنما قل: أخاف من الكلب، وذكر هنا لفظ الرب من أجل استشعار الرعاية والعناية، فإن الرب معناه المربي الذي يُربي خلقه ويرعاهم، ولفظ الغيب هنا له معنيان: الأول: يخشون ربهم في خلواتهم وإذا غابوا عن أعين الناس، وهذا أليق بالمعنى هنا، وهذا أدعى للإخلاص؛ لأن الذي يخشى ربه أمام الناس احتمال يكون مرائيًا، من أجل أن يقول الناس عنه إنه رجلٌ صالح، أما إذا كان وحده وخشي ربه تعالى، فهذا دليل على كمال إيمانه، وقد ذكر النبي ﷺ في الحديث السبعة الذين يُضلهم يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم: "ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" (١) أي: بكى من خشية الله تعالى، وهذا هو الوصف التام لمن يستحق الجنة، والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم مع أنهم لا يرونه، أي: ارتقوا بحالهم إلى مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، وهي: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما في الحديث (٢)، أي: عبدوا الله بمرتبة المشاهدة، أو مرتبة المراقبة، ولا تعارض بين المعنيين.**

وقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢)، المغفرة هي أن يُعطي الله سيئاتهم،

(١) صحيح البخاري (١/١٣٣)، برقم: (٦٦٠)، صحيح مسلم (٢/٧١٥)، برقم: (١٠٣١).

(٢) صحيح البخاري: (١/١٩)، برقم: (٥٠)، وصحيح مسلم: (١/٣٩)، برقم: (٩).



بمعنى لا يُظهرها، مأخوذة من الغفر، وهو التغطية، ومنه: المغفر وهو الخوذة التي توضع فوق الرأس فتغطي الجمجمة حتى تُحافظ عليها^(١)، والأجر الكبير، هو الجنة، فغفر ذنوبهم حتى لا يُعَيَّرُوا بها، ومنحهم أجراً عظيماً، وهو دخول الجنة، نسأل الله من فضله.

ثم قال الله تعالى موجهًا الخطاب لعموم الناس: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١٣)، **أي:** إن أسررتهم أو أعلنتهم فهذا كله عند الله سواء، فالسر عنده علانية سبحانه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وذات الصدور هي الخواطر والوساوس التي تدور في نفسك دون أن تتحدث بها ولا يعلمها من بجوارك، وسُميت الخواطر بذات الصدور لأنها تلزم الصدر ولا تخرج منه، فإن خرجت لم تُعد وساوس ولا خواطر، وهذه الوسواس والخواطر معفو عنها من الله، كما في الحديث: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل"^(٢)، **وهذا التعقيب** هو تعليل للعبارة الأولى، أي: اجهروا أو أسروا فالنتيجة عند الله واحدة، فالله مُطلع عليكم، وفيه إرشاد للناس أن لا تُسروا شيئاً يُغضب الله، ولا تجهروا بشيء يُغضب الله، بل أسروا شيئاً طيباً، واجهروا بشيء طيب.

وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١٤)، الاستفهام إنكاري، **أي:** إن الذي خلق هو الذي يعلم بأحوال خلقه، ويعلم بتفاصيل إسرار وجهر الخلق،

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٧٠).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ١٤٥)، برقم: (٢٥٢٨)، وصحيح مسلم (١/ ١١٦)، برقم: (١٢٧).



ولا تخفى عليه خافية، وهو الله، اللطيف الخبير، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء^(١)، أي: الذي يعلم دقائق الأشياء، ولذا يُقال للشيء الدقيق الخفيف: لطيفٌ، **والخبير**: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته^(٢)، ما الحكمة من ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين؟! لَمَّا أخبرنا أنه يعلم حال الخلق، بين لنا بهذين الاسمين أن علمه ليس إجمالياً وإنما علمه تفصيلي بدقائق الأمور وخفاياها، وكنه الأشياء، لطيف عالم بدقائق الأمور، وخبير أي: لا يفوته شيء من ذلك، فهو يعلم خلايا النفوس، ويعلم وظائفها وأوزانها، وإذا كان يعلم هذه الدقائق ألا يعلم ما نطق به الخلق وما أسروا به؟! لا شك ولا ريب، إنه عليم بذات الصدور، وهو اللطيف الخبير.

ثم جاءت الآيات التي تليها لتحدثنا عن نعم الله العظيمة التي أوجدها من أجلنا، **فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾**، هذا إخبار بنعم الله على خلقه على سبيل الامتنان، أي: صير لكم الأرض مذللة، فجعل العيش عليها سهلاً، وجعل الحركة فيها سهلة، وجعلها مستقرة، وجعل فيها الهواء والأكسجين والماء وسائر ما يؤدي إلى أن تكون صالحة للحياة، بخلاف غيرها من الكواكب، فاليوم العلماء الذين يصعدون في المركبات الفضائية إلى القمر أو المريخ أو المشتري لا يجدون فيها معنى التذليل، فليست صالحة للحياة عليها، أما هذه الأرض فقد ذللها الله، فالناس يعيشون عليها ملايين السنين.

(١) ينظر: تفسير البغوي - طيبة (٣/ ١٧٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٣).



وقوله: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فاسعوا في أرجائها وجوانبها وساهموا في عمارتها وإحيائها، والبحث عن خباياها واستخراج كنوزها، وخذوا بالأسباب الموصلة إلى تحصيل أرزاقكم.

وقوله: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، فالرزق من الله وليس من الأرض، **كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾** [الذاريات: ٥٨]، ولكنه يمنحه لمن أخذ بالأسباب، فطلب منا أمرين: التوكل على الله، وطلب الرزق من الله، والأخذ بالأسباب، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، فلا تجلس في المسجد وتقول: يا رب أريد كذا وكذا، فالدعاء مطلوب، لكن مع الأخذ بالسبب، فإن ترك الأخذ بالسبب خدش في شريعة الله تعالى، فالشريعة تجمع بينهما، وانظروا إلى الناس البطالين الكسالى العاطلين الفقراء الذين يشكون من الفقر المدقع، فجزء كبير من أسباب فقرهم هو كسلهم وعدم أخذهم بالأسباب، **وفي الحديث: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خِماصًا وتروح بطانًا"**^(١)، فماذا تعمل الطير حتى يأتيها رزقها؟، تبكر في الصباح تبحث عن رزقها وبطونها ملتصقة من الجوع، ثم تعود في المساء وقد انتفخت بطونها من الأكل!، فهلا تحركت مثلما تتحرك الطير وغدوت مبكرًا مثلها، وتوكلت على الله، والله تعالى سيرزقك، فإن الله خلق الخلق وتكفل برزقهم، ولكن بعض الناس ينتظر رزقه دون سبب، أو أسلوب محتقر من الشحاة والسؤال!!

(١) مسند أحمد: (١/ ٣٣٢)، برقم: (٢٠٥)، وسنن الترمذي: (٤/ ١٥١)، برقم: (٢٣٤٤)، وصحيح ابن حبان: (٢/ ٥٠٩)، برقم: (٧٣٠)، وإسناده صحيح.



وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥)، نبههم إلى أن هذه الأرض ليست مُستقرّاً لكم، وإنما مرجعكم إلى الله، إذاً فلا تشغلوا أنفسكم بطلب الرزق عن الآخرة، ولا تجعلوا الدنيا أكبر همكم، فالدنيا مزرعة للآخرة، بل استعدوا للقاء الله فإنكم إليه راجعون ومحشورون!!.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦)، الهمزة للاستفهام، هل أمتم، ومن في السماء هو الله تعالى، فإنه على العرش استوى، وليس معنى مَنْ في السماء أن الله داخل السماء، فالله بائن عن خلقه ومستوٍ على عرشه، فالسموات السبع طباقاً كما سبق، وفوقها عرش الرحمن، ثم الله فوق العرش، فهو في جهة العلو سبحانه، وهذا الذي تدل عليه الفطرة؛ فإذا أردت أن تدعو الله فجأة ترفع يديك، لأن فطرتك تدلك أن الله جهة العلو، ويخسف بمعنى يهز ويزلزل الأرض ويشقها من تحتكم، فإذا هي تتحرك وتضطرب، كما سمعتم قبل أيام الزلزال الذي حصل في تركيا، مدته تقريباً ثلاث وخمسون ثانية ولم يكمل الدقيقة، وكانت قوته حوالي ثماني درجات، بالمقاس الخاص بالزلازل، أي هزة بسيطة أسقطت مئات المباني ومات الآلاف من الخلق، فكيف لو حصل اضطراب وزلزلة للأرض؟! فإذا اضطربت الأرض لم تعد ذلولاً، ولم تعد محلاً للاستقرار والعيش عليها، وإنما تتدافنون فيها وتحت أنقاضها!!، فهذا التهديد الأول: أما تخافون بسبب بعدكم عن الله وكفركم به وإعراضكم عن دينه أن يُعاقبكم بالخسف.

ثم ذكر التهديد الثاني، فقال: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (١٧)،



وهل أمتتم الله الذي في السماء أن يرسل عليكم حاصباً، وهو حجارة من السماء يرجمكم بها، كما حصل لقوم لوط، أو أن يُرسل عليكم ريحاً شديدة عاصفة تحمل الحصباء معها، فتهلككم، كما حصل لقوم عاد، وهو نوع من التهديد لمن يستمع إلى هذه الآيات فينتبه لنفسه.

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧)، أي: عند نزول العذاب بكم؛ يصير العلم بإنذارى لكم حقيقة ماثلة أمامكم، وليس مجرد معلومة، بل هو إنذار وبعده يقع عذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨)، ولقد حصل التكرار من الأمم السابقة لهم، فكيف كان عاقبة نكيري عليهم؟!، لقد عاقبهم وأهلكهم الله!!.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتٍ وَيقْبُضْنَ﴾، أي: هلاًّ نظر هؤلاء الكفار وتأملوا في كيفية طيران الطيور في السماء، وهي فاردة أجنحتها، وهي تطير، وعبر بالاسم (صافات)؛ لأنه دليل على الدوام وهو الأصل، فكل طائر لا بد يفرد جناحيه، أما القبض فهو مؤقت، ولذلك عبر بالفعل (ويقبضن)، أي: أحياناً، وهذا من الإعجاز العلمي في باب علم الطيور، فإن الطير يتعب من الطيران فيرتاح بإعادة جناحه إلى جسمه لحظات ثم يفرده، وفرد الجناح وقبضه يمنح الطائر مزيداً من القوة على الطيران، **ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ﴾**، وهذا هو بيتُ القصيد من التأمل في طيران الطيور في السماء، فالذي أمسك الطير تطير في السماء ولم تسقط، هو الله تعالى، وهذا دليل على



قدرته جل وعلا، وعبر بالرحمن؛ ليشعرنا أن هذا الإمساك أثر من آثار رحمته سبحانه على الطير، فكيف ير حم الطير ولا يرحمنا؟!.

وقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩)، **أي:** عليم بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، فقد علم حال الطير وهي غير مكلفة، وهي تطير وتفرد جناحها وحين تضمه، وأمسكها فلم تسقط، فكيف لا يعلم أحوال المكلفين ويرصد أعمالهم؟!.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.



تفسير المقطع الثالث من سورة الملك

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ الْإِثْمَ الْكَبِيرَ﴾ (٢٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١) ﴿أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيَّتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠).

قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾، الخطاب هنا موجه لكفار قريش الذين كانوا يكذبون بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وهو خطاب يشمل الخلق كلهم، سائلًا لهم سؤالاً استنكارياً، من هم الجنود الذين ينصرونهم من دون الله؟! **والجواب:** لا يستطيع أحد أن يقف أمام قوة الله، ولا يوجد جند في الأرض يغلبون جند الله تعالى، مهما عظم وصفه!!، وأتى هنا باسم الرحمن؛ ليشعرهم بأن تأخير العذاب عن الكفار وتأجيل العقوبة عنهم،



أثر من آثار رحمته سبحانه بهم، ولو عَجَّلَ الله للناس العذاب بسبب ذنوبهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه يُمهلهم لعلهم يتوبون منها.

وقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠) **﴿﴾** إن هنا بمعنى ما النافية، أي: إن الكافرين مخدوعون مغرورون بتزيين الشيطان لهم هذا التكذيب، ولن يفيقوا من غرورهم وتكذبيهم وانخداعهم إلا حينما يأتيهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَهَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ (٢١)، من هو الذي يرزقكم غير الله، لو منع الله رزقه عن الخلق؟! وهو سؤال استنكاري، والجواب: لا أحد يرزق غير الله، ولما استطاع أحد أن يرزق الخلق، فالله هو الرزاق، والرزق بيد الله، **وقد ذكر بعض المفسرين** (١) أن المقصود بالرزق هنا المطر، لكن اللفظ عام يشمل كل أنواع الرزق من المال والصحة والأمن والذرية، ونحوها، ومنه المطر، وهو صورة من صور الرزق، فإن الله ينزل الأمطار فتُزرع الأرض، وينبت الزرع، ويخرج أقواتهم، فلو منع الله تعالى رزقه عن الخلق فمن يقوم برزق الخلق؟ لا أحد، فهو الذي بيده خزائن كل شيء، ثم عَقَّبَ على هذا، **بقوله:** ﴿بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢٢)، **أي:** أنهم تمادوا في التكبر والعناد، واستمروا في الكفر والاستكبار، وابتعدوا وامتنعوا عن قبول الحق، **كما قال تعالى عنهم:** ﴿كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) **﴿﴾** فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) **﴿﴾** [المدرثر: ٥٠-٥١]، ينفرون عن التوحيد والإيمان بالرسول وقبول الحق، كما تنفر الحمير إذا رأت الأسد!!

(١) ينظر: تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/ ٣٢١).



ثم قال تعالى: ﴿أَفَنْ يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

﴿٢٢﴾، وهو مثالٌ ضربه الله لبيان حال الكافر وحال المؤمن، **وملخص هذا المثال: قارن بين شخصين، أحدهما: يمشي على وجهه أي: واقعاً عليه، فإن الانكباب هو السقوط على الأرض^(١)، والآخر: يمشي واقفاً مستقيماً، أو قارن بين شخصين، أحدهما: مُبصر يرى الطريق، فيمشي فيها بسهولة ويضع قدمه حيث يشاء، ويعرف مكان الخلل والأمان من الطريق، والآخر: أعمى^(٢)، لا يعرف الطريق ويتخبط فيها، وهل هذا المثال حقيقي أم مجازي؟ وفي الدنيا يكون مجازياً، أي: أنه مثلُ الله يشبه حال المؤمن والكافر في قبول الحق ورده، وفي الآخرة يكون المثال حقيقياً، أي: أن الله يوم القيامة يجعل الكافر يمشي على وجهه إلى النار، وفي حديث معاذ: "وإننا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يُكَب الناس على مناخرهم أو قال: على وجوههم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم"^(٣)، وقد سئل رسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: "إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم"^(٤)، وفي الآية إشارة إلى أهمية التخطيط للأعمال والبرامج والمشاريع، فخطط أيها المؤمن**

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣١٤/٥).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥٩٤/٣٠).

(٣) مسند أحمد: (٣٤٤/٣٦)، برقم: ٢٢٠١٦، وسنن ابن ماجه: (١٣١٤/٢)، برقم: ٣٩٧٣،

وسنن الترمذي: (١١/٥)، برقم: ٢٦١٦، وقال حسن صحيح.

(٤) مسند أحمد: (٢٨٨/١٤)، برقم: ٨٦٤٧، وسنن الترمذي: (٣٠٥/٥)، برقم: ٣١٤٢،

والسنن الكبرى للنسائي: (٢٠٤/١٠)، برقم: ١١٣٠٣، وإسناده صحيح.



واعرف ماذا ستفعل قبل أن تفعل، فالذي يعمل ويشغل بدون تخطيط؛ كالذي يمشي على وجهه، بينما الذي يُخطط للأمر ويدرسه من جميع جوانبه، ويضع له خطة، فهو يعمل على علم ومعرفة، وهي دعوة إلى ترك الفوضى والارتجال في كل أعمالنا الدينية والدنيوية، ففي ذلك النجاح، بإذن الله، والتخطيط: هو الإجابة على سؤال: أين أنا الآن، وأين سأكون في المستقبل؟، أو هو خط مستقيم بين نقطة الحال ونقطة المستقبل، أو نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، والخط مستقيم هو الوسائل والأساليب الصحيحة التي من خلالها أنفذ عملي ومشروعي بطريقة صحيحة، وهذا الأمر مهم ينبغي أن يأخذ به طلبة العلم والدعاة وعموم المسلمين؛ لأن الإسلام دين النظام وليس دين الفوضى والارتجال، والذي يعمل مرتجلاً يُخطئ كثيراً!!

ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، قل يا محمد، للكفار المكذبين بك: إن الله سبحانه وتعالى هو أوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، فالله خلق آدم من التراب، ثم بعد ذلك صار الخلق يتناسلون ويخرجون إلى هذه الحياة من النطفة، وذكر لنا على سبيل الامتنان بعض النعم التي أوجدها فينا، ولم يُوجدها في الحيوانات، وليس بها آلة السمع التي هي الأذن، أو آلة البصر التي هي العين، أو آلة ضخ الدماء التي هي القلوب، بل المقصود بها الكيفية والطريقة التي تستخدم بها هذه الآلات لمعرفة الحق، فنسمع ونستوعب ونفهم، ونُبصر الحق من الباطل، ونفكر ونتأمل بالعقول والأفئدة الحق، وإلا آلة السمع والبصر عند الحيوانات أقوى من آلة السمع والبصر عندنا،



وقلوبها أكبر من قلوبنا، ولكن ليس فيها خاصية الفهم والاستيعاب التي يقوم به قلب وعين وسمع المُكَلَّف فيعرف بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمنحها الله للمكلفين لمعرفة الحق من الباطل.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣)، أي: قليلٌ منكم الشاكرون، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وغير الشاكرين كثير، أو قليلٌ شكركم الله إن فعلتم.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)، وقل لهم يا محمد أيضاً: إن الله هو الذي بثكم في الأرض، **كما قال:** ﴿نَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، **أي:** تبثه وتفرقه، فأنتم موجودون في سهولها وجبالها، وأطرافها ووسطها، وما من بقعة من بقع الأرض إلا وفيه خلق من البشر، والأرض ليست مكاناً للاستقرار، وإنما يعيش الخلق فيها فترة مُعينة، ثم يموتون، وإلى الله يجمعون ويرجعون إليه، وبين لفظي: ذرأكم وتحشرون تقابل، فهو الذي بثكم وفرقكم في الأرض في الدنيا، وهو القادر على جمعكم وحشركم إليه في الآخرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥)، عبّر هنا بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار، فعادت المشركين المكذبين -سواء كفار قريش أو غيرهم من المكذبين للرسل السابقين- كثرة السؤال عن البعث، وعن الساعة، والسؤال منهم ليس سؤال استفهام، بل سؤال استهزاء، وتعجيز، واستنكار، فهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، وربطوا صدق الرسل بإخبارهم بموعد الساعة، وهذا ربطٌ باطل، لا علاقة بموعد البعث والنشور أو مجيء الساعة بصدق الرسول من كذبه، لأن الرسول لا يعلم الغيب، فقولهم: إن



أخبرتنا متى الساعة فأنت صادق وإن لم تُخبرنا فأنت كاذب؛ تحكّم في السؤال، ونوعٌ من التعجيز.

فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦)، **أي:** قل لهم يا محمد، إن علم مجيء الساعة ليس بيدي، فلا أعلم الغيب، فهذا مما اختص الله تعالى بعلمه، **كما قال:** ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأأنعام: ٥٩]، ومنها علم الساعة، فلا تسألوني عن شيء لا أعلمه، فقد أرسلني الله لأجل أن أنذركم البعث، والنشور، والجنة والنار، وأدعوكم إلى الإيمان، وأبين لكم ذلك، فهي مهمتي إليكم، **كما قال:** ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاقُ الْمُبِينِ﴾ [النور: ٥٤].

ثم بعد هذا الحوار نقلهم الله تعالى من الدنيا إلى الآخرة، **فقال:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجْهُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٣٧)، **أي:** فإذا جاءت الساعة، وُبعث الناس، ورأى هؤلاء الكفار العذاب الذي كان يعدّهم به الرسل بأعينهم، وقد اقترب منهم؛ ظهر السوء على وجوههم، حيث تُصاب وجوههم بالقترة والسواد، من شدة الرعب والخوف، ويُصبح منظرها سيئاً، ويقول لهم قائلٌ، قد يكون القائل هو: الله (١)، وقد يكون خزنة جهنم من الملائكة (٢)، وحذف تهويلاً وتعظيماً له، أي: هذا البعث والنشور، وهذا العذاب، الذي كنتم به تدعون في الدنيا، و﴿تَدْعُونَ﴾، **فيها قراءتان** (٣):

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٥١٨/٢٣).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٦٢/٢٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٥١٩/٢٣).



بالتشديد من الادعاء، أي: كنتم تدعون أن محمداً كاذب في قوله، **والتخفيف** من الدعاء، أي: كنتم تدعون به على أنفسكم على سبيل الاستبعاد، كما قال: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وعلى كلا المعنيين، هو نوع من التقرير والتبكي، أي: فقد رأيتم العذاب بأعينكم، سواءً كذبتُم به، أو دعوتُم به في الدنيا على سبيل الاستبعاد!!

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾، قل يا محمد، لهؤلاء المكذبين من الكفار الذين كانوا ينتظرون هلاكك، قل لهم: لو أهلكني الله والمؤمنين، أو رحمنا ولم يُهلكنا، فلا علاقة بذهابنا وبقائنا بعذابكم، فعذابكم سيقى عليكم، ولا يُجيركم منه أحد وسواء متنا قبلكم أو متنا بعدكم فلا تربطوا عذابكم وما أعده الله لكم بحالنا!، وهذا القول يقال للمجادل على سبيل التنزل والافتراض فقط، وإلا فالله لا يُهلك رسوله والمؤمنين بعذاب، لأنه رحيم بهم، ولا يستحقون ذلك، ولذا جاء جواب الافتراض، في قوله: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٨)، أي: لا يتغير الحكم في حق تعذيب الكافرين، ولا يُجيرُهم ذلك من عذابٍ مؤلم شديد، بسبب كفرهم وتكذيبهم.

ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، قل لهم يا محمد، وقد تكرر معنا لفظ: (قل)، عدة مرات، وهذا يدل على أن محمداً ﷺ مبلغ عن ربه، وأن الوحي ينزل عليه من الله، **والمعنى:** أن الله لن يُهلكنا، فهو رحمنٌ رحيمٌ بنا، ونحن قد آمنّا به، وتوكلنا عليه، ومن آمن بالله وتوكل عليه، فإن الله لا يُعذِّبُه، بل يرحمُه، وخص التوكل بالذكر مع أن الإيمان يشمل التوكل؛ من باب



ذكر الخاص بعد العام لمزيد من الاعتناء به.

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩)، فستعلمون حينما نقف جميعاً بين يدي الله، من هو الضال ضالاً واضحاً نحن أم أنتم.

ثم خُتِمت السورة بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أرايتم أيها الناس المكذبون الذين تتنعمون بنعم الله وتكفرون به، ومن نعم الله تعالى عليكم نعمة إخراج الماء العذب الذي تشربون منه، فلو أن الله تعالى جعل هذا الماء غائراً في الأرض، فلا تستطيعون الوصول إليه، ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠)، فمن غير الله يأتيكم بماءٍ يجري أمامكم، وتشربون منه، ولا شك أن الذي يفعل ذلك هو الله، أما الخلق فلا يستطيعون فعل شيءٍ من هذه النعم العظيمة، وإنما ضرب لهم نعمة الماء فقط حتى يُذكّرهم بباقي النعم حتى يشكروا الله عليها بالإيمان به سبحانه وترك الكفر والتكذيب.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- بيان الحكمة من خلق الموت والحياة.
- ٢- بيان وصف جهنم وأنها تحنق وتكاد تتمزق من شدة غيظها، وأنها تشهق إلى فريستها فرحاً بمقدمها.
- ٤- أن الجن سبقوا إلى ارتياد الفضاء قبل أن يصنع الإنس المركبات الفضائية.



٤- بيان أن الله تعالى عليّم بذات الصدور، ومطلع على خفايا النفوس.

٥- بيان أن الكفر ظلام وعمى، والإيمان نورٌ وهداية.

نسأل الله أن يُوفقنا وإياكم لما يُحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على
نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القلم

تفسير المقطع الأول من سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بَايِعْكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وُدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشْأَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخِزْيِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عْتَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحُطُومِ ﴿١٦﴾

شخصية السورة:

سورة القلم، سورة مكية^(١)، وهي من أوائل السور التي نزلت في مكة، قيل^(٢): نزلت بعد العلق، والصحيح أن المدثر والمزمل نزلتا قبلها، وهي أول سورة افتتحت بالحروف المقطعة، ومقصدها العام بيان منزلة النبي ﷺ وخلقها، ورد تناول المشركين عليه.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٨٤)، زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٣٩٨).

افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١)، ونون: حرفٌ من حروف الهجاء، وهو الراجح في معناه، خلافاً لما قيل في معناه من أقوال ليس عليها دليل، بل هو حرف من حروف الهجاء مثله مثل: يس، وق، وح، الم، وغيرها، مما فُتح به عدد من سور القرآن، وفائدة ذكر هذه الحروف بداية السور هي الإشارة إلى الإعجاز القرآني، وكأنه يقول للعرب: هذا القرآن مكوّن من الأحرف الهجائية التي تتكوّن منها لغتكم، وبها تتكلمون، فأتوا بسورةٍ مثله.

والقلم: الواو واو القسم، والقلم مُقَسَّمٌ به، والقلمُ له معنيان (١): القلم المعهود الذي يُكتب به الكتاب، أو المقصود به قلم القدرة الذي كُتبت به مقاديرُ الخلق يوم خلق الله السموات والأرض، والراجح أن المقصود به القلم المعروف؛ للسياق، ولأن الله يُخاطب العرب بما يعرفون، وقريش لم تكن تعرف قلم القدرة، ولذلك يُخاطبهم بالقلم المعروف، وفيه إشارة إلى أهمية القلم، وهو أداة الكتابة والعلم خاصة أننا قلنا إن هذه السورة من أوائل ما نزل، وقد سبق أن أشاد الله بالقلم في أول آيات أنزلت على محمد ﷺ، وفيها: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، وما يسطرون، أي: والذي يكتبونه، فأقسم الله تعالى بالقلم، وأقسم بالكتابة ما يكتبه الكاتبون، فيشمل جميع الأقلام، ويشمل ما يكتبه الكاتبون بجميع اللغات في كل زمان ومكان، وجواب القسم في قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢)، أي: لست يا محمد -بفضل الله عليك ونعمته- بمجنون، بل أنت من أكمل الناس عقلاً، وفي هذا ردٌّ على افتراء الكفار واتهامهم له بالجنون، كما سيأتي في آخر

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣١٩).



السورة، وليس هذا الاتهام مخصوص بمحمد ﷺ من قومه، بل هو عادة الكفار السابقين مع أنبيائهم ورسلمهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، جملة اعتراضية، جاءت لإشعار رسول الله ﷺ، بنعمة الله وفضله وكرمه عليه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وإن لك عندنا ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة، وما قاسيته من أنواع الشدائد، غير مقطوع، وليس فيه من ولا أذى عليك، وهو الجنة، فالجنة أجرها غير مقطوع، بل دائم، فهي موصوفة بالخلود المطلق، وليس فيها أذية لمن دخلها، أما أمر الدنيا وعطاء الدنيا فمهما كان عظمتها فهو إلى انقطاع، ولا يسلم من الأذى أو يموت صاحبه ويتركه!!

ثم ترقى مع رسوله ﷺ في تلطيف الجو وتسليته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، بل أنت على خلق عظيم، وهو أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه، **والخلق في اللغة**^(١): العادة، والواو عاطفة، وأكدت بـ"إن"، ولام التوكيد، ووصف بالعظيم، فدل على كمال خلقه وعظمتها، وعبر بـ(على)؛ ليدل على التمكن، فالخلق العظيم مُتَمَكِّنٌ منك، وليس اصطناعاً، فبعض الناس قد يقع منه الكرم أحياناً، أو يُحاول أن يكون حليماً في بعض الأوقات، ولكن سرعان ما ينفصل عنه هذا الخلق لظرف ما، **أما محمد ﷺ**، فالأخلاق الحسنة كلها متمكنة من شخصيته لا تُفارقه مطلقاً، وكان كفار مكة يعرفون ذلك منه قبل

(١) ينظر: مفردات الراغب، ص: ١٥٧.



أن يُبعث فيهم، وكان يُعرف بالصادق الأمين، ولا أحد أفضل منه خُلُقًا في شباب قريش كلها، وإنما وصفوه بالجنون بعد أن بُعث فيهم، مما يدل على افتراءهم وكذبهم عليه، **وقد جاء عنه** صلى الله عليه وآله وسلم **قوله:** "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ^(١)، فمهمته تتميم مكارم وصالح الأخلاق برسالته، وبالقدوة به صلى الله عليه وآله وسلم ولا يمكن لشخص ناقص الأخلاق أن يتممها، مما يدل على كمال خلقه، **وقد سُئِلَتْ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا**، عن خلقه؟ فقالت للسائل: "أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: كان خُلُقُه القرآن" ^(٢)، أي: كان يمثل القرآن اعتقاداً وسلوكاً.

ثم قال الله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَيُسَبِّحْهُ﴾ ^(٣)، الفاء، فاء التفریع، وهي التي تأتي بعد كلام إجمالي، ثم يبدأ بتفريعه، فقد أخبرنا أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليس بمجنون، وإنه لعلی خلق عظیم، ثم بدأ يُفرع ثمار هذا الخبر فقال لهم: سنتظر بعينك وترى، يا محمد! وينظرون، أو يكون البصر هنا بمعنى العلم، فستعلم ويعلمون، وقد يكون ذلك يوم القيامة ^(٣)، وقد يكون في الدنيا من خلال التصرفات اليومية لك ولهم، وسيظهر للجميع من هو المجنون ومن هو العاقل، وكأنه رد الحكم إليهم، والمعنى: نفترض أن دعواكم صحيحة، فتعالوا ننظر تصرفات من يُوصف بالجنون أنتم أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، **ثم قال:** ﴿بِآيَاتِكُمُ الْمُفْتُونُ﴾ ^(٤)، أي:

(١) مسند أحمد: (٥١٢/١٤)، برقم: (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد: (٢٧٣)، والبيهقي في الشعب: برقم (٧٩٧٨)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد: (١٤٨/٤١)، برقم: (٢٤٦٠١)، وأبو يعلى، برقم: (٤٨٦٢)، والبيهقي في الشعب، برقم: (١٤٢٦).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣١٩/٥).



المجنون^(١)، وقيل: الضال^(٢)، وهو المضطرب في أفعاله وأقواله وتصرفاته، والمعنى متقارب، فالمضطرب، أفعاله أحياناً تُشابه فعل المجنون، وحال المجنون كلها اضطراب، فمحمد ﷺ جاء ليدلكم على الخير، ويدعوكم إلى التوحيد، وينهاكم عن عبادة الأصنام التي تصنعونها من التمر فإذا جعتم أكلتموها، فهذا الفعل منكم يشبه أفعال المجنون المضطرب في عقله، فتفكروا بحالكم!!.

ثم قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٧﴾، فأخبر الله تعالى أنه هو أعلم بمن انحرف عن الحق والهدى، وهو أعلم بمن وفق للحق والصواب، وهذا التعقيب أبطل فيه ما قد يحكمون به لأنفسهم تبعاً لأهوائهم، وفيه إشارة وتلميح إلى أن محمداً هو المهتدي، وهؤلاء الذين اتهموه بالجنون هم الذين ضلوا الطريق ولم يهتدوا إليها.

ثم أمر الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٨﴾ وهي فاء التفريع الثانية، فنهاه عن طاعة الكفار المكذبين به، ثم بين وجهها فقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿٩﴾، أي: لا تطعهم في طلباتهم فيما يتعلق بقضايا الإيمان والتوحيد، فقد عرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وطلبوا منه أن يسكت عن آلهتهم ويسكتوا عنه، ونحوها، فهم يتمنون ويحبون لو أنك تلين معهم في هذه القضايا، وهو مأخوذ من الإدهان^(٣)، وهو: المقاربة في الكلام

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٣٢).

(٢) ينظر: المسير في علم التفسير (٤/ ٣٢٠).

(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٩٣).



والتلّين في القول، والمعنى: ودوا يا محمد أنك تتلطف معهم لما تكلمهم عن آلهتهم، فلو فعلت ذلك ولو قليلاً؛ لتجاوبوا معك كثيراً، ولكن طبيعة هذا الدين، لا يوجد فيه أنصاف حلول في موضوع الإيمان والتوحيد، كطبيعة المذاهب الباطلة، لأنهم يشعرون أنهم على باطل وضلال، ويريدون أن تقبل منهم شيئاً من باطلهم لكي تجعل ذلك الباطل مقبولاً، وهذا أمر ممنوع ومنهي عنه محمد ﷺ ومن أتى بعده من أمته.

ثم أمره بأمر آخر، فقال: ﴿وَلَا تُطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۖ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ ۖ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۖ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۖ ﴿١٣﴾﴾، فذكر له عدة صفات سيئة، وليس المطلوب أن تجمع الشرور في شخص، بل واحدة منها تكفي لترك طاعته.

فالصفة الأولى: حَلَّاف، صيغة مبالغة، أي: كثير الحلف، فالذي يُكثر من اليمين دليل على أنه غير واثق بنفسه، وأنه صاحب مكر وخداع، وهذه من صفات المنافقين، كما قال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

والصفة الثانية: مهين، أي: حقير، وحقارته أتت من أفعاله الباطلة، وأفكاره السيئة، ولكثرة أفعاله الحقيرة التصقت به وصار هو الموصوف بالحقارة.

والصفة الثالثة: همّاز، أي كثير الهمز، وهو الإيذاء للآخرين بالفعل، ثم أُطلق على الكلام القبيح عن الآخرين في غيبتهم.

والصفة الرابعة: أنه يمشي بين الناس بالنميمة، لم يقل: نَمَّام مثل ما قال في التي قبلها، بل قال: مَشَاء، لأجل يُصور لك حركته وهو ينتقل من واحد إلى



واحد، من منطقة إلى منطقة، من حي إلى حي، وأن شغله الشاغل هو الحركة بين الأشخاص، ونقل الخبر منهم وإليهم على سبيل الإفساد بينهم، **والنميمة هي:** نقل الكلام لغرض الإفساد بين الأحاب، ولو نقلت كلامًا لغرض الصلح فلا يُسمى نميمة.

ثم ذكر الصفة الخامسة، وهي: أنه مناع للخير، وهي صيغة مبالغة من المنع، **أي:** كثير المنع للخير، والخير هنا المقصود به هنا المال، **أي:** بخيل، لا ينفق في الخير ولا يتصدق، وهذا الوصف لازم لكثير من الأغنياء اليوم، ينفقون ملايين الريالات في الحفلات الصاخبة، وفي هدايا الفنانين واللاعبين، وفي الأماكن التي فيها رياء وسمعة.

ثم ذكر الصفة السادسة، وهي أنه معتدٍ، من الاعتداء وهو تجاوز الحد في الشر، فيأخذ حقوق الناس، ويؤذيهم.

والصفة السابعة، وهي: أنه أثيم، **أي:** كثير الإثم، حيث يفعل الآثام وهي الذنوب والمعاصي، ويقع في الفجور.

ثم ذكر الصفة الثامنة، وهي: عُتْلٍ، وهو الغليظ في خلقه وأخلاقه، وتعاملاته، وقيل^(١): هو الأكل المنوع.

وقوله: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أي: وهو مع ذلك، وأتى بها للترتيب، **أي:** وهو مع ما سبق من صفات موصوف بصفة ذاتية مُلتصقة به، **وهي الصفة التاسعة:** أنه زنيم،

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٨٤).



أي: غير معروف النسب، وهو: الدعي، الملتصق بالقوم^(١)، وليس منهم، ومنه الزنمة، وهي: شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلّقاً^(٢)، ووُصف هنا بزنيماً؛ لأنه ليس ابن أبيه، بل هو مُلتحق به، **والمقصود بصاحب هذه الصفات هو:** الوليد بن المغيرة، ألحقه المغيرة به وعمره ثمانية عشر سنة^(٣)، **وقيل:** المقصود به الأخنس بن شريق^(٤)، وكان من ثقيف، والتحق بقريش على أنه حليفٌ لهم، **ثم قال:** ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾^(٥)، **فيها قراءتان**^(٦)، **الأولى:** بهمزين للاستفهام، **أي:** ألئن كان ذا مال وبنين؛ تطيعه، على وجه التوبيخ لمن أطاعه، **والثانية:** بدون استفهام، على وجه الخبر، **أي:** منعه ماله وبنوه وخطرسته من الإيمان، وهذا الوصف يرجح أنه الوليد بن المغيرة، كما جاء وصفه في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(٧) **وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا**^(٨) **وَبَنِينَ شُهُودًا**^(٩) [المدثر: ١١-١٣]، ولكن لفظ: ﴿كُلُّ﴾^(١٠)، الوارد في بداية النهي يدل على العموم، والمطلوب من كل مسلم يسمع القرآن اليوم أن يتنبه من الاقتراب والطاعة لمن هذه صفاتهم، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة العناية باختيار الأصحاب والأصدقاء، فإن الصاحب صاحب.

وقوله: ﴿إِذَا تَلَّٰى عَلَيْهِ ءِإِنَّا قَالِکَ ٱسْطِیْرُ ٱلْأَوَّلِیْنَ﴾^(١١)، وحين سمع آيات القرآن وصفها بأنها أساطير الأولين، **أي:** ليست حياً، وإنما هي قصص

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: (١٧٣/٣).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (١٩٤٥/٥).

(٣) ينظر: تفسير البغوي: (١٩٣/٨).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٥٣٥/٢٣).

(٥) ينظر: المصدر السابق: (٥٤٠/٢٣).



قديمة تكلم بها السابقون، وأخذها محمد منهم، فتوَعَّده الله بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾^(١)، **والوسم**، هو الكي بالميمس، **وهي**: الحديد التي يُكوى بها^(٢)، واختار الوسم بأنفه لأن الأنف مكان الكبر والغطرسة، ووصف أنفه بالخرطوم؛ **وأصل الخرطوم**: أنف الفيل ثم استعير للإنسان استخفافاً به وتقيحاً له^(٣)، فأراد أن يذله وأن يحتقره، وهل هذا الوسم في الدنيا أم في الآخرة؟ **قولان**^(٤)، **قيل**: في الدنيا، وقد حصل له أن ضُرب أنفه بالسيف في بدر، **وقيل**: في الآخرة، **أي**: سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يُعرف بها، ولا مانع أن يكون القولان مرادين معاً، فقد أذله الله في الدنيا وسيُعطيه جزاءه الموعود له في الآخرة، وانتهت قصة الكبرياء والأنفة بعبارة بسيطة وهي الوسم على الأنف، فأسقطت كل أنفة وكل كبرياء.

(١) ينظر: تاج العروس: (٤٥ / ٣٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٤٠٠ / ٢).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٣٧ / ١٨)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (١٩٥ / ٨).



تفسير المقطع الثاني من سورة القلم

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَتْهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَمَّظُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يُؤْتِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾،

الخطاب موجه لمشركي قريش، الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكذبوا برسالته، إنا اختبرناهم كما اختبرنا أصحاب الجنة، وقد اختبر قريشاً بالجوع ونقص الثمرات والقحط، حيث دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كذبوه ثم جاؤوا إليه وطلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يرفع ما نزل بهم، وقالوا له: نناشدك الله والرحم، فدعا لعلهم أن يؤمنوا، ولكنهم استمروا على تكذيبهم، فذكرهم هنا بأن هذا الابتلاء يحصل من الله تعالى للمكذب العاصي المخالف؛ لعله أن يتوب ويرجع، وقد ابتلي أصحاب الجنة بمعصيته، فإن الصحيح أن أصحاب

الجنة لم يكونوا كفارًا بل كانوا مسلمين^(١)، بدليل أدعيتهم التي وردت في النص القرآني، وما حصل منهم، هو أنهم قدموا حقوقهم الشخصية على حق المساكين، بسبب البخل، فمنعوا حق المسكين الذي كان يُعطيه لهم والدهم، والمقصود بأصحاب الجنة: مالكو بُستانٍ من البساتين، ويُسمى جنة لما فيه من أشجار كثيفة تُغطي ما بداخله، وهم قومٌ من أهل اليمن، **قيل**^(٢): إن القرية التي كانت فيها هذه الجنة هي ضروان على بعد فرسخين أو ميلين من صنعاء، وكان والدهم رجلاً صالحًا، يُعطي المساكين من ثمار ذلك البستان، قيل: كان من العنب، فلما مات اجتمع أولاده وقالوا: كثر العيال ووالدنا كان لا يعرف كيف يتصرف في المال، واتفقوا على منع المساكين من حقهم الذي كانوا قد اعتادوا عليه من والدهم، فاتفقوا إذا جاء وقت الحصاد، أن يذهبوا لحصاده سرًّا، وأن يُبكروا إليه مصبحين قبل أن يستيقظ الناس، فعزموا على ذلك، وحلفوا على تنفيذ ما اتفقوا عليه صباحًا، قبل أن يظهر عليهم المساكين.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَنْوَنَ﴾^(١٨)، **أي**: لما أقسموا وعزموا لم يقولوا: إن شاء الله، فلما لم يستنوا لم يتحقق مرادهم، والواجب على الإنسان أن يستثني في كل فعل مُستقبلي، **كما قال الله: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾**^(٢٣) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**^(٢٤) [الكهف: ٢٣-٢٤]، لأن الأمر بيد الله تعالى.

وقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾^(١٩)، **أي**: فأرسل الله عليها نازلاً في

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٩٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٢٣).



الليل، فأحرقتها، وأصحابها نيام، وإنما أحرقها وهم نائمون دون أن يروها تحترق، حتى يُصبحوا فيرون أثرها؛ جزاء كيدهم الخفي.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٢٠)، **أي:** أصبحت هذه الحديقة التي كانت خضراء مليئة بالثمار والأشجار، كالليل الأسود، من شدة ظلامه، **وقيل** (١): كَالرَّمَادِ الْأَسْوَدِ، والمعنيان قريبان ولا تعارض بينهما.

وقوله: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ (٢٣)، **أي:** استيقظوا مسرعين بهمة ونشاط، وهم يتحدثون بينهم سرًا، ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (٢٤)، أن هنا المفتوحة، وهي التفسيرية التي تأتي بعد الإجمال، فتُفسر ما سبق، **أي:** احذروا السماح لأي مسكين بدخول الجنة؛ فياخذ من ثمارها، وعبروا بالنكرة في لفظ مسكين ليعم جميع المساكين، وأكدوا بنون التوكيد؛ ليدل على أن الأمر جدٌ، وليس بالهزل، ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾ (٢٥)، وأصبحوا مبكرين لتنفيذ ما اتفقوا عليه.

وحرد لها معنيان (٢): بمعنى: غضبانين وحنقين، مما كان يفعله أبوهم، ولا يريدون أن يفعلوا مثله، وقادرين، **أي:** عندهم القدرة والعزيمة على منع المساكين، **أو بمعنى:** القصد والسرعة، **أي:** مسرعين ومُضَيِّقِينَ على أنفسهم بتنفيذ ما اتفقوا عليه دون تراجع، **كقوله:** ﴿أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، **أي:** لن نُضَيِّقَ عليه، وفي كلا المعنيين بيان لحال نفسياتهم السيئة، فهم غضبانون وحنقون على ذلك الفعل، ويملكون القدرة على المنع، وقاموا مسرعين

(١) ينظر: تفسير البغوي: (١٣٨/٥).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (١٣٨/٥)، وتفسير الرازي: (٦٠٩/٣٠).



للتضييق على المساكين، فلا يصل المساكين إلى الحديقة إلا وقد انتهوا من صرمها وأخذ ما فيها من ثمار.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ (٢٦)، فلما شاهدوا الحديقة، وقد احترقت ولم تعد على ما كانوا يرونها من قبل، فقالوا: لقد ضللنا الطريق إليها، واتهموا أنفسهم بأنهم ساروا في طريق غير الطريق التي توصلهم إلى حديقته المعروفة فأوصلتهم هذه الطريق إلى مكان آخر، فهذه ليست حديقتنا، أو يكون بمعنى: لقد اتخذنا قرارًا باطلاً، وهو اعتراف منهم بخطأ حرمانهم للمساكين، والمعنى الأولى أرجح؛ لأن الآية التي بعده تدل عليه، **وهي قوله:** ﴿نَحْنُ مُخْرُؤُونَ﴾ (٢٧)، أي: لسنا ضالين الطريق، وإنما حرمانا الله ثمار هذه الحديقة بنيتنا القبيحة، وعزمننا السيء على منع المساكين والمحتاجين الذين اعتاد والدنا أن يُعطيهم من ثمارها.

وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨)، قال أحد هؤلاء الأولاد، وكان أعدلهم رأياً، وكان قد نصحهم عند قسمهم بمنع حق المساكين، أن يستثنوا، ويقولوا: إن شاء الله (١)، وعُبر عن الاستثناء بالتسبيح (٢)؛ لأن (إن شاء الله)، عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء، وإعادة المشيئة إليه، نوع من تقديسه وتنزيهه سبحانه من أن يفعل القبيح، أو أنه نصحهم أن لا يفعلوا ذلك، وأن يتوبوا إلى الله من هذا العزم القبيح، ولكن كيف نصحهم أن يتوبوا إلى الله ولا يفعلوا ذلك، ثم ذهب معهم؟، احتمال أنه كان صاحب شخصية ضعيفة، واحتمال أنه طلب منهم أن

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣ / ٥٥١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠ / ٦٠٩).



يقولوا: إن شاء الله، وهذا أرجح، فلما ذكّرهم بذلك، ورأوا أن الحديقة قد احترقت، امثلوا أمره، و﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾، فلماذا لم تُسبحوا في البداية؟!، وهذا يدل على أن النفس البشرية تغفل عن ذكر الله بسبب إغواء الشيطان ووسوسته لها حتى تقع في الفخ، ثم تنتبه بعد أن تُذنب، فهنا سبّحوا الله ونزهوه واعترفوا بأنهم وقعوا في الظلم، وهو حرمان المساكين من حقهم، فالزكاة حقٌّ للفقير والمسكين في مال الغني، وخاصة أن زكاة الزرع والثمار تعطى عند الحصاد، **كما قال:** ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ولا يُشترط فيها أن يحول عليها الحول، ويكفي فيها وجود النصاب، وهو خمسة أوسق، والوسق ستون صاعاً، **أي:** حوالي ستمائة وخمسين كيلو جرام، ويُخرج منها العُشر إن كانت تُسقى بماء المطر، ونصف العشر إن كانت تُسقى بالسواقي والمضخات ونحوها، وهذه الزكاة الواجبة، أما الصدقة المطلقة فلا يشترط فيها أي شرط، بل هي أمر مُرغَّب فيه ومُستحب، وتدخل بسببه البركة إلى المال إذا أعطي منه الفقير والمسكين.

ثم قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، **يقال:** الفشل لا أب له، فكل الناس يتهربون منه، ولا أحد يعترف أنه سبب للفشل، أما النجاح فكل الناس يدّعيه، وهنا أقبل كل واحد منهم على الآخر، **ويقول له:** أنت سبب البلاء، ولا أحد منهم اعترف بمشاركته بالمشكلة، وهذا يدل على طبيعة النفس، وصعوبة اعترافها بخطئها، وتهربها من المسؤولية، إلا من رحم الله، وهكذا سيفعل أهل النار لما يدخلون النار، يتلاومون فيما بينهم ويلعن بعضهم بعضاً، **كما قال**



عنهم: ﴿كَلَّمَآ دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْبَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، بخلاف أهل الجنة، فحالهم يختلف، **كما قال عنهم:** ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لُونُ﴾ [الطور: ٢٥]، **أي:** يتذكرون اجتماعهم على مشاريعهم في الدنيا ونجاحهم فيها، فأهل النار يُمثلون مشروع الفشل، وأهل الجنة يُمثلون مشروع النجاح!!.

وقوله: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ٣١، **أي:** رجعوا بعد التلاوم يدعون على أنفسهم جميعاً بالويل ويعترفون أنهم وقعوا في الطغيان، وهو تجاوز الحد بالباطل، فقد منعوا المساكين حقهم.

ثم بدأوا يفيقون ويرجعون إلى الله، **فقالوا:** ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ٣٢، نتوب ونرجع إلى الله ونستغفر ونندم ونعترف بذنبا وتكون توبتنا صادقة، إنا إليه مُفْتَقِرُونَ وتائبون، ونطلب منه العفو وأن يبدلنا خيراً منها، فهل أبدلهم الله خيراً منها؟! **الجواب:** إن عادة الله تعالى مع التائبين المنيبين الصادقين أن يُعْوَضَهُمْ، ولا مانع أن يكون الله عوضهم، ولكن في مكان آخر وبحديقة أخرى، فإن محل نزول العذاب الإلهي يبقى كما هو عليه، ولا يُستصلح، ليكون عظة وعبرة لمن بعدهم.

ثم ختم الله هذه القصة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾، المقصود بالعذاب هنا شيئان: عذاب قريش الذي سبق ذكره، وهو القحط وقلة الأمطار والجوع، والعذاب الذي أصاب الجنة وأحرقها، وهذا هو العذاب الدنيوي الذي يُصِيبُ المَكْذِبَ أو العاصي أو المذنب، وهو نوع من التخويف، والتنبيه له، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، أي الدنيا، قبل



العذاب الأكبر الذي هو عذاب الآخرة، لعلهم يتوبون بسبب مثل هذا الفعل، وأصحاب الجنة هؤلاء قد تابوا كما مر، فكان العذاب وسيلة لتوبتهم، وهذا يعني: أن الله تعالى، أحياناً قد يُعذب الإنسان ليُنْبهه للتوبة، والابتلاءات أحياناً قد تكون للتنبيه، لكي يرجع الإنسان ويتوب إلى ربه، ولكن من قسى قلبه وابتعد عن العظة والعبرة، وربما كان العذاب سبباً في استمرار قسوة القلوب، **كما قال:**

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فهؤلاء الكفار لا تنفعهم مثل هذه التنبيهات؛ لأن الله لم يُرد بهم خيراً بالتوبة.

وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٣، **أي:** إن عذاب الآخرة للكفار الذين لم يتوبوا ولم يؤمنوا، أعظم وأشد من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون مقداره لتابوا، وليس المقصود به أصحاب الجنة لأنهم قد اكتفوا بعذاب الدنيا وتابوا إلى الله تعالى.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١ - الدعوة بضرب الأمثال، فقد ضرب الله لكفار قريش مثلاً سابقاً لعلهم أن يتعظوا به، ويتوبوا كما تاب أصحاب الجنة.
- ٢ - أن منع حق الفقير سببٌ لهلاك النعمة، وأن الصدقة والزكاة والإعطاء للمحتاجين سببٌ لنمو المال وبركته وازدياده عند صاحبه.
- ٣ - أن العقوبات الدنيوية قد تكون تنبيهاً للعودة إلى الله، وتكون أيضاً تطهيراً للمذنب فلا يُعاقب في الآخرة.



تفسير المقطع الثالث من سورة القلم

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَرَمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٣٩) إِنْ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يَكْشِفُ عَن سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَعَلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢).

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤)، جاءت هذه الآية بعد قصة أصحاب الجنة، فلما ذكر خبر جنة الدنيا، وهي بساتينها، ناسب أن يذكر جنة الآخرة، وأنها خاصة بالمتقين، **وفي قوله:** ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، بيان لشرف المكان، وشرف المكانة، وأضيفت الجنة إلى النعيم لملازمة النعيم للجنة، فالجنة كلها نعيم، لا نقمة فيها، ولا شيء مما يُعكر مزاج أهلها!!.

ثم قال سبحانه: ﴿فَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالْإِصْرِ الَّذِي فِيهِ يَصْرِفُ﴾ (٣٥)، هذا جوابٌ لسؤال كان يتردد على ألسنة بعض كفار قريش، **خلاصته:** أنهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن لا نؤمن بالبعث والنشور، وإذا افترضنا أن هناك بعثاً ونشوراً وجنةً وناراً، فنحن أولى بالجنة منكم؛ لأن من تنعم في الدنيا تصحبه النعمة إلى الآخرة، فرد الله عليهم بهذه الآية، فلا يصلح في عدل الله، ولا في شرعه جل وعلا، أن يُساوي بين المجرم والمسلم، وبين المؤمن والكافر في جزائهم في الآخرة، وحصول الكافر على النعم في الدنيا؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، ولأن الدنيا حقيرة ولا قيمة لها عند الله، **كما في الحديث:** "لو كانت الدنيا تُساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء" (١).

وقوله: ﴿مَالِكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦)، سؤال استنكاري، لأنه حكم باطل، فالإنسان العاقل صاحب الفطرة السوية يرى أن مساواة المسلم بالمجرم، والبريء بالمتهم، لو حصل من شخص، فليس من العدل، فكيف يحصل من الله سبحانه؟!

ثم ذكر هنا أربعة أسئلة متعلقة بهذا الأمر، وهي عبارة عن أدلة وقرائن تُثبت بها الدعاوى، السؤال الأول، في قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) **إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَخْبَرُونَ** (٣٨)، من أين أتيتم بفكرة أنكم ستكونون أفضل حالاً في الآخرة من هؤلاء المؤمنين الضعفاء، هل معكم كتاب مذكور فيه هذا الكلام، وأنتم تتلونه على

(١) سنن ابن ماجه: (٢٣٠ / ٥)، برقم: (٤١١٠)، وسنن الترمذي: (١٣٨ / ٤)، برقم: (٢٣٢٠)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، برقم: (٥٢٩٢).



الآخرين؟، وتختارون من هذا الكتاب ما يُعجبكم، وتأخذون ما يناسبكم منه، والجواب: لا يوجد لهم كتاب، وما يتخيرونه من أقوال وأفكار، فليس لها مستند، وإنما هو ادّعاء وأمانى.

السؤال الثاني، في قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، هل سبق أن أقسمنا لكم أيماناً مؤكدة لا تنحل إلى يوم القيامة أن نمنحكم ما أديتم به؟!، والجواب: ليس لكم ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩)، وهو سؤال استنكار على ادعائهم السابق، **أي:** كيف تحكمون هذا الحكم الجائر ولا يوجد عندكم حجة ولا بينة.

والسؤال الثالث، في قوله: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٤٠)، أسألهم يا محمد من منهم هو الضامن والكفيل عليهم في إثبات هذا الحق لهم؟! والجواب: لا يوجد من يضمن ذلك لهم.

والسؤال الرابع، في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَأتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١)، هل لهم شركاء مع الله من الأصنام والأنداد، وعدوهم بذلك؟!، فليأتوا بهم ليحققوا لهم ما أدعوه، **والجواب: لا يوجد من شركائهم من يقدر على ذلك، فسقط في أيديهم، لعدم وجود حجة ولا برهان لديهم، بعد أن نفى عنهم: الكتاب المسطور، والتعهد لهم من الله، والزعيم الكافل، والشريك القادر، فبطلت دعوهم أنهم كالمسلمين ومساوون لهم في النعيم والمكانة في الآخرة.**

ثم قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: فليأتوا



بالشركاء يوم القيامة، يوم يُكشف عن ساق، وهو كناية عن شدة الأمر وهول المكان والمطلع^(١)، وإذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه^(٢)، والواقع أنه إذا حصل للإنسان ما يُريبه أو يُخيفه فإنه يرفع الثوب عن ساقه ويُشمر ينطلق!، وفي يوم القيامة من شدة الأهوال والفرع يحصل ذلك الحال لكل الناس، **وقد جاء في الحديث** إضافة الساق إلى الله، ويكون ذلك يوم القيامة حينما يأتي للفصل بين عباده، وفيه: **"فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً"**، فهذا الحديث يُشير إلى تفسير هذه الآية، فالساق من صفات الله سبحانه وتعالى، تثبت كسائر صفاته بدون تشبيه ولا تمثيل، **بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١]، ولا تعارض بين التفسيرين؛ فأهوال يوم القيامة شديدة، وكشف الرب عن ساقه ورد فيه الحديث الصحيح، فيُجمع بين القولين، والذين لا يستطيعون السجود هم المنافقون كما جاء ببيانهم في الحديث، وهم الذين كانوا يسجدون رياءً وسمعة، فيتحول ظهره طبقاً واحداً، يعني: صلباً كالعمود، لا يقدر أن يركع، أو يسجد.

وقوله: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ أي: ذليلة حقيرة من شدة الفرع والخوف، **﴿تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾، أي:** ترافقهم وتغشاهم الذلة والندامة لأنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا، **قال: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي:** في الدنيا **﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾** [٤٣] كانوا

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٥٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٢٨).



سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

يُدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَيُعَرِّضُونَ، يُدْعُونَ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يُصَلُّونَ، فذكرهم بأنهم طالما أعرضتم عن السجود في الدنيا وهي دار العمل لم تُوفِّقوا للسجود بين يدي الله في دار الجزاء.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (٤٣) ﴿أَي: قادرون وهم مُعَافُونَ يستطيعون أن يسجدوا ويركعوا لله، ولكنهم لم يفعلوا ذلك إعراضاً وكفراً.

ثم قال الله لرسوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ لا تشغل نفسك بهم وإنما اتركهم لي، وهذا تهديد ووعيد من الله سبحانه وتعالى، ومن يقف أمام الله؟! لا أحد يقف أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي اتركني يا محمد، ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا﴾ القرآن، هذا الحديث المقصود به القرآن المنزل عليك.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنسوقهم إلى العذاب درجةً درجةً، كيف الاستدراج؟ قالوا: الاستدراج إذا كنت تعصي الله وتكفر به ومع ذلك يُنعم الله عليك بالمال والصحة والجاه فهذا هو الاستدراج، يريدك أن تغتر أكثر، وتعرض أكثر حتى يأخذك بغتة.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من حيث لا يشعرون أن هذا مكراً من الله بهم، فإن الإنسان لما يُمنح النعمة يظن أنه مُفضل من الله، وهو نوع من الاستدراج فقط.

ثم قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أُمْلِي بمعنى الإمهال، أُمْلِي لهم بمعنى: أمهلهم،



أعطاهم زمناً كافياً يتمتعون بالمال ويكفرون بالله سبحانه وتعالى، وهذا الإملاء إنما هو للتمادي، من أجل أن يزدادوا في عتوهم وفي غيهم وفي نفورهم عن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿٤٥﴾ **الكيد هنا المقصود به** التدبير، تدبير الله للخلق، كيف يجعل هذا الكافر يأكل ويتمتع وهو يظن أنه مُقرب من الله وأن الله أنعم عليه، وهو في الحقيقة تدبير من الله له، وكيد من الله به، ومكر من الله به، وإمهال من الله به حتى إذا أخذه لم يُفلته.

﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿٤٥﴾ **أي:** قوي، أُملي لهم في التكبذب، وأعطاهم فرصة للكفر، مع ما أعطاهم الله من النعم حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مُقتدر.

ثم قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ لماذا يُكذبونك؟ لماذا لم يقبلوا دعوتك؟ لماذا لم يؤمنوا بك؟ ما السبب؟ هل السبب أنك طلبتهم مالا على الدعوة؟ هل قلت لهم: سأقرأ عليكم القرآن وادفعوا لي مُقابل القراءة؟ هل قلت لهم: أدعوكم إلى الله وإذا أسلمتم دفعتم ضريبة، أو دفعتم مقابل أني علّمتكم؟ هل تفعل هذا معهم؟ طبعاً لا، الرسل كلهم عليهم السلام جاءوا بالدعوة المجانية للخلق ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]. دعوة مجانية، علّم الناس دين الله مجاناً، حتى لا يكون لأحد حُجة أنه أنا ما عندي مال ولذلك ما تعلّمت دين الله، أنا لو طلبت مني مالا ولم أؤمن كانت لي حجة عند الله، أنا فقير، كيف أؤمن وأنا فقير لأن الذي يريد أن يُعلّم الإيمان يحتاج



مالاً وأنا ما عندي؟ لا، لذلك كانت دعوة الأنبياء والرسل ودعوة أتباع الأنبياء من العلماء والصالحين والدعاة إلى الله حتى يوم القيامة هؤلاء يدعون إلى الله يُعلمون الناس الخير مجاناً، إنما يُريدون الأجر من الله وحده لا شريك له، ولذا قال: هل منعكم من الدخول في الإيمان أن تُطلب منكم أجر فأنتم غارمون والغرامة على رقابكم ثقيلة؟ ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ من الغرامة ثقيلة عليهم ما تطلبهم، المبالغ التي تطلبهم وهم فقراء أو غارمون، وهم غارمون يثقل عليهم ذلك، طبعاً النبي ﷺ لم يطلب منهم شيئاً.

الأمر الثاني: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ما سبب عدم إيمانهم؟ هل لأنهم اطلعوا على الغيب وعرفوا أنهم على حق وأن محمداً على ضلال ولذلك لا يؤمنوا به؟ **الجواب:** لا، ليس لديهم غيب ولا يعلمون شيئاً من الغيب، فالغيب محفوظ لا يطلع عليه أحد، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أم عندهم علم الغيب ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ما يحلو لهم من الحجج التي يُحاجونك بها ولا يقبلون دعوتك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾؟ طبعاً لا ليس عندهم علم من الغيب ولا هم يكتبون شيئاً من تلك الحجج وإنما تُرعات ادعوها وشبه تلقفوها عن قبلهم.

ثم انتقل الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال له ربه: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على هؤلاء المكذبين، اصبر على تكذيبهم، اصبر صبراً جميلاً، اصبر حتى يؤمنوا أو اصبر على تكذيبهم حتى يهلكهم الله، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ حكم ربك يعني: قضاء ربك، لشرع ربك، لأمر ربك، فإن حكم الله سبحانه وتعالى هو قضاؤه وهو شرعه، يعني: قم بالدعوة واصبر عليها فقد كلفك ربك بهذا الأمر، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾



رَبِّكَ ﴿ في البلاغ والإنذار والتبشير والدعوة ﴾ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴿ ولا تتشبه أو تفعل مثلما فعل صاحب الحوت، من هو صاحب الحوت؟ يونس بن متى عليه السلام، وقد أرسله الله إلى قرية نينوى في العراق، قرية يونس بن متى اسمها نينوى وما زالت مدينة ومحافظة إلى الآن مشهورة في العراق، أرسله إلى أهلها، فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله ويُعلمهم، فلما لم يستجيبوا له غضب عليهم وخرج من عندهم دون أن يأذن الله له بالهجرة، الأنبياء لا أحد منهم يترك مكانه إلا بعد أن يأذن الله له، حتى محمد ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة وكانوا يُطالبونه أن يُهاجر فيقول: "لم يُؤذن لي بعد"، يونس خرج بدون إذن، قال: ﴿ فَظَنَّا أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. أي: لن نُضَيِّقَ عليه، يعني: خرج بدون أن يستأذنا من أجل أنه كان يظن أننا لن نُضَيِّقَ عليه، يعني: لو خرج لا شيء عليه، لا خرج عليه في الخروج، فلما خرج مُغاضباً من قومه وصل إلى الساحل وأراد أن يركب فوجد زورقاً فركب عليه مع الراكبين، فجاءت الريح فثقل الزورق، الذي يُسمونه القارب أو السفينة الصغيرة، فقالوا: القارب قد امتلأ أو قد ثقل وزن الراكبين عليه، لا بد نتخلص من بعضهم، فعملوا قرعة ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: ١٤١]. ما معنى فساهم؟ أي دخل في القرعة، عملوا قرعة لمن يأخذونه فطلعت القرعة عليه، وكان معروفاً عند أصحاب القارب فما قبلوا بهذه القرعة، قالوا: هذا رجلٌ صالح كيف نلقيه في البحر؟!، فعملوا القرعة مرة ثانية فطلعت عليه، وعملوا القرعة مرة ثالثة فطلعت عليه، فكان لا بد أن يُقَذَّفَ فأخذوه فرموه في البحر فالتقمه الحوت، كان الحوت فاتحاً لفمه فوصل إلى فمه فإذا به في بطن الحوت، التقم من؟ يونس، وسبحان



الله لعل فمه كان مفتوحًا؛ وإلا كان قضمه بأسنانه، لكن سبحان الله مباشرة زرق إلى بطنه، فلما وصل ظلمة البحر، ظلمة الليل، ظلمة بطن الحوت نادى في الظلمات، أحسّ بذنبه، وأحس بمخالفته **فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧]. **قال الله هنا: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾** ما معنى مكظوم؟ محبوسة أنفاسه داخل الحوت، مكتوم، فلما نادى قال: لا إله إلا أنت، كما في آية أخرى فتداركته النعمة.

قال: **﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾** أي: فتداركته نعمة الله تعالى بسبب توبته، فأمر الله الحوت أن يلقيه في الساحل، فقاءه الحوت، فخرج كما هو لم يفهم، إلا أنه لما جلس في بطن الحوت وفيها (إنزيم)، وهذا الإنزيم به يهضم الطعام، فأثّر في جلده فخرج وهو مَسْلُوخٌ بسبب (الإنزيم)، فقُذِفَ به في هذا العراء في هذا الساحل، **قال: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾** طبعًا هنا **﴿لَوْلَا﴾** حرف امتناع لوجود **﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ﴾** لولا أن الله أنعم عليه فأنقذه **﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾** ولذلك نُبِذَ بالعراء وهو ممدوح وليس بمذموم، لأن التوبة جَبَّتْ ما قبلها فأنعم الله عليه بهذه التوبة فخرج وهو غير مذموم عند الله بل ممدوح بسبب توبته، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين هي القرع وأنبت له هذه الشجرة فكان يأكل منها حتى عاد له جلده، واليوم من الطب الحديث يستخدمون الخيار والقرع وغيرها من أنواع هذه الأشجار في تزيين الجلود، علاج إنزيمات للجلد، وهذا سبق علمي.

ثم قال سبحانه: ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾ اجتباها بالتوبة، وأعاد له النبوة مرة أخرى،



واصطفاه وقال له بعد أن شفي: ارجع إلى قومك فهم ينتظرونك، فرجع مرة ثانية إلى قريته فدعاهم فأسلموا، ﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٠) أي: من الأنبياء الذين عادت لهم النبوة.

ثم ختم الله هذه السورة بوصف حال الكفار مع محمد ﷺ، قال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ من شدة حسدهم لك وغيظهم عليك إذا سمعوا القرآن منك يكادون أن يقتلوك بحسدهم، وأن يصيبوك بأعينهم، العين الحاسدة الحاقدة، وهذه الآية تدل على إثبات العين وأن الإنسان قد يمكن أن يُصاب بالعين، **وقد جاءت أحاديث كثيرة تُثبت ذلك عن النبي ﷺ، منها قوله ﷺ: "العين حق، وإذا استُغسلتم فاغسلوا" فإن الاغتسال علاج للمصاب بالعين، وهناك أحاديث كثيرة، هنا قال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾** من الزَّلَق، ما هو الزَّلَق؟ عدم استقرار الرجل في مكانها، تنزلق، تذهب، يكاد الذين كفروا يُبعدونك عن الحق، ويُسقطونك إن كنت واقفاً من شدة غيظهم وحسدهم لك، ويكادون أن يفتنوك عن دينك سواء، قلنا الزَّلَق الحسي الذي هو الإصابة بالعين حتى يسقط، أو يكون الزَّلَق المعنوي الذي هو محاولة إبعاده عن الحق وفتنته.

وقال: ﴿بِأَبْصَرِهِمْ﴾ إذ محل العين الحاسدة هو البصر إذا نظرت يخرج منها شرر، العين الحاسدة إذا نظرت للإنسان ربما يخرج منها شرر ويعلم بذلك العائن نفسه، ولذلك العائن يعرف أنه أصاب لأنه يشعر بشيء من عينه يخرج كالشرر، ولذلك مطلوب من المسلم أن يتحصن بالمعوذتين من كل حاسد، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) [الناس: ١]،



ويتحصن بالأذكار صباحًا ومساءً، وبالأذكار الشرعية مثل قراءة آية الكرسي والمعوذتين، **وأيضًا بالأذكار الأخرى التي ذكرها النبي ﷺ مثل قوله: "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة"، يعني: التي تصيب الإنسان، ﴿وَأِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: حين يسمعون القرآن يغيظون ويحقدون، ويحسدونك على ما أعطاك الله من هذه النعمة فيُصيبونك بأعينهم وبأبصارهم.**

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ هذا كما يقولون: حجة الذي ما استطاع أن يصل إلى هدفه، أنتم تكادون تحسدونه على ما أعطاه الله من نعمة وهي نعمة القرآن، فلما لم تستطيعوا حسده رجعتم قلتهم: هذا مجنون، وهل المجنون يتلوا كلامًا مُعْجِزًا يجعلكم تحسدونه عليه؟!، فلما لم يستطيعوا معارضة القرآن رجعوا يذمون صاحبه، من هو صاحبه؟ محمد ﷺ الذي يتلوه، فرجعوا يقولون: محمد هذا مجنون، **وقد سبق معنا في بداية السورة أنه قال: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾** وهنا ختم بحديثهم عن الجنون، فنفي الجنون قبل أن يقولوه، نفى عنه **﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾** الجنون في بداية السورة قبل أن يقولوه المشركون في آخر السورة.

ثم وصف القرآن بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ القرآن هذا ليس كلام مجنون، كلام المجانين معروف، هذا ذكر أنزله الله ليكون ذكرًا للعالمين، للجن والإنس، للعرب وللعجم، فهو ذكرٌ للعالمين يُذكرون به، ويُذكرون به، إما يُذكرون به يعني: **﴿وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾** [الزخرف: ٤٤]، أي فيه عزة، فيه كرامة، أو ذكرٌ من التذكير، أنه يُذكر العالمين بالله وبالיום الآخر، ويدعوهم إلى صراطه المستقيم.



فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن المؤمن لا يستوي مع المجرم، هذه قاعدة لا يمكن أن تتخلف، وهذا عدل الله أن لا يُساوي بين السيء والحسن، ولا المجرم والمسلم.

٢- أن هذه الآيات تدل على أهمية الصبر وأنه خُلق محمود حتى مع المخالفين لك والمؤذنين لك، كلما صبرت كلما جاءت ثمار الصبر في صالحك.

٣- أن التوبة تجب ما قبلها، وأن من أراد أن يجتبيه ربه ويُقر به إليه فعليه بالتوبة، فإن الله يُحب التوابين ويُحب المتطهرين.

٤- أن الله سبحانه وتعالى يُنوع الآيات والدلائل والبراهين والحجج للمشركين ولل كفار، لعل حجة من هذه الحجج تُقنعهم فيؤمنوا، ولكن من خُتم على قلبه وطُبع لا يستفيد من هذه الحجج ولا يتأثر بها، وإلا لو فتح قلبه وعقله وسمعه وبصره لتأثر بهذه الحجج والبراهين ودلته على الله وعلى توحيده والإيمان به سبحانه وتعالى.



تفسير سورة الحاقة

تفسير المقطع الأول من سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا ٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَلَاخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ١٢﴾ .

شخصية السورة:

سورة الحاقة؛ سورة مكية بالإجماع^(١)، وُسِّمَتْ بهذا الاسم لذكر هذا اللفظ فيها، وهو لم يرد في غيرها من السور، والمقصود العام لهذه السورة، إثبات البعث والنشور والجزاء فيه للمؤمنين وللكافرين.

قال الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾، الحاقة: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، من حق

(١) ينظر: زاد المسير: (٤/٣٢٨)، وتفسير الثعالبي: (٥/٤٧٣).

الشيء، إذا ثبت ووجب^(١).

وقوله: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢)، استفهام، معناه التفخيم لشأنها^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾^(٢)، أي: لا علم لك بكنهها ومدى عظمها^(٣)، وهو أسلوب أبلغ من الذي قبله، يُراد منه التعظيم والتهويل، فإذا قال لك شخص: كذا، وما أدراك ما كذا، إنما يُريد أن يُشعرك بأهمية وعظمة ما يريد أن يخبرك به، وكل ما جاء في القرآن بلفظ: (ما أدراك)، فقد جاء بيانه في القرآن بعده^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾^(٤)، ما العلاقة بين هذا الأمر، وما سبق السؤال عنه؟! **الجواب:** أن الحاقة هي القارعة، وهي من أسماء يوم القيامة، وكانت ثمود وعاد لا يؤمنون بها، فقد كانوا مكذبين بالبعث والنشور، وذكر هنا نماذج للأقوام الذين كذبوا بها، وقوم ثمود؛ هم الذين أرسل الله إليهم نبيّه صالح، وقوم عاد؛ هم الذين أرسل الله إليهم نبيّه هود، ويطلق عليهما: عاد الأولى، وعاد الآخرة، ويطلق عليهم العرب البائدة، والخطاب موجه لقريش، وهؤلاء من عرب الجزيرة القريين من مناطقهم.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا بِالْطَّاغِيَةِ﴾^(٥)، وهذا يُسميه علماء البلاغة

(١) ينظر: تفسير المراغي (٢٩/ ٥٠).

(٢) ينظر: زاد المسير: (٣٢٨/ ٤).

(٣) ينظر: تفسير النسفي: (٥٢٨/ ٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ١١٤).



باللف والنشر المرتب، فقوم ثمود أهلكهم الله بالطاغية، وهي الصيحة الشديدة^(١)، **أي**: طغت شدتها حتى تجاوزت ما يستحقون، ومكانهم يُسمى الآن بمدينة العُلا، وهي منطقة بين تبوك والمدينة المنورة، ويطلق عليها مدائن صالح، وما زالت آثارهم وبيوتهم الضخمة باقية إلى الآن.

وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾^(٢)، وقوم عاد مكانهم في صحراء الربع الخالي، **وتسمى**: الأحقاف بين حضرموت وعمان والسعودية، وقد أهلكهم الله بريح شديدة الصوت، فمن شدة صوتها يخرج منها صوت يُسمى: الصرصرة، وهي الباردة شديدة العتو، **قيل**: عتت عن خزنها^(٣)، **وقيل**: عتت على أهلها الذين هم قوم عاد فأهلكتهم^(٤)، **وقد جاء عن ابن عباس أنه قال**: "ما ينزل قطرة من المطر إلا بمكيال من ملكها، ولا ذرة من الريح إلا من خازنها، إلا في يوم قوم نوح فجاء المطر بدون كيل، وطغى على خازنه، وفي قوم عاد طغت الريح وعتت عن خازنها، فلا يدري كم المقدار"^(٥)، وقد كانت شديدة، بحيث تقتلع الأشجار والأحجار وتأخذ الناس ثم ترميهم فسقطوا مغشياً عليهم.

وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، **أي**: سلطها على قوم عاد سبع ليال، وثمانية أيام متتابعات لم تنقطع، ودائمة ليس فيها فتور^(٦)، وهذا

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣ / ٥٧١)، وتفسير ابن كثير: (٨ / ٢٠٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨ / ٢٠٨).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٨ / ٢٥٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣ / ٥٧٢).

(٥) ينظر: تفسير الخازن: (٤ / ٣٣٣).



يعني أنها بدأت صباحاً وانتهت بنهاية النهار، وقد قيل: إنها ابتدأت في يوم الأربعاء^(١)، فتكون انتهت بغروب شمس يوم الخميس، وتعتبر أطول عاصفة مرت على الأرض، فقد استمرت الريح تعصف بهم مائة وثمانين ساعة متتابة، وأنتم تسمعون هذه الأيام عن بعض العواصف العالمية التي تبقى عشر ساعات أو خمسة عشر ساعة، وتحدث خراباً ودماراً كبيراً، كما حصل قريباً في بعض الدول الغربية.

وقوله: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٧)، الخطاب لمحمد ﷺ، ويصلح لكل من رأى المشهد، والمعنى: لو قدر لك أيها السامع، أن ترى حالهم خلال هذه العاصفة؛ لرأيتهم مثل أعجاز النخل المقطوعة المتناثرة في الأرض التي لا حياة فيها.

ثم قال الله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٨)، فهل ترى لهم من أثر؟، الجواب: لا أثر لهم؛ لأن الله أخذ رجالهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم وحيواناتهم فلم يبق منهم أي أثر، ولا توالد منهم أحد، بل انتهوا جميعاً، وجاءت باقية هنا مؤنثة؛ لأنها وصفٌ لاسم محذوف، **والتقدير:** فهل ترى لهم نفساً أو روحاً باقية بعد هذا العذاب الشديد؟!.

ثم قال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾^(٩)، وهو فرعون مصر الذي أرسل إليه موسى عليه السلام.

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٤٢/١٠)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٧٧/٧).



﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ **فيها قراءتان**^(١)، بالفتح والسكون، وهي قراءة الجمهور، والمقصود بهم الأقسام الذين كانوا قَبْلَ فرعون، مثل قوم نوح وغيرهم من الأقسام المكذبة، وبالكسر والفتح، (ومن قَبْلَهُ)، وهي قراءة الكسائي وغيره، **أي:** ومن في جهته، وهم من كانوا حوله من أركان ملكه، والمؤتفكات؛ وهي قُرَى قوم لوط، وكانت ثلاث قرى، وُسِّمِتْ بالمؤتفكات؛ من الائتفاك وهو القلب^(٢)، فإن جبريل رفعها بجناحه ثم قلب عاليها باطنها، وأرسل عليهم بعد ذلك حجارة من طين، والخاطئة؛ المقصود به الذنب العظيم الذي وقعوا فيه وهو الشرك بالله وتكذيب الرسل وما فعلوه من القبائح.

وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾^(١٠)، والعصيان؛ هو التكذيب والإعراض، وأفرد رسول والمقصود به الجنس، **أي:** أن كل أمة عصت رسول ربها الذي أرسله إليهم، ففرعون عصى موسى، وقوم لوط عصوا لوطاً، وهكذا، فأهلكهم بأخذة شديدة زائدة على ما يتم به إهلاكهم، بسبب تكذيبهم، وكفرهم بالله تعالى.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(١١)، والمقصود بذلك قوم نوح، فإنهم لما كذبوا رسولهم نوح صلى الله عليه وسلم، دعا الله عليهم، واستجاب الله له ذلك، كما قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾^(١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ^(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ^(١٢) [القمر: ١٠-١٢] **وطغى الماء، أي:**

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٧٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦٢).



تجاوز حدوده وأغرق كل شيء، فغرق أهل الأرض إلا من حملة الله بالجارية وهي السفينة، **والمعنى:** حملنا آباءكم وأنتم في أصلاهم في السفينة التي تجري في الماء، وهم نوح ومن آمن معه، ومن كل زوجين اثنين لبقاء نسل الحيوانات وسائر المخلوقات، وُسِّمَت بالجارية؛ لأنها تجري على سطح الماء بواسطة الرياح، وقد صنعها نوحٌ بأمر ربه تعالى.

وقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، وفي عودة الضمير **قولان للمفسرين^(١): الأول:** جعل الله سفينة نوح تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم، ويمكن أن يقال: أنه يعود إلى جنس السفينة، فأول سفينة صنعها نوح، ثم تعلم الناس صناعة السفن الموجودة اليوم منها، فكانت آية تُذكرنا بسفينة نوح، لأن كل إنسان يرى السفن فتُذكره بسفينة نوح.

والقول الثاني: جعلنا قصة السفينة المذكورة في القرآن، ونجاة من كان فيها، موعظة لمن قرأها واطَّلَعَ عليها في كتاب الله، يُستدل بها على فضل الله ورحمته بمن آمن به وبرسله، وبطشه وعذابه لمن كفر به وكذب رسله، وهو الراجح، لسياق بعدها وهو **وقوله:** ﴿وَتَعْيَا أُذُنٌ وَّعِيَةٌ﴾^(١٢)، **أي:** تعي التذكرة، والعِظة، الأذن الواعية التي تسمع وتفهم وتحفظ وتستوعب، وفي هذا إشارة إلى أن التذكرة والموعظة، لا يستفيد منها إلا من وعَّاها، أما من سمعها بلا وعي، فإنه لا يستفيد منها

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/٢٦٣).



فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- إثبات يوم القيامة، وسُمي يوم القيامة بالحاقة لأنه تقع حقاً، أو لأن فيه يتم إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ولأهمية يوم القيامة كُثرت أسماءه.
- ٢- أن من عصى رسولاً واحداً أو كذب برسولٍ واحد فقد كذب بسائر الرسل.
- ٣- أن الذي يستفيد من الموعظة هو من يحفظها ويعيها ويسمعها سماع مُتدبّر، أما من لا يفعل ذلك فتدخل من أذن وتخرج من الأخرى.



تفسير المقطع الثاني من سورة الحاقة

﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ ۝١٦ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۚ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيبَ ۚ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ۚ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُوْتِ كِتَابِي ۚ ۝٢٥ وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِي ۚ ۝٢٦ يَلَيِّنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۚ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۚ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۚ ۝٢٩ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ۚ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۚ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۚ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ ۝٣٣ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۚ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسَلِينِ ۚ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۚ ۝٣٧﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ﴾، **الفاء هنا** فاء التفریع لما سبق، **أي:** إذا ثبت وقوع الحاقة وجاء يوم القيامة فسيكون في ذلك اليوم عدة أمور، ومن هذه الأمور النفخ في الصور، **والمقصود به هنا** النفخة الثانية، فإن النفخة الأولى تكون للصعق، فيموت كل من على الأرض، وأما النفخة الثانية، فهي نفخة الإحياء، والصور هو البوق وهو يُشبه القرن، وقد التقمه إسرافيل

الملك الموكل به، وينتظر من ربه تعالى أن يأذن له بالنفخ نفخة واحدة لا ثاني لها، لأن هذه هي النفخة الأخيرة، وفي ذلك إشارة إلى عظمة قدرة الله سبحانه، وأنه يحيى الخلق كلهم من لدن آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى آخرهم، بنفخة واحدة، فتقوم الأجساد وتحشر وتقف بين يدي الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ۖ﴾ (١٤)، أي: أن الملائكة تحمل الأرض، فتخرجها عن مدارها، فإذا بها تجري فتصطدم بغيرها، ومعروف أن الأجرام السماوية تدور في فلك دائري، وتظل تدور فيه حتى يوم القيامة، فإذا أراد الله خراب الكون خرج كل جرم عن مداره وحصل التصادم والخراب لهذه الأجرام الكونية، وكذلك تحمل الجبال ويحصل لها الدك، وهو الدق بشدة، فإذا دُقت بشدة أصبحت هباءً مُنْبَثًا، فتدك الأرض والجبال وتُسْتَبَدَل هذه الأرض الممزقة والمفرقة بأرض جديدة هي أرض المحشر، **كما قال الله تعالى:** ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وتكون أرض المحشر، **كما جاء في الحديث:** "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد" ^(١)، أي: كقرص خبز البر الدائري المتساوي، كما قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

ثم قال سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ (١٥)، أي: في ذلك الوقت الذي تُحمل فيه الأرض والجبال وتلك؛ تقع القيامة، **ووقوع الشيء أي:** تحققه وحصوله.

ثم قال: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ﴾ (١٦)، وفي يوم القيامة تنشق السماء

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢١٥٠)، برقم: (٢٧٩٠).



بعد أن خلقها الله قوية سليمة من الفطور والخلل، أصبحت ضعيفة لا قوة فيها، ولا صلابة فيها، ولا إتقان في خلقها، بل تحولت من الإتقان والصلابة إلى الضعف وصارت واهية، والواهي من الشيء الذي لا يمسك شيئاً، أو لا يحمل شيئاً.

وقوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾، والملك جنس، والمقصود كل الملائكة يكونون مُتَشَرِّين في أطراف السموات وحوافها.

وقوله: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾، وفي يوم القيامة، يحمل عرش الله تعالى - الذي فوق السبع السموات، وهو أعظم المخلوقات - ثمانية من الملائكة، قولان^(١): **قيل:** ثمانية أشخاص، **وقيل:** ثمانية صفوف من صفوف الملائكة، والأول أرجح، وهم من أعظم الملائكة خلقاً، **وفي الحديث:** "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام"^(٢)، مما يدل على عظمة خلقه هؤلاء الملائكة.

ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٣)، **أي:** في يوم القيامة، تعرضون على الله لا يخفى من أعمالكم وأحوالكم وأسراركم وأجسادكم أدنى شيء مخفي، فالكل يطلع الله عليه، والسر يُصبح يوم القيامة علانية، **وقد جاء في الحديث:** "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجداول ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله"^(٤).

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٥٨٣/٢٣).

(٢) سنن أبي داود: (٢٣٢/٤)، برقم: (٤٧٢٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح: ٦٦٥/٨.

(٣) مسند أحمد: (٤٨٦/٣٢)، برقم: (١٩٧١٥)، وسنن ابن ماجه: (١٤٣٠/٢)، برقم: (٤٢٧٧)،

وإسناده ضعيف.



ولما يُحْشَرُ الناس ويُجمعون بين يدي الله يوم القيامة، ينقسمون إلى صنفين:
الصنف الأول: يأخذ كتابه بيمينه، **قال الله:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُمٌ أَقْرَأُ وَإِكْنِيَّةٌ﴾ (١٩)، وهم المؤمنون، حيث تتطاير الصحف وتوزع الكتب التي مكتوب فيها الحسنات والسيئات، فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، وهذه علامة وبُشْرَى على الخير والسعادة، فإذا أخذ كتابه بيمينه، وفتحهُ ونظر فيه البشْرَى له بالجنة، حينئذٍ يفرح ويصيح بأعلى صوته، **ويقول لمن حوله:** ﴿هَؤُمٌ أَقْرَأُ وَإِكْنِيَّةٌ﴾ (١٩)، **أي:** خذوا واطَّلِعُوا على ما في هذا الكتاب من البشارة العظيمة، لأنه كان يُخفي أعماله الصالحة في الدنيا إخلاصاً لله، فسمح له أن يُظهرها يوم القيامة فرحاً وسروراً بها، **ثم يقول لمن حوله:** ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ (٢٠)، إني كنت في الدنيا موقناً أنني ملاقٍ جزائي وحسابي عند الله، ولذلك كنت مستعداً له في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

ثم وصف الله حاله، فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١)، فمن كان هذا حاله؛ فإنه سيكون في الآخرة في عيشة راضية، ووصف العيشة بالراضية مع أن الراضي هو صاحبها؛ لأن الرضى تحقق له ومنه، فهو في عيشة مرضية، رضى هو عنها، ورضي الله عنه، ثم وصف الله مكان هذه العيشة الراضية للمؤمن فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٢٢)، فهو في جنة، وهذه الجنة عالية، والمقصود به العلو المطلق: علو الشأن، وعلو المكان، **وقد جاء في الحديث:** "الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض" (١).

(١) مسند أحمد: (٣٦٩/٣٧)، برقم: (٢٢٦٩٥)، وسنن ابن ماجه: (١٤٤٨/٢)، برقم: (٤٣٣١)، وإسناده صحيح.



ثم وصف هذه الجنة العالية، فقال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾^(٢٣)، فالجنة رغم علوها وارتفاعها، إلا أن ثمارها قريبة التناول لأهل الجنة، يقتطفون منها دون تعبٍ ولا مشقة، ويقول الله لهم وهم في الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(٢٤)، يا أهل الجنة! كلوا من ثمار الجنة، واشربوا من أنهارها دون كدرٍ ولا تنغيص، وكل ذلك لكم بسبب ما قدمتم من أعمالٍ صالحة في أيام الدنيا التي مضت وانتهت، والباء هنا سببية لا ثمنية، والفرق بين الباء السببية والثمنية: أن الباء السببية: تعني أن أعمالك الصالحة كانت سبباً لدخولك الجنة، لا أنها ثمناً لدخول الجنة، **كما في الحديث:** "سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يُدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني منه برحمة"^(١)، فالجنة رحمة الله، والأعمال سببٌ لنيل هذه الرحمة!

وفي ذلك إشارة إلى ضرورة استغلال أيام العمر في الدنيا بالأعمال الصالحة، فهذه الأيام ستكون بعد أن تموت من الخوالي أي التي انتهت وذهبت، ولكن عملك فيها يبقى ويحفظه الله تعالى.

ثم أردف يحدثنا عن الصنف الثاني، وهم الكافرون والمنافقون الذين يؤتون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِي﴾^(٢٥) **وَلَمْ أَذَرِ مَا حِسَابِي﴾**^(٢٦)، فهذا الصنف يأخذ كتابه بيده الشمال، وهي علامة على الشؤم والهلاك، فإذا أخذ كتابه بشماله وفتحه وجد فيه الموبقات والبشارة بالنار وبئس القرار، **نادى بأعلى صوته:** يا ليتني لم أعطَ هذا الكتاب،

(١) صحيح البخاري (٨/ ٩٨)، برقم: (٦٤٦٧)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٧١)، برقم: (٢٨١٨).



ويا ليتني لم أدرِ ما فيه من الفضائح والعقوبات، **أي:** لا يريد أن يعرف ماذا له وماذا عليه؛ لأنه مقتنع أنه على باطل وضلال، ويريد أن يتخلص من حسابه وذنوبه، ولكن الندم اليوم لا ينفع، ثم يقول: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۚ﴾، يا ليت الموتة التي متها كانت هي نهاية الحياة، ولا بعث بعدها!، حتى لا يحاسب ولا يُعاقب.

ثم بدأ يتذكر ماله الذي انشغل به عن طاعة الله وعبادته والإيمان به، **فقال:** ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۚ﴾ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾، وهذه هاء السكت؛ لأنها تُخرج من داخل النفس، وفيها شعور بالندامة والتحسر، وبعضهم أطلق عليها هاء التحسر!، فلم يجد لماله الذي أنفقه بالباطل في الدنيا أي ثمرة صالحة في الآخرة، ولم يجد للجاه والمنصب في الدنيا أي ثمرة صالحة في الآخرة، بل جاءته العقوبة بسببهما لأنه استغلها في معصية الله، وبعد ندمه وتحسره وتلفته يمينًا وشمالًا لعله أن يجد منقذًا لحاله؛ إذا به يسمع النداء من الجبار تعالى، أمرًا ملائكته: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾، فيتدره سبعون ألف ملك^(١)، فيقيّدونه ويحبسونه بالأغلال، فتربط الأيدي والأرجل إلى رقبته، فيصير مغلولًا، ثم يلقونه في الجحيم، فيحترق فيها، ثم يأمر الله الملائكة أن تسلكه بسلسلة من الحديد الذي قد أحمي عليه في نار جهنم، **ومعنى يسلك، قيل^(٢):** تدخل من دبره وتخرج من فمه، ويصير يُشوى ويُصلى بالنار من الداخل ومن الخارج، والعياذ بالله، **وقيل^(٣):** بل هو يُسلك

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢١٦/٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: تفسير الرازي: (٦٣١/٣٠).



فيها، **أي**: يدخل في حِلَقِها، وتكون الحِلَق على ظهره وجسده وسائر أعضائه، فتكون السلسلة من فوقه، وكلا المعنيين ممكن، وهو تصوير للعذاب الذي يصيبه، فهو مغلول، وهو محروق في النار، والسلسلة قد سلكت فيه، أو هو سلك فيها، **وهذه السلسلة قيل^(١)**: طولها سبعون ذراعاً، بذراع الله أعلم بقدر طولها، **وقيل^(٢)**: بل المقصود بالسبعين ذراعاً، الوصف بالطول المطلق للمبالغة، كما قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، **يريد**: مرات كثيرة، ولأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد.

ثم بين تعالى سبب عذاب هذا الكافر في جهنم، **فقال**: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝٣٤﴾، **أي**: كان في الدنيا كافراً بالله تعالى، وبرسوله وبسائر أركان الإيمان، وكان لا يحث غيره على إطعام الجائعين من المساكين ومن باب أولى أنه لا يُطعمهم من ماله ولا من طعامه، فقد جمع بين السوأتين، وفي هاتين الآيتين إشارة إلى أن المطلوب من العبد لكي يكون صالحاً في هذه الحياة، أن يُحسن علاقته مع الله بالإيمان والعبادات، وأن يُحسن علاقته مع الخلق بالإحسان إليهم، **فذكر هنا نموذجين لذلك**: الإيمان بالله لحسن العلاقة مع الله، والإحسان إلى المساكين لحسن العلاقة مع الخلق، وهما ديوانان: ديوان بينك وبين الله، وديوان بينك وبين الخلق، فديوان الله مبني على العفو في غير الشرك والكفر، وديوان الخلق مبني على المشاحة، فلا بد من أن تستسمح منهم قبل الموت!

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/٥٨٩).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/٦٠٥).



ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ۖ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (٣٧)، فلا يوجد له في الآخرة من يدافع عنه من الأقرباء ولا من الأصدقاء ولا من الشركاء الذين ادعاهم، وسيكون طعامه في النار الغسلين، وما هو الغسلين؟ **الغسلين:** هو الصيد وعصارة أبدان أهل النار، فهو حارٌّ وطعمه قبيح ورائحته نتنة، وهذا الطعام مخصص لأصحاب الخطايا العظيمة، وأولها الشرك والكفر وسائر الذنوب والمعاصي.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١ - عظمة قدرة الله سبحانه، وأنه يحيي الخلق كلهم من لدن آدم ﷺ إلى آخرهم، بنفخة واحدة.
- ٢ - أن السر يُصبح يوم القيامة علانية، والجميع يعرضون على الله.
- ٣ - ضرورة استغلال أيام العمر في الدنيا بالأعمال الصالحة، فهذه الأيام ستكون بعد أن تموت من الخوالي أي التي انتهت وذهبت.
- ٤ - أن المطلوب من العبد لكي يكون صالحًا في هذه الحياة، أن يُحسن علاقته مع الله بالإيمان والعبادات، وأن يُحسن علاقته مع الخلق بالإحسان إليهم.



تفسير المقطع الثالث من سورة الحاقة

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۝٤١ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝٤٢ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾، تكرر في القرآن هذا القسم، وقد تكلم العلماء في معنى (لا) على عدة أقوال^(١):

منها: أن (لا) مزيدة للتوكيد، **ومنها:** أن (لا) هنا تنفي ما قبلها ويكون ما بعدها هو القسم، **ومنها:** أن (لا) هنا جاءت على صيغة اعتاد عليها العرب وهو القسم الذي يتحقق وقوعه، وهو الذي لا حث فيه، فتضاف إليه (لا) على سبيل التوكيد له، وأتى هنا بصريح الفعل في القسم، وغالبًا ما يأتي في القرآن محذوفًا، ويكتفى بأداة القسم مثل ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]، **أي:** أقسم بالطور، وأقسم الله هنا بالذي ترونه بأعينكم وبالذي لا ترونه، فشمّل كل شيء، فدخل فيه ذات الله

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٢)، وتفسير الألوسي: (١٤/ ١٥١).

تعالى، فإنها مما لا تُرى بالعين في الدنيا، ويدخل فيه الملائكة والجن ويدخل فيه مشاهد اليوم الآخر، ونحوها.

وجواب القسم في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٠﴾، فأقسم على أن القرآن قول رسول كريم، يتلوه ويُبلِّغه للناس رسول كريم، هو محمد ﷺ، وقد وصف القرآن بأنه قول رسول في موضعين: هذا أحدها، والمقصود به محمد ﷺ، لأنه بلغه لغيره من أمته.

والثاني: في التكوير، في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٤٠﴾ [التكوير: ١٩]، والمقصود به جبريل ﷺ؛ لأنه بلغه إلى محمد ﷺ، وكريم لفظة عامة تدل على عدة خصال حميدة، اتصف بها نبينا محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾، فنفي عن القرآن أن يكون قول شاعر؛ لأنه ليس على نظم الشعر، وإنما له نظم خاص به، وصار نظمه معجزاً للبلغاء والفصحاء والشعراء، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، بل إن محمداً ﷺ، لم يُعلِّمه الله الشعر، كما قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، حفظاً لجناحه من أن يُتهم بأن ما يبلغه من القرآن مأخوذ من بعض الأشعار التي كان ينظمها، وقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾ أي: قليلاً المؤمنون منكم بالقرآن وأنه كتاب الله المنزل، والسبب يعود إلى الشك والريب الذي في قلوبهم حوله.

ثم قال: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾، ونفي أن يكون القرآن قول كاهن، والفرق بين الكاهن والشاعر، أن الشاعر يقول كلاماً موزوناً مُقَفًى ومنتظماً،



والكاهن يقول نشرًا مسجوعًا، والكاهن أعلى رتبة من الشاعر؛ لأنه يتصل بالشياطين، ويأخذ منهم بعض المعلومات الغيبية فيُضيفها إلى سجعِه فيفتن بها الناس، بخلاف الشاعر، ولذلك نفى أولاً أن يكون القرآن قول شاعر، ثم ترقى فنفي أن يكون قول كاهن، **وقد ورد** أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "خرجت أتعرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، فقلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾، إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع" ^(١)، وكانت هذه أول محاولة لعمر في معرفة الإسلام، وبداية دخول القناعة به إلى قلبه، ثم أسلم بعد ذلك بسبب حوادث أخرى وقعت له.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ ^(٤٢)، **أي:** قليل منكم من يتعظ، والتذكرة هنا بمعنى الموعدة، والاتعاظ.

ثم وصفه بقوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٤٣)، **أي:** أن القرآن ليس بقول محمد، ولا بقول شاعر، ولا بقول كاهن، بل هو كلامُ الله، الله تكلم به، ثم سمعه منه جبريل فبلغه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوصفه بأنه تنزيل، **أي:** كلامه الذي أنزله لخلقه، وأتى بلفظ رب؛ ليشعر الخلق بعنايته ورعايته لهم من خلال إنزاله لكتابه عليهم، ولفظ العالمين؛ ليشمل كل العوالم، فالقرآن رحمة للخلق أجمعين.

(١) مسند أحمد: (١/ ٢٦٢)، برقم: (١٠٧)، وأورده الهيثمي، في مجمع الزوائد: ٩/ ٦٢، **وقال:** رواه الطبراني، في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.



ثم قال: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦)، التقوُّل هو نسبة القول إلى شخصٍ لم يقله، ولو أن محمداً صلَّى الله عليه وآله، أضاف في القرآن بعض الآيات أو زاد فيه بعض الكلمات؛ لما ترك الله عقوبته على هذا الفعل، بل لانتقم الله منه بقوة، وإنما عبّر هنا باليمين لأن استخدام اليد اليمنى أقوى من اليسرى، كما قال: ﴿فَرَأَعَهُ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، أي: ضربهم بيده اليمنى، والمقصد من هذا اللفظ بيان قوة الأخذ والعقوبة، أي: لعاقبناه وانتقمنا منه بقوة وشدة، ثم لقطعنا منه الوتين وهو العرق الذي يصل بين الدماغ والقلب، وهو يُسمى نياط القلب^(١)، وهو الذي يُقطع حينما تُذبح الحيوانات، فينهمر منه الدم ويخرج منه بشدة، وهو أقرب وسيلة للهلاك، أي: لأنهيئا حياته وأهلكناه بسرعة.

ثم قال: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧)، ولو فعلنا فيه تلك العقوبة؛ فلا أحد منكم ولا من غيركم يحجزنا عنه ولا يمنعنا منه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَنَذِكُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨)، عاد مرة أخرى لوصف القرآن، بعد أن ذكر بعض الجمل الاعتراضية، فالقرآن تذكرة وموعظة ينتفع منها المتقون، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) [الذاريات: ٥٥]، فالمؤمن وصاحب الخشية من الله تعالى، هو الذي ينتفع من الذكرى، أما المعرض والكافر بالله فلا يستفيد من الذكرى، والمتقي هو من اجتنب المحرمات والمكروهات، وفعل الواجبات والمستحبات.

(١) ينظر: العين (٨/ ١٣٦).



ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ ٤٩، هذه جملة اعتراضية والمعنى: مع عظم هذا القرآن ومكانته، إلا أنه سيوجد منكم مكذبون به، وعند الله العلم المُسبق بذلك، فمهما كان وصف القرآن ومهما كان بلاغته؛ إلا من طُبِعَ على قلوبهم من المُخاطبين به وهم كفار مكة، لا يصدقون به، وسيستمررون في التكذيب والإعراض عنه!

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٥٠، رجع مرة أخرى لوصف القرآن، وأنه سيكون حسرة على من كفر به، في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فإن القرآن فضح عقائد وأخلاق وآلهة الكفار فهو يستمع القرآن ولم يستطع أن يؤمن في الدنيا بسبب إعراضه، فيكون القرآن حسرة عليه، أما في الآخرة فحين يُبعث الكافر ويرى من آمن بالقرآن وعمل به يدخلون الجنان ويكرّمون بين يدي المَنان سبحانه، فإنه يتحسر على نفسه ويدعو عليها بالشبور والهلاك.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ٥١، أي: إن القرآن الكريم هو حق اليقين، وهي أعلى مراتب العلم وذلك أن مراتب العلم ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين هو: الذي يصل إليك عن طريق السمع من ثقة، وعين اليقين هو: الذي يصل إليك عن طريق النظر، فتراه بعينك، وحق اليقين هو: الذي يصلك عن طريق الذوق والملازمة، فالقرآن يتذوق معناه المؤمنون، ويعرفون قيمته، فوصل عندهم العلم به إلى مرتبة حق اليقين.

ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ٥٢، أمر عبده ورسوله محمداً ﷺ أن ينزه ربه تعالى، عما لا يليق به، مما ادّعاه الكفار من الشركاء



والأنداد له، جلّ وعلا، والباء هنا للملاصقة، يعني: للبركة، **أي**: تبرّك باسم الله، حين تقول: سبحان الله، مثل ما تقول: بسم الله، والتسبيح من أفضل العبادات والطاعات القولية التي ينطق بها اللسان، ويدخل في معنى التسبيح، تسبيح القلب وهو تعظيم الله في النفس، وقد أمر الإنسان أن يُسبح ربه في موضعين في الصلاة: في الركوع يقول: سبحان ربي العظيم، وفي السجود يقول: سبحان ربي الأعلى، تنزيهاً لله تعالى وتقديساً لمكانته العالية العظيمة في نفوس الخلق.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- تنزيه القرآن الكريم عن أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، بل هو كلام الله تعالى.
- ٢- بيانُ خطر التقوّل على الله، ولو كان من نبي، مع أن النبي مُعظم ومُقدّر عند الله، لكن لو زاد كلمة لم يقلها الله في الوحي لعاقبه الله.
- ٣- أن القرآن حسرة على من لم يؤمن به ولم يعمل بما فيه.
- ٤- جواز قول: سبحان الله، على سبيل التنزيه، وعلى سبيل التعجب، عند سماع من يُنسب إلى الله، أو إلى دين الله، أو إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به.



تفسير سورة المعارج

تفسير المقطع الأول من سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ (١) ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢) ﴿مَنْ أَلَّهَ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣)
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا
(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
(٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)
وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتِي تُوْبِهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى
(١٥) نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرُ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) .

شخصية السورة:

سورة المعارج؛ سورة مكية بلا خلاف^(١)، نزلت قبل الهجرة، والمقصد العام لهذه السورة هو: بيان حال الخلق يوم القيامة.

وقد ابتدأت بقول الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ (١)، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هناك سائلاً ما سأل ودعا على نفسه بالعذاب، **وقد قيل**^(٢): إن هذا

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/٣٦٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٣٥)، وتفسير النسفي: (٣/٥٣٥).

السائل هو حارثة بن النضر، وهو الذي قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهو خلاف ما يجب على العاقل قوله، وهو إخبارٌ يُعمِ المشركين كلهم وإن كان تلفظ به أحدهم؛ لأنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ بين الحين والآخر عن موعد الساعة، وعن نزول العذاب بهم، وعن مجيء البعث، على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وهو متحقق وقوعه لا محالة، وليس بمتخلف، وهو العذاب والنكال الذي أعده الله للكفار يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢)، اللام للتعليل^(١)، أي: أن هذا العذاب والعقوبة كائن بهم بسبب كفرهم، ولا يرده عنهم راد، ولا يدفعه دافع.

وقوله: ﴿مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣)، فهو عذاب صادر عن الله الذي قدره وأوجده وأمر به، ووصف نفسه بذِي المعارج أي: صاحب العلو والدرجات، فالمعارج جمع معراج.

والمعراج: هو السلم والدرج الذي يُصعد به إلى أعلى، وفي هذه الآية دليلٌ على علو الله على خلقه، فإنه على العرش استوى سبحانه.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد الملائكة إليه، وفي معنى الروح، قولان: الأول^(٢): إنه جبريل، والمعنى: ويصعد جبريل إنه معهم إليه، فيكون من ذكر الخاص بعد العام لمزيد اختصاص.

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣٤٥ / ٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٦٠١ / ٢٣).



والثاني^(١): إن الروح هنا هي: جنس الأرواح، أي: أرواح عموم المخلوقات التي تصعد إلى الله، بعد وفاتها وقبض ملك الموت لها، والأول أرجح، وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، إذا علّقنا الظرف بالعُروج، فهذا العُروج إما أن يكون في الدنيا، فمعناه: أن مقدار الوقت الذي تُقطع فيه المسافة بين الأرض السابعة وبين عرش الرحمن، هو خمسون ألف سنة^(٢).

وإما أن يكون في يوم القيامة، فمعناه: أن مقدار ذلك اليوم الذي يُحاسب فيه الكفار ويقفون بين يدي الله في أرض المحشر للحساب خمسون ألف سنة من أيام الدنيا^(٣)، ولكن الله تعالى يجعله على المؤمن في مقدار صلاة فريضة، كما جاء في الحديث^(٤)، فهو خفيف على المؤمنين، وثقيل على الكافرين، والثاني أرجح.

ثم قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: فاصبر يا محمد، على أذية الكفار واستهزائهم وأسئلتهم الاستفزازية لك، وأمره أن يصبر عليهم صبراً جميلاً، وليس مجرد الصبر، فما هو الصبر الجميل؟! الصبر الجميل المقصود به: الصبر الذي لا شكوى فيه ولا تأفف، فيجمع بين رضى القلب وسكون

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٣٤٥ / ٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٦٤٠ / ٣٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٦٠٢ / ٢٣).

(٤) مسند أحمد: (٢٤٦ / ١٨)، برقم: (١١٧١٧)، وأورده الهيثمي، في مجمع الزوائد: ١ / ٣٣٧٠، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن، على ضعف في راويه، وحسن الحافظ إسناده في الفتحة: ٤٤٨ / ١١.



الجوارح، لأنه يمكن تتحمل أن من الناحية الجسمية الألم والتعب، ولكن لا تتحملة من الناحية النفسية فلا ترضى بما أصابك، بل تشكو أمرك إلى غير الله، فمثلاً: لو سبك شخص فصبرت عليه، ولم ترد عليه سيئته، ولكنك بعدما ذهبت عنه حدثت أصحابك، فقلت: هذا فعل لي كذا وكذا، ولكني والحمد لله صبرت عليه، فقولك هذا أخرج صبرك عن وصف الصبر الجميل، بل عليك إذا أردت أن يوصف صبرك بالجميل؛ أن لا تحدث بذلك أحداً، وأن تحتسب الأجر من الله، فهو يعلم بحالك سبحانه.

ثم قال الله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ﴾، الضمير يعود إلى العذاب، وهذا سبب استبعادهم له واستهزائهم به؛ فقد كانوا يرونه مستحيلاً، وأنه لن يقع، وأن وقوعه بعيد، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَنَرْنَاهُ قَرِيبًا ۖ﴾، أي: ليس وقوعه عندنا بمستحيل ولا بمُستبعد، بل هو كائن لا محالة، وإن وقوعه قريب جداً.

ثم بين متى يكون ذلك العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ﴾، حين تتمزق السماء وتضعف، وتكون كالمهل، وهو: ما أذيب من الرصاص والنحاس والفضة^(١)، أو تكون مثل دردي الزيت^(٢)، وهو: بقايا الزيت الذي يستقر في أسفل الوعاء بعد غليانه، وقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ﴾، أي: تصير الجبال الصلبة كالصوف المتمزق، ففي هذا اليوم تقوم القيامة، ويُحشر الناس بين يدي الله تعالى، ثم وصف حال الناس في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ۖ﴾،

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (٢٨٤ / ١٨).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٣٤٦ / ٥).



أي: من شدة الخوف والفرع؛ فكل واحد مشغول بنفسه، فلا يسأل الصديق عن حال صديقه، كما قال: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

ثم قال: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَفْسِهِ﴾ (١١) ﴿وَصَحْبَتُهُ وَأَخِيهِ﴾ (١٢) ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ﴾ (١٣) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (١٤)، **أي:** يُبصر كل إنسان صاحبه في المحشر^(١)، فيتمنى الكافر المجرم في ذلك اليوم، لو يفتدي من العذاب بأحب الناس إليه، من فداء الأسير، وهو: دفع مادي مقابل فكه من الأسر، فالمجرم أسير بين يدي الله بسبب كفره، وسيُلقى في جهنم، فيتمنى أن يأخذوا أبناءه إلى جهنم بدلاً عنه، وقد كان في الدنيا يُدافع عنهم، ويسهر ويتعب من أجلهم، ولا يريد أن يكون أحد أفضل منهم، فإذا لم يقبل منه الأبناء، أضاف إليهم زوجته وإخوانه، وذكر هنا الزوجة والأخ بالمفرد، والمقصود بذلك الجنس فيعم جميع زوجاته وجميع إخوانه، فإن لم يقبل منه ذلك أضاف إليهم الفصيلة، والفصيلة هي القبيلة والعشيرة التي ينتمي ويرجع إليها^(٢)، فإذا لم يقبل منه ذلك كله، **قال:** أعطيكُم من في الأرض جميعاً بدلاً عني، واخلوا سبيلي، وهذا كله على سبيل التمني والافتراض، وإلا فهو لا يملك التصرف بكل من ذكر في يوم القيامة، وفي ذلك إشارة إلى حال الكافر المجرم في ذلك الموقف العظيم، وأنه لو طُلب منه الفداء لافتدى بأولاده وبزوجته وإخوانه وبأبيه وأمه وعشيرته وقبيلته، بل لافتدى بأهل الأرض جميعاً، من أجل أن يحصل على

(١) ينظر: المصدر السابق: (٥/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٢٥).



النجاة من العذاب، وأنى له ذلك؟! فكان الرد من الله تعالى على هذا التمني الذي طلبه الكافر المجرم **بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَىٰ ۖ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾** (١٦)، كلاً، كلمة ردع وزجر، تردع وتزجر كلما سبق ذكره وهو قبول الفداء وحصول النجاة للمجرم، فلا فداء مقبول، ولا نجاة حاصلة لك أيها المجرم، بل مصيرك إلى لظى، والظى في الأصل هو: الشيء المُلتهب شديد الحرارة^(١)، فهو اسم لجهنم، فهي مشتعلة ملتهبة بأهلها، وهي نزاعة صيغة مبالغة من النزع وهو الأخذ بشدة وقوة، **والشوى قيل** (٢): إنها جلدة الرأس، تنتزعها النار وتأخذها بقوة، **وقيل** (٣): إنها اللحم والعصب الموجود في الإنسان تنزعه النار فلا يبقى إلا عظمه، **وقيل** (٤): إنها كل الأعضاء ما عدا الرأس، فتأخذ الأطراف والأرجل والجلد وسائر اللحم وسائر العظم، وهذا المعنى أشمل، وهو يتوافق مع الواقع أن النار إذا عُرضت على الجسد فإنها تبدأ بأكل الشيء اللين منه، وأول شيء يؤكل الجلد ثم اللحم ثم العصب ويبقى العظم آخر شيء، وعبر بالنزع؛ ليدوق العذاب، لأنها لو أحرقتة دفعة واحدة لانتهى، ولكنها تنتزعه عضواً عضواً، وعصباً عصباً، وقطعةً قطعةً، والعياذ بالله.

ثم قال: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (١٧)، **قيل** (٥): إن جهنم تصيح وتنادي، حيث

(١) ينظر: تاج العروس: (٤٥٩/٣٩).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٢٥/٨).

(٣) ينظر: تفسير البغوي: (٢٢٣/٨).

(٤) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢٠/٢٢).

(٥) ينظر: زاد المسير: (٣٣٧/٤).



يخلق الله للنار لساناً، فتتكلم ويسمعها الكافر، وهي تدعوه وتناديه، تقول: إِيَّيَّ، يا مشرك، إِيَّيَّ يا منافق، **وقيل** ^(١): إن خزنة جهنم من الملائكة، هم الذين يدعون وينادون الكفار، لا مانع من أن يكون هذا وذاك، بل دعاء النار لصاحبها أشد إعجازاً وأشد فزعاً وخوفاً للكفار، الذين أدبروا في الدنيا عن سماع الحق، وتولوا عن الإيمان بالله تعالى، **وقيل** ^(٢): تدعو من يهرب مدبراً على ظهره في المحشر، حينما يرى جهنم؛ فتدعوه وتأخذه، والقول الأول أرجح؛ للسياق بعده، ولأن الثاني وصف لحال الناس في المحشر، ويمكن أن يقع من المؤمن والكافر، بخلاف الأول، فهو خاص بالكفار، وهم الذين أعرضوا عن الحق وتولوا عن الطاعة والعبادة في الدنيا.

وقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ^(١٨)، هذا استكمال لوصف حال الكافر في الدنيا، **قيل** ^(٣): جمع المال، وكان حريصاً عليه، وحفظه ولم ينفقه، بل جعله داخل الوعاء، وربط وكاءه، **بمعنى**: أنه كان حريصاً على جمع المال، بخيلاً في إنفاقه، **وقيل** ^(٤): أنه جمع الخبائث كلها من الكفر والشرك والفساد وسائر المعاصي، واستمر يمارسها، والمعنى الثاني أشمل، فدل على أنه كان قبيحاً في عقيدته بربه، وقبيحاً في أخلاقه وتعامله مع الخلق.

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٣٤٨/٥).

(٢) ينظر: تفسير الماتريدي: (٢٠٤/١٠).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٨٩/١٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٦٦/٢٩).



فوائد وهدايات من الآيات :

- ١- أن الكفار كانوا يسألون رسول الله ﷺ بين الحين والآخر، عن موعد نزول العذاب بهم، على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وهو متحقق وقوعه بهم لا محالة.
- ٢- فضل وأهمية الصبر الجميل، وأن الأجر فيه عظيم، وهو الذي لا شكوى فيه.
- ٣- شدة الفزع والهلع والخوف في يوم القيامة حتى لا يعرف القريب قريبه ولا الصديق صديقه.
- ٤- بيان شدة عذاب النار وأن المجرم يتمنى أن يفتديها بكل ما يملك، بل يفتديها بأهل الأرض كلهم لو قدر له أن يملكهم.
- ٥- أن جهنم يوم القيامة تصيح وتنادي الكفار الذين أدبروا في الدنيا عن سماع الحق، وتولوا عن الإيمان بالله تعالى، وتردهم إليها.



تفسير المقطع الثاني من سورة المعارج

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ۝٣٢ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نَّبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا ويلعبوا حَتَّىٰ يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾، هذا إخبارٌ من الله تعالى عن الفطرة التي خلق عليها جنس الإنسان، فإنه مجبولٌ في طبعه وفي خلقة على عدم الصبر والتحمل،

والهلع هو: الذي يجزع ويفزع من الشر، ويحرص ويشح على المال، أو الضجور الذي لا يصبر على المصائب^(١)، **أي:** تتغير طباعه تبعاً لما نزل به من خير أو شر، وإن كان الهلع غالباً يُستخدم في شدة الجزع، **ولكن الآيات هنا ذكرت أن الهلع هو:** الذي لا يستطيع أن يثبت على حال، فإذا نزل به شرٌّ أو مُصيبة أو بلاء؛ أصيب بالجزع وعدم الصبر والتحمل، وإذا نزل به خير أُصيب بالحرص ومنع البذل والعطاء والإنفاق في وجوه الخير، **بمعنى:** إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصاب المال لم ينفق^(٢).

وقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾^(٢٣)، استثنى الله من صفات هذا الإنسان الهلع الجزوع المنوع، المُصلين، ويقصد بهم المؤمنون، فالصلاة لا تقبل إلا بعد الإيمان، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(٢٤)، **دائمون فيها معنيان^(٣):** من المداومة، وهو الاستمرار على أدائها، فالمحافظة على الصلاة علامة على الإيمان، فهم مستمرّون عليها، محافظون عليها في كل الفروض، وفي كل الأوقات، **وقيل:** إن دائم هنا بمعنى خاشع، ومنه الماء الدائم، أي الساكن، ولا تعارض بين المعنيين، فكلاهما مطلوب من المصلي.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾^(٢٤) **لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**^(٢٥)، وهذا الوصف الثاني لهم، فهم محافظون على الصلاة بخشوع، وغير مقصرين في أداء

(١) ينظر: القاموس المحيط: (ص: ٧٧٦).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٢٦).



الزكاة والصدقة، فقد جعلوا نصيباً معيناً في أموالهم لمن سألهم من المحتاجين، ولمن لم يسألهم منها من المتعطفين الذين حرّمهم حيّاؤهم من سؤال الناس مع حاجتهم، **كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾** [البقرة: ٢٧٣]، وفي الحديث: "ليس الفقير الذي يتكفف الناس ولكن هو الذي لا يسأل ولا ينتبهون له"؟ **أي:** حرّمه حيّاؤه أن يسأل، أو حرّم بسبب كثرة السائلين؛ فيُعطي الناس لمن يسأل، وينسون المستحق المتعفف الجالس في بيته ولا يخرج يطلب الناس.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢٦)، **وهذه الصفة الثالثة لهم،** أنهم يؤمنون بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، وتُسمى بيوم الدين؛ لأن الله يُحاسب فيه كل إنسان بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٧) **إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ** (٢٨)، وهذه الصفة الرابعة لهم، أنهم خائفون من عذاب الله تعالى، فالمُشفِق هو الخائف الحذر، حذر من مخالفة أمر الله، وخائف من عذابه وعقوبته في يوم القيامة، ومن كان هذا حاله؛ فإنه لن يقع فيما يُغضب الله ويسخطه.

ثم بيّن سبحانه أن عذاب الله لا يأمنه إلا الكافر الغافل، أما المؤمن العاقل فإنه لا يأمن مكر الله، فقد ينحرف قلبه في أي لحظة، فيظل على حذر وخوف من عذاب الله، فمن آمن عذاب الله ومكر الله وقع في المخالفة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٩)، **وهذه الصفة الخامسة لهم،** أنهم



يحفظون فروجهم، وحفظها يشمل أمرين: حفظها من الوقوع في المحرم من زنا ولواط؛ وهو نكاح الرجل للرجل، وسحاق؛ وهو الاستمتاع بين المرأة والمرأة، ونحوه، وحفظها من أن تكشف فيراها من لا يجوز له أن يراها.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٣٠)، واستثنى من الأمرين السابقين الأزواج والإماء والسرايا المملوكات لسيدهن، فللرجل أن يستمتع بزوجه ويرى عورتها، وللمرأة أن تستمتع بزوجه وترى عورته، فلا حرج فيما بينهما في هذا الباب، وكذلك يجوز للرجل أن يستمتع بملك يمينه من الإماء والسرايا، ويرى عورتهن، فقد رفع الله اللوم عمن فعل ذلك؛ لإباحته له، ولا يوجد الآن إماء ولا سرايا، فلم يبق في هذا العصر إلا إباحة استمتاع الزوجين بعضهما ببعض.

وقوله: ﴿فَمَنْ ابْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٣١)، أي: فمن أراد أن يستمتع بغير الزوجة أو الأمة فهو متعدٍ لحدود الله، ومنتَهك لما حرم الله، وفي هذه الآية دليل على تحريم ما يُسمى بالعادة السرية، أو الاستمناء باليد، لأنه خارج عن المأذون به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٣٢)، وهذه الصفة السادسة لهم، أنهم يُحافظون على ما ائتمنوا عليه، سواء كانت من الأمانات الحسية أو الأمانات المعنوية، ويدخل في ذلك أمانة التكليف كلها، **كما قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، كالصلاة، والصوم، وسائر الفرائض، وكالغسل من الجنابة، والوضوء للصلاة وسائر التكليف الشرعية، ويدخل فيها**



الأيمان والعهود، ونحوها، فيجب على العبد رعايتها والمحافظة عليها، وعدم التفريط بها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣٢)، وهذه الصفة السابعة لهم، أنهم يقومون بالشهادة على أكمل وجه، مكتملة الوصف لا زيادة فيها ولا نقصان، إذا طلبت منهم، ولا يكتمونها، لأن من دُعي إلى شهادة فلم يأت بها، فهو آثم، **كما قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾** [البقرة: ٢٨٣]، وذلك لأن بالشهادات تحفظ حقوق الناس، وتقام الحدود.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٤)، وهي الصفة الثامنة لهم، أنهم يحافظون على الصلاة، فابتدأ صفاتهم بالصلاة وختمها بالصلاة؛ ليشعرنا بقيمة وأهمية الصلاة عند الله، فالصلاة صلة بين العبد وربّه، وهي أهم صفة يتميز بها المؤمن، وهي عبادة مكررة في اليوم واليلة خمس مرات، ولا تسقط عن الإنسان إلا إذا ذهب عقله، **وقال في الصفة الأولى: ﴿دَائِمُونَ﴾،** وختم هنا بقوله: **﴿يُحَافِظُونَ﴾،** ما الفرق بين اللفظين؟ **الجواب: دائمون؛ بمعنى: الاستمرار بأدائها وعدم تركها أحياناً؛ ويحافظون، بمعنى: يؤدونها على أكمل وجه بشروطها وأركانها وواجباتها.**

وقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (٣٥)، أي: الذين سبق ذكر صفاتهم، واتصفوا بها مصيرهم إلى جنات، وعبر بـ(في) التي تدل على الظرفية، بمعنى أنهم سيستقرون فيها، ولن يخرجوا منها، وهم مكرمون فيها، وكرم الله بهم لا يُعد ولا يُوصف، ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.



ثم قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦)، **الفاء هنا** فاء التفريع، حيث رجع السياق يصف لنا حال الكفار، فسأل عن حالهم سؤال تعجب، والمقصود بهم المشركون الذين كانوا يتجمعون حول محمد صلى الله عليه وسلم، حينما يدعوههم إلى الإيمان، ما لهم قادمين إليك، مسرعين خائفين، **والمهطع:** الذي يقبل مسرعاً خائفاً ويمد عنقه ويصوب رأسه ^(١)، فوصف حالهم في المجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم مسرعون مرتبكون ومُحركون رقابهم، وهذا يدل على أنهم لم يأتوا للعلم والفائدة، لأن الذي يأتي للعلم والفائدة يأتي مؤدباً، متواضعاً.

وقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾ (٣٧)، **المقصود** أنهم كانوا محيطين برسول الله صلى الله عليه وسلم من كل الجهات، وإنما ذكر اليمين والشمال كعلامة من علامات الجهات، فقد تجمعوا حوله في جماعات متفرقة، وجأؤوا بقلوب متنافرة وبأفكار مختلفة وباراء متناقضة، فتناقضت أفكارهم وتباعدت أجسادهم.

وقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٨)، هذا ملخص لما كان يدور أثناء التجمع والإحاطة بالنبي صلى الله عليه وسلم، **فقد كانوا يقولون:** لا يوجد جنة ولا نار ولا بعث، ولو افترضنا أن هناك جنة في الآخرة؛ فنحن أولى بها من هؤلاء المؤمنين الضعفاء!!، لأننا مكرمون بالمال والجاه في الدنيا، فسنكون مكرمين في الآخرة في الجنة، فرد الله عليهم بسؤال استنكاري، كيف يطمع هؤلاء المشركون أن كل واحد منهم سيدخل الجنة قبل المؤمنين وينعم فيها؟!، **ثم قال:** ﴿كَلَّا﴾، كلمة ردع وزجر، **أي:** لا يمكن أن يتم ما طمعتم فيه من دخول الجنة، قياساً

(١) ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٩٨٨).



على تنعمكم بالدنيا، فالجنة أمرها يختلف عن الدنيا، فالدنيا يُعطيها الله من أحب ومن لا يحب، وأما الآخرة والجنة، فلا يمنحها الله إلا لمن أحب، وفي الحديث: "واعلموا أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة"^(١)، فنفس الكافر لا تدخل الجنة، بل هي محرمة عليه، كما قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾^(٢٩)، لما افتخروا وتكبروا على الضعفاء بما منحهم الله من نعم في الدنيا، نبههم الله إلى أصل خلقتهم، وأهمله ولم يذكره لهم تحقيراً له، وقد ذكره في آية أخرى، كما قال: ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، والمعنى: كيف تتكبرون على خلق الله، وأنتم مخلوقون من نطفة مهينة؟!.

وقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾^(٤٠) على أن نُبدلَ خيراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ^(٤١)، سبق أن القسم الذي يتحقق ولا حث فيه يُبتدأ به بـ "لا"، وهنا أقسم برب المشارق أي: أقسم الله بنفسه، وأتى بصيغة الجمع، ويُقصد بها أحد أمرين: إما مشرق كل كوكب، لأن الكواكب تُشرق وتغرب، أو يُقصد بها مشارق الشمس المتعددة خلال السنة^(٢)، ومثلها يقال في المغارب، وجواب القسم في قوله: ﴿إِنَّا لَقَدِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾^(٤٢)، أي: فعندنا القدرة المطلقة على تبديلهم بغيرهم ممن يُطيع الله، كما قال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فيهلكهم الله، ويأتي بقوم خيرٍ منهم يعبدون الله، والخطاب لكفار مكة في الدنيا.

(١) مسند أحمد: (٣٢/٢)، برقم: (٥٩٤)، وسنن الدارمي: (٨٩٦/٢)، برقم: (١٤٧٠)، وسنن الترمذي: (٢٧٦/٥)، برقم: (٣٠٩٢)، وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: تفسير الخازن: (٣٤٢/٤).



وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: بمغلوبين، فلا أحد يسبقنا إلى ذلك بسبب عجزنا عنه، فنحن قادرون على ذلك.

وقوله: ﴿فَذَرُهُمْ يُخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾، اتركهم وأعرض عنهم، ولا تشغل نفسك بمجادلتهم فهو لاء قوم معاندون، لا ينفع معهم الحوار والجدال، وليس معنى ذلك أن لا تدعوهم أو أن لا تعظهم، بل معناه لا تضيع وقتك معهم، واركهم في خوضهم، وهو الكلام الباطل، الذي لا حجة له ولا برهان، واللعب معناه عدم الجد، فقد اتخذوا هذه الحياة الدنيا حياة للهو واللعب، ولم يستعدوا فيها للآخرة، واستمر في تركهم حتى يموتوا، ويلقوا الله في يوم القيامة، وهو يومهم الذي كانوا يوعدون به في الدنيا.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾، وفي يوم القيامة، يخرجون من قبورهم، وسمي القبر جدثاً لأنه حفرة، فيتشرون من قبورهم مسرعين، **كما قال:** ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وشبه سرعتهم في الحشر كسرعتهم إلى أصنامهم في الدنيا المعروفة لهم، والنصب هو ما يُنصب للعبادة، وهو الصنم، والنصب هو الشيء الذي يكون واضح المعالم لمن يراه.

ويؤفضون أي: يتسابقون سريعين كل واحد يريد أن يسبق الآخر، والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة للمشركين^(١).

ثم وصف حالهم، فقال: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، **أي:** ذليلة أبصارهم من شدة الاحتقار لهم، تغشاهم الذلة، فالذل ليس في وجهه

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٧٤ / ١٥).



فقط، بل غطى الذل كل أعضائه وجسده، وذلك هو يوم القيامة الذي كنتم تكذبون به وتنكرون وقوعه.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن الإنسان مجبُولٌ في طبعه وفي خلقته على عدم الصبر والتحمل، وأن الإيمان والعمل الصالح سبب لتغيير هذا الطبع والتغلب عليه.
- ٢- أن من يستمتع بغير الزوجة، أو الأمة، فهو متعِدٌّ لحدود الله، ومنتَهك لما حرم الله تعالى.
- ٣- أن ابتداء الصفات بالصلاة وختمها بالصلاة؛ يُشعرنا بقيمة وأهمية الصلاة عند الله تعالى.
- ٤- أن الجنة محرمة على الكفار ولا يدخلها إلا نفس مؤمنة.



تفسير سورة نوح

تفسير المقطع الأول من سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَادَتِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴿

شخصية السورة:

سورة نوح؛ سورة مكية، بإجماع المفسرين^(١)، والمقصد العام لهذه السورة، **هو:** البيان التفصيلي لقصة دعوة نوح لقومه، وأساليبها وهو نوع من التسلية والتعليم لرسول الله ﷺ، لكي ينشط ويستمر في دعوة قومه ويتفنن في

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٧٢).

أساليب الدعوة معهم، كما فعل نوح صلى الله عليه وسلم مع قومه.

ابتدأت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، (إِنَّا) المؤكدة التي تدل على أن الإرسال لنوح حصل وتأكد وقوعه من الله تعالى، وعادة الله في الرسل أن يبعث في كل قوم رسولاً منهم، فبعث نوحاً صلى الله عليه وسلم إلى قومه، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ^(١) بعد آدم صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث: "أن التوحيد بقي في الأرض عشرة قرون بعد آدم" ^(٢)، أي: ألف سنة، ثم بدأ الشرك يدب إلى البشرية، فأرسل الله نوحاً صلى الله عليه وسلم إليهم، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وقوله: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(١)، فالهدف من الإرسال هو الإنذار بترك الشرك، ولم يُذكر بجواره ذنوباً أخرى، فقد كان الناس ما زالت فطرهم في الغالب في جانب الأخلاق والقيم سليمة ولم تنحرف انحرافاً كبيراً، وإن كان أعظم انحرافهم هو الشرك، وبيّن لهم أن مصير الكافرين هو العذاب الأليم، أي: الموجه الذي يؤلم صاحبه.

وقوله: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ^(٢)، فامتثل نوح الأمر وأبلغ قومه ما طُلب منه.

وقوله: ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ ^(٣)، (أَن) هي التفسيرية، التي تُفسر ما ذكر قبلها بما يأتي بعدها، وهنا فسرت الإنذار بأمرهم بعبادة الله تعالى، وهي: فعل الإيمان والطاعات والقربات، وأمرهم بتقوى الله تعالى، وهي ترك الشرك

(١) صحيح البخاري: (١١٦/٨)، برقم: (٦٥٦٥).

(٢) صحيح ابن حبان: (٦٩/١٤)، برقم: (٦١٩٠).



والمحرمات والذنوب والمعاصي، وأمرهم بطاعة نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي طاعة الرسول فيما أمرهم به، أو فيما نهاهم عنه، وحذفت ياء المتكلم للفاصلة.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِكُمُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، **أي:** إن استجبتم لما أمرتكم به، غفر الله لكم ذنوبكم السابقة، **إذا قلنا:** أن (مِنْ) بيانية^(١)، أو يغفر لكم بعضاً من ذنوبكم وهي الذنوب العظام **إذا قلنا:** إن (مِنْ) تبعيضية^(٢)، وهذه جائزة أخروية، ووعدهم بجائزة دنيوية، وهي أن يُمتعهم في الحياة الدنيا ويجعلهم يعيشون بسعادة ونعمة إلى أن يأتي أجلهم المحدد، وهذا طلب كل مخلوق.

وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، هذا يحتاج إلى شيء من البيان؛ لأن الظاهر فيه التعارض مع ما سبق قبله، فكيف يؤخركم إلى أجل مسمى، وأجل الله لا يُؤخَّرُ؟! **والجواب:** للمفسرين في ذلك قولان^(٣):

الأول: أن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها، فذكر في علمه الأزلي الشيء وسببه، **مثال ذلك:** إن آمن قوم نوح يُعمروا ألف سنة، وإن كفروا أهلكهم على رأس تسعمائة سنة^(٤)، **أي:** ينزل عليهم العذاب قبل أن يُتموا الألف السنة، فهذا من ربط الأسباب بمسبباتها، فإن حصل الإيمان حصل لهم التأخير، وهو أن يُتموا مدة العمر المؤجل لهم، وإن لم يحصل منهم الإيمان نزل عليهم العذاب.

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٣٥٦/٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٣١/٨).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (٢٩٩/١٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٢٨١/١٠).



والقول الثاني: أن تُفرق بين الأجلين في الآية، **ففي قوله:** ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فهذا **الأجل العام**، وهو أجل الاستئصال والإهلاك الذي يحصل للأمة المكذبة دفعة واحدة، **والأجل الثاني** في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، هذا **الأجل الخاص** بكل شخص، فعمر كـ خمس وخمسون سنة، فستمت فيها، وهذا عمره ستون سنة، فسيموت فيها، فكل سيموت عند انتهاء أجله، وبهذا يُجمع بين العبارتين بهذين الأسلوبين.

وقوله: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤)، **أي:** لو كنتم تعلمون هذه القواعد، وهي من علم القدر المرتبطة بنواميس محددة وبأسباب مقدرة لا تتخلف، وفي الآية دليل على أن الطاعة والعبادة سببٌ في بركة العمر **كما في الحديث:** "من أراد أن يُنسأ له في أجله فليصل رحمه" (١)، أي يُبارك له في عمره، بحيث يعمل من الخير والأعمال وينجز من المهمات في وقت قصير ما لا ينجزه غيره في وقت طويل، أو أن تكون الزيادة في عمره حقيقة لأنها ربطت بسببها، فيقال: هذا الرجل إن كان صالحاً فعمره تسعون، وإن فسد وانحرف فعمره ثمانون، فيرتبط الشرط بحصول سببه.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ (٦)،** هذا نوع من الاعتذار قدمه نوح بين يدي ربه، وهو يشكوا إليه إعراض قومه، فأخبر أنه قد دعا قومه واستخدم معهم وسائل متعددة، منها: الاستمرار في دعوتهم بنشاط وحيوية، فلم يفتّر عنهم في وقت من الأوقات، بل واصل الليل بالنهار،

(١) صحيح البخاري: (٥٦/٣)، برقم: (٢٠٦٧).



لمحاولة إقناعهم بالإيمان، واختار من وقت النهار ووقت الليل ما يناسب لعرض الدعوة عليهم، وهذا يُسمى بالأَسَالِيب الزمانية في الدعوة، يعني ممكن تُغير زمن الدعوة إلى الوقت المناسب للمدعوين، ولكن مع هذا كله لم يزدادوا إلا فراراً من قبول الدعوة، والاستثناء هنا منقطع؛ لأن فراراً ليست جزءاً من المستثنى منه، فيكون أن الذي حصل لهم هو مزيدٌ من الفرار، **أي:** كلما حاولت أن اقترَب منهم بالدعوة فروا عنها، وازدادوا إعراضاً وبعُدًا عن الإيمان بها.

وقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٧)، كلما تُدل على العموم والاستمرار، **أي:** وفي كل مرة أدعوهم فيها للإيمان الذي هو سبب لحصول المغفرة لهم منك؛ لم يقبلوا الدعوة، بل إنهم من شدة إعراضهم عنها؛ يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما أقول لهم، وعبرَ هنا بالجمع للأصابع؛ إما أن يكون لبيان فُحش ما يفعلوه، وكأن كل واحد منهم أدخل كل أصابعه في أذنيه؛ حتى لا يسمع أي كلمة، أو أن يكون الجمع باعتبار أصابع الأشخاص فكل واحد منهم أدخل أصبعه في أذنه، وهو فعل من يعرض ولا يريد سماع ما يقال له، وغطوا عيونهم بثيابهم حتى لا يروني، فهم لا يُريدون أن يسمعوا الحق ولا يروا من يدعوهم إليه، فسدوا على أنفسهم منافذ العلم والمعرفة، وهي السمع والبصر، واستمروا في الإصرار على إعراضهم، واستكبروا عن قبول الحق والإذعان له بكل وسيلة.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا﴾ (٨) **ثمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾** (٩)، ثم ارتقى في شكواه واعتذاره، بأن دعوته كانت متنوعة الأحوال في نوع القول، فقد



دعاهم جهراً، والدعوة الجهرية هي التي تكون في مجمع من الناس مثل الخطبة، وهي تحتاج إلى رفع الصوت، **وقد جاء في الحديث^(١): "أن النبي ﷺ، كان إذا خطب رفع صوته كأنه مُنذر جيش"**، فهذا أيضاً من أساليب الدعوة، وقد دعاهم سراً، والإسرار هو أن تكلم الشخص بينك وبينه، وخاصة الكُبراء من القوم الذين ينفرون من الدعوة العامة، فهم لا يرغبون أن يتعامل معهم في الأمر على أنهم أناس عاديون، **وكان نوح ﷺ**، قد نوع الوسائل والأساليب مع قومه واستخدم مع كل فئة الأسلوب المناسب لها، وجمع بين الجهر والإسرار؛ لأن الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة من أفراد إحداهما.

وقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾، ومما قلته لهم، وأنا أدعوهم إلى الله، أن يؤمنوا بالله ويطلبوا المغفرة منه، **قيل^(٢): إن قوم نوح لما كفروا بالله تعالى، وعصوا رسوله مع طول مُكث نوح بينهم؛ منع الله عنهم المطر ومنع عنهم الذرية، فقال لهم نوح ﷺ: لو آمنتم واستغفرتم الله الغفار الذي يغفر ذنوب عباده؛ لغفر لكم ذنوبكم ورفع عنكم ما أصابكم من قحط وبلاء، وأرسل لكم ما حبسه عنكم من المطر، وجعله ينزل عليكم متواصلاً غير مُنقطع، ويمدِّدكم بأموال متنوعة، وذكر الأموال نكرة لتشمل كل ما يُتمول به من نقد وحبوب ونحوها، ويمنحكم البنين، وقد كانوا أهل زراعة وفلاحة^(٣)، فهم**

(١) صحيح مسلم (٥٩٢/٢)، برقم: (٨٦٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (٢٨٢/١٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٩٨/٢٩).



محتاجون للمطر والأنهار للزراعة، ومحتاجون للبنين كي يُساعدوهم في عملهم، **وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، إذا استسقى يقرأ هذه الآيات، ويعظ الناس بها^(١)، لأن القحط سببه الكفر والمعاصي، ومن تاب وأناب إلى الله حلت به بركات السماء والأرض، **كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** [الأعراف: ٩٦] فبركات السماء المطر، وبركات الأرض الثمار الطيبة.

وقوله: ﴿مَّا لَكُم لَّا تَزُجُّونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، ثم التفت إلى مخاطبة قومه بأسلوب العتاب والتوبيخ والتأنيب لهم بسبب إعراضهم، قائلًا لهم: ما لكم يا قوم لا تُعظمون شأن الله تعالى، وهو استفهام إنكاري، فتعبدونه طمعًا في ثوابه وخوفًا من عقابه، والتوقير؛ التعظيم للشيء، **كما قال: ﴿وَتُعْزِرُوهُ وَتُقِرُّوهُ﴾** [الفتح: ٩]، وهو من أعمال القلوب؛ فيورث خشيةً وخوفًا وحبًا لله، وتعاملًا حسنًا مع الله بما يستحق، **وفي الحديث: "ليس منا من لم يُوقر كبيرنا" أي:** يحترمه ويتعامل معه بشيء من التعظيم لكبر سنه، وهؤلاء القوم لما أشركوا بالله، لم يُعظموا الله، ولم يخافوا منه، لعدم معرفتهم بالله، **كما قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾** [الزمر: ٦٧]، فمن لم يعرف الله لم يُقدِّره ولم يُوقره حق التوقير، من أجل ذلك من الله تعالى علينا بأن عرّفنا بنفسه من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه؛ حتى نزداد به معرفةً وعلماً؛ فيحصل منا التقدير والتوقير له كما يستحق سبحانه وتعالى.

ثم بدأ يبيّن لهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، هذه أحد

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٢).



وسائل التذكير بعظمة الله أن يتذكر العبد نعم الله عليه، كيف خلقه الله، ومر في أطوار متعددة؟ فقد كان نُطفة، ثم مضغة، ثم علقه، ثم جنيناً مكتمل الأعضاء، ثم خرج من بطن أمه طفلاً رضيعاً، ثم صبيّاً، ثم شابّاً، ثم شبيّة كبيراً، فخلقه بهذه الأطوار تدل على عظمة الخالق سبحانه، وتدل على نعمة الله على المخلوقين، فقد أوجدهم من العدم ورباهم ومنّ عليهم بنعمه، فكان الواجب عليهم شكره على هذه النعم والإيمان بالله، لا التكذيب والإعراض والكفر به تعالى.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن نوح عليه السلام، هو أول رسول أرسله الله إلى البشرية بعد آدم عليه السلام.
- ٢- أن الاستغفار سبب لصلاح الدنيا والآخرة.
- ٣- أن الله ربط الأسباب بمسبباتها في تقديره الأزلي، وأمر الناس بالأخذ بالأسباب لتحقيقها.
- ٤- أن نوح عليه السلام، بذل في دعوة قومه كل الأسباب، ونوّع لهم كل الأساليب.
- ٥- أن الكفر والمعاصي سبب لنزول النقم والبلاء بالناس، وأن الإيمان والتوبة سبب لرفعها.
- ٦- أن الله عرّفنا بنفسه من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه؛ حتى نزداد به معرفةً وعلمًا؛ فيحصل منا التقدير والتوقير له كما يستحق سبحانه وتعالى.



تفسير المقطع الثاني من سورة نوح

﴿الْمَرْوُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا ۝٢١ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ ۚ الْهَتَكُمُ وَلَا تَنْدَرُنَّ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۚ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَنْدَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝٢٨﴾.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْمَرْوُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾، هذا خطابٌ من نوحٍ ﷺ لقومه وهو يُعَدُّ عليهم نعم الله جل وعلا، بعد أن نَبَّههم إلى نعمة الخلق لهم بأطوار مختلفة، ثم انتقل ليُخبرهم عن خلق الله تعالى، الذي يروونه بأعينهم، فرؤية الكون أمرٌ مُشاهد لكل الناس، فطلب منهم أن يتأملوا كيف خلق هذه السموات بهذه الطريقة المُتقنة التي لا خلل فيها ولا

نقص، وقد خلقها الله طبقة فوق طبقة، **أي**: سماء فوق سماء إلى أن تنتهي بالسماء السابعة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (١٦)، فيهن، **أي**: معهن^(١)، **والمعنى**: خلق القمر مع خلق السموات، وجعله منيراً، أو تكون (فيهن) على أصلها للظرفية، **والمعنى**: صير القمر في السموات منيراً، وإن كان نور القمر في سماء الدنيا^(٢)، من باب الإخبار عن الجزء في مقابل الكل، ونوره مأخوذ من نور الشمس، وهو نور يستفيد منه أهل الأرض في الليل، وفي الحساب ومعرفة دخول الأشهر وخروجها، وصير الشمس سراجاً، والسراج؛ هو الذي ينبعث منه النور وتشع منه الحرارة، فالشمس منبع النور، ومنبع الحرارة التي بها يحصل الدفء للأرض.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧)، وهذه نعمة أخرى يذكرها نوح عليه السلام لقومه وهي نعمة الإيجاد والخلق لهم، أنبتكم، **أي**: أنشاكم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء، فقد خلق أباهم آدم من تراب الأرض، ثم بعد ذلك خلق الخلق من نطفة وجعلها تمر بأطوار حتى صارت جسداً يحتاج إلى أن يعيش على الأرض التي هيأها الله له؛ لكي ينمو عليها ويتغذى مما أخرجت من أقوات، فيأكل ويشرب ويتزرع عليها وينمو فيها كما ينمو النبات.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (١٨)، فالأرض محل الإنبات والنمو

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٢٣٣).



للناس، وهي كذلك محل دفن أجسادهم إذا ماتوا، ومنها يخرجون ويُحشرون يوم القيامة إلى ربهم تعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾، أي: خلق لكم الأرض وصيرها مبسوطة لكي تستقروا عليها، واللام للامتنان، والبساط؛ هو الفرش، وليس معنى ذلك أنها مسطحة كلها، فهي كروية، ولكن لعظم حجمها كان سطحها كبيراً، فيظهر للناس أنها مُسَطَّحة، وهي في الحقيقة كروية.

وقوله: ﴿لَتَسْلُكُنَّ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾، اللام للتعليل، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين، أي: جعلناها مبسوطة لكم من أجل أن يتهيا لكم المشي عليها، من خلال الطرق التي تختارونها للانتقال من مكان إلى آخر فيها، وفي ذلك إشعار بأن الله تعالى لما خلق الأرض خلق الجبال فيها بهيئة لا تحجز الناس ولا تمنعهم من الحركة، بل جعل بينها طرقاً متنوعة وواسعة.

كل هذه النعم التي عددها نوح على قومه؛ لعلمهم أن يفيقوا من شركهم وكفرهم؛ فيؤمنوا بربهم تعالى، إلا أنهم لم يستفيدوا من ذلك، **وكانت النتيجة هي قوله:** ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾، فهذه ثمرة دعوته لهم تسعمائة وخمسين سنة، فأغلبهم كفروا به **كما قال:** ﴿وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٢٢﴾ [هود: ٤٠]، فلم يُطيعوه ولم يقبلوا ما جاءهم به من الإيمان والهدى، واتبعوا المترفين من أصحاب الأموال والأولاد، وهم المملأ الذين يذكرهم الله غالباً مع كل رسول، **كما قال:** ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۝٢٣﴾ [الأعراف: ٦٠]، ولذلك كان أتباع الأنبياء غالباً هم الضعفاء والمساكين، والحقيقة أن هذه



الأموال والأولاد ليست نافعة لهؤلاء المترفين، وإنما ستزيدهم بُعداً وخسارة في الآخرة، كما أبعدتهم عن الهدى وجعلتهم يخسرون الإيمان في الدنيا، وفي هذه الآية إشارة إلى أن هؤلاء القوم استخدموا نعمة المال والولد في غير محلها؛ فكانت خسارتهم في الآخرة عظيمة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا كَبَّارًا﴾ (٢٢)، فهؤلاء المترفون والكفار الذين أعرضوا عن الإيمان بنوح صلى الله عليه وسلم، ورسالته، لم يكتفوا بالكفر والإعراض، وإنما خططوا بمكرٍ عظيم وكبير في أذية نوح ودعوته، وبذلوا جهوداً كبيرة في محاربتها، ويُسمى الكيد إذا كان خفياً مكرًا.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، وقال بعضهم لبعض وقالوا لمن دونهم: لا تتركوا آلهتكم، وهي الأصنام التي صنعوها من التماثيل ثم عبدوها، ولا تطيعوا نوحاً صلى الله عليه وسلم، في تركها واتباع التوحيد، ثم خصوا خمسة أصنام لهم بالذكر وهي أعظمها وأكبرها، **فقالوا: ﴿وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣)،** وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: "أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسَخَ العلم عُبدت" ^(١)، أي: جاء الشيطان بعد ذلك إلى أبنائهم، فقال لهم: إن آباءكم كانوا يعبدون هذه التماثيل، فعبدوها، ولما جاء الطوفان وأغرق الأرض بما فيها من أصنام، ظلت أسماء هؤلاء الأشخاص موجودة في ذهن الذين نجوا،

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٦٠)، برقم: (٤٩٢٠).



لأنهم كانوا رجالاً صالحين، وكانوا يتحدثون عن عبادتهم، فاستمر الحديث عنهم حتى الفترات المتأخرة من حياة البشرية، ولما اتخذوا لهم أصناماً سموها بأسمائهم، فقد جاء عن ابن عباس، أنه قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وُدٌّ؛ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع؛ فكانت لهذيل، وأما يغوث؛ فكانت لمراد، وأما يعوق؛ فكانت لهمدان، وأما نسر؛ فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع"^(١)، وكان عمرو بن لُحي هو أول من أفسد ملة إبراهيم عليه السلام^(٢)، فأدخل عبادة الأصنام إلى أرض الجزيرة حيث أتى بها من الشام إلى مكة، ثم تتابع بعده الناس، حتى صار لكل قبيلة صنماً وإلهاً تعبد به من دون الله، وقد بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، ولم يهدمها إلا في فتح مكة^(٣).

وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾^(٢٤)، أي: أن الأصنام هذه أضلت كثيراً من الناس عن التوحيد وصرفتهم عن عبادة الله وحده، واستمرت عبادتها إلى زمننا هذا، ولذلك حرم الله صناعة التماثيل على هذه الأمة، ثم ختم نوح صلى الله عليه وآله وسلم الخبر عن الأصنام وأثرها، بالدعاء على الظالمين من قومه بأن يزيدهم ضلالاً وبعداً عن الحق؛ لينزل بهم عذاب الله وعقوبته^(٤)، وكان هذا منه بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن قومه إلا من قد آمن، ويجوز أن تكون جملة

(١) المصدر السابق.

(٢) ينظر: أخبار مكة للأزرقي: (١/ ٨٨).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (١/ ١٢١).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٦).



معتضة وهي من كلام الله تعالى لنوح^(١)، والمعنى: ولا تزدد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلا ضلالاً، والأول أرجح للسياق.

وقوله: ﴿مَمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾،

هذه الآية جملة اعتراضية بين حديث الله تعالى عن الأصنام، وبين ما سيدعو به نوح عليهم، أراد الله بها أن يسلي على نبيه محمد ﷺ، ويعطيه النتيجة قبل سماع الدعاء، فبسبب خطيئاتهم -وهي جمع خطيئة، والمقصود بها الكفر والشرك ومعصية الله تعالى- أغرقهم الله بالطوفان.

وقوله: ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾، الفاء تعقيبية، وهذا أحد أدلة إثبات عذاب القبر،

أي: فبعد أن ماتوا بالغرق، في عذاب القبر وهو صورة مصغرة لعذاب النار، حيث يُفتح لكل كافر طاقة إلى النار؛ فيأتيه من سمومها وحرها، فيتعذب بذلك وهو ما زال في قبره، كقوله في قوم فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهم يُعرضون على النار غُدُوًّا وعشيًّا وهم في قبورهم، وبهذا تبطل شبهة من ينكر عذاب القبر، لأنه حسب زعمه غير مذكور في القرآن، وقد جاءت نصوص السنة بإثباته والتحذير منه، فالقبر إما روضة من رياض الجنة للمؤمنين الصالحين، وإما حفرة من حُفر النار للكافرين والمنافقين وأصحاب الكبائر، وفي هذا الآية تهديد لقريش التي كانت تكذب برسولها، فمصيبركم إن استمريتم بالتكذيب مصيرهم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ٢١١).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٢).



وقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٦٦)، فبعد أن يأس من إيمانهم، وصبر عليهم تسعمائة وخمسين سنة، دعا عليهم بأن يهلكهم الله ويطهر الأرض منهم جميعاً، والألف واللام في الأرض للعهد الحضورى، أي على هذه الأرض التي يعيشون فيها، لأن عهده بآدم كان قريباً، ولم يكن قد سكن فيها أناس كثير، والديار هو الذي يسكن في الدار، والمعنى: أهلِكهم جميعاً ولا تترك فيها أحداً حياً، وفيه إشارة إلى أن على الداعية أن يصبر على العصاة والمجرمين، كما صبر نوح على قومه، وأن يدعو لهم بالهداية.

وقوله: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٦٧)، هذا تعليل لدعائه عليهم، **والمعنى:** لو تركتهم على الكفر ولم تهلكهم؛ لكانوا سبباً في ضلال الآخرين من الخلق بالشرك والكفر، ولأن كل كافر سيولد منه كافر، وكل فاجر سيولد منه فاجر، وهكذا يستمر تسلسل الكفر والفجور في الأرض.

فلما استجاب الله لنوح دعاءه وأغرقهم، قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٦٨)، وهذا من آداب الدعاء أن يبدأ الداعي فيدعو لنفسه، **وفي الحديث:** "إذا دعا أحدكم فليبدأ بنفسه" (١)، فإذا دعوت لأحد، **فقل مثلاً:** وفّقنا الله وإياك، لأن نفسك أولى من تدعو لها، ثم دعا لوالديه، وهم أقرب الناس إليه، ويطلق على الأب والأم ومن علا، كالجد والجدّة ومن فوقهم، ثم دعا لمن يدخل بيته دخولاً متكرراً، والمقصود بهم من سكن فيه معه من أهله وذويه من المؤمنين، وخص المؤمنين بالذكر ليخرج من

(١) سنن الترمذي: (٥/٤٦٣)، برقم: (٣٣٨٥)، واسناده صحيح.



أهله من كفر به كزوجته وولده، ثم دعا بعد ذلك لباقي المؤمنين والمؤمنات وهذا يشمل الأحياء والأموات، ومن السنة إذا دعا الشخص أن يشمل بدعائه عموم المؤمنين والمؤمنات.

وقوله: ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (٢٨)، هذا دعاء من نوح عليه السلام على عموم الظالمين، **مثل قوله:** ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (٢٤)، ما الفرق بين الضلال والتبار؟! التبار؛ هو الهلاك والخسار، **كما قال:** ﴿وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوْا تَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، **والضلال هو** البعد عن الحق والصواب، فالضلال سبب، والتبار ثمرة له، فمن ضل عن الهدى حصل له الهلاك والتدمير، والله أعلم.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١ - خطورة الملاء وقادة الشر، في محاربة الدعوات وإفساد الناس.
- ٢ - أن الذنوب سببٌ للهلاك في الدنيا والآخرة.
- ٣ - إثبات عذاب القبر.
- ٤ - من آداب الدعاء أن يبدأ الداعي فيدعو لنفسه.



تفسير سورة الجن

تفسير المقطع الأول من سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَظَنْنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ وَلَا يَخْشَى وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

شخصية السورة:

سورة الجن؛ سورة مكية بإجماع المفسرين^(١)، وقد جاء في سبب نزولها^(٢):

(١) صحيح البخاري: ١ / ٢٥٠ برقم: (٧٧٣)، صحيح مسلم: ١ / ٣٣٠، برقم: (١٤٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٦٤٧ / ٢٣).

أن النبي ﷺ عمد مع مجموعة من أصحابه إلى سوق عكاظ، ثم صلى بهم صلاة الفجر، وأن الجن كانوا يبحثون عن خبر السماء، فلما اقتربوا من السماء وجدوها قد مُلئت بالحرس ورُصدت بالشهب، فقال قائلهم: لا بدّ من سبب حدث في هذه الأرض، منعنا من استراق السمع، فابحثوا عن ذلك السبب، فانطلقوا ذات اليمين وذات الشمال، فمرت مجموعة منهم بوادي نخلة قريباً من سوق عكاظ، فوافقوا النبي ﷺ، وهو يُصلي بأصحابه صلاة الفجر، فاستمع النفر من الجن إلى القرآن، فأنزل الله تعالى هذه السورة على رسوله ﷺ، يخبره عن حالهم وما حصل منهم.

ومقصد السورة الأعظم: بيان حال الجن وعقائدهم الباطلة، وسرعة تأثيرهم بالقرآن حينما سمعوه، وإبطال مزاعم المشركين فيهم.

وافتشحت هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (١)، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لأصحابه قصة استماع نفر من الجن للقرآن، وهذا يدل على أن القرآن موحى به من عند الله، وأن رسول الله ﷺ مبلّغ له، **والنفر:** من الثلاثة إلى السبعة، ودل ذلك على أن النبي ﷺ لم يكن يعلم بحال الجن، وإنما أوحى الله إليه بخبرهم وما حصل منهم، فقد صرفهم الله وهياهم، وجعلهم يذهبون إلى المكان الذي فيه رسول الله ﷺ، وجعلهم يستمعون إلى قراءته للقرآن، **كما قال:** ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ثم بعد أن استمعوا للقرآن رجعوا إلى قومهم، فقال الجن لقومهم إنا سمعنا كلاماً يُتلى فيه العجب، ووصفوه



بالعجب؛ لأنهم لأول مرة يسمعون مثله من الكلام المُعْجِزِ البليغ، وهذا يدل على أن الجن مثل الإنس، لهم لغات متعددة، فمن سكن بين العرب من الإنس كانت لغته عربية، ومن سكن بين العجم كانت لغته أعجمية، **وقد قيل**^(١): إن هؤلاء النفر من جن نصيبين، وهم من أشرف الجن.

وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٢)، ثم وصفوا هذا القرآن لقومهم بأنه يهدي إلى الرشd، **أي:** من اتبعه هداه إلى ما فيه الرشاد والخير في الدنيا والآخرة، **كما قال:** ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهو كل صوابٍ وسداد في الاعتقادات والأقوال والأعمال، ولذلك لما سمعناه وأعجبنا به ورأينا ما يدعو إليه من الرشاد والهدى؛ صدقناه واتبعناه، **ومقتضى الإيمان بالقرآن** أن تؤمن بالمرسل وبالرسول الذي جاء به، وفيه تعريض بالمشركين من العرب الذين سمعوا القرآن فلم يؤمنوا به، وأن الجن كانوا أعقل منهم في تفهّم كلام الله والإقبال عليه، ثم نفوا عن أنفسهم الشرك بالله لأنه لا يقبل من الإنسان إيمان يُخالطه شيءٌ من الشرك، فنفي الشرك شرط لتحقيق الإيمان الكامل، عملاً بقاعدة التخلية والتحلية، فالتخلية: نفي الشرك، **والتحلية:** إثبات التوحيد، وبهما يكتمل الإيمان.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾^(٣)، **الواو** حرف عطف، والجد هنا بمعنى العظمة وكمال الجلال، **أي:** كُملت عظمة ربنا، **وقيل:** الجد هنا بمعنى الغنى، **أي:** اكتمل غناه عن الخلق سبحانه، والمعنيان متقاربان، ومن

(١) ينظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (١٥٩/٥).



كمال غناه عن الخلق أنه لم يتخذ صاحبة وهي الزوجة، ولا ولداً، والولد ثمرة و فرع عن الزواج، فإنه لا يوجد ولد من دون زوجة.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ٤، ثم بدأوا يحدثون أنفسهم عن عقائدهم الباطلة التي تربوا عليها، وورثوها عن آبائهم وأجدادهم، كما هي موجودة عند الإنس كذلك، وكان يقول هذه العقائد كل سفيه منهم، والسفيه، قيل: المقصود به كل مشرك ينسب إلى الله الشريك والصاحبة والولد، ولو كان كامل العاقل لما أشرك بالله، تعالى، **وقيل:** المقصود به اسم شخص وهو إبليس، كبير السفهاء وقد علم تلاميذه وأتباعه من الجن والإنس هذا السفه، **والشطط:** وصف للقول المتجاوز للحق البعيد عن الصواب، **كما قال في قوله:** ﴿وَلَا تُشْطِطُ﴾ [ص: ٢٢]، والمقصود به هنا نسبة الشريك والولد والصاحبة إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ٥، الظن، هنا على أصله وهو عدم اليقين، فقد كانت الجن تظن أنه لا أحد يكذب على الله، وما توقعوا أن مخلوقاً يخلقه الله ويُنعم عليه، ثم يقول قولاً يكذب فيه على الله، ولكن بعد أن استمعوا إلى القرآن وقد نفى الشريك والولد عن الله وبيّن ما عليه الناس من الانحراف؛ تذكروا كل سفيه كذب على الله وأشرك به غيره، من الإنس والجن، فصدقناهم ظناً منا أنهم لن يكذبوا على الله، وهذا فعلاً هو الذي يحصل غالباً عند عوام الناس من تقليدهم للآباء والأجداد وللشيوخ المبتدعة ولأصحاب الخرافة فيسلمون لهم بما يقولون دون أن يتأكدوا من صحة زعمهم، والأصل أن يتأكد الإنسان من كل ما يسمع، وخاصة فيما يتعلق بالعقائد، فيتأكد هل هذا



يليق بالله؟، وهل جاء في القرآن، أو ثابت في سنة رسول الله ﷺ؟، فليس كل من قال وتكلم في دين الله صادق؛ لأنه كما رأيت يوجد من يكذب على الله من الإنس والجن.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ٦، وأخبروا أيضاً عن حال تعامل الإنس مع الجن، وخاصةً في جزيرة العرب، وما زال هذا الحال موجوداً عند بعض الناس إلى اليوم، فهناك أناس يعتقدون أن الجن ينفعون ويضرون، ولذلك يُنذرون لهم، ويذبحون لهم، ويتعاملون مع السحرة من أجل التقرب للجن، ونحو ذلك، ولا يُنبئُك مثلُ خبير، فقد أخبرنا مجموعة من الجن ماذا يحصل للجن حينما يعوذ الإنس بهم، كان بعض العرب إذا نزل أحدهم وادياً، يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهائه، فيحصل من استعاذة الإنس بالجن ازدياد الرِّهَق، وهو الغَشْيَان، من الجن للإنس، **والمعنى:** فيزداد الجن تكبراً وتعاضماً في أنفسهم وعتواً ونفورا، فتزداد أذيتهم للإنس، وهذا واقع الجن مع الإنس حتى اليوم، وكلما ازداد الإنسان تعلُّقاً بالجن كلما ازدادت أذيتهم له، **وفي الحديث:** "من تعلَّق بشيءٍ وُكِّلَ إليه"، **أي:** أن الله يتخلى عنه وعن حمايته ورعايته؛ فينفرد به الشياطين فيؤذونه، ولو توكل على الله واعتمد عليه؛ فإن الله يحميه ويحفظه من الشياطين وغيرهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ٧، الخطاب هنا من الجن لأقوامهم عن الإنس، **والمعنى:** وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس، أن الله لن يبعث أحداً بعد موته، وفي هذا دليل على أن بعض الجن كانوا يُنكرون البعث



والنشور، كحال بعض الإنس.

وقوله: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ٨، اللمس

هنا معناه البحث عن الشيء والنظر فيه، فقد كان الجن يبحثون عن خبر السماء باستراق السمع، فكان يصعد بعضهم فوق بعض حتى يقتربوا من السماء، فإذا خطفوا كلمة منها ألقوها في أذن الكاهن أو الساحر من أصحابهم، فيأخذها الكاهن ويزيد عليها كذباً من عنده وينشرها، فلما بُعث محمد ﷺ، مُنعت الجن من استراق السمع من السماء، فلما جاؤوا وجدوا السماء قد ملئت بالحرس، والحرس جمعٌ لا مفرد له من لفظه، والمقصود به الملائكة الموكلون بحماية السماء، وقد وصفوا بالشدة، إشارة إلى قوتهم وشدة انتباههم، فليس فيهم غفلة ولا تفريط، ومعهم شُهَب من النيران وهي أسلحتهم التي يرمون بها الشياطين إذا اقتربوا منهم، وقل أن ينجو شيطان اقترب من السماء ولحقه الشهب.

وقوله: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ السَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ ٩،

وكنا قبل بعثة محمد ﷺ، نتخذ لنا مقاعد حول السماء لنسترق من خلالها السمع، والقعود هنا المقصود به الملازمة، أي: وكنا نلازم في أماكن معينة للتصنت، **كقوله:** ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، أي: لازموا الراحة ولم يخرجوا للجهاد، واللام للتعليل، أي: من أجل الاستماع، وليست للمكث، يعني: نقعد مقاعد من أجل أن نستمع، لأننا لو ابتعدنا لن نحصل على السمع، ومن يقترب الآن، أي: بعد بعثة محمد ﷺ، من السماء ليستمتع خبرها؛ يُرمى بشهاب مُخصص له، يرصده ويُتابع المسترق للسمع، أو شهاب مترصد له



بمجرد أن يقترب يُطلق عليه، والشهاب لا يُسمى شهابًا حتى يكون مشتعلًا بالنار، اليوم تسمعون بما يُسمى بالصواريخ الموجهة التي تطلق عن طريق الليزر، ومرتبطة بشريحة معينة في الهدف، فإذا أُطلقت لا تترك الهدف حتى تُصيبه، وهذا من اختراع بشر، فكيف بخلق الله سبحانه؟!.

ثم قال: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠)، هذا الكلام قالوه حينما اكتشفوا أن السماء محروسة وممنوعة من استراق السمع، وذكروا أن السماء لا تُحرس إلا في حالتين، حالة أن ينزل عذاب بقوم، أو حالة أن يُرسل رسول ويوحى إليه، حتى لا يُسترق السمع، إذ لو استرق السمع لحصل تسريب للمعلومة قبل تنفيذ المهمة، وفي الآية بيان أدب الجن في التخاطب مع الله، **ففي باب الشر لم ينسبوه إلى الله بل قالوا:** ﴿أَشَرُّ أَرِيدَ﴾، لما لم يُسم فاعله تأدبًا مع الله، **وفي باب الخير قالوا:** ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، **والرشد هو** الخير، فنسبوه إلى الله تعالى، فمن الأدب مع الله أن لا ينسب الشر إليه، وإن كان الشر والخير يقعان بإذن الله وإرادته.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: المؤمنون المستقيمون على دين الله، فالجن كالإنس فيهم المؤمن وفيهم الكافر، وفيهم الصالح وفيهم الفاسد، **والتعبير بقولهم:** ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، يشمل ما دون رتبة الصلاح من فاسق ومنافق وكافر.

وقوله: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (١١)، أي: ملل ونحل وأهواء متنوعة، والقِدَد؛ هي القطع المتناثرة، **وفي الحديث:** "إنما أنا ابنُ امرأةٍ كانت تأكل القديد بمكة"،



والقديد؛ هو قطع اللحم الصغيرة اليابسة، فالجن ملل ونحل وفرق وأهواء متعددة مثل الإنس، ففيهم البوذي والمجوسي واليهودي والنصراني والشيوعي والسني، ونحوها.

وقوله: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢)، الظن هنا بمعنى اليقين **أي:** أيقنا أننا لن نُفَوّت من عذاب الله تعالى، ولن نجد مهرباً منه لو أراد الله أن يعذبنا، فإنه لا يُعْجِزُ الله شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فنحن في أرضه وتحت سمائه، وداخل مُلكه، فلا مهرب من الله إلا إليه.

وقوله: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَيْنِ آمَنَآ بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٣)، **والمقصود بالهدى** هو القرآن، فقد سمعوه من قراءة محمد ﷺ له فآمنوا به، ثم شجعوا غيرهم على الإيمان به، ببيان أن المؤمن بالله تعالى، لا يخاف نقصاً لحسناته، ولا يخاف إثماً زائداً يُصِيبُهُ فيتعبه.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- تأثير القرآن فيمن يسمعه بقلب سليم، من الإنس والجن، وغيرهم.
- ٢- أن الجن قبائل وملل ونحل مثل الإنس، وأنهم لا ينفعون ولا يضرّون.
- ٣- أن عالم الجن، مثل عالم الإنس، فيهم صالحون مؤمنون، وفيهم كفار فاسدون.

٤- فضل محمد ﷺ ومكانته عند ربه تعالى، وتخصيصه بمزية حماية السماء ببعثته ﷺ.



٥- أن عالم الجن وعالم الملائكة عالم غيب لا نراه ولا ننظر إليه ولا طريق لمعرفته إلا بالوحي.

٦- من الأدب مع الله أن لا ننسب الشر إليه، وإن كنا نعتقد أن الشر والخير من الله.



تفسير المقطع الثاني من سورة الجن

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ١٤ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ١٥ ﴿وَالْوِاسِطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ١٦ ﴿لِنَفْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ١٧ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ١٨ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ١٩ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٢٠ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ٢١ ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ٢٢ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٢٣ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجَعُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ٢٤ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ٢٥ ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ٢٦ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ٢٧ ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ٢٨ ﴿

قول الله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ١٤ ﴿، هذا من حديث الجن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، فإنهم أخبروا عن حالهم بعد سماعهم للقرآن، وأنهم انقسموا إلى قسمين: من آمن به؛ وهم المسلمون، ومن كفر به؛ وهم القاسطون، والقاسط هو الظالم الذي تجاوز الحد، ويذكر أن سعيد بن جبير لما قبض عليه الحجاج، قال له سعيد: ماذا تريد

أيها القاسط؟ فقال من حول الحجاج له: قد مدحك وأثنى عليك، فقال: بل يقصد أني ظالم ولست بمُقسط^(١)، فإن القاسط هو الظالم، والمُقسط هو العادل، **كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [الممتحنة: ٨]، **وفي الحديث:** "المقسطون على منابر من نور"^(٢)، فالمسلمون هم الذين انقادوا وخضعوا لله بالطاعة والاستسلام لأمره وشرعه، واجتهدوا فيما يجب عليهم ويحسن فعله، **والتحري:** القصد إلى الشيء الطيب والبحث عن الصواب وترك ما يناقضه^(٣)، **وهل قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾**، من حديث الجن أو هو من تعقيب الله تعالى على حديثهم؟! **قولان للمفسرين، قيل^(٤):** هذا قول للجن، هو والذي في الآية بعده، فقد عرفوا أن المسلم في الجنة، وأن القاسط في النار، **وقيل^(٥):** بل هو تعقيب من الله وحكمه على الفريقين، ولا تعارض بين القولين، فهو حكم الله، علمه الجن فأخبروا به.

وقوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(١٥)، **أي:** الجائرون عن الحق والصواب البعيدون عن الاستقامة على دين الله، فمصيرهم إلى جهنم فيلقون فيها كما يلقى الحطب في النار؛ فتشتعل بهم النار كما تشتعل النار بالحطب، وهذا حكم عام يشمل الجن والإنس، فمن أسلم منهما فقد تحرى الرشد

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/٦٢٨).

(٢) مسند أحمد: (٣٢/١١)، برقم: (٦٤٩٢)، وإسناده صحيح.

(٣) ينظر: تاج العروس: (٣٧/٤٢٠).

(٤) ينظر: تفسير الثعالبي: (٥/٤٩٦).

(٥) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/٣٨٢).



والخير والصواب، ومن كفر منهما وظلم، فقد حكم الله عليه بالاحتراق بالنار كما يحترق الحطب.

وقوله: ﴿وَالْوَّاسِقَتُمُوعَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾^(١)، **والمقصود**

بالخطاب هنا القاسطون، لأن القاسط فيه معنى الانحراف عن طريق الحق والهدى، فلو استقام هؤلاء الذين مالوا عن الحق والهدى، وساروا على الطريق المستقيم وهو طريق الحق، وقد شبه الاستقامة على الحق والهدى بالسير على طريق واضح لا عوج فيه، يسير فيه الإنسان مستقيماً غير منحني على وجهه، **فشمل هذا التشبيه أمرين:** الطريق المستقيم، وهو الإسلام، وسير الإنسان عليه سيراً سليماً، ثم ذكر ثمرة هذه الاستقامة، وهي حصول البركة في رزقه وتوافر النعم عليه في الحياة الدنيا، فمن استقام على طاعة الله تعالى هياً الله له نعم الأرض كلها، وما حصل في هذا العصر من فقر وجوع في كثير من بلدان المسلمين، فهو ثمرة لانحرافهم عن الاستقامة، فإن المعاصي تُزيل النعم، وتذهب بالبركة فيها، **والمعنى:** لو استقام المكلفون على طريق الإسلام وهدايته، لأسقاهم الله تعالى ماءً كثيراً مستمراً غير منقطع، وسيكون من كثرة المياه وانتشارها ظهور الثمار، وحصول البركات والخيرات في الأرض، **وفي الحديث^(١):** أنه في آخر الزمان بعد نزول عيسى صلى الله عليه وسلم، الذي يملأ الرض عدلاً، تظهر البركات وتخرج الأرض خيراتها، حتى أن الفئام من الناس يستظلون بقحف الرمانة، إشارة إلى كبر حجمها.

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠)، برقم: (٢٩٣٧).



وقوله: ﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧)، أي: لنختبرهم بتلك النعم، فإن الله يختبر الناس بالشكر ويختبرهم بالخير، **كما قال:** ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، لينظر هل يشكرون أم يكفرون؟، فإن شكروا زادهم من فضله في الدنيا، وأثابهم على ذلك في الآخرة، وإن كفروا وأعرضوا عاقبهم وعذبهم في الدنيا بذهاب النعم وفي الآخرة بإدخالهم في عذاب جهنم، والإعراض المقصود به هنا الإعراض عن قبول الحق والعمل به، **وذكر** الله المقصود به هنا الدين كله، وليس مجرد الذكر باللسان، ويسلكه أي: يدخله عذاباً صعباً، أي: شاقاً، لا راحة فيه، **كما قال:** ﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨)، وهذا إخبارٌ من الله تعالى لبيان الغاية من بناء المساجد، وماذا يجب على المسلم أن يفعل فيها، فإنما بُنيت للعبادة، وإقامة ذكر الله، وتحقيق التوحيد، فلا يجوز في المسجد ولا في غير المسجد دعاء غير الله، وفي هذا إشارة إلى ما كانت تفعله قريش من جعل الكعبة مكاناً لعبادة الأصنام، **والمساجد فيها قولان** (١): اسم للمكان الذي يسجد فيه العبد لله، وهي بيوت الله **كما قال:** ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، أو هي أعضاء السجود، **والمعنى:** لا تسجد لبشرٍ كائنًا من كان، فالسجود لا يكون إلا لله وحده، وهو أكثر قداسةً من الركوع، والركوع منهى، وهو من عادات الأعاجم، فقد كانوا يركعون ويسجدون لملوكهم، **وفي** حديث زيد بن أرقم، **قال:** "بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى الشام، فلما قدم قال:

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٣٨٣/٥).



يا رسول الله، إني رأيت أهل الكتاب يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ألا نسجد لك؟ قال: لا" (١)، ولا تعارض بين المعنيين، فيجب أن تُنزّه بيوت الله عن الشرك وعن دعاء غير الله، والسجود لا يجوز إلا لله تعالى، وما يحصل من بعض الناس من السجود عند الشيخ، أو عند القبر، فكل هذه من الشراكيات الباطلة، وهو تشبه باليهود في بيعهم والنصارى في صوامعهم، فهم يدعون عزيزاً أو يدعون عيسى أو يدعون الصليب، والأصل أن هذه الأماكن بُنيت لعبادة الله وحده وإقامة التوحيد.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾، المقصود بـ (عبد الله) هنا: محمد ﷺ، والعبودية أعلى مرتبة وُصف بها في مقامات التكريم، فقد وصفه بها هنا في مقام الرسالة والبلاغ والبيان، ووصفه بها في مقام الإسراء به، **كما في قوله:** ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وهذا يدل على أن العبد كلما ارتفع شأنه؛ كلما ازدادت عبوديته لله تعالى.

وقوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٩)، **أي:** أن الجن اجتمعوا عليه، وهو يُصلي بأصحابه ويقرأ القرآن في وادي نخلة، فكادوا من كثرة تجمّعهم عليه وحرصهم على الاقتراب منه، أن يكون بعضهم فوق بعض، كما سبق ذكره في أسباب النزول، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على طلبة العلم إذا حضروا درساً أن لا يتفرقوا عن الدرس، ولا يجلسوا بعيداً عن الشيخ، بل يقتربوا منه ويسدوا الفرج، فلا يكون الجن أحسن أدباً من الإنس.

(١) المعجم الكبير للطبراني (٥/٢٠٨)، برقم: ٥١١٧



وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٢٠، قل يا محمد للمشركين من جن وإنس، إنما أعبد الله وحده لا شريك له، وأدعوه وحده دون سواه، وقد كانت قريش تحاول أن تحصل من النبي ﷺ على شيء من مدح وإقرار لآلهتهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ٢١، وقل لهم أيضاً أنا بشر مثلكم، لا أملك أن أنفعكم، ولا أملك أن أضركم، فهدايتكم ليست بيدي، وعذابكم أيضاً ليس بيدي، فأنا مبلّغ ومرشد لكم إلى الحق والصواب، والذي بيده الضر والنفع هو الله تعالى.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَجًّا﴾ ٢٢، وأخبرهم أنني لو خالفت أمره، وأشركت به، وقبلت بما عرضته قريش عليّ من المداينة والمهادنة للشرك؛ فلن ينقذني من عذاب الله أحد، ولن أجد عند غيره ملجأ، ألجأ إليه وأحتمي به من الخوف، ومنه اللحد في القبر، حيث يحفر إلى جهة معينة من أجل يكون المدفون فيه في مأمن من سقوط التراب عليه.

وقوله: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٢٣، إلا أداة استثناء، والاستثناء هنا منقطع، فلم يذكر المستثنى منه، ويُمكن تقديره: لا أملك أن أنفعكم ولا أملك أن أضركم، وما أملكه لكم هو البلاغ المبين، بأن أدلكم وأرشدكم إلى الحق، وأبلغكم عن الله رسالاته، وهي وحيه وأحكامه التي أنزلها عليّ، فهذه مهمتي، أنا مبلغ ورسول من الله إليكم، هذا الذي أملك أن أقوم به، ولا أملك أن أدخل الإيمان إلى قلوبكم، ومن يعص



الله ورسوله في أمر البلاغ والرسالة، فجزاؤه نار جهنم، فيعذب ويُخلد فيها، ولا يخرج منها أبداً.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ (٢٤)،

الخطاب للكفار، الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور، فإذا ماتوا وبُعثوا وشاهدوا ما كانوا يُوعدون من تطاير الصحف والحساب والنار؛ حين ذاك، يتحقق لهم العلم من هو الضعيف الذي لا ناصر له عند الله ولا يوجد معه حوله من الناس من يحميه ويدافع عنه، كما كانوا يحمونه في الدنيا، لأن الذي منع الكفار عن الإيمان هو الأشر والبطر والاعتداد بالمال والجاه والولد والسلطان، فكانوا يظنون أنها ستُنفعهم في الآخرة كما نفعتهم في الدنيا.!!

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (٢٥)، أخبرهم

يا محمد، أنك لا تدري بموعد الساعة، هل هو قريب، أم أنه ما زال موعدة بعيداً، فموعد قيام الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده، **وقد أخبر الله النبي ﷺ بعلامات قرب قيام الساعة، منها:** العلامات الصغرى، **مثل:** بعثته ﷺ، **ومنها** العلامات الكبرى، وهي التي ستكون قبل قيام الساعة، **مثل:** طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، وغيرها.

وقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) **إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ**

فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧)، فالغيب لله وحده، والله سبحانه هو عالم الغيب، ولا يُطلع على غيبه أحداً من الخلق، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً



مرسلاً، واستثنى من ذلك من ارتضى من رسول، وهو اسم جنس، **قيل** ^(١): المقصود به الملك كجبريل ^{صلى الله عليه وسلم} الذي ينزل بالوحي، فيحرّسه من بين يديه ومن خلفه حراسة شديدة بالملائكة بحيث لا يمكن لأحد أن يسترق منه السمع، ولا أن يخرج هذا الغيب عن الرسول الذي أرسل به إلى من أرسل إليه، **وقيل** ^(٢): المقصود به الرسول من البشر، فلا يطلع على الغيب إلا من ارتضاه الله للرسالة خاصة.

وقوله: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، الضمير في (ليعلم) يعود إلى الله ^(٣)، **والمعنى:** ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالتهم دون نقص أو تحريف، **وقيل** ^(٤): يعود إلى محمد، والمعنى: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، والأول أرجح، لأن الضمير في الأفعال بعده عائدة إلى الله دون سواه، فقد أحاط علماً بما لدى الملائكة الذين يحرسون الغيب والرسالة والوحي، وهو لا يخفى عليه من ذلك شيء، وأحصى كل شيء عدداً، على وجه الإجمال والتفصيل، وشيء نكرة أضيف إلى كل، فيشمل علم الله وإحاطته وإحصائه لعدد كليات وجزئيات الكون كله، من الحجر والشجر والمخلوقات والفيروسات والميكروبات التي لا يراها الإنسان، فضلاً عن أن يعلم تفاصيل حياتها.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٣٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٤٨).

(٤) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٤٢١).



فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن الجور والظلم والشرك سببٌ من أسباب دخول النار.
- ٢- أن الاستقامة على الطاعة سبب في نزول البركات، وأن المعصية سبب في محق البركات.
- ٣- أن الله حفظ الوحي وحرسه بملائكة شداد، حتى يبلغ إلى المرسل إليه كاملاً.
- ٤- سعة علم الله تعالى وإحاطته بعدد الجزئيات والكماليات في الكون كله.



تفسير سورة المزمّل

تفسير المقطع الأول من سورة المزمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْمَلُ ①﴾ قُرِ الْإِلَّ إِلَّا قَلِيلًا ② يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ
لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬
يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا ⑭﴾

شخصية السورة:

سورة المزمّل؛ سورة مكية^(١)، وهي من أوائل السور التي نزلت بمكة،
وسُميت بسورة المزمّل لمُخاطبة الله تعالى للنبي ﷺ بهذا الوصف، ومقصدها
الأعظم هو الدعوة إلى الإسلام، وبيان أهميتها، وأنها حملٌ ثَقِيلٌ يحتاج إلى
عوامل مساعدة حتى يقوم بها النبي ﷺ ومن اتبعه على أكمل وجه.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٤٩ / ٨).

قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْلُ﴾ (١)، هذا أسلوب من أساليب التلطف بالمنادي، ومن تعظيم الله تعالى للنبي محمد ﷺ، لم يُناد به باسمه أبداً، بل ناداه باسم النبوة والرسالة وبوصفٍ مؤقت من باب التلطف معه كالمتزمل والمتدثر، والمتزمل^(١)؛ هو الملتف بثيابه، وهل المقصود بهذا الوصف الحقيقة أم المجاز؟ **قولان^(٢): فالحقيقة:** أن النبي ﷺ، كان ملتغماً بثوبه حين جاءه الوحي وناداه الله بهذا الوصف، **والمجاز:** معناه أن النبي ﷺ، متزمل بالرسالة والنبوة، أي: مُشمر لها، ومُهمته بالقيام بها، ومستعد للخروج لتبليغها، والأول أرجح؛ لأن الأصل في الكلام هو الحقيقة، ولا يُنتقل إلى المجاز إلا لصارف أو قرينة، والأصل فيها يا أيها المتزمل، وإنما أُدغمت التاء للتخفيف^(٣).

وقوله: ﴿وَالَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) نَضْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)، المطلوب منك أن تقوم الليل بالصلاة، ومعنى ذلك أن النبي ﷺ، كان مُلتغماً بثيابه استعداداً للصلاة، فأمره الله تعالى بأن يستغرق الليل في الصلاة النافلة، وأن لا ينام إلا وقتاً قليلاً منه، **كما في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) [الذاريات: ١٧]**، أي: كانوا ينامون وقتاً قليلاً من الليل، وإلا فوقتهم كله في قيام وصلاة وعبادة وذكر، والأمر يدل على الوجوب والفرضية، وقد كانت صلاة الليل في بداية الإسلام واجبة، كما **قالت عائشة^(٤): "إن الله افترض**

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٣٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٣٤١).

(٤) صحيح مسلم: (١/ ٥١٢)، برقم: (٧٤٦).



قيام الليل في أول هذه السورة، فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة"، وكان الواجب فيها أن يقوم ما حُدد له منه، وهو: الليل إلا قليلاً منه، أو نصف الليل، أو ثلثه، أو ثلثاه، وقد كان الصحابة جادين وحريصين على تنفيذ هذا الأمر، وكان يشق عليهم حساب الليل، فكان بعضهم يتجاوز الليل كله حتى لا يُنقص من المطلوب شيئاً^(١)، ثم خفف الله عنهم بعد ذلك، وأمره أن يقرأ القرآن بتمهل، وهو الترتيل وهو القراءة المعتدلة مع التدبر لما يقرأ، وفي هذا الفائدة والمنفعة للقلب والفكر، ويؤثر ذلك في الاستقامة وزيادة الإيمان وانسراح الصدر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٣)، هذا هو علة لأمره بقيام الليل وترتيل القرآن وتدبره، من أجل أن يُساعدك هذا العمل الصالح على تحمل القول الثقيل الذي سنلقيه عليك، وهو الرسالة وإبلاغها، وماذا يُقصد بكلمة ثقيل؟! **قيل**^(٣): ثقيل وقت نزوله؛ كما **قال زيد بن ثابت**: "أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي"^(٤)، **وقالت عائشة**: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/٦٧٨).

(٢) صحيح ابن حبان: (٦/٣١٨)، برقم: (٢٥٨٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/٢٥١).

(٤) صحيح البخاري: (٤/٢٥)، برقم: (٢٨٣٢).



ليتفصد عرقاً" ^(١)، **وقيل** ^(٢): ثقیل من حیث العمل به، **وقيل** ^(٣): ثقیل فی المیزان یوم القیامة، فأجر من یدعو إلیه ویتعلمه ویقرأه کبیر، ولا تعارض بین هذه الأقوال کلها، فهو ثقیل من حیث نزوله علی النبی ﷺ، وثقیل من حیث العمل به والاستقامة علیه؛ لأنه أمانات یحتاج الإنسان أنه یتحملها بقوة حتی یؤدیها كما أمر الله تعالى، وثقیل فی المیزان یوم القیامة من حیث الأجر المترتب علیه.

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ ^(٦)، وهذا تعلیل للأمر بقیام اللیل والترتیل، فناشئة اللیل؛ هی ساعة اللیل التي تنشأ فیها ^(٤)، وهي القیام بعد نوم، وسمیت ناشئة؛ لأنها تنشأ بعد أن کان الإنسان قد نام وأخلد إلی الراحة، فیقوم من جدید، فقیامك للصلاة بعد نوم فی اللیل سواء کان بعد العشاء أو فی نصف اللیل أو فی الثلث الآخر کله یسمى ناشئة، واختیرت **لسببین:**

الأول: أن ما یُتلى ویُقرأ فیها من القرآن أكمل مواطأة وموافقة للسان مع القلب، فقلبك حاضر، وسبب حضور القلب أنك قمت من النوم، ولا یوجد ملفات مفتوحة فی دماغك تفکر فیها، كالذي یأتي من المتجر أو من الشارع ویدخل إلی الصلاة، فستبقى ملفات مفتوحة فی ذهنه، وهو یُصلي ویقرأ؛ فتشغله تلك الملفات المفتوحة عن التدبر، وتحول بین موافقة لسانه فی التلاوة لقلبه.

(١) صحیح البخاری: (٦/١)، برقم: (٢).

(٢) ینظر: تفسیر ابن کثیر: (٢٥١/٨).

(٣) ینظر: تفسیر القرطبی (٣٨/١٩).

(٤) ینظر: معانی القرآن وإعرابه للزجاج: (٢٤٠/٥).



والسبب الثاني: أن طبيعة الليل هو الهدوء، سواءً على مستوى النفس أو من حولها؛ فحصل هدوء من حيث الزمان، وهدوء واستعداد من حيث النفس، وطئاً؛ **فيها قراءتان^(١):** بكسر الواو، والمد، **أي:** أشد مؤاطاةً للقول، وفراغاً للقلب، وبفتح الواو والقصر، **بمعنى:** أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار.

وقوله: ﴿وَأَقِمْ وَفِيلاً﴾، **أي:** وأصوب في القول، فليس فيها غلط ولا نسيان؛ لأن العقل غير مشتب، وهناك هدوء حولك، فانعدمت أسباب الخطأ للقراءة من الحفظ.

وفي قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، **أي:** فخص الليل بالعبادة وقراءة القرآن والذكر، واستغل النهار في قضاء أشغالك، من تجارة وصناعة وزراعة، ونحوها من المشاغل الدنيوية، وفيه إشارة إلى جعل الليل محلاً للعبادة والطاعة، فالناس نائمون، وأنت تذكر الله وتعبده، وفي ذلك فضل كبير، **كما قال:** ﴿أَمِنْ هُوَ قَتَيْتْ عَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً﴾ [الزمر: ٩]، فلا تشغل ليلك بالسهر على المحرمات، فيضيع وقتك في اكتساب الآثام، وفيه إشارة إلى أهمية الحفاظ على الوقت، فلا تُضيّع دقيقة منه إلا فيما ينفعك في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وأمره الله أن يذكر اسمه بلسانه وقلبه، وينقطع عن الخلق بالتفكير في مخلوقاته تعالى، والتأمل في نعمه، **كما في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾** [الشرح: ٧-٨]، **والتبتل؛** هو

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣ / ٦٨٤).



الانقطاع للعبادة^(١)، وفي الحديث: "رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، أي: ترك الزواج لأجل التعبد، ولو أذن لنا لاختصينا"^(٢)، أي: لقطعنا عروق الخصية، قطعاً للشهوة.

وقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذكر المشرق والمغرب على سبيل الجنس، والمقصد المشارق كلها والمغارب كلها، **كما قال:** ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، لأن الشمس تعدد مشارقها ومغاربها خلال العام، والقمر يكون تبعاً لها، وهو رب الكون كله، وهو من باب ذكر الجزء الذي يدل على الكل، والله الإله الذي لا يُعبد بحقٍ إلا هو، ووجود آلهة غير الله من أصنام وأوثان وصُلبان ونيران وكواكب فهي معبودة بغير حق.

وقوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾^(١)، وهذا هو الأمر الخامس له، أي: فوض أمرك إلى الله واعتمد عليه لا على غيره، فهو الذي يُعينك على تنفيذ ما أمرك به من قيام الليل، وترتيل القرآن، وذكر الله المطلق، والانقطاع للعبادة، فهذه كلها تحتاج إلى من يعينك عليها ويُوفقك إليها، وهو الله تعالى، وهو الوكيل الذي يجب عليك الاعتماد عليه في أمورك كلها حتى تُنجزها؛ فإنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَصِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرِجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١)، وهذا هو الأمر السادس والسابع له، وقد كان ذلك في بداية تبليغ الرسالة؛ لأنه سيواجه كلاماً

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٥ / ٢٤١).

(٢) صحيح البخاري: (٧ / ٤)، برقم: (٥٠٧٣).



سيئاً يُؤذيه من كفار قريش، كقولهم عنه: إنه ساحر أو كاهن أو مجنون ونحوها، فأمره بالصبر على ذلك كله، كما أمره بالهجر الجميل لهم، فلا يشغل باله في التفكير في سبهم وشتمهم حتى لا يؤثر ذلك على نفسه، **والهجر**: هو ترك الشيء ومفارقتة، ووصف الهجر بالجميل، **وهو الذي يتوفر فيه شرطان**:

الأول: أن يكون لمصلحة دينية راجحة وليس لمصلحة شخصية.

والثاني: أن تترك الشكوى من الشخص الذي هجرته وتكتفي أنك هجرته لله، فهذا هو الهجر الجميل.

وكان هذا هو المشروع للمؤمنين في الفترة المكية، بسبب ضعفهم، وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية وأمثالها نُسخَت بآيات الجهاد والأمر بالقتال^(١)، والصحيح أنه لا نسخ، فآيات الصبر والإعراض والهجر الجميل مُحْكَمَةٌ، وآيات القتال والجهاد مُحْكَمَةٌ، ويعمل بهما في حالتين مختلفتين، فإذا كان المؤمنون في حالة ضعفٍ واستضعافٍ؛ فالواجب عليهم الصبر والإعراض، وإن كانوا في حالة قوةٍ وقدرةٍ على القتال؛ فالواجب عليهم الجهاد.

وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾، وأخبره أن يترك أمر المكذبين أصحاب التنعم له، وهو سيتصرف معهم بما يستحقون، **قيل**^(٢): نزلت في بني المغيرة، وهم قوم من قريش كانوا متنعمين في الدنيا، **والصحيح** أن اللفظ عام يشمل المكذبين من أهل مكة ومن غيرهم، من أصحاب النعمة. ما الفرق بين

(١) ينظر: الناسخ والمنسوخ، للنحاس: ٢٩٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٤٢٤ / ٢).



النَّعْمَة والنَّعْمَة؟! النِّعْمَة من الإنعام، والنَّعْمَة من التَّعْنَم، **والمعنى:** أن الله تعالى، أعطاهم نِعْماً ظهرت على أجسادهم، وأحوالهم.

وقوله: ﴿وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾، **أي:** لن نتركهم عمراً طويلاً بدون عقوبة، بل سنعطيههم مهلة قليلة لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الله، وهذه الآية تشير إلى ما حصل لهم في غزوة بدر^(١)، فقد قتل منهم سبعون رجلاً من المتنعمين.

وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾، ثم أخبر الله عما أعدّه لهم من العذاب في الآخرة إن ماتوا على الكفر، فالأنكال؛ هي القيود^(٢)، **وقيل**^(٣): أعد لهم عذاباً يُنْكَلُ بهم، **أي:** يُقْعِدُهم بلا حركة كالمقيدين، ولا مانع من اجتماع الأمرين بحقهم في النار المشتعلة بهم، فيجمع لهم العذاب الحسي والعذاب النفسي، وبين النكال والجحيم.

وقوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾، **أي:** وأعدنا لهم طعاماً ذا غصة، **والغصة:** ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره^(٤)، فلا يستطيع أن يبلعه ولا يستطيع أن يُخرجه، **وقد اختلف المفسرون**^(٥) في نوع هذا الطعام، **فقيل هو:** شجرة الزقوم، **وقيل هو:** الغسلين، **وقيل هو:** الضريع، وهذه كلها أنواع، وأعدنا لهم عذاباً أليماً في النار، ووصف العذاب بالأليم؛ لأنه يؤلم خلايا الجسم كلها.

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٩٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨٩٣).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٨٢).

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٥٥).



وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ كَثِيرًا مِّمَّهْلًا﴾^(١)، وسينالهم هذا العذاب في يوم القيامة، حين تضطرب الجبال وتتحول إلى رمل سائل متحرك من شدة اضطرابها، **والرجفة:** الزلزلة والردة الشديدة، **والكثيب:** الرمل، **والمهيل:** السائل المتحرك^(١)، مما يدل على أن الرجفة عظيمة، كما قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [الواقعة: ٥]، أي: تُفْت وتُذَق، ثم تنسف نسفًا، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أهمية قيام الليل للمؤمن عمومًا وللداعية خصوصًا الذي يُريد أن يُبلغ رسالات الله.
- ٢- أهمية تلاوة القرآن وذكر الله والصبر والتوكل على الله لتحمل تكاليف الشريعة.
- ٣- بيان أن قيام الليل من أفضل الأساليب لمراجعة القرآن وحفظه.
- ٤- أن القيام بتكاليف الإسلام كلها يحتاج إلى تربية شاملة للعبد، وكلما تربى العبد تربية إيمانية متكاملة شاملة كلما ثبت دينه وصلح حاله.
- ٥- أن الفترة المكية كانت من أعظم فترات التربية الشاملة للمؤمنين، وتخرج منها الذين نشروا الإسلام قادوا الفتوحات بعد ذلك.

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٣٧٦/٢٢).



تفسير المقطع الثاني من سورة المزمل

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾
 ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلِيلٍ وَنِصْفَهُ ۚ وَأَنْتَ ۖ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، الخطاب موجه إلى كفار مكة، فقد أرسل الله إليهم رسولاً، وهو محمد ﷺ، وهو شاهدٌ عليهم في الدنيا وشاهدٌ عليهم في الآخرة، كما سبق أن أرسل موسى إلى فرعون، وإنما لم يذكر هنا اسم موسى لأنه واضحٌ من السياق، فرسول الله الذي أرسله إلى فرعون هو موسى، وأما هارون فهو تبع بطلبٍ من موسى ليشد أزره ويشرکه في أمره، وهو أسلوب تعريض بكفار قريش؛ لأنهم قد علموا نهاية فرعون بسبب كفره، ومصير كل كافر هو الهلاك.



وقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾^(١)، بيان لموقف فرعون من موسى عليه السلام، حيث عصى فرعون ولم يطع موسى فيما أرسل به إليه، فترتب على عصيانه أن أخذه الله أخْذًا شديدًا قاسيًا، **والوبيل**^(٢): الثقل الغليظ جدًّا، ومنه الوابل، وهو المطر الشديد، وقد وصف الله لنا في آيات أخرى كيف أغرق الله فرعون في البحر.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(٣)، الخطاب لكفار مكة، كيف تمنعون أنفسكم من عذاب يومٍ عظيم إن بقيتم على كفركم، لأن الذي يُعذب ويُنكل به في الآخرة هم الكافرون، أما المؤمنون فإنهم من فزع يومئذ آمنون، ومن شدة فزع الناس في ذلك اليوم تشيب رؤوس الولدان صغار السن من هول الموقف وشدته^(٤)، وفيه إشارة أن الفزع والخوف من أسباب الشيب، **وقيل**^(٥): إن سبب شيب الولدان. هو شدة طول ذلك اليوم، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيب.

وقوله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾^(٦)، فالسمااء متشقة فيه، أو بسبب هوله، **وذكر لفظ** (منفطر) لمعاملة السماء معاملة السقف، فكل ما فوق رأسك يسمى سماء، **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أو لأن السماء من الألفاظ التي تأنيثها مجازي، فيجوز أن توصف بلفظ المذكر^(٧)،

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٦٩٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٩٦).



والضمير في: ﴿وَعَدُّهُ﴾، عائد إلى الله، أي: كان وعدُّ الله كائنًا لا يتخلف.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٩)، إن هذه

السورة (١)، أو ما سبق أن ذكرناه لكم من أوصاف يوم القيامة (٢)، موعظة لمن أراد أن يتعظ، وآيات القرآن كلها تذكرة وموعظة، فمن يريد أن يهتدي بهذه الآيات، ويتعظ بها ويتخذها طريقًا صحيحًا يوصله إلى الجنة؛ فليفعل، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان مسؤول عن نفسه، وأن الله تعالى لا يُجبر الخلق على الإيمان أو على الكفر، خلافًا لمن يقول أن الإنسان مُجبر على أفعاله، وهو مذهبٌ باطل، بل إن الله تعالى أعطى الإنسان مشيئةً لاختيار الإيمان والكفر، والهدى والضلال، بعد أن منحه هداية الإرشاد والبيان والتوجيه، **كما قال:** ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، **وقال:** ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فللعبد مشيئة، ولكنها داخلية تحت مشيئة الله، **كما قال:** ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فيمنح الله العبد التوفيق في اختيار الحق، أو يخذله، فيقع في الضلال والانحراف، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾،

هذه الآية نزلت متأخرة عن بداية السورة، **كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها**، أنها قالت: إن الله تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨٩٤).



في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(١)، وذكر الله تعالى في بداية هذه الآية توطئة بأن الله قد علم منك الامتثال لأمره بقيام الليل فقامت أنت وجماعة من أصحابك المؤمنين تارة أقل من ثلثي الليل، وتارة نصفه، وتارة ثلثه، وذلك كله من غير قصد منكم، لأنه يشق عليكم المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لصعوبة ضبطكم لهذه الأوقات.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ آيِلَ وَالنَّهَارَ﴾، جملة اعتراضية تبين أن الله وحده هو القادر على أن يُحصي ساعات الليل والنهار بكل دقة، وكان الرجل من الصحابة يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر الله به من قيام ما فرض عليه^(٢)، وكان في تلك الأيام لا يوجد لديهم وسائل للتنبيه أو ساعات لضبط الأوقات، وإنما كان الأمر على سبيل التقدير، **وعلل التخفيف بقوله:** ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَأْتِيَكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: علم أن لن تُطبقوا الاستمرار على هذه العبادة بهذا النوع من التكليف الدقيق، ولكن طالما قد امتثلتم الأمر وبذلتم وسعكم في تنفيذه، فإن الله قد خفف عنكم.

وقوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، أي: فيكفيكم أن تصلوا ما تيسر لكم من ساعات الليل كل حسب استطاعته، فنقلهم من القيام بالزمان من ثلثي الليل، ونصف الليل، وثلث الليل، إلى القيام بما تيسر من الآيات، **وفي الحديث:** "من قام الليل بمائة آية لم يُكتب من الغافلين"^(٣)، ثم ذكر الأعذار التي تعتري البشر،

(١) صحيح مسلم: (٥١٢/١)، برقم: (٧٤٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٣٨٥/٢٢).

(٣) صحيح ابن حبان: (٣١٠/٦)، برقم: (٢٥٧٢).



وتحول بينهم وبين قيام الليل، **فقال:** ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ﴾، وهذا هو العذر الأول، وهو أن الإنسان مُعرض للمرض، وفي وقت المرض لا يستطيع قيام الليل، كما لو كان صحيحًا.

وقوله: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وهذا هو العذر الثاني، وهو السفر في طلب الرزق والتجارة، فلا يتيسر له قيام الليل، كما لو كان مقيمًا، وسمى السفر ضربًا في الأرض؛ لأن الماشي يضرب الأرض برجله.

وقوله: ﴿وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا هو العذر الثالث، وهو الانشغال بالقتال والجهاد في سبيل الله، فإذا قلنا إن هذه الآية مكية لأن السورة كلها مكية، فهي بشارة للمؤمنين أنهم سيُتاجرون بعد فقرٍ، ويكسبون مالًا، وأنهم سيُقاتلون ويغزون عدوهم بعد أن منعوا عن القتال في مرحلة الاستضعاف.

وقوله: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَتَسَرَّمُ مِنْهُ﴾، وكرر هذه العبارة مرتين، ففي المرة الأولى كان السبب لها عدم قدرة المسلمين على إحصاء الليل، وفي الآية الثانية كان السبب لها ما ذكره من الأعذار الثلاثة، والضمير في (منه)، عائد إلى القرآن الكريم.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، أي: استمروا في المحافظة على الصلوات الخمس واعتنوا بإقامتها، فلم يجر تخفيف فيها، وإنما جرى التخفيف في نافلة قيام الليل، والإقامة معناها أداء الصلاة بكل أركانها وشروطها وواجباتها، وآتوا الزكاة؛ أي: أعطوها لمستحقيها بطيب نفس وإخلاص لله، فإن قلنا إن الآية مكية، فلم يكن ثم زكاة في مكة، فإنها لم تُفرض إلا في المدينة،



فيكون المقصود بذلك صدقة التطوع العامة، أو أنها إشارة إلى فريضة الزكاة التي ستفرض عليهم في المدينة.

وقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، القرض الحسن؛ هو مطلق الصدقة بطيب نفس لمن يستحقها، دون مَنْ ولا أذى، وسماها قرضًا حسنًا؛ لأن الله طلبها من العبد، وسيعيدها له بأجر مضاعف، **وفي الحديث:** "إن الله يأخذ صدقة أحدكم بيمينه ثم يُبارك له فيها أو يريها كما يُربي أحدكم فُلوه أو فصيله، وإن التمرة تُصبح يوم القيامة كجبل أحد" ^(١).

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وهذا أسلوب تحفيز وتشجيع فقد سمي الصدقة للمخلوقين قرضًا مع الله، والخالق كريم سيعطيك أضعافها، وأنت مُقبل على الآخرة، وفي الآخرة تحتاج إلى الحسنة لترفعك درجة، فقدم لنفسك الخير من الآن، ونكر لفظ خير لتدل على العموم والتنوع لكل خير حسي أو معنوي، **وفي الحديث:** "لا تحقرن من المعروف شيئًا" ^(٢)، فإذا لم يجد الإنسان مالا يتصدق به ويُقدمه لنفسه، فليقدم أعمالًا خيرية أخرى من ذكرٍ واستغفارٍ وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإمطة الأذى عن الطريق ونحوها من الأعمال الصالحة، وسيجدون أثر ذلك الخير وثمرته عند ملاقاته لله في أول منازل الآخرة وهو القبر، فيأتي العمل الصالح على صورة رجل صالح يُؤنس صاحبه في قبره، ويوسع له فيه، ويأتيه من رَوْح الجنة وريحانها، حتى

(١) صحيح البخاري: (١٠٨/٢)، برقم: (١٤١٠)، وصحيح مسلم: (٧٠٢/٢)، برقم: (١٠١٤).

(٢) مسند أحمد: (٣٠٩/٢٥)، برقم: (١٥٩٥٥)، وصحيح مسلم: (٢٠٢٦/٤)، برقم: (٢٦٢٦).



يبعث فيدخل الجنة.

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾، أي: هذا الخير الذي قدمته لله، هو أفضل ما تقدمونه للآخرة، وأعظم ثوابًا فيها.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي يستر، يُغطي الذنوب، ويرحم العبد المذنب الذي وقع في الخطأ والتقصير، فيؤجل عنه العقوبة حتى يتوب، وفيه إشارة إلى أن العبد مهما فعل من هذه الطاعات والقربات إلا أنه لا بد من التقصير فيها والخطأ؛ لأنه غير معصوم.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن أحداث يوم القيامة عظة وعبرة وتذكرة لمن تذكر.
- ٢- أن المشقة تجلب التيسير، فحين شق على المؤمنين الأوائل قيام أغلب الليل ولكنهم امتثلوا؛ أنزل عليهم التخفيف.
- ٣- أن حكم قيام الليل هو الاستحباب، ومن أهمل وترك الوتر منه فقد فرط.
- ٤- من أساليب التحفيز أن سمى الله الصدقة قرصًا له سيجده صاحبه يوم يلقى الله تعالى.
- ٥- الاستغفار مأمورٌ به بعد الطاعة لاحتمال وقوع الإنسان في القصور والضعف، وبعد المعصية للتوبة من الذنب.



تفسير سورة المدثر

تفسير المقطع الأول من سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَنَبَاكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَارِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝١٦ سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْتِرُ ۝٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝٢٧ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ۝٢٨ لَوْلَا أَنَّ لِلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۝٣١ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۝٣٢ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾

شخصية السورة:

سورة المدثر، سورة مكية^(١)، نزلت بعد سورة العلق، فقد جاء في

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨ / ٢٦١).

الصحيح^(١): "أن الوحي فتر عن النبي ﷺ، حتى كان النبي ﷺ يذهب إلى الجبال والشواحق، فيراه جبريل فيقول له: اثبت فإنك رسول الله، ثم رأى النبي ﷺ جبريل على هيئته جالساً على كرسي قد سد الأفق، فأصابته رهبة، فرجع إلى خديجة فقال: (دثروني دثروني)، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾"، والعلاقة بينها وبين التي قبلها؛ أن في سورة المزمل أمره بأفعال خاصة تُعينه على الطاعة وتقوي قلبه لاستقبال الوحي، بينما في سورة المدثر أمره بالقيام بالإنذار والتبليغ، فالأولى تهيئة وسبب للثانية.

والمقصد العام للسورة: الأمر بالاجتهاد بدعوة الكافرين المكذبين، بالبيان وإبلاغهم الرسالة، وإنذارهم بالقرآن الكريم، وتخويفهم بالنار، وذكر نماذج لبعض المكذبين به.

ابتدأت السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾، هذا نداء فيه معنى التلطف بالنبي ﷺ، وإدخال السرور عليه، وليس بالضرورة أن يكون لقباً له، وإنما هو وصف له في حالة مؤقته، وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع بعض أصحابه، فقد دخل يوماً المسجد فوجد علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نائماً على حصباء المسجد وقد أثر التراب على جسده، فقال له مداعباً ومتلطفاً به: "قم يا أبا تراب"^(٢)، **والمدثر** هو المتغطي بثوبه.

وقوله: ﴿فُرْقَانٍ ۝٢﴾، ومن حين نزلت عليه كلمة "قم" ما جلس ولا قعد

(١) صحيح البخاري (٧/١)، برقم: (٤)، وصحيح مسلم: (١/١٤٣)، برقم: (١٦١).

(٢) صحيح البخاري (٩٦/١)، برقم: (٤٤١).



عن الدعوة بل استمر في نشاطه وسعيه في الدعوة والبلاغ حتى توفاه الله، والمعنى: يا أيها المتغطي بثوبه، قم وانهض، فقد ذهب وقتُ النوم والكسل، وجاء وقت العمل والسعي في الدعوة والبلاغ وتعليم الناس التوحيد والإيمان، والقيام هو أن يأتي الإنسان بالشيء على أكمل وجه، **كقوله: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾** [الإسراء: ٧٨]. **أي:** أدها على أكمل وجه، والفاء واقعة في جواب الأمر، الدالة على الاستعجال وعدم التسويف، فانهض مباشرةً إلى إنذار قومك، ولا تتأخر!!.

وقوله: ﴿ وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ﴾ (٢)، **أي:** اجعل الله تعالى أعظم شيءٍ في حياتك، فكل شيءٍ دون الله صغير.!

وقوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٤)، للمفسرين في معنى هذه الآية أقوال^(١)، **قيل:** ونفسك، طهرها من الشرك والمعاصي وسيء الأخلاق، **وقيل:** وثيابك التي تلبسها يجب أن تكون طاهرةً من الأنجاس والأوساخ، **وقيل:** وخلقك فحسنة، والمعنى يشمل هذا كله، وإن كان الأصل في الخطاب على ما اعتاد العرب من المعاني الظاهرة، وظاهر اللفظ أنها الثياب المعروفة، فإذا كان أمره بتطهير ثيابه الظاهرة، فمن باب أولى أن يُطهر قلبه أو أن يُطهر نفسه، وإذا كان أمره أن يتطهر من النجاسات المحسوسة، فمن باب أولى أن يأمره أن يتطهر من النجاسات الخفية، مثل الشرك وسائر المعاصي وأدرانها.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٣٩٢/٥).



وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (٥)، الرجز؛ فيه قراءتان^(١): بكسر الراء وضمها، فالضم المقصود به الشرك والأوثان، وعبادة غير الله، أي: اهجرها وابتعد عنها، وبالكسر المقصود به العذاب، أي: اهجر كل ما يؤدي إلى العذاب، والجمع بين المعنيين ممكن، فترك الشرك يدخل في ترك ما يوجب العذاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (٦)، للمفسرين فيها أقوال^(٢)، منها: لا تُعطي غيرك شيئاً، وتطمع بأكثر منه، ومنها: لا تعمل الأعمال الصالحة، وتظنها كثيرة فتمنّ بها على الله، ومنها: لا تضعف أن تستكثر من الأعمال الصالحة، بل قوِّ نفسك واستمر في أدائها، وكلها معانٍ قريبة من بعضها، والمقصد من ذلك أن يجتهد في طاعة الله وعباداته وأعماله، وأن لا يمنّ بهذه العبادات على الله، ولا على الخلق، بل المنة لله سبحانه الذي وفق لذلك.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٧)، اللام هنا لام الاختصاص، أي: لربك لا لغيره فاصبر، بمعنى أخلص نيتك لله في عملك، واستمد منه الصبر، وفيه استشعار اختصاص الرب بالعبادة؛ لأنه الذي خلقك ورباك، والصبر يشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على ابتلاءات الله وأقداره المؤلمة.

وقد قام النبي ﷺ بما أمره الله من أوامر سابقة على أكمل وجه، فمنذ أن أمره الله بالقيام قام ولم يجلس، واستمر في الدعوة والبلاغ، قالت عائشة

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٢).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٠).



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "كان النبي يصلي في آخر عمره جالسًا، فقيل لها: لم؟ قالت: حطّمه الناس" ^(١)، **أي:** صار يصلي جالسًا من ضعفٍ حل به بسبب ما كان يُلاقيه من الناس من لقاءات وزيارات وطلبات وأعمال، ولم يكن له حُجّاب يحجبونه عن الناس، بل كان يُقابل كل الناس حتى الطفلة الصغيرة كانت تراه في الطريق، فتأخذ بيده، وتسأله فيجلس إليها ويتكلم معها.

وكبّر الله أعظم تكبير، واتقاه حق تقواه، حتى **قال عن نفسه:** "والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلم بما أتقي" ^(٢)، فلا أحد يحاول أن يصير أحسن منه في هذا الباب.

وفي باب الطهارة فقد بلغ المنتهى في ذلك، فقد كان يكره أن تشم منه رائحة كريهة، فكان يستاك ويُطيب فمه، ويُطيب ثيابه، ويغتسل، **وقد عُرف عنه** ^{صلى الله عليه وسلم}، أنه كان يكره أن يُشم منه رائحة غير طيبة، حتى تأمرت عليه زوجته وقالت له بعد أن شرب عسلًا عند إحدى زوجاته: "إننا نشم منك رائحة مغاير"، والمغاير؛ شجرة لها رائحة كريهة، فقال: "بل شربت عسلًا، فقالوا: بل رائحة مغاير، فحرّم أن يشرب العسل مرةً أخرى" ^(٣)، فقد بلغ أعلى رتبة في الطهارة والنظافة ظاهراً وباطناً، قلباً ونفساً، وأطهر الناس جسداً ورائحة.

وهجر الشرك، وأسباب العذاب، فلم يُؤثر عنه ^{صلى الله عليه وسلم}، أنه سجد لصنم، أو

(١) صحيح مسلم: (٥٠٦/١)، برقم: (٧٣٢).

(٢) صحيح مسلم: (٧٨١/٢)، برقم: (١١١٠).

(٣) صحيح البخاري: (١٥٦/٦)، برقم: (٤٩١٢).



استمع إلى منكر قبل البعثة أو بعدها.

ولم يستكثر عمله، بل استمر في العبادات والطاعات، حتى قالت له عائشة حين رآته يقوم الليل حتى تتفطر قدماه: "أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً^(١)، فلم يستكثر العبادة والطاعة والعمل الصالح على ربه.

وأما في باب الصبر فقد بلغ منتهاه، فصبر على أذى قومه، وصبر على دعوة الناس وتعليمهم، وصبر على ما نزل به من الفقر والحاجة، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾^(٨)، فإذا حان وقت قيام الساعة، وصاح إسرافيل في الناقور، وهو البوق أو القرن، وفي الحديث: "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر"^(٢)، فإذا نفخ فيه النفخة الأولى، مات كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وإذا نفخ فيه النفخة الثانية قام الناس إلى ربهم يُحشرون.

وقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٩)، أي: يوم القيامة سيكون يوماً فيه شدة، وخوف على الكافرين، ولن يكون يسيراً عليهم، ومن هذا نفهم أن الأمر يومئذ سيكون يسيراً على المؤمنين، كما قال عنهم: ﴿وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ أَمْنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

(١) صحيح البخاري: (١٣٥ / ٦)، (٤٨٣٧).

(٢) مسند أحمد: (٩١ / ٣٢)، برقم: (١٩٣٤٥).



ثم قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ ﴿١١﴾، هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان من أثرياء وأغنياء قريش، وقد جاء إلى النبي ﷺ، فقراً عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا؛ ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتنال منه شيئاً، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرهم مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بشاعر الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، ففكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ ﴿١١﴾.

لقد خاف كفار قريش أن يُسلم الرجل، وإذا أسلم الوليد فسيُسلم بعده كثير منهم، لأنه كان من عليّة القوم، فاقتنص أبو جهل الفرصة وكان يعرف صفات الوليد بن المغيرة، فقد كان صاحب أنفة، لأنه غني وثري، فاخترع تلك الكذبة ليحرك فيه الغيرة الجاهلية، وأخبره أن قومه لن يقبلوا منه حتى يقول في محمد قولاً يُثبت أنه ما ذهب ليطلب منه شيئاً، فدفعوه إلى أن يقول: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد سحرٌ أثره عن غيره، **فقال الله لنبيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ**

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم: (٢/٥٩٦)، برقم: (٣٩٢٩)، وصححه علی شرط البخاری.



وَحِيدًا، أي: أتركه لي، وهذا نوع من التهديد والوعيد، فالمعركة قد انتقلت من بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم والوليد إلى أن تكون بين الله والوليد، ومن يقف أمام الله تعالى! ثم بدأ يصفه، فقد خلقته وحيدًا في بطن أمه ضعيفًا، ثم أخرجها منها جنيًا ضعيفًا، لا شيء له من مال ولا ولد، **وقيل** ^(١): أن وحيدًا، صفة الله تعالى، **والمعنى**: ذرني ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، فأنا أعلم به، وأقدر عليه، وقوله: **﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾** ^(١٢)، أي منحته مالًا كثيرًا، **قيل**: كان ماله أربعة آلاف دينار من الذهب ^(٢)، وكان عنده أراضٍ ممتدة، فهو من أغنياء وأثرياء قريش.

وقوله: **﴿وَبَيْنَ شُهَدَا﴾** ^(١٣)، أي: وجعلت له بنين من الذكور، قيل: كان عددهم عشرة ^(٣)، ووصفهم بالشهود، أي: حاضرين مع أبيهم يلتفون حوله، غير مبتعدين عنه، لأنهم أغنياء، فلم يتفرقوا في طلب الرزق.

وقوله: **﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾** ^(١٤)، أي: منحت له من وسائل الرزق والراحة الشيء الكثير، فأمره كلها ميسرة، **قيل** ^(٤): كانت تصله غلة شهر بشهر، من أمواله وأراضيه وتجارته، ونحوها.

وقوله: **﴿ثُمَّ يَطْعَمُ أَنْ أَزِيدَ﴾** ^(١٥)، ثم يأمل ويرجو أن أزيده من المال والولد

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤١٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: المصدر السابق.



على ما أعطيته، **الجواب:** ﴿كَلَّا﴾، وهي كلمة ردع وزجر، تنفي ما سبق، **أي:** لن أزيده شيئاً، ثم بيّن السبب، **فقال:** ﴿إِنَّهُ كَانَ لَإِيْتِنَا عَيْنِدَا﴾ (١٦)، **أي:** جحدوا، لأنه كفر بعد أن علم الحق، فقد كان وصف القرآن بأنه أحسن الأوصاف، ولكنه رجع عن ذلك بسبب الحمية الجاهلية، ووصفه بالسحر، واستمر في كفره.

ثم هدده الله تعالى، بقوله: ﴿سَأَرْهِفُهُ، صَعُودًا﴾ (١٧)، **أي:** سأصليه وأدخله جهنم، والصعود؛ وصفٌ للنار ومشقتها، **أي:** عذاباً لا راحة فيه، **وقيل** (١): الصعود اسمٌ لجبل في جهنم يكلف الكافر بصعوده، ثم ذكر قصته مع القرآن، **فقال:** ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨)، **أي:** تأمل وأعمل فكره ونظره في القرآن، وقدّر كلاماً في نفسه، باطلاً عن القرآن.

وقوله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٩) **ثم قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ** (٢٠)، **أي:** لُعن وطُرد، كيف جاز له أن يقول هذا القول الباطل بعد هذا التفكير؟!، ولو فكر تفكيراً مستقلاً لوصل إلى الحق، ولما قال هذا القول الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١)، **أي:** تأمل مرة أخرى، وقال في القرآن قولاً أسوأ من الوصف الأول، ثم وصف لنا حاله وهو يُفكر، **فقال:** ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢)، **أي:** أثناء التفكير في وصف القرآن، ظهر على وجهه العبوس، وهو تقطيب ما بين الحاجبين، وبَسَرَ **أي:** وتغير لونه (٢).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٦٦/٨).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٤٢٩/٢٢).



وقوله: ﴿ثُمَّ أَذْبَرُوا وَسَكَبُوا﴾ (٢٣)، **أي:** أعرض وابتعد عن قبول الحق، وتكبر عنه، وانطلقت لسانه، **تقول:** ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سَعْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤)، **أي:** هذا ليس وحياً من الله، بل هذا سحر أخذ محمد عن غيره من الناس، **ثم قال:** ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥)، بل هذا قول البشر، **فرد عليه بقوله:** ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (٢٦) **وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرُ﴾** (٢٧)، **أي:** سأدخله جهنم، وعظم الله أمرها بالسؤال وما أعلمكم عنها؟ **ثم وصفها بقوله:** ﴿لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ﴾ (٢٨)، **أي:** لا تبقي لهم لحماً، ولا تذر لهم عظماً، بل تحرقهم فيها، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليستمروا في العذاب.

وقوله: ﴿لَوْاعَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢٩)، **أي:** والبشر جمع بشرة، هذه النار مُحْرِقَةٌ لبشر أهل النار فتُصْبِحُ جلودهم سوداء من احتراقها وذهاب ما فيها من حياة.

وقوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٣٠)، **أي:** لها خزنة من الملائكة، وهم مالك ومعه ثمانية عشر ملكاً، **قيل** (١): أن أبا جهل، قال: كيف تغلبون وعددكم كثير، وعدد أهل النار تسعة عشر، فقال أبو الأشدين الجمحي: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عنكم عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي فندخل الجنة، **فأنزل الله تعالى:** ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٣١)، **أي:** إن خزنة النار ملائكة وليسوا بشراً مثلكم، وقد وصفهم في آية أخرى، **بقوله:** ﴿مَلَائِكَةُ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦]، وقد جعل عدتهم ابتلاءً واختباراً للكفار في الدنيا،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٦٩/٨).



فيقولون مثل هذا القول، أو وما جعلنا الملائكة بهذا العدد إلا ليعذبوا الذين كفروا في الآخرة.

وقوله: ﴿لَيْسَتِيقَنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا﴾، وهذا الوصف مذكور في التوراة والإنجيل، فتوافق ما في القرآن مع ما في التوراة والإنجيل، كي يحصل اليقين عند أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ويزداد المؤمن من أمة محمد ﷺ إيماناً بذلك؛ لأن كل آية تنزل يُخبر الله بها الخلق بمعلومة غيبية تزيدهم إيماناً.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، أي: ولا يحصل عندهم ريبة أو شك بأن القرآن حق.

وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، وأما من في قلبه شك من الكفار الجاحدين، فإنهم يتساءلون، فيقولون: ماذا أراد الله بذكر عدد الملائكة من خزنة جهنم، وما الفائدة من ذلك؟! **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، فيُضل الله من يشاء حين يحرمه التوفيق، فلا يقبل الحق، ويهدي من يشاء حين يمنحه التوفيق، فيقبل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، **فإن قلنا:** إن الجنود هنا هم الملائكة؛ فعدد الملائكة غير معلوم لنا من كثرتهم، فما يعلم عددهم إلا هو تبارك وتعالى، **وفي الحديث:** "أُطِّتَ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْطُطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ



ساجد" ^(١)، **وإن قلنا:** إن الجنود اسم عام لكل من يسلطه الله على الكفار؛ فهم أنواع وأعداد لا يعلمهم إلا الله، فالبعوض جند من جند الله، والريح من جند الله، والطير الأبايل من جند الله، وهكذا.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ ^(٣١)، **أي:** إن النار التي سبق وصفها؛ موعظة يتعظ بها البشر وهم بنو آدم، ويدخل معهم الجن، فهم من ضمن المكلفين.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- وجوب الطهارة من الأوساخ والأدران الظاهرة والباطنة.
- ٢- أن إنعام الله على الشخص لا يعني أنه كريم على الله، فقد يُنعم الله على إنسان كافر فاسق ليبتلّيه ويختبره.
- ٣- خطورة الكبر، فإنه من أسباب الكفر.
- ٤- جعل عدة خزنة النار ابتلاءً واختباراً للكفار في الدنيا.
- ٥- أن جند الله من الملائكة ومن غيرهم، كثير لا يعلم عددهم إلا الله.

(١) مسند أحمد: (٤٠٥/٣٥)، برقم: (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن.



تفسير المقطع الثاني من سورة المدثر

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّتِ يَسَاءَ لَوْ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٤٧ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ٤٩ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ٥٠ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ٥٢ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْخَفِرَةِ ٥٦﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢﴾، كلا، تأتي بمعنى حقاً، وتأتي بمعنى الردع والزجر وإبطال ما سبقها من كلام، بحسب السياق، وفي هذا النص الأقرب إلى معناها أنها بمعنى الردع والزجر، لأن ما سبق ذكره كلام غير مقبول، والمعنى: ليس الأمر كما يزعم المشركون ويتصورونه عن الملائكة وخزنة جهنم. وأقسم الله تعالى بالقمر، وهو الكوكب المعروف.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ ٣٣﴾، وأقسم الله تعالى بالليل، وهو الزمن المعروف

الذي يُقابل النهار، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وأقسم به في حال إدباره، وذلك عند قدوم الفجر، فإذا اقترب الفجر ذهب الليل وغادر الأرض بظلامه، وحل محله النهار.

وقوله: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٣٤)، وأقسم الله تعالى بالصبح، في حال ظهور ضوئه قبل شروق الشمس، **وجواب القسم في قوله:** ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ﴾ (٣٥)، إنَّ جهنم الذي سبق ذكرها في **قوله:** ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ (٣٦)، **والكُبر،** جمع كُبرى، وهي الأشياء العظيمة، فجهنم شيءٌ عظيم مهول، وهي إحدى مخلوقات الله الكبرى، كالجنة والعرش ونحوها من عظام مخلوقاته.

وقوله: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ (٣٦)، **أي:** يخوف بها البشر، وهم بنو آدم، لأن لهم بشرة ظاهرة محسوسة، وهل للجن أبقار؟! ما المانع أن تكون لهم أجسام وأبشار، ويدخلون ضمن المنذرين بجنهم.

وقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٧)، **أي:** لمن شاء منكم أن يقبل الموعدة فيؤمن أو يعرض عن الموعدة فيؤدبر، فعبر بالتقدم عن الإيمان والقبول، وعبر بالتأخر عن الإعراض والكفر، ثم أثبت للعبد مشيئة في أن يقبل الخير أو يقبل الشر، وجعل العبد صاحب إرادة ولم يجعله مسلوب الإرادة، فهو الذي يقرر أن يقبل أو يمتنع، وخلق الله تعالى فيه هذه الإرادة، وبين له طريق الحق من طريق الضلال بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فإن اختار الحق أُجر عليه، وإن اختار الباطل عُوقب عليه، وفي هذا إشارة إلى المفهوم الشامل للتقدم والتأخر، فمن هم أصحاب التقدم؟! المؤمنون الصالحون الذي تقدموا إلى الطاعة والأخلاق والقيم، وما



يُرْضِي الله تعالى، وما يُصْلِح البشرية، فهذا معنى التقدم بمفهومه الشامل، **وأن التأخر معناه الشامل**: البعد عن الإيمان، والوقوع في الشرك والمعاصي والمنكرات، وهذا المعنى القرآني يُبطل المعنى المعاصر للتقدم والتأخر، فاليوم يُراد من الناس أن يتقدموا إلى جهنم بالمعصية والكفر والانحلال الأخلاقي، وإذا رأوا شخصاً مستقيماً متديناً، قالوا عنه: هذا متخلف، ومتأخر، فهذا مفهوم باطل، ومعاكس لمفهوم التقدم والتأخر بمفهوم القرآن الكريم، فمفهوم التقدم في القرآن؛ هو الإقبال على الله، والتخلق بأخلاق الإسلام، وعمل ما يُدخل الجنة، ومفهوم التأخر في القرآن؛ هو البعد عن الله، فأنت تتقدم بقربك من الله، وتتأخر ببعدك عن الله، وشتان بين المصطلح القرآن والمصطلح البشري الباطل.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨)، أي: كل من الأنفس البشرية المكلفة سترهن وتُحْبَسُ بسبب أعمالها السيئة، **والباء للمصاحبة، أي:** يصحبها عملها السيء فتُحْبَسُ معه، ورهينة، **أي:** مرهونة، والمرهون، هو الشيء الذي لا يُتَصَرَفُ به، ومنه الرهن، وهكذا النفس كانت في الدنيا تتحرك وتُفَعِّلُ وتتصرف كما تريد، فلما جيء بها بين يدي الله تعالى، صارت محبوسة بسبب ما حصل منها من ذنوب ومعاصٍ وأعمالٍ سيئة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩)، هذا استثناء من الرهن والحبس، فأصحاب اليمين غير مرتَهنة نفوسهم في الآخرة، وهم المؤمنون^(١)، **وقيل^(٢):** إن المقصود

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٥٢).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٦).



بهم هنا الولدان المٌخلدون في الجنة، أو أطفال المسلمين الذين يموتون قبل أن يبلغوا، فمن قال: إنهم المؤمنون، جعل لفظ (أصحاب اليمين) متعلقاً بما سبق، وهو الرهن، ومن قال: إنهم الولدان أو أطفال المسلمين الذين ماتوا صغاراً؛ جعل لفظ (أصحاب اليمين)، متعلقاً بما بعده، وهو: ﴿فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٤٠)، لأن الأطفال ماتوا صغاراً، ولم يعرفوا سبب دخول المجرمين النار، وأما الولدان المٌخلدون فخلقوا في الجنة، ولم يطلعوا على أحوال أهل الدنيا، والأولى حمل اللفظ على جميع أصحاب الجنة، وحصول التساؤل من بعضهم، والتساؤل بصيغة التفاعل **يأتي على أحد وجهين**^(١): إما أن بعض أهل اليمين يسأل البعض الآخر، عن الذين دخلوا جهنم، ما سلكهم في سقر، أو أن التساؤل معناه كثرة حصول السؤال من بعض أصحاب اليمين عن حال الذين دخلوا سقر، ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١) **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ** (٤٢)، أي: يتساءلون عن المجرمين، وهم الذين كانوا في الدنيا يفعلون الإجرام، والإجرام: كل ما هو قبيح من الذنوب، وأعظمه الكفر والشرك بالله تعالى، وعبر بهذا اللفظ (سلك)؛ لأن دخول جهنم ليس برضاهم، وإنما تزجرهم الملائكة وتدفعهم إليها دفعاً، ويؤخذون بالنواصي والأقدام ويُرْمون فيها.

وقوله: ﴿قَالُوا لَئِنْ كُنَّا مِنَ الْمُصْلِينَ﴾ (٤٣)، فأجاب هؤلاء المجرمون بذكر عدة أسباب لدخولهم النار، ولكن كيف أجابوا أهل الجنة، وهم في جهنم؟ الجواب: أن الله يُعطي أهل الجنة خاصية الاطلاع على أهل النار، ولا يُعطي أهل النار

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٥).



خاصية الاطلاع على أهل الجنة، لأن الجنة محرمة على الكافرين، فيطلع أهل الجنة وهم في غرفهم^(١) على من يعرفون من أهل النار، فيسألونهم فيجاوبون بصدق، وذكر هنا أربعة أسباب لدخول المجرمين جهنم:

السبب الأول: في قوله: ﴿لَمْ تَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤٣)، وهو يتعلق بالخضوع والخشوع والاستسلام لله بالصلاة والانقياد له بها، فلم يكونوا يُصلُّون، منعهم الكبر من الصلاة؛ لأن الصلاة أفعالٌ تدل على التواضع، كالركوع والسجود، وفيها غاية التذلل والخضوع من العبد لربه تعالى، ولذا يحرم السجود والركوع لغير الله.

والسبب الثاني في قوله: ﴿وَلَمْ تَكُ تَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾^(٤٤)، وهذا السبب وراءه صفةٌ قبيحة أخرى، وهي صفة البخل، وصفة كراهية الخير للآخرين، وصفة الشح، فليس فيه خير لمخلوق، مما يدل على أن هذه النفس خبيثة في حق الله، وخبيثة في حق الخلق.

والسبب الثالث في قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾^(٤٥)، وهذه صفة قبيحة، تتعلق بموقف الإنسان من الحق والباطل، فهو معرض عن الحق ومشارك في الباطل، وعبر هنا بالخوض وهو: المشي وسط الماء، الذي يؤدي إلى اختلاط الماء بالذهاب والإياب بسبب حركة الرجل داخل الماء، والمعنى: لا يستقر على قول ولا على مبدأ ولا على صفة، كل يوم بمذهب، ووصف من يعمل معهم بالخائضين، إذ الخوض أبرز صفاتهم، ناس مهيوون للباطل، في الجدل والنقاش والحوار وإلقاء الشبه، وهو مشغول معهم.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٧٣ / ٨).



والسبب الرابع في قوله: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤٦)، **أي:** كنا ننكر الحساب والجزاء في اليوم الآخر، وختم بهذا السبب وهو عدم الإيمان باليوم الآخر وتكذيبهم به، وذلك لما له من أثر في استمرارهم بالصفات القبيحة السابقة، فإن الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، لن يخضع لله، ولا يُعطي المسكين، ولا يقبل الحق، ويظل يجري وراء الباطل!!.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ (٤٧)، **أي:** استمروا بهذه الصفات القبيحة الأربع إلى أن فاجأهم الموت^(١)، **كما قال:** ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) [الحجر: ٩٩]، **وسُمي الموت يقيناً؛ لأنه مُتَحَقِّقٌ لا محالة، ولا بد لكل نفس من أن تذوقه، فهو اليقين حقيقة لا مجازاً.**

ثم قال الله معباً على اعترافهم: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٤٨)، وهو جواب عن سؤال متوقع، وهو: هل يمكن أن يشفع فيهم أحد؟! لا مجال أن تشفع أيها المؤمن لصديقك الكافر؛ لأن الشفاعة يُشترط فيها شرطان: أن يرضى الله عن الشافع، وأن يكون المشفوع له يستحق الشفاعة، ولا أحد يستحق الشفاعة إلا بالإيمان والتوحيد، فهؤلاء كفار مكذبون لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وفي هذا دليل على أن هناك غيرهم من ينتفع بالشفاعة وهم المؤمنون الموحدون.

ثم أخبر تعالى عن موضوع آخر، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩)، واستخدم أسلوب الالتفات، فالتفت من الآخرة إلى الدنيا، مخاطباً كفار

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧٣).



قريش، ما لهؤلاء القوم معرضين عن الاتعاظ بما جئتهم به يا محمد من القرآن وآياته، مُبتعدين عن سماعه، والإيمان به؟!

ثم وصف إعراضهم فقال: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ﴾

فشبه إعراضهم عن الحق وهروبهم من سماعه والإيمان به، بنُفرة الحُمُر الوحشية، وأضاف السين والتاء للمبالغة، **أي**: بالغت في النُفرة واستخدمت كل طاقتها في الهروب من شدة فزعها وخوفها، والمقصود بالحُمُر هنا الحُمُر الوحشية؛ لأن الحمار الأهلي اعتاد أن يعيش مع الناس، بخلاف الحُمُر الوحشية، فتعيش في الغابات وإذا اقترب منها الإنسان هربت خوفاً منه.

وقسورة لها معنيان^(١)، الأول: القناصون، أو الرماة عموماً، **والثاني**: الأسد،

وكلا المعنيين جائز.

فالحمر تفر من الصيد المتمكن، أو من الأسد المفترس، وهو تشبيه بليغ، فلماذا تتحولون من بشر إلى حمير؟! ولماذا تتخللون محمداً والقرآن أسداً أو صياداً يريد أن يقتلكم؟! هذا يدل على خبل في العقول، والصواب أن لا تنفروا منه، بل تقتربوا منه خاصة أنه من أنفسكم، وعاش بينكم أربعين سنة، وكنتم تُسمونه بالصادق الأمين، وجاءكم بالقرآن بلغتكم، وفيه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز ما يجعلكم تقبلون عليه مؤمنين مُقرين، ولكن سبحانه الله!! إذا لم يُرد الله للعبد الهداية يتعامل مع وسائل النجاة، وكأنها وسائل هلاك، وإذا أراد له الغواية تعامل مع وسائل الغواية على أنها وسائل نجاة!!، ومن ذلك ما حصل

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٣٩٩/٥).



لولد نوح صلى الله عليه وسلم ولده تعامل مع وسائل الهلاك على أنها وسائل نجاة، وأبوه يقول له: ﴿أَرْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، أي: في هذه السفينة، ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَيْلٍ يَعِصُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣]، فأضاع فرصة النجاة، وتمسك بوسيلة الهلاك، وهذا من سوء التدبير وخذلان الله للعبد، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال الله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَةً﴾ ٥٤، أي: لن يقبلوا الحق الذي جاءهم، بل يرغب كل شخص منهم أن ينزل عليه كتاباً منشوراً باسمه، وقد جاء هذا الطلب على لسان أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، قالوا: يا محمد إن شئت أن نُؤمِّن لك؛ فاءتنا بكتابٍ من الله مكتوبٌ فيه من الله تعالى إلى فلان بن فلان. وهو إشارة إلى ما في نفوسهم من الكبر والغطرسة، فعقّب الله على ذلك بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٥٥، وكلا، كلمة ردع وزجر وإبطال لما سبق، أي ليس طلبهم بصحيح، ولو أعطاهم الله طلبهم لما آمنوا، بل سبب كفرهم أنهم لا يخافون الآخرة، ولو خافوا الآخرة والوقوف بين يدي الله؛ لآمنوا، وفيه إشارة إلى أن من أسباب عدم الإيمان، نسيان الله والدار الآخرة.

ثم قال أيضاً: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ ٥٤، كلا هنا بمعنى حقاً، بحسب السياق، أي: حقاً إن القرآن تذكرة وموعظة كافية.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ ٥٥، أي: من شاء أن تتعظ به فعل، وفي هذا ردٌّ على الجبرية الذين يقولون أن الإنسان مجبور على أفعاله، فالله لم يجبر أحداً على أن يكفر أو يؤمن، بل خلق له عقلاً وسمعاً وبصراً وأرسل إليه رسلاً وأنزل عليهم كتباً، وترك الاختيار للعبد بإرادته، حتى يُحاسبه على ما اختار.



وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ ﴿٥٦﴾، بيان أن مشيئة العباد تحت مشيئة الله، فالله إذا لم يشأ شيئاً؛ فلن يحصل، ثم أخبر الله تعالى: عن نفسه بأنه أهل التقوى، أي: مستحق أن يتقيه الخلق بفعل ما أمر وترك ما نهى، فإن اتقوه حق التقوى فقد استحقوا منه المغفرة، فربط بين التقوى من العبد لله وحصول المغفرة له من الله، فإذا أردت أن يغفر لك الله؛ فاتق الله، فإن التقوى سبب للمغفرة، وفيه إرشاد للناس أن يقبلوا على هذا الرب العظيم الغفور.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن الكبر، والبخل، والإمعة، والتكذيب باليوم الآخر، صفات قبيحة فاحذر أن تكون فيك واحدة منها.
- ٢- أن مفهوم التقدم في القرآن؛ هو الإقبال على الله، والتخلق بأخلاق الإسلام، وعمل ما يُدخل الجنة، ومفهوم التأخر في القرآن؛ هو البعد عن الله وشرعه وعمل ما يوجب دخول النار.
- ٣- أن من خذلان الله للعبد أن يتعامل مع وسائل النجاة كأنها وسائل هلاك، ووسائل الغواية على أنها وسائل نجاة!!.
- ٤- أن من أسباب عدم الإيمان، نسيان الله والدار الآخرة.
- ٥- أن مشيئة العبد مُقيدة بمشيئة الله، وأن الله يمنح العبد مشيئة لكنها تحت مشيئة الله تعالى.
- ٦- أن تقوى الله سبب لمغفرته.



تفسير سورة القيامة

تفسير المقطع الأول من سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝١ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ،
 ۝٣ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ، ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ، ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۝٦ فَإِذَا
 بَرَقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ
 ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبِّئُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤
 وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ، ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، ۝١٧ فَإِذَا قَرَأَهُ
 فَأَنعِقْ قُرْءَانَهُ، ۝١٨﴾

شخصية السورة:

سورة القيامة؛ سورة مكية^(١)، ومقصدها العام: بيان قدرة الله تعالى على بعث الخلق وجمعهم إلى يوم القيامة.

قال سبحانه: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝١﴾، وقد اختلف المفسرون في معنى (لا) التي تأتي قبل القسم على أقوال^(٢): قيل: إنها نافية للقسم، وضعفها جمهور

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٤٧١).

المفسرين^(١)، **وقيل**: نافية لما قبلها، **والمعنى هنا**: لا صحة لما تزعمون من عدم البعث والنشور، ثم أقسم الله بيوم القيامة لإثباته، **وقيل**: إنها صلة، **وقيل**: إنها لام التوكيد، ولكن مدت الفتحة قليلاً فصارت ألفاً، **والمعنى**: لأقسم، ومعلوم أن القسم قد يأتي بأداة قسم مثل الواو والتاء ونحوها، وقد يأتي بلفظ القسم ويأتي بعده بالباء، كما هنا، والأصل أن لفظ (أقسم) يكون محذوفاً. ويوم القيامة معروف، ويبدأ من علامات الساعة الكبرى حتى يفصل بين الخلق ليرى كل مصيره إلى الجنة أو إلى النار.

وقوله: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، والقول فيها ما قيل في الآية قبلها، والنفس اللوامة، **قيل**^(٢): هي النفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير في الدنيا، **وقيل**: هي النفس الفاجرة تلوم صاحبها يوم القيامة، **وقيل**: هي النفس المعرضة للذم، وهي الملامة في الدنيا واللامة في الآخرة.

والذي يرجح لنا، والله أعلم، أن النفس اللوامة صنف بين النفس المطمئنة، والنفس الأمارة بالسوء، فقد ذكر الله أصناف النفوس الثلاثة:

فالصنف الأول: هي النفس المطمئنة، وهي المكتملة بالإيمان والتقوى فهي مطمئنة في الدنيا بإيمانها وتوحيدها وأعمالها الصالحة، ومنشرة كثرة من ثمار الإيمان في هذه الدنيا، ومطمئنة إلى ما أعد الله لها في الآخرة من دخول الجنة، وهذه في أعلى المراتب.

(١) ينظر: زاد المسير: (٨/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٤٩).



والصنف الثاني: هي النفس الأمارة بالسوء، وهي التي بلغت من الانحراف مبلغاً كبيراً فلم تعد تأمر صاحبها إلا بالشر، وهذه في أدنى المراتب.

والصنف الثالث: هي النفس اللوامة، وهي وسط بينهما، فلا هي مطمئنة كاملة الاطمئنان، ولا هي فاسدة كاملة الفساد، بل عندها من الإيمان ما يجعلها تلوم صاحبها على المعاصي، وعندها من الضعف والتقصير ما يجعلها تقع في المعصية، فإن اللوم لا يكون إلا بعد التقصير، ولهذا سُميت لوامة، لأنها قصرت، ثم أفاق، فلامت صاحبها، لماذا فعلت كذا؟، ولماذا لم تفعل كذا؟. ما وجه العظمة من القسم بالنفس اللوامة، الذي أريد إبرازه بالقسم بها؟! **الجواب:** هو التنبيه على أنها جمعت بين شيئين متناقضين وهو الخير والشر، وهذا يدل على قوة تدبير الله وخلقته في أن يجمع في الشيء الواحد شيئين متناقضين، كما في قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٣)، في هذه الآية تقدير جواب القسم للقسمين السابقين، والمعنى: أيظن هذا الإنسان الكافر، الذي ينكر البعث والنشور، أن الله غير قادر على أن يبعثه ويجمع عظامه التي قد أرمت وأكلها الدود وذهبت في التراب، فأجاب على ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ (٤)، بلى قادرين على أن نبعثه ونعيد مفاصل عظامه إلى أماكنها ونُتم خلقه، ونُسوي خلق بنانه ونُعيدها كما كانت، وقيل^(١): إن هذا تهديد للإنسان الكافر في الدنيا أن الله قادرٌ على بعهته في الآخرة، وقادرٌ الآن أن يجعل يديك ورجليك بلا أصابع كخف

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٩).



البعير، **وقيل:** إن هذا من السبق العلمي، فالعلم الحديث اكتشف أن أطراف أصابع الإنسان لكل طرف منها بصمة خاصة بها، وهو ما يُستخدم اليوم في إثبات الشخصية، فالله تعالى قادر أن يجعل البصمات كلها متساوية كما جعلها مختلفة، وكل ما سبق يدل على قدرة الله وعظمته وأنه لا يُعجزه شيء سواء في إعادة البنان كما كانت، أو في تسويتها في الدنيا، أو في جعلها بصمة واحدة، أو في تنوع بصماتها واختلافها.

وقوله: ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ﴾، بل من طبيعة هذا الإنسان الكافر ورغبته أن يستمر على فجوره ولا يتوقف عنه، بل يمضي قدماً في فعله، **وقيل:** معناه أن هذا الإنسان الكافر يرغب أن يستمر في إنكاره للبعث والنشور، **وقيل:** يريد أن يستمر في المعصية.

ويقول: إذا اقترب أجلي سأتوب، وكل تلك المعاني السابقة تدل على تخطيط هذا الإنسان، فلم يؤمن بالبعث ولم يستعد للآخرة ولم يتب من ذلك قبل أن يفجأ الموت، والغالب في حياة الكفار هو رغبتهم بالاستمتاع بالدنيا ونسيان الدار الآخرة، فلا يريد الانضباط بالحلال ولا الابتعاد عن الحرام، يريد أن يعيش متمتعاً بكل شيء كالأنعام، يأكل ما يشاء، ويشرب ما يشاء، ويفعل مما يشاء، لا يمنعه مانع ولا يردعه رادع.

وقوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾، أي ومن طبيعته أيضاً أنه كثير السؤال عن موعد يوم القيامة، **كما قال:** ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، سؤال استنكار واستفزاز للمؤمنين، فرد الله عليه أن يوم القيامة سيكون عند



حصول علاماته الكبرى، **ومنها قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾** (٧)، برق، فيها قراءتان^(١): بفتح الراء وكسرها، بالفتح لمع نور البصر من شدة الفزع والخوف، وبالكسر؛ تحيرٌ ودهش، **والمعنى:** يشخص بصر الكافر يوم القيامة، فلا يطرف لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في الدنيا.

وقوله: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (٨)، أي: ذهب نوره، وفي هذا إشارة إلى كسوف الشمس، فالقمر يستمد ضوءه من الشمس، والخسوف الذي يحصل للقمر في الدنيا لمدة ساعة أو ساعتين هو أن تمر الأرض بين الشمس وبين القمر، فتُغطي ضوء الشمس عن القمر، فيُصبح مظلماً، ولكن يوم القيامة يُنزع نور القمر وهو علامة على نزع نور الشمس.

وقوله: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٩)، وفي معناه أقوال^(٢)، قيل: يجمعا بعد انتزاع نورهما ويكورا ويلقيا في النار، وقيل: جُمعا في انتزاع النور منهما معاً، وقيل: ظهرا جميعاً في جهة المغرب وهي علامة على قيام الساعة، والأول أولى.

وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (١٠)، أي: إذا شاهد الإنسان الكافر هذه العلامات ومجيء يوم القيامة يقول لنفسه إلى أين أهرب؟!، وأين أختبئ، وإلى أي جهة أفر؟!، **فجاءه الجواب: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾** (١١)، لا يوجد ملجأ ولا حصن ولا مكان تفر إليه، **وأصل الوزر:** الجبل المنيع^(٣)، ومن طبيعة الإنسان في الدنيا

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٣٦٩/٤).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (٩٦/١٩).

(٣) ينظر: الصحاح: (٨٤٥/٢).



الهروب من المصيبة، بخلاف يوم القيامة فلا يُسمح له بالفرار؛ فالملائكة تُحيط بالناس يوم المحشر، **كما قال:** ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، **أي:** يقفون على شكل صفوف في المحشر **ويقال:** ﴿يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، من استطاع منكم الهرب؛ فليفعل، ولو فعل لما استطاع، ولما وجد مكاناً مناسباً يفر إليه!!.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٣)، **أي:** مرجع الناس ومآبهم إلى الله وحده، فيُحاسِبون ويكون مكان قرارهم الجنة أو النار، فهناك المستقر.

وقوله: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣)، يخبر كل إنسان يوم القيامة بما عمل في الدنيا من عمل، واختلفوا في تفسير لفظ (قدّم وأخّر) **على أقوال (١):** **فقيل:** قدّم للآخرة من صدقة وعمل ونحوه، وبما أخّر لورثته من مال، **وقيل:** ما قدّم؛ هي الأعمال القاصرة على نفسه، وما أخّر؛ هي الأعمال التي لها أثر بعده، **وقيل:** ما قدّم؛ هو عمله في أول عمره، وبما أخّر؛ ما عمله في آخر عمره، **وقيل:** ما قدّم؛ ما عمل من طاعة الله، وما أخّر؛ ما ضيّع من حق الله وقصّر فيه فلم يعمل، والراجع عموم ما فعله الإنسان من خير أو شر.

وقوله: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤)، بل الإنسان الكافر حجة على نفسه وشاهد عليها بما عمل (٢)، فإن الكفار ينكرون ما عملوا، فيختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم، **كما قال:** ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٩١).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٨٣).



وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ [يس: ٦٥]، فمن طبيعة الإنسان الخصام، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه ليس عنده حجة.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ (١٥)، أي: ولو جمع المعاذير التي يحاول أن يتعذر بها بين يدي الله، ويبحث بها عن مخرج له، فهو يُخاصم في الآخرة كما كان يُخاصم في الدنيا، لعله يخرج بشيء، ولكن لا فائدة من الخصام، فقد انتهى وقت المغالطات وجاء وقت إحقاق الحق بين يدي الله تعالى، فلا تنفعه الأعذار ولا يلتفت إلى جداله!

وقوله: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦)، هذا مقطع جديد من السورة يُحدثنا فيه ربنا تعالى، عن حال النبي ﷺ عند تلقيه للوحي، فقد كان جبريل ﷺ ينزل على رسول الله ﷺ ليُوحى إليه القرآن، ومن حرص النبي ﷺ على الوحي وخوفه من أن يتفلت منه شيء؛ كان إذا قرأ عليه جبريل ﷺ قرأ معه، فنهاه الله تعالى عن ذلك، وأمره أن يستمع له حتى يتم ما يوحى به إليه، **كما في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، يعني:** لا تستعجل في تلاوته قبل أن يكتمل جبريل من إيحائه إليك، لا تستعجل، لا تقرأ وجبريل يقرأ، بل انتظر حتى يتم جبريل من الوحي، وإن كان مقصدك حسن وهو خشية أن يتفلت منك الوحي.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧)، وعدُّ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يجمع له القرآن في صدره، فلن ينساه ولن يضيع عليه منه شيء، ووعد به بقراءته له، **كما قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].**



وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ﴾ (١٨)، أي: فإذا قرأه جبريل عليك فاستمع

قراءته بإنصات حتى ينتهي من القراءة، فإن الله أوحى القرآن إلى محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩)، ثم بعد حفظك له سنفسر لك المعاني،

ونبين لك المفردات، فجمع الله له بين ثلاثة وعود، وتحققت له وهي: حفظ القرآن في صدره فلم ينساه، وتلاوته كما تلاه جبريل ﷺ، وبيان معاني مفرداته وألفاظه، فلما وعد بهذا كان جبريل يتلوا عليه الآيات والنبي ﷺ يستمع، فإذا انتهى جبريل عليه السلام منها، قرأها النبي ﷺ على أصحابه، فإذا سألوه عن بعض الألفاظ فسرها لهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- بيان حال المشركين المستهزئين بيوم القيامة، فإذا نزل بهم فزعوا وبحثوا عن المخرج والمفر.

٢- بيان أن من طبيعة الإنسان الكافر الجدل والخصومة في الدنيا، والبحث عن المعاذير في الآخرة.

٣- حرص النبي ﷺ على ضبط ما أوحى إليه.



تفسير المقطع الثاني من سورة القيامة

﴿كَلَّابٌ مُّحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۚ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَتِ لِلسَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّيٍّ (٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٤) ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ .

قول الله تعالى: ﴿كَلَّابٌ مُّحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۚ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾، ﴿كَلَّا﴾؛ كلمة ردع وزجر لما سبق من القول، من الكفر بالله وإنكار البعث، أو إلقاء الكافر للمعاذير يوم القيامة، فلا يوجد له عذر يجيز له الكفر بالله تعالى، بل سبب الكفر والإعراض عن الله تعالى؛ أنكم أيها الكفار تحبون الحياة الدنيا وتنسون الآخرة، وسمى الله الحياة الدنيا بالعاجلة؛ لأن نعمها معجلة للإنسان، بينما نعم الآخرة مؤجلة، والنفوس في طبيعة خلقها تحب الشيء الحاضر المعجل، ولا يُعجبها الشيء الغائب المؤخر، كما أن الدنيا عاجلة وقليلة لو قيسَت إلى زمن الآخرة، فزمن الآخرة لا نهاية له أبد الأبد، وسميت بالآخرة لأنه ليس بعدها دار.

ثم إذا انتقل الناس إلى الدار الآخرة، فإنهم سينقسمون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، فذكر لنا بعض صفات فريق الجنة فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۝٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، فعبّر عن سعادة أهل الجنة يوم القيامة، بنضارة وجوههم، فالنعمة ظاهرة على وجوههم، فالسرور والجمال ظاهر فيها، والمقصود ذات الشخص كلها، وإنما ذكر الوجه لأنه أشرف ما في الإنسان، وبه يواجه الناس وفيه الحواس المهمة التي ترى بها وتشم وتسمع وتتذوق، فإذا ظهر هذا الوجه في كمال جماله ونضارته وسروره؛ دل ذلك على سرور ونضارة وجمال وتنعم باقي الجسد، ولا شك أن أبلغ نعيم وسعادة يكون في الجنة، ولكن لا يمنع أن يحصل لهم السرور والفرح في المحشر، كما قال: ﴿وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَّوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾ [النمل: ٨٩]، وعند دخولهم الجنة يزدادون نضارة وسروراً وفرحاً وجمالاً بعد أن يُسمح لهم بالنظر إلى وجه الله الكريم في جنات عدن، فيكشف الحجاب عن وجهه فينظرون إليه، وهذه أعظم نعمة ينتظرها أهل الجنة في الجنة، ونظر المؤمنين إلى الله تعالى في الجنة يتفاوت بحسب درجاتهم، فهناك صنفٌ ينظرون إلى وجه الله بكرةً وعشيّاً، هؤلاء هم السابقون، نسأل الله أن يجعلنا منهم، وهناك صنفٌ ينظرون إلى وجه الله في كل جمعةٍ مرة، كما في حديث أبي هريرة في الصحيح، فمن أراد أن ينافس على هذه النعمة فمن الآن، وليكن من السابقين إلى الأعمال الصالحة.

وإثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن يُنكر ذلك من الفرق، بسبب قياسهم الذات العليّة على ذات



الإنسان، وتقديم عقولهم القاصرة على نصوص الوحي^(١)، وأهل السنة والجماعة من السلف والصحابة ومن بعدهم، يقولون: ما نثبت له من أسماء وصفات إنما نثبتها له بلا كيفية ولا تخيل، ولا تشبيه ولا تعطيل، فنُثبت له السمع كما يليق بجلاله، ونُثبت له البصر كما يليق بجلاله ونُثبت له الرؤية كما يليق بجلاله، ومن فسرها بأنها منتظرة للثواب، أو منتظرة لرضاه، فقد وقع في التأويل المذموم^(٢)، فالثواب لهم والرضى عنهم، قد أعطاهم الله بإدخالهم الجنة، ولو لم ينظر المؤمنون إلى ربهم في الآخرة، **فما الفائدة من قول الله عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾**^(١٥) [المطففين: ١٥]؟!، فلمّا حجب الله الكافرين عن رؤيته وعن النظر إليه؛ دلّ ذلك على أن المؤمنين ينظرون إليه، وهذا دليل على التكريم والتشريف لهم.

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾^(٢٤)، هذا وصف لحال الفريق الثاني وهم الكفار أهل النار، فوجوههم باسرة، **أي: كالحة وعابسة**^(٣)، وفيها القترة وتعلوها الغبرة، **كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾**^(٤٠) **رَهَقَهَا قَتَرٌ﴾** [عبس: ٤٠-٤١]، فالحزن والبؤس والتعب ظاهر على وجوههم، مما يجدونه من هول العذاب والنكال يوم القيامة، ويزداد حالهم شدة في النار، **كما قال: ﴿تَلَفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠٤]، فالوجه عند تعرضه للحرارة الشديدة ييبس وتتأخر الشفتان، فتظهر الأسنان بصورة قبيحة مزعجة.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/٦٦٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/٢٨٠).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/٥١١).



وقوله: ﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقَةٌ﴾^(١)، **أي:** تيقنت أنها إلى الجحيم، والفاقرة؛ الداهية العظيمة، **يقال:** فقرته الفاقة، **أي:** كسرت فقار ظهره، وأصل الفاقة، هو الميسم الذي يُوضع في الأنف فيقطعه^(٢)، **كما قال:** ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، [لقلم: ١٦]، **فالفاقرة** وضع الكي على الأنف حتى يُغيّر معالمه، وهي إشارة إلى أن معالم هذا الوجه تتغير بسبب ما يتعرض له من عذابٍ شديد يوم القيامة.

وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِيَ﴾^(٣) **وقيل من رَاقٍ**^(٤)، **كلا، أي:** ليس الأمر كما يزعم المشركون أنه لا يوجد بعث ولا نشور بعد الموت، ثم بدأ يصف حال الإنسان وهو يُساق إلى الدار الآخرة، فتبدأ تخرج الروح من الساقين، وتستمر في الانتقال شيئاً فشيئاً حتى آخر ما تكون عليه عند الترقوة، ولكل إنسان ترقوتان ترقوة ذات اليمين، وترقوة ذات الشمال، وهما العظمتان الموجودتان نهاية الصدر من جهة النحر مما يلي الحنجرة، فإذا خرجت الروح من الحنجرة فقد مات، وفي هذه الحالة العصبية للإنسان المحتضر، يهتم به أهله وأقاربه ومحبه، ويقولون: هل يوجد طبيب ماهر يساعدنا في علاج هذا الرجل؛ لكي نُعيد له الحياة قبل أن تخرج منه الروح؟! **وقيل**^(٥): إن القائل لهذا القول هم الملائكة، **والمعنى:** من يصعد ويرتقي بروحه، والسياق يرجح المعنى الأول.

وقوله: ﴿وَنَظَنُّ أَنْهُ الْفَرَّاقُ﴾^(٦)، **أي:** وتيقن من نزل به الموت أنه سيفارق كل شيء في هذه الحياة، وتيقن أن هذا هو الفراق الحقيقي الذي يهرب منه.

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٤٠٨/٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١١٢/١٩).



وقوله: ﴿وَالْفَتَى السَّاقِ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩)، الساق في لغة العرب المقصود به شدة الأمر وعظمته، وعندنا ساقان، شدة ألم الموت والنزع وفراقه وهو من الدنيا، وشدة ألم وعظمة البرزخ والقبر وما بعده وهو من الآخرة، فالتقت شدة الدنيا ونهايتها بشدة الآخرة وبدايتها^(١).

وقوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (٣٠)، أي: إلى الله المرجع، حيث يُساق الميت من قبل من حوله من الأحياء إلى قبره، وهو أول منازل الآخرة.

وقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١)، وصف حال الكافر في الدنيا، أنه لم يؤمن بالله ولا برسله، ولم يؤد الصلاة، فذكر التصديق كنموذج لأعمال القلب، والصلاة كنموذج لأعمال الجوارح.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣٢)، فهو مكذب بالإيمان وبالله ومعرض عن الطاعة والامتثال لأوامر الله وترك نواهيه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (٣٣)، فقد كان في الدنيا متكبراً على غيره من الخلق، وهذا حال كثير ممن لا يُصلون، فالدافع الحقيقي لتركهم للصلاة هو الكبر الذي في قلوبهم؛ لأن الصلاة سجود وركوع وخضوع بين يدي الله، والمتكبر يأنف عن ذلك، كما فعل إبليس فقد امتنع عن السجود لكبره **كما قال:** ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وحينما يصاب الإنسان بالكبر تكون علامة الكبر فيه ظاهرة في مشيته، فهو يمشي متبخرأً، والمطي اسم

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٢).



للظهر^(١)، أي حركة مشيته تُشير إلى خطرسته وكبره.

وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ﴾، هذا تعقيب فيه وعيدٌ لمن هذا وصفه، **قيل**^(٢): إن هذا الوعيد وجهه النبي ﷺ لأبي جهل ابن هشام، وهو في مكة، فقال: أتتوعدني يا محمد؟! والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها، ولذلك يبكت في الآخرة عند دخول النار فيقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، **أي:** أيظن الإنسان الكافر أن الله خلقه هملاً بدون غاية ولا هدف ولا أمر ولا نهي، حاله كالحيوان يأكل ويشرب ويذبح ويؤكل أو يموت وتأكله الدود؟!، ثم ذكره بمراحل خلقه؛ ليعظه في كبره وخطرسته، **فقال:** ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْفَخُ ۖ﴾، أصله كان نطفة من المنى الذي يُخرج من مخرج البول، ويُصب في رحم المرأة، فهذا هو أصلك وذاك مكان خلقتك، فلا تتكبر على الله تعالى، وعلى خلقه.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، **أي:** إن هذه تعلقت في جدار الرحم، فصارت علقة، ثم مضغة، ثم بعد ذلك صار جنيناً، مكتمل الخلقة في بطن أمه، ثم يولد ويترعرج بهذه الخلقة المكتملة الجميلة، والصورة الحسنة.

وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، فصير هذا الخلق إلى صنفين، صنف الذكور وصنف الإناث، من أجل أن يستمر الخلق في التناسل، وانظر كم

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٨٢ / ٢٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨ / ٢٨٣).



عدد البشرية اليوم، قيل: تجاوز عددهم ثمانية مليار نسمة، يعيشون على كوكب، خلقهم الله تعالى بهذه الطريقة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾، أي: أليس الله الذي خلقكم وأوجدكم من العدم وصيركم بشراً سوياً، بقادرٍ على أن يُحييكم بعد موتكم، ويُحاسبكم على أعمالكم؟!!!

والجواب: بلى، لأن الإعادة أسهل من الخلق من العدم، **كما قال:** ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - خطورة حب الدنيا والإعراض عن الآخرة.

٢ - نعمة النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة نعمة لا يُساويها نعمة.

٣ - المشيء بتبخر علامة من علامات التكبر.

٤ - تذكير الإنسان بأصل خلقته، يدفعه للتواضع.



تفسير سورة الإنسان

تفسير المقطع الأول من سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالْأَنذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُنْطِئُكُمْ لُجْجَةَ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكْثِرُكُمْ ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝١٠ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَرْجُلُهُمْ نَدِيلًا ۝١٤﴾

شخصية السورة:

سورة الإنسان سورة مدنية في قول جمهور المفسرين^(١)، ومقصدها العام: التذكير بخلق الإنسان وبأصله، وبمصيره إما إلى نعيم الجنة وإما إلى السعير، والعلاقة بينها وبين سورة القيامة التي سبقتها؛ أن آخر سورة القيامة **قال فيها:**

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/١١٨).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: بدون تكاليف ولا حساب ولا عقاب، وفي أول هذه السورة بيّن العلة والهدف من الخلق، وهو الابتلاء بالتكاليف.

ومن فضائل هذه السورة أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة الفجر من يوم الجمعة في الركعة الثانية، والسجدة في الركعة الأولى^(١)، لأن السجدة تحدثت عن الجنة إجمالاً، وهذه السورة فصّلت في النعيم المقيم في الجنة، ولعل العلة من ذلك التذكير لنا بالآخرة؛ لأن الساعة تقوم يوم الجمعة.

وافتتحت السورة بقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، و**جمهور المفسرين**^(٢) على أن (هل) بمعنى قد، أي: قد مر على الإنسان قبل أن يُنفخ فيه الروح ويُكلف وقت من الزمن لم يكن فيه ذا شأن، ولم يكن له ذكر، والمقصود بالإنسان هنا آدم ﷺ، فإن الله تعالى خلق آدم من الطين وشكّله على هيئة جسد، والحين من الدهر في تفسيرها قولان^(٣)، **قيل:** تركه أربعين سنة لم يُنفخ فيه الروح، **وقيل:** زمن لا يعلمه إلا الله، لم يكن شيئاً له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طيناً لازباً وحملاً مسنوناً، ثم نُفخ فيه الروح فأصبح له شأن عند الله وعند الملائكة، وفي الكون كله، فقد كرمه وأسجد له ملائكته وجعله أباً لبني الإنسان الذين سيحملون التكاليف مع من سبقهم من بني الجان.

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢/ ٥٩٩)، برقم: (٨٨٠).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٧٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٨٨).



وقوله: ﴿حَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢)،

أي: خلق ذرية آدم من نطفة وُصفت بأنها أمشاج، والأمشاج هي الأخلاط، حيث يخلط ماء الرجل بماء المرأة عند التقائهما في رحم المرأة^(١)، وهي أصل خلقة الإنسان، بعد تلقيح الحيوان المنوي للرجل ببويضة المرأة فتتكون العلقة ثم المضغة، ثم يُصبح الإنسان جنيناً في رحم أمه، ثم يبين الله العلة من خلق هذا الإنسان، وهي: الاختبار له بالتكاليف، وخلق له سمعاً وبصراً وسائر الجوارح، وإنما ذكر السمع والبصر لأنهما أبرز الجوارح وبهما يتم التعلم والفهم، وبهما تُعرف دلائل الإيمان وحقائقه، حتى يقوم بما كلف به، فإنه لو أذهب عنه السمع والبصر ولم يُعطه العقل الكافي للفهم والاستيعاب؛ لرفع عنه قلم التكليف.

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣)، يبين الله لهذا الإنسان ووضّح له الطريق، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فدلّله على طريق الحق وحذره من طريق الضلال، ثم منحه الله تعالى خاصية الاختيار والإرادة ليختار الحق أو يختار الضلال، فإن اختار الحق أُجر عليه، وإن اختار الضلال عوقب عليه، ولا يظلم ربك أحداً، فبعض الناس يوفق فيكون شاكرًا لربه مطيعاً له، وبعضهم يخذله الله فيكون كافراً بربه عاصياً له، أو أن الإنسان يتقلب بين الشكر والكفر، والمعصية والطاعة، والعبرة بالخاتمة التي يُختم له بها، وهي التي تُقرر مصيره في الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْلَلًا وَسَعِيرًا﴾ (٤)، بدأ ببيان حكم الأخير، وهو الكافر، وهذا يسمى باللف والنشر، كأنك تلف الشيء ثم تنشره

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٥).



فتبدأ بآخره، والتعقيب بهذا الكلام يُشعر بالتهديد والوعيد لمن كفر، **كما في قوله:**
﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾
 [الكهف: ٢٩]، فمن كفر فقد أعد الله له ما يستحقه من أنواع العذاب.

والسلاسل: تُربط بها الأرجل، **والأغلال:** تُربط بها الأيدي إلى العنق، فيُربط الكافر من أقدامه ويُربط من يديه بسلاسل وأغلال تُحرقه وتُعذبه في النار المستعرة المشتعلة التي لا تنطفئ، وأوجز في بيان هذا الصنف دون تفصيل احتقاراً لهم.

وقوله: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾**، ثم بين حال الشكور من خلقه، وهم المؤمنون، وهم درجات، فأعلاهم درجة الأبرار، وفصل كثيرًا في حالهم في الجنة؛ تعظيمًا لشأنهم وتشويقًا للنفوس إلى مراتبهم، **وقد روي:** "أن عبداً حبشياً، نزلت هذه السورة وهو عند رسول الله، فقال: يا رسول الله، هل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك؟، فقال رسول الله: نعم، فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه" ^(١)، والتفصيل في بيان أوصاف الجنة يدفع النفس إلى الاشتياق إليها والعمل من أجلها، **كما قال:** **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** [المطففين: ٢٦]، فهل من مشمر إليها.

وقوله: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾**، الأبرار؛ هم الذين يعملون البر، وهو فعل الطاعات والقربات، ويدخل في ذلك إبرارهم

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم: (٤٧٧٤)، **وقال الطبراني:** "لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد، تفرد به عفيف".



بأقسامهم وأيمانهم، وإبرارهم بآبائهم، ووصف لنا بعض نعيمهم في الجنة، فهم يشربون خمراً ممزوجة برائحة الكافور، إما لطيب رائحته أو لبياض لونه، وفي هذا تحبيب وتشويق لمن امتنع عن الخمر.

وقوله: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، ومصدر هذا الشراب الممزوج بالكافور من عين خاصة بعباد الله، وهم الذين عبدوا الله حقاً في هذه الدنيا، وعبر بلفظ (بها) مع أن السياق يقتضي أن يقول: (منها)، لأنه يقصد الارتواء، وليس مجرد الشرب فقط، **أي:** يرتوي بمائها.

وقوله: ﴿يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ٦، **أي:** أعطاهم خاصية التحكم في مجرى هذه العين، فهم الذين يسيلون ماءها بالاتجاه الذي يريدون، وهذا من فضل الله لأهل الجنة.

ثم ذكر بعض أوصاف هؤلاء الأبرار فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ٧، **أي:** كانوا في الدنيا يوفون بالنذر، وهو النذر المعروف، وهو ما يلزم الإنسان به نفسه من الطاعات، مثل نذرت أن أصوم لله شهراً، ونحوه، وحكمه في الشرع من حيث الأصل مكروه، فلا تلزم نفسك بطاعة وعبادة ما ألزمك الله بها، لكن إن فعلت وجب عليك الوفاء به، **وقيل:** المقصود بالنذر هو التزامهم بأداء الطاعات كلها، فهم يوفون مع ربهم بكل طاعة أمروا بها، فلم يكونوا يُقصرُونَ في طاعة الله مطلقاً، بل نزلوها منزلة النذر الواجب عليهم الوفاء به، وكانوا مع ذلك يخافون يوم القيامة، الذي عذابه وعقوبته وشره منتشر، فيعم أهل المحشر كلهم، **كما في حديث الشفاعة وفيه:** "إن ربي قد



غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله"^(١)، فالأبرار كانوا يعملون الطاعات في الدنيا استعداداً لهذا اليوم وخوفاً من شره المنتشر، وعبر بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار، والمعنى أن أعمالهم هذه تتم منهم على سبيل الاستمرار.

وقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، وكانوا في الدنيا يطعمون الطعام مع حاجتهم إليه، فيطعمون به المسكين واليتيم والأسير، ويؤثرونهم على أنفسهم، ولأنهم يريدون الدار الآخرة، وليس الرياء والسمعة والشهرة، فقد اختاروا أن يطعموا الضعفاء، فالمسكين شخص ضعيف لا يؤبه له، واليتيم طفل صغير لا مصلحة شخصية دنيوية منه، والأسير كل محبوس لا يستطيع أن يحصل على طعامه، فهذه الأنواع الثلاثة لا منفعة عاجلة من ورائهم لمن أطعمهم، ولذا صرّحوا بقصدتهم من هذا الفعل **في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾**، فأخبر الله عن ما يدور في نياتهم، مع أنهم لم يُصرّحوا بهذا، ولذلك لصدقتهم فيها ولكي يقتدي الناس بهم، وأن فعلهم ذلك إخلاصاً لله لا رياء فيه ولا سمعة، ولا يريدون جزاءً ولا شكوراً ممن أطعموهم، وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية كراهية أن تتصدق على مسكين وتقول له: ادعُ الله لي، لأنك قد طلبت الجزاء على فعل ممن تصدقت عليه، فالدعاء جزاء، **كما في الحديث: "من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له"**^(٢)، والأصل أن تُعطيه وتنتظر الجزاء من الله لا منه، والجزاء

(١) صحيح البخاري: (٨٤/٦)، برقم: (٤٧١٢)، وصحيح مسلم: (١/١٨٢)، برقم: (١٩٣).

(٢) مسند أحمد: (٢٦٦/٩)، برقم: (٥٣٦٥)، وسنن أبي داود: (٢/١٢٨)، برقم: (١٦٧٢)،

واسناده صحيح.



قد يكون عطاء آخر، والشكر هو الشاء.

وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (١٠)، ذكروا العلة من اجتهداهم وإخلاصهم في فعل الطاعات، أنهم يخافون الوقوف بين يدي الله في يوم القيامة، الذي تعبس فيه الوجوه من شدة أهواله، والقمطير؛ الطويل أو الشديد^(١)، وكلا الوصفين متحقق في يوم القيامة، فأهواله شديدة ومدته طويلة.

وقوله: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١)، بسبب أعمالهم وقاهم **أي:** حفظهم من الأشياء التي خافوا منها في ذلك اليوم، وهي الشر المستطير وأهوال وشدة وطول يوم القيامة، فالوقاية لهم كانت من الشر، أما الخير فهو سائر وواصل إليهم، ومنحهم البهاء والجمال والنعيم الظاهر على وجوههم وأجسادهم، والسرور في قلوبهم، فجمع لهم بين الجزاء الحسي والجزاء المعنوي، وفي الغالب أن سرور القلب يظهر منه راحة الجسد وجمال الوجه، فجمع لهم بين الصورة الحسنة والنفس الراضية.

وقوله: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢)، **أي:** أعطاهم الأجر والثواب بسبب صبرهم في الدنيا، حيث صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معاصي الله، وصبروا على ابتلاءات الله وأقداره، الجنة التي يسكنون فيه، وفيها كل نعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذكر لنا هنا أحد أنواع اللباس وهو الحرير، وقد كان مُحرمًا في الدنيا على الرجال، فأعطاهم الله بدلًا عنه حريرًا في الجنة.

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٩٩ / ٢٤).



وقوله: ﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣)، وهذا وصف لحال جلستهم في الجنة، وهو الاتكاء، ولا يتكئ الإنسان إلا حينما يكون مطمئناً في جلسته، أما الخائف فيجلس مستوفزاً، مستعداً لما يأتيه، والأرائك هي الأسرة المرتفعة المغطاة بالحجال وهي الثياب، وكانت تُصنع للملوك وكبار القوم، ولم يكن يجلس فيها عامة الناس، فصار أهل الجنة كلهم ملوكاً على الأسرة، ولا يصيب أهل الجنة في الجنة حرارة الشمس، ولا شدة البرودة، وفي حديث بن مسعود وهو موقوف عليه، ولكن له حكم الرفع: "الجنة سجسج لا حر ولا قر" (١)، **والسجسج:** هو الجو المعتدل الذي يُشبه جو ما بعد الفجر قبل طلوع الشمس، **وقيل** (٢): الزمهرير اسمٌ من أسماء القمر في لغة بعض القبائل، والأول أرجح؛ لأن المقصود نفي ما يؤذيهم في الجنة.

وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ (١٤)، **أي:** قريبة منهم ظلال أشجار الجنة المثمرة، فإذا هم أن يتناول من ثمارها؛ تدلت إليه حتى يتناول ما يريد منها، **كما قال:** ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، **أي:** إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، وهذا من خصائص نعيم الجنة أن تأتي إليك النعم دون أن تبحث عنها، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٠ / ٧)، برقم: (٣٣٩٧٠).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥ / ٤٢١).



فوائد وهدايات من الآيات :

- ١- لم يكن آدم ذا شأن حتى تُنفخ فيه الروح، فأصبح له شأن عند الله وعند الملائكة، وفي الكون كله.
- ٢- أن العلة من خلق الإنسان الاختبار له بالتكاليف.
- ٣- أن الله يبين للعبد طريق الحق وطريق الضلال، ومنحه خاصية الاختيار والإرادة، وسيحاسبه على اختياره.
- ٤- حفظ الله الأبرار في الآخرة من الشر المستطير، ومنحهم النعم العظيمة، بسبب خوفهم من الله في الدنيا.



تفسير المقطع الثاني من سورة الإنسان

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْاْ أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ۝٢٢ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَانِمَا أَوْكَفُورًا ۝٢٤ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١﴾

قول الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ نَقْدِيرًا

﴿١٦﴾، ذكر الفعل هنا مبنياً للمجهول وبينه في موضع آخر، أي: ويطوف على أهل الجنة وهم متكئون على الأرائك في الجنة ولدانٌ مُّخْلَدُونَ، يقومون بخدمتهم، ويتددون على أسرتهن وأرائكنهم ليُقدِّموا لهن ما يُريدون وما يشتهون من طعامٍ وشراب، والآنية جمع إناء، وهي التي يُقدِّم بها الطعام، والأكواب

جمع كوب، وهو ما لا عروة له ولا أذن من الأواني^(١)، ويقدم بها الشراب، وكلها مصنوعة من الفضة، ولكنها من صفاتها وجمالها، ترى كما يرى الزجاج، فهي شفافة من حيث الرؤية ولكنها قوية وصلبة بصلابة الفضة التي لا تنكسر^(٢)، وقد كان استخدام أواني الذهب الفضة ممنوع على المسلمين في الدنيا، وأبيحت لهم في الآخرة، بل الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وفي معنى قَدَّرُها قولان للمفسرين^(٣): إما أن الذين يسكبون عليها الطعام أو الشراب أو الماء وهم الولدان المخلدون عندهم من الفهم والدقة والاستيعاب ما يُقدِّرون الشراب والطعام لآكله، فلا يزيدون عليه ولا يُنقصون منه، بل يُعطون الطلب بقدر ما يريد الطالب له، أو أن صاحب الشأن وهو المؤمن يُقدر ما يُريد في خاطره؛ فيأتي ما قدَّره في الإناء على حسب ما يُريد، وهذه نعمة لا شك عظيمة وتكريم كبير من الله لخلقه، وكلا المعنيين جميل وجائز.

ثم قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾^(١٧)، ويُسقى أهل الجنة في الجنة كأسًا مليئًا بالخمير، **كما قال:** ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾^(١٨) [النبا: ٣٤]، أي: ممتلئ خمراً ممزوجاً برائحة الزنجبيل، ورائحة الزنجبيل تُعطي نوعاً من السيولة في الحلق، والرائحة الطيبة، خالية من أي صفة سلبية في زنجبيل الدنيا وإنما هي اتفقت في الأسماء واختلفت في الحقائق.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٤١٢).

(٢) ينظر: النكت والعيون: ٦ (١٧٠).

(٣) ينظر: التفسير البسيط (٢٣/ ٤٥).



وقوله: ﴿عَيْنَاهَا تَسْمَىٰ سَلْسِيلًا﴾ (١٨)، في نصب (عيناً) **قولان** (١): على أنها بدل، **أي:** الزنجبيل يخرج من عين، ويُمزج به الخمر، أو نصبت بنزع الخافض، **أي:** يشربون من عينٍ في الجنة، تسمى هذه العين سلسيلاً، وُسِّمِتَ بذلك؛ لسلاستها ورقة حركتها في الحلق (٢)، فحين يشرب ماؤها يتقاطر من الحلق على شكل القطرات تتدحرج دون غصة ولا ألم!!.

ثم قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ (١٩)، **أي:** يطوف عليهم في مساكنهم ولدان يقومون بخدمتهم، وهم الغلمان الصغار الذين خلقوا في الجنة ويعيشون فيها فلا يموتون ولا يخرجون منها، ومن جمال منظرهم وكثرتهم وبياض وجوههم وتلألأ أجسادهم إذا نظرت إليهم ظننتهم لؤلؤاً منشوراً، وكلما ازداد اللؤلؤ عدداً كثر جماله، فالولدان من كثرتهم وجمالهم صاروا مثل اللؤلؤ في كثرته وجماله ومنظره الحسن، وشبهوا باللؤلؤ المنشور لانتشارهم في خدمة أهل الجنة (٣).

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠)، الخطاب لمحمد ﷺ، **والمعنى:** لو دخلت يا محمد الجنة ورأيت ما أعده الله لأهل الجنة، فستري المؤمنين في الجنة متكئين على الأرائك والخدم حولهم كاللؤلؤ المنشور في جماله ومنظره، ولو رأيت (ثم)، **أي:** مكاناً بعيداً عنك، لرأيت نعيماً آخر عظيماً وملكاً كبيراً،

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٢٣).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٣/ ٥٠).



وفي الحديث: "أن آخر من يدخل الجنة له عشرة أضعاف الدنيا"^(١)، فكيف بالأول؟! **والملك^(٢)** إما أن يكون ما يملكه الإنسان من القصور والبساتين والنعيم، وقيل: جمعُ مَلَك، وهي الملائكة التي تكون منتظرة للسلام على أهل الجنة، **كما قال:** ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴿[الرعد: ٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، **أي:** يجلل ما يظهر من أجسادهم ثياب السندس، وهو ما رقّ من الحرير، **والإستبرق** وهو ما غلظ منه، **فالسندس** يكون هو الملاصق للجسم والإستبرق يكون فوق ذلك، **والمعنى** أن الشخص يلبس في الجنة حلتين: حلة من سندس وحلة من إستبرق، وكلاهما من الحرير، ووصفت بأنها خضراء اللون، وهو الذي يمنح النفس البهجة والسرور، ولذلك فالأطباء اليوم إذا كان عند الإنسان مشكلة نفسية ينصحونه بأن يخرج إلى أماكن خضراء، ليرى الورود والرياحين، ويسمع فيها خرير الماء، وزقزقة العصافير؛ فتنتعش نفسه وتحسن صحته، وقد يُستدل بهذا على استحباب اللبس الأخضر في الدنيا، لكن لباس أهل الجنة يختلف عن لباس أهل الدنيا فلباسهم الأخضر من الحرير، وهو محرم على أهل الدنيا، وقد ورد استحباب اللبس الأبيض، **كما في الحديث:** "إن خير ثيابكم البيض فالبسوها وكفنوا بها موتاكم"^(٣).

(١) صحيح مسلم: (١/١٧٤)، برقم: (١٨٧).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/١٤٥).

(٣) سنن أبي داود: (٨/٤)، برقم: (٣٨٧٨)، وسنن الترمذي: (٢/٣١١)، برقم: (٩٩٤)، وإسناده صحيح.



وقوله: ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾، أي: ألبسوا الحُلِي في الجنة، وهي أدوات الزينة من ذهب وفضة، ونحوها، والأساور ما يلبس على اليدين من ذهب أو فضة، وقد يُوضع في الرجلين، وقد أُبيحت في الدنيا للنساء فقط، وحرمت على الرجال ليكونوا خشنين قادرين على تحمل مشاق الحياة، أما في الجنة فهي دار التنعم، وكل شيء مباح فيها.

وقوله: ﴿وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١)، وصف الله الشراب الذي يشربونه بالطهور لحكمتين، ذكرهما الزمخشري^(١):

الأولى: أنه لا يتكون منه بول ولا عرق ولا غائط، وإنما يرشح مسكاً وطيباً.

والثانية: لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوسخة، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها، ويمكن أن يضاف لهما ثالثة، وهي: أن هذا الشراب لا يمكن أن يؤدي إلى أي خلل أو مرض في الجسد، فهو طاهر من الأسقام حساً ومعنى، فليس فيه ميكروبات ولا بكتيريا ولا شيء من هذا القبيل، وهذا من فضل الله وكرمه على عباده في الجنة.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾^(٢)، أي: ما سبق ذكره من نعيم أهل الجنة هو ثواب ومجازاة لهم بسبب أعمالهم الصالحة، وشكر الله لكم السعي ولو كان قليلاً، ويُعطي عليه الأجر الكثير.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٧٤).



وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣)، الخطاب لمحمد ﷺ، نحن أنزلنا القرآن عليك رحمة وهداية للبشرية، وليس كما يدعي الكافرون أنك قلت من نفسك أو تعلمته من غيرك، وإنما نزل من الله بواسطة جبريل، وأنت حفظته وبلغته للناس، فهو كلام الله تعالى، والتوكيد بالمصدر من أجل إثبات حقيقة التنزيل في الواقع، وليس مجازياً.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءِثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٤)، الخطاب هنا لرسول الله ﷺ، أمره بالصبر لحكم ربه سواء كان هو الحكم القدري أو الحكم الشرعي، فالقدري كتعرضه للابتلاء من المشركين بطرده من مكة، ومُقاتلتهم له في عدة غزوات، ونحوها، والحكم الشرعي، كصبره على قيام الليل والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحوها، ونهاه عن طاعة الكفار، وعدم القبول بما يطلبونه منه من محاولات لترك شيء من دينهم، والآثم هو المرتكب للآثم وهي المعاصي والمنكرات، والكفور هو الجاحد الذي يجحد ربه سبحانه، إلهاً ورباً ومعبوداً.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٢٥)، وأمره بذكر اسم الله، والمقصود به الذكر المطلق صباحاً ومساءً ليلاً ونهاراً، **وقيل** (١): المقصود بذلك صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر، والأول أرجح.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (٢٦)، أي: قم صل له في

(١) ينظر: تفسير الطبري: (١١٦/٢٤).



الليل، وذكر السجود؛ لأنه أعظم ركنٍ من أركان الصلاة، وتنفل لله بقيام الليل الطويل، وقد كان النبي ﷺ يقوم أغلب الليل حتى توفاه الله.

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (٢٧)، أي:

هؤلاء الكفار الذين أمرناك بالصبر عليهم، وعدم طاعتهم، من طبيعتهم حب الدنيا، والغفلة عن الآخرة، فلا يهتمون بإصلاح حالهم في الدنيا بالعبادة والإيمان والطاعة، استعداداً لذلك اليوم الثقيل على الكافرين، وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسين ألف سنة، وهو يوم عسير عليهم، **كما قال: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المدثر: ١٠].**

وقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨)،

أي: نحن من أوجدناهم من العدم، وأتقنا خلقهم، بضبط المفاصل والأوتار والأعصاب، فارتبط كل عضو من أعضائهم بمفصله بدقة وإحكام^(١)، فعيش العبد أكثر من سبعين سنة وهو على خلقته المتقنة لجميع أعضائه، وفي هذا تنبيه للإنسان الذي يكفر بالله الذي أعطاه هذه النعم سبحانه.

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨)، لها معنيان^(٢): أن نهلّكهم في

الدنيا، ونأتي بآخرين يعبدون الله بدلاً عنهم، أو نمسخهم إلى أسمح صورة وأقبح خلقة، والأول أرجح.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٧٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٢٧).



ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢١) **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** (٢٠)، **أي:** هذه السورة فيها عظات وعبر، وقد منح الله الإنسان مشيئة لاختيار طريق الخير أو طريق الشر، فمن شاء اتخذ إلى ربه طريقاً مستقيماً، وهو طريق الخير، ومشيئة هذا العبد مرتبطة بمشيئة الرب سبحانه، ومشيئة الله هي النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن أراد الله له الخير وفقه لاختيار طريق الخير، ومن حصل له الخذلان ذهب في طريق الشر، والكون كله تحت مشيئة الله وإذنه، فلا يكون في الكون شيء بدون إذنه، حتى إبليس يعصي الله بإرادة الله، وبمشيئة الله الكونية، وهناك فرق بين إرادة الله ومشيئته الشرعية، وإرادة الله ومشيئته الكونية، وقد ضلت بعض الفرق بسبب الخلط بينهما، فالإرادة والمشيئة الكونية لا يُشترط فيها الإذن ولا المحبة، بل هي نوع من الابتلاء للبشر، وهي واقعة كوناً وقدراً بإذن الله، **كما قال:** ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، [لزم: ٧]، فالكفر يفعل من الخلق، والله غير راضٍ عنه، ولكن ليس غصباً عنه، ولا بدون إذنه، بل يقع تحت إذنه الكوني، أما الإرادة والمشيئة الشرعية فهي المحبوبة إلى الله، وقد أمر بها الخلق وطلبها منهم، فيريد منك أن تؤمن وتُصلي وتستغفر وتذكر الله، وتبتعد عن المعاصي، وقد تحصل من العبد بتوفيق الله له وقد تتخلف منه بسبب خذلان الله له، ويُحاسب العبد عليها فعلاً وتركاً، وهو سبحانه عليم بمن يصلح له التوفيق، وحكيم يضع الشيء في موضعه، فالهداية والضلال ناتجة عن علمه وحكمته وليس عن جهلٍ وغفلة.



وقوله: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، هذا من الله للعبد أن يمن عليه بالهداية؛ فيهتدي، فيدخل في رحمة الله، وهي الهداية والاستقامة على الشرع في الدنيا، ثم يرحمه في الآخرة بدخول الجنة، وهي من رحمته المخلوقة **كما في الحديث:** "وأنت رحمتي أرحم بك من أشاء"^(١).

وقوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهم من خذلهم الله فكفروا به وابتعدوا عن هدايته وشرعه، وساروا في طريق الشيطان، وقد أعد الله لهم عذابًا أليمًا في النار، **والناس في هذه الدنيا صنفان: إما** موفق آمن وأطاع الله، فكان من أهل الجنة، **وإما** مخذول كافر، فكان من أهل النار.

فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- أن نعم الله تعالى لأهل الجنة كثيرة وعظيمة.
- ٢- خطر التعلق بالدنيا وحبها، والانشغال بها عن الآخرة.
- ٣- بيان أن دخول الجنة برحمة الله وفضله.
- ٤- أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، ولا يكون في هذا الكون إلا ما شاء الله تعالى.

(١) صحيح البخاري: (١٣٨/٦)، برقم: (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم: (٤/٢١٨٦)، برقم: (٢٨٤٦).



تفسير سورة المرسلات

تفسير المقطع الأول من سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا ۝٤﴾
 فَأَلْمَلَقَتْ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ
 فُرِجَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ۝١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾ وَمَا
 أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤﴾ وَيَلُومُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ ثُمَّ نَبْعُهُمُ الْآخِرِينَ
 ۝١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ وَيَلُومُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ
 فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ۝٢٣﴾ وَيَلُومُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾

شخصية السورة:

سورة المرسلات، سورة مكية^(١)، ومقصدها العام بيان حال المكذبين والوعيد لهم بالويل والثبور يوم القيامة.

ابتدأت بالقسم، فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾، الواو أداة القسم، والمرسلات مُقسَّمٌ به، والمقصود بالمرسلات **قولان للمفسرين^(٢)**: هي الرياح التي يتبع

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٩٦/٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (١٢٤/٢٤).

بعضها بعضاً، أو الملائكة التي أرسلت بأمر الله ونهيه، وذلك هو العرف.

وقوله: ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ۚ﴾، هي الرياح الشديدة، أو الملائكة، ولكنها في الرياح أقوى لأن العاصفات جمع عاصفة، والعاصفة هي الرياح الشديدة، وهو قول الجمهور^(١) وأكدها بالمصدر.

وقوله: ﴿وَالنَّشْرِبِ نَشْرًا ۚ﴾، هي الرياح التي تنشر السحب وفيها المطر، أو الملائكة التي تنشر الكتب، ولكنها في الرياح أقرب، وهو قول الأكثر^(٢)، وأكدها بالمصدر.

وقوله: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا ۚ﴾، وهي الملائكة، التي تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي وتلقي الذكر، وتنزل بالوحي على الأنبياء، وتنزل بأمر الله على الرسل^(٣).

وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۚ﴾، نُصبت عُذْرًا أو نُذْرًا لتعلقها بالذكر، أو على الحال^(٤)، ما الفرق بين الإعذار والإنذار؟! يقال: قد أعذر من أنذر، ومعناه: لا لوم عليه لو عاقب، فالإعذار يكون أولاً وهو إرسال الرسل وإقامة الحجة على الناس، فإن لم يؤمنوا وحصل لهم العقاب فلا عذر لهم؛ **والمعنى:** تُعذرهم وتُنذرهم، أي: تقيم عليهم الحجة، وتُخوفهم من العقوبة، وهذه هي مهمة

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٣٨٣/٤).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٢٩٧/٨).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٤٣٠/٥).



الرسل الذين ينزل الله عليهم الوحي بواسطة الملائكة، والرسل يبلغونه للناس على سبيل الإعذار والإنذار.

ما وجه الجمع بين الرياح والملائكة في هذا القسم؟! وجه الشبه وسر الاجتماع بينهما هو الخير والشر، فالرياح تأتي بالخير وتأتي بالشر، والملائكة تحمل الرحمة وتحمل العذاب، وكلاهما من جند الله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ﴾ (٧)، هذا هو جوابُ القسم، وهو إثبات حقيقة البعث والنشور؛ لأن قريشاً كانت تُنكره، وتوعدهم به الرسل، فأقسم الله بهذه الأمور الخمسة على وقوع البعث والنشور ومجيئه لا محالة في مواعده.

ما علاقة المُقَسَّم به بجواب القسم؟!، العلاقة هنا خفية، فلو نظرنا فيما تحمله الرياح من ماءٍ ومطر وما تحمله الملائكة من وحي؛ لو وجدنا أن بهما تحصل الحياة في الأرض، فهما وسيلتان لإحياء الدنيا روحاً وحساً، فالمطر ينزل فتحيا الأرض، والوحي ينزل فتحيا القلوب، فالذي أوجد وسائل الحياة الدنيوية، قادر على إعادة الحياة للخلق في الآخرة بوسائل أخرى.

وقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨)، **الفاء** للتوقيت، **أي:** إذا جاء وقت قيام الساعة فالنجوم تُطمس، والنجوم هي الكواكب التي لها نور وتضيء في الليل سواءً كانت تقتبس نورها من الشمس أو بعضها أو كان مُضيئاً بنفسه، وطمست، **أي:** ذهب نورها، وفي الحقيقة هي اندثرت، **أي:** تفككت وتساقطت ولم تعد ترى نجوماً في السماء، فصارت كأنها مطموسة، وهذه من علامات الساعة الكبرى.



وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝١﴾، أي: شقت، **كما قال:** ﴿وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق:٦]، وهي الأخراق والشقوق، ولكنها قبل يوم القيامة تتشقق **كما قال:** ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، **وكما قال:** ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١]، وكلها معانٍ متقاربة، تدل على أن تغير السماء وذهاب الإلتقان فيها، ولم تعد كما خلقها الله؛ إيذاناً بنهاية الكون.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ۝١٠﴾، النسف تفريق الأجزاء، ومنه نسف الطعام، لأنه يحرك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن^(١)، فهذه الجبال العظيمة تدك فتتمزق، **كما قال:** ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة:٥]، ثم تنسف فتكون كالهباء في الهواء.

وقوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ ۝١١﴾ لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾، جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ومائة وأربعة وعشرون ألف نبي^(٢)، فهؤلاء كلهم ضُرب لهم موعد للاجتماع واللقاء، فيُجمعون لميقات يوم معلوم هو يوم القيامة؛ لأنهم سيكونون شهداء على أقوامهم، وسُمي بيوم الفصل؛ لأنه يتم فيه الفصل بين الناس في كل المظالم التي حصلت بينهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤﴾، ما أدراك يا محمد ما يوم الفصل، وهذا أسلوب من أساليب التهويل والتعظيم يأتي في سياق الحديث عن يوم القيامة،

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٥٧).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨/٢١٧)، برقم: (٧٨٧١)، واسناده ضعيف.



كما قال: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: ١-٢]، **وكما قال:** ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١-٣]. ونحوها.

ثم قال: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾، الويل والثبور والخسارة في هذا اليوم سيكون لمن كذب بالله ورُسله، **والويل، في معناه عدة أقوال^(١): قيل:** واد في جهنم، **وقيل:** العذاب، **والصحيح** أن كلمة ويل في لغة العرب معناها الدعاء بالهلاك، وهي هنا دعاء بالهلاك على المكذبين بذلك اليوم الذي هو يوم القيامة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ الْوَلِينَ ۝١٦ ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ۝١٧﴾، هذا وعظ من الله تعالى للكفار الذين يسمعون هذا الوعيد وهم ما زالوا مكذبين، أما بلغكم خبر من قبلكم من المكذبين، وكيف أهلكهم الله بسبب تكذيبهم للرسول، والمقصود بالأولين هنا قوم عادٍ وثمود، وهم من أوائل من أهلك، ثم تتبعهم في الهلاك الذين أتوا بعدهم وكذبوا رسلهم كقوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم، فقد عاقبنا الأولين ثم عاقبنا الآخرين وأهلكناهم أجمعين.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾، هذا تلميح وتهديد بهلاك كفار قريش إن استمروا على الإجرام والتكذيب، **أي:** سنفعل بهم مثل ما فعلنا بالأولين والآخرين، والإجرام فعل عظام الذنوب، ومن أعظم الذنوب الشرك بالله تعالى، ثم فعل باقي الجرائم الأخرى المتعلقة بالبشر من القتل والفاحشة ونحوها.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٥٨).



وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٩)، تكرر هذا اللفظ في هذه السورة عدة مرات، فهل التكرار للتوكيد أم للتأسيس؟! **الجواب:** للتأسيس^(١)، وهو التعقيب على شيء جديد، **والمعنى:** ويل لمن اتصف بهذه الصفة، وكرر الدعاء عليهم؛ لعلهم أن يفيقوا من تكذيبهم، ويرجعوا إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) **فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢١) **إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ (٢٢)،** الخطاب للناس كلهم، وإن كان الخطاب موجهاً إلى كفار قريش الذين نزل القرآن فيهم وتكذيبهم بالبعث والنشور، لكن كل بني آدم خلُقوا من ماء مهين، هو النطفة من المني التي تخرج من الرجل من مجرى البول، وتصب في رحم المرأة، فيقر فيها ويتمكن، وهذا التمكّن يكون بعد أن تتعلق العلقة بجدار الرحم، ويبقى الجنين فيها إلى وقت محدد، والغالب أنها تسعة أشهر، وقد تزيد أو تنقص ومقدار ذلك الوقت يعلمه الله تعالى.**

وقوله: ﴿قَدَّرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ (٢٣)، **فيها قراءتان**^(٢): **بالتخفيف**، بمعنى ملكنا، فنعم المالكون، مدح الله تعالى نفسه، وهو الذي يملك الخلق، **وبالتشديد** "فقدّرنا"، من التقدير، **أي:** قدّرنا صفة المولود ذكراً أو أنثى، شقيماً أو سعيداً، وكل ما يتعلق به من لونه وعمره وجنسه، فنعم المُقدّر وهو الله تعالى.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٤)، ويل لمن يكذب بقدرته الله تعالى، الذي أوجد هذا الإنسان وخلق به هذه الدقة.

(١) ينظر: تفسير الألوسي: (١٥/١٩٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/١٣٢).



فوائد وهدايات من الآيات :

- ١- أن الله تعالى له أن يُقسم بما شاء من المخلوقات، وفي ذلك لفتٌ لانتباه المخلوقين إلى عظمة هذا الخلق.
- ٢- أن من علامات الساعة الكبرى تغيّر الكون واختلاله.
- ٣- أن الرسل كما يُبلغون في الدنيا فهم شُهود على أقوامهم في الآخرة.
- ٤- بيان خطورة التكذيب بالله تعالى، وبرسله، وبأحكامه الشرعية، وأن تكرار الدعاء بالهلاك للمكذبين دليل على خطورة هذا الذنب وآثاره على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.
- ٥- أن الله تعالى يُذكر الإنسان بأصل خلقته بين الحين والآخر، ليعظه عن التكبر، ويدعوه إلى التواضع، فلا فرق بينك وبين من تتكبر عليهم في الخلقة.



تفسير المقطع الثاني من سورة المرسلات

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (٢٦) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَجِيزًا وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ (٢٧) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨) ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) ﴿لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَغْنِي مِنَ الْهَبِ﴾ (٣١) ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) ﴿كَأَنَّهُ جُمُلَتُ صُفْرًا﴾ (٣٣) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٠) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّيلٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) ﴿وَفَوْكَهٖ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٢) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٥) ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَبِلَّيْمٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠).

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (٢٦)، هذه من النعم التي امتن الله بها على الخلق، فهو يذكرهم بنعمة هذه الأرض التي جعلها تضمهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم، وتضمهم أمواتاً إذا قبروا في بطنها^(١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَجِيزًا﴾، أي: ثبت الأرض بالجبال الراسية المرتفعة، فلا تتحرك ولا تضطرب.

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٣/ ٩٢).

وقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ۖ﴾، ومن النعم التي أنعم الله بها على الخلق أن أسقاهم الماء العذب الزلال، وهو مياه الأنهار وما ينزل من الأمطار.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ﴾، سبق معنا أن التكرار لهذه الآية في هذه السورة، يُفيد التأسيس، لأنها تذكر بعد نعم متعددة على سبيل التهديد والوعيد لمن كذب بتلك النعم، وهنا توعد من كذب بنعمة تهيئة الأرض لضم الناس فيها، وخلق الجبال أوتاداً لها، ونعمة جعل الماء عذباً زلالاً يشرب منه الناس.

وقوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۖ﴾ ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ﴾ ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ۖ﴾، الخطاب للكفار، وسيكون في الآخرة، يوم أن يبعثهم الله، ثم يأمرهم بالانطلاق إلى النار التي كانوا يكذبون بها، ويُنكرون وجودها في الدنيا، ثم كرر لهم الأمر بالانطلاق إلى مكان مخصص في النار، وهو مكان ظل دخان النار، لأن النار حين تشتعل اشتعالاً كبيراً بمن يكون فيها من أهلها من الناس والحجارة؛ يخرج منها دخانٌ عظيم، فينقسم إلى ثلاث فرق^(١)، وهذه الفرق ترتفع، فمن شدة الحر والظنك والعطش الذي يُصيب أهل النار المكذبين في الآخرة يُقال لهم: اذهبوا استظلوا تحت ظل ذلك الدخان، وهو في الحقيقة ليس بظل، فلا يوجد تحته ما يُريح، بل هذا نوع من التهكم عليهم، فيذهبون فلا يجدون برداً ولا ظلاً وإنما يزدادون ألماً من ريحته الكريهة، فهو دخان جثث أهل النار ولا يمنع عنهم لهب اشتعال النار، فلم يستفيدوا منه شيئاً بل اقربوا من رائحته ومن حر لهيب النار، والعياذ بالله.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٩٩).



وقوله: ﴿إِنهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۚ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ۚ﴾، الضمير يعود إلى النار، لأن النار هي المشتعلة، وهي التي تقذف الشرر، وهو جمع شرارة، وهي التي تخرج مشتعلة من النار، وُسْمِي شرراً من الشر الذي يحمله، وحجم كل شرارة مثل البناء العظيم، أو كأسفل النخيل المقطوعة، والأول أرجح^(١)، لأن فيه معنى التهويل والتخويف لأهل النار، كأن هذا الشرر جمالات، جمع الجمع، فجمل يجمع على جمال.

وجِمالات جمع جمال، وهي الإبل العظيمة الكبيرة التي تميل إلى السواد، فإن العرب إذا أطلقوا كلمة صُفر يقصدون بها السواد الأدهم^(٢)، أو أن لونها فيه شيء من اللون الأصفر الذي يُشبه لهب النار، **والمعنى:** أن النار من شدة حرارتها اسودت، ويكون في أطرافها شيء من اللهب الأصفر فوصفت باللون الأصفر الذي يميل إلى السواد، وهذا وصفٌ عظيم للشر الذي ينطلق منها، فما بالك بالنار نفسها.

وقوله: ﴿وَبَلَّيْمٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۚ﴾، هلاك للمكذبين بعذاب الله الذي سبق وصفه.

ثم قال سبحانه: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۚ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ۚ﴾، وُصف يوم القيامة باليوم الذي لا ينطق فيه الكفار، وقد جاء في آيات أخرى أن الكفار يتكلمون، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ، كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]،

(١) ينظر: تفسير الطبري: (١٣٧/٢٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٤٣٤/٥).



والجمع بينها أن هذا يكون في مرحلة وذاك في مرحلة أخرى^(١)، ففي مرحلة البعث الأولى فمن شدة غضب الجبار في ذلك اليوم؛ لا يُسمح لأحد أن ينطق بكلمة، ولا يوجد مجال للاعتذار، فإذا شفع محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه بالفصل بين الناس وحسابهم، سُمح لمن أراد أن يتكلم أو يسأل.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِلِّ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢٧)، هلاك لمن كذب بأخبار هذا اليوم وما يجري فيه من الصمت المُطبق في بدايته وعدم السماح لأحد أن يعتذر في هذه المرحلة.

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾^(٢٨)، سَمَّى الله يوم القيامة بيوم الفصل؛ لأن الله يفصل فيه بين المتخاصمين، وبين أهل الحق وأهل والباطل، وبين الظالم والمظلوم، والخطاب موجه لكفار أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه لأنهم هم المتأخرون، والأولون هم أقوام الرسل في الأمم السابقة، حيث يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد في يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون﴾^(٢٩)، خاطبهم على سبيل التهكم والتوبيخ: إن كان لديكم خطة خفية أو حيلة للتخلص من هذا الوقف فافعلوا؟!، والكيد هو المكر الخفي، والواقع أنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِلِّ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٤٠)، ويل وخسارة وهلاك للمكذبين بيوم الفصل وما يجري فيه.

ومن عادات القرآن وأساليبه المطردة أنه إذا حدثنا عن النار وأهلها؛ حدثنا عن

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٣/ ١٠٢).



الجنة وأهلها، من باب المقارنة حتى يتضح للعاقل حال الفريقين؛ فيختار لنفسه من أيهما يكون!!، **فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَّيْنِ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) ﴿وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٢)**، التقوى أرقى وصف للمؤمنين؛ لأنهم اتقوا الله تعالى، وترقوا في درجات الكمال والإيمان بفعل الطاعات والقربات، وابتعدوا عن كل ما نهى الله تعالى عنه، حتى وصلوا إلى درجة التقوى، هؤلاء جزاؤهم أنهم في الجنة وتحت ظلال أشجارها يتنعمون، ومن الأنهار التي تسيل منها المياه الطيبة العذبة يشربون، ويُعطون الفاكهة التي تشتهيها أنفسهم، **ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**، القائل قد يكون الله سبحانه، وقد تكون الملائكة أو الخدم الذين يمرون عليهم^(١)، ويظهر أن الخطاب من ربهم سبحانه، فهو الذي يتفضل عليهم بذلك، وهو خطاب مُجازاة لهم، لأنهم تعبوا في الدنيا في طاعته وحُرموا من كثير من النعم، والأكل والشرب الهنيء هو الذي لا مُنغص فيه، لا حسي ولا معنوي، فالحسي قد يكون الطعام غير طيب في مذاقه، أو يكون قليلاً وغير كافٍ.

والتنغيص المعنوي: أن يُقال له أثناء الأكل عبارات التوبيخ والمن والأذى، وأحياناً الإنسان قد يتحمل المرارة من أجل عزة النفس، ولا يتحمل الحلاوة في مقابل جرح النفوس، فجمع الله للمتقين في الجنة بين هناءة العيش حساً ومعنىً.

وقوله: ﴿بِمَا﴾، هي باء السببية^(٢)، **كما في قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢)** [النحل: ٣٢]؛ لأن دخول الجنة مرتبة عظيمة جداً، والعمل والطاعة

(١) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٤٣٥).



قليل لا يساوي ثمن دخول الجنة، فيكون دخول الجنة برحمة الله سبحانه، كما **في الحديث:** "لن يُدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" ^(١)، ويمكن أن نقول إنها باء الثمنية، لأن تفاوت نعيم أهل الجنة في الدرجات والأكل والشرب فيها؛ يكون بسبب أعمالهم، ولذلك أمرنا بالتنافس في الدنيا عليها، **كما قال:** ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الفردوس الأعلى.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٤٤)، أي: هذا الجزاء حصلتم عليه لإحسانكم في أعمالكم في الدنيا، فلما أحسستم في عبادتكم لله، وأحسستم إلى خلق الله في الدنيا؛ أحسن الله إليكم، ومنحكم جزاءً وثواباً في الجنة فكنتم على أحسن حال.

وقوله: ﴿وَلْيُؤْمَرِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ^(٤٥)، هلاكٌ وخسارة لمن كذب بنعيم أهل الجنة.

ثم رجع الخطاب إلى الكفار، فقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ ^(٤٦)، والمعنى: استمروا على كفركم بالله وتمتعوا بما أعطاكم الله من النعم في الدنيا ^(٢)، وهذا التمتع سيكون قليلاً، وترحلون وتتركونه، وبكفركم بالله وتكذيبكم برسوله ﷺ أصبحتم في عداد المجرمين، **ولو قلنا:** إن الخطاب موجه لهم في الآخرة. وهم في النار، فهو على سبيل التوبيخ والتهكم، **كما قال:** ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: تمتعوا بمرارة الضريع

(١) صحيح البخاري: (١٢١ / ٧)، برقم: (٥٦٧٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٣٠١ / ٨).



والغسلين وشجرة الزقوم، بسبب أنكم كنتم مجرمين في الدنيا.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٧)، ويل وهلاك لمن يكذب لما سيحصل لأهل النار.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨)، وإذا قيل للكفار في الدنيا: اركعوا، لا يركعون، وللمفسرين في معنى اركعوا قولان^(١)، **قيل:** أطيعوا الرسل وآمنوا بهم، فمعنى الركوع هنا الاستسلام والخضوع والاستجابة والامتثال، فلا يفعلون ذلك، **وقيل:** إن معنى اركعوا هنا، صلوا، وعبر بالركوع عن الصلاة لأنه من أشرف المواضع فيها، فإذا قيل لهم: صلوا، لا يُصلون، والراجح الأول؛ لأنه عام ويدخل فيه القول الثاني.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩)، هلاك وخسران لمن يكذب بما جاءت به الرسل، من الأمر والنهي.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠)، **أي:** إن لم يؤمن الكفار بهذا القرآن، وقد احتوى على الحجج والبراهين والأدلة وأوضح جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فإن لم تهتدي قلوبهم وتؤمن به مع ما فيه من وسائل الهداية والبيان والحجج والبراهين؛ فبأي كتاب أو برهان وحجة، يُمكن أن يقتنعوا؟! وهذا معناه أن من وصل إلى هذا الحال؛ فلا خير فيه، فمن لم يهتد بالقرآن والسنة؛ فلن تحصل له هداية بغيرهما.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٦٩).



فوائد وهدايات من الآيات:

- ١- اتساع الأرض وكفاتها لمن عليها من الأحياء والأموات.
 - ٢- خطورة التكذيب بآيات الله ونعمه والوعيد الشديد لمن يفعل ذلك.
 - ٣- بيان أن ما منحه الله للمؤمنين في الجنة كان بسبب إيمانهم وإحسانهم في العمل، وما عاقب الله به الكفار في الجحيم كان بسبب إعراضهم وكفرهم.
 - ٥- أن من لم يهتد بالقرآن والسنة، فلن تحصل له هداية بغيرهما.
- نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم بما قلنا وسمعتم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.





تفسير جزء عم





تفسير سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١ ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ ٢ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ ٣ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٤ ﴿تُرْكَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ٦ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ٧ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ٩ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ١٠ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ١١ ﴿وَبَنَيْنَا شِدَادًا﴾ ١٢ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ١٣ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ ١٤ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ١٥ ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ١٦ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ ١٧ ﴿يَوْمَ يُفْخِخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ١٨ ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ١٩ ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ٢٠ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ٢١ ﴿لِلطَّغِينِ مَتَابًا﴾ ٢٢ ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ٢٣ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ٢٤ ﴿إِلَّا حَيْمًا وَغَسَاقًا﴾ ٢٥ ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ ٢٦ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ٢٧ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ ٢٨ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ٢٩ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ٣٠ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ٣١ ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ ٣٢ ﴿وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا﴾ ٣٣ ﴿وَكُاسَادِهَاقًا﴾ ٣٤ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ ٣٥ ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ ٣٦ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ٣٧ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ٣٨ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ ٣٩ ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ ٤٠ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ٤١ ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ ٤٢ ﴿وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا﴾ ٤٣ ﴿وَكُاسَادِهَاقًا﴾ ٤٤ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ ٤٥ ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ ٤٦ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا يَنْكَلِمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

شخصية السورة:

سورة النبأ^(١)؛ سورة مكية بالإجماع^(٢)، أي: نزلت قبل الهجرة، **والقرآن** الذي نزل قبل الهجرة يمتاز بمجموعة من الخصائص والصفات؛ منها: أنه يهتم ببيان التوحيد وإثبات البعث والنشور، والرد على المشركين المنكرين له، **ويمتاز** بقصر الآيات؛ لأن الآية القصيرة لها وقعٌ في النفس، بخلاف الآية الطويلة، ولا يوجد فيه تفاصيل للأحكام الشرعية الفرعية، وفيها أيضًا الترهيب والترغيب، ودعوة الناس إلى محاسن الأخلاق قبل أن تنزل عليهم الأحكام والحدود، حتى تتألف النفوس وتقبل على الله سبحانه وتعالى، وينمو فيها الإيمان، ثم يأتي بعد ذلك تفاصيل الأحكام الشرعية في القرآن المدني الذي سُوره وآياته طويلة، وأحكامه مفصلة.

ومقصد السورة الأعظم، هو إثبات البعث والجزاء والرد على المنكرين، وبيان عقوبة المكذبين، وجزاء المؤمنين الصالحين.

وابتدأت بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، عمّ، هي عبارة (عن)، و(ما) الاستفهامية،

(١) وتسمى سورة عم، وعم يتساءلون، والتساؤل، والمعصرات، وآياتها إحدى وأربعون. ينظر:

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (١٥/ ٢٠١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٣٢).



ولكن أُدغمَت النون مع الميم في الخط لِقربهما من بعضٍ في المخرج، وحُذفت الألف تخفيفاً، لكثرة الاستخدام، أو لتمييز الخبر عن الاستفهام^(١)، **والمعنى**: عن أي شيء يتساءل المشركون إذا اجتمعوا في نواديهم ومجالسهم وأثناء حواراتهم ونقاشهم؟!، وليس بالضرورة كل تساؤل يحتاج إلى جوابٍ، فقد يكون السؤال استنكارياً تعجبياً!!، لإثارة الموضوع، أو لاستغرابه!!، **كما قال الله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾** [الطور: ٢٥-٢٦]، **أي**: يتذكرون أخبارهم في الدنيا، ويأتي السؤال بمعنى الحديث، **أي**: تُحدثني وأُحدثك، ولما بُعث محمدٌ ﷺ، أحدث ضجةً كبيرةً في مكة؛ وجاءهم بشيءٍ جديدٍ، فكلما التقى مشركٌ مع مشركٍ تحدثوا عن ما جاء به محمدٌ ﷺ؛ **ولذلك قال الله جواباً عن ذلك: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ (٢)**، فأهل مكة مشغولون في حواراتهم ونقاشاتهم بالنبا العظيم، وهو: الخبر الذي فيه عظمة، ومن عظمته أن الناس يتحدثون عنه كلما تقابلوا، فليس خبراً عادياً، وإنما هو خبرٌ عظيمٌ، فيه تغييرٌ للواقع الذي يعيشه الناس.

وقد اختلف في تفسير النبا العظيم، فقليل: المقصود به البعث^(٢)، وقيل: محمدٌ ﷺ^(٣). وقيل: القرآن^(٤). ولكل قولٍ حُجته، وقد كانت هذه الثلاثة الأمور مدار اختلاف المشركين، ويمكن الجمع بينها كلها، فالنبا العظيم؛ هو

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٦٩).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤: ١٥٠).

(٣) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/٣٨٨).

(٤) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤: ١٤٩)، وزاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/٣٨٨).



محمد ﷺ، وقد جاء بالقرآن، الذي فيه إثبات البعث والنشور الذي تنكره قريش، وكلها متناسقة ولا تعارض بينها.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ (٣)، أي: هذا النبا العظيم الذي اختلف فيه كفار مكة، **فإن قلنا:** إنه محمد؛ فقد قالوا فيه أقوالاً كثيرة، **قالوا:** ساحرٌ، وكاهنٌ، وشاعرٌ، ونحوها، **وإن قلنا:** إنه القرآن؛ فقد قالوا فيه أقوالاً كثيرة، **﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**، **وقالوا:** **﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾**، **وقالوا:** **﴿يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾**، **وإن قلنا:** إنه البعث والنشور، فهم أيضاً مختلفون فيه أيضاً؛ فمنهم من ينكره جملةً وتفصيلاً، **كما في قوله: ﴿قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]**، **ومنهم من يقول:** بالبعث، دون الحساب، **ومنهم من يقول** غير ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤)، كلاً، كلمة ردع وزجرٍ لإبطال كلام سابق، وهو اختلافهم في محمد ﷺ، واختلافهم في القرآن، واختلافهم في البعث، وهو كلامٌ باطلٌ، فمحمدٌ حقٌ، والقرآن حقٌ، والبعث حقٌ، وكل ما قلتم عنهم مردود عليكم.

وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ فيه تهديدٌ ووعدٌ لهؤلاء المنكرين، وأنهم سيحصل عندهم العلم اليقيني حينما يُبعثون فيرون البعث حقاً، ويعلمون صدق القرآن وصدق محمد ﷺ، ثم كرّر العبارة **فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥)**، وهذا التكرار للتوكيد، وفيه معنى التهديد والوعيد لهم، وفيه تنبيهٌ للغافل لعله يرجع ويتوب!!

ثم جاءت الفقرة الثانية في السورة وتحدثت عن تسع قضايا كلها تدل على قدرة الله وعظمته وأنه قادرٌ على البعث والنشور، وإنزال القرآن وإرسال الرسل،



وكلها أدلة عقلية، ناقش فيها القرآن الكريم المشركين؛ ليعلموا عظمة الله وقدرته، ومن كانت هذه أوصافه فلا يُعجزه أن يبعث الناس ويحاسبهم؛ فإن البعث والنشور في حقه سهلٌ يسيرٌ!!

القضية الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ (٦)، نجعل: (النون) للتعظيم أي: صير الله الأرض مُمهدة، وفي آيةٍ أخرى جعلها: ﴿فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، والأرض الممهدة تستطيع أن تفرشها وتعيش عليها بسهولةٍ ويُسرٍ، بخلاف غيرها من الكواكب، كالمريخ والمشتري وغيرها، ففي العيش على ظهرها صعوبةٌ جداً؛ لأنها غير مُهيأة للحياة عليها.

ثم ذكر القضية الثانية فقال: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧)، أي: صير الجبال أوتاداً للأرض، والوتد هو: قطعةٌ من الحديد تُربط به الخيمة ويمسكها حتى لا تضطرب، فالله صير الجبال أوتاداً للأرض، حتى لا تضطرب، وسُميت بالرواسي لأنها تجعل الأرض راسيةً مستقرةً.

ثم ذكر القضية الثالثة فقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨)، أي: أن الله خلق الخلق أزواجاً، وأزواجاً لها معنيان في لغة العرب: فالزوج يأتي بمعنى الذكر والأنثى، وهو يشمل الإنسان والحيوان؛ حتى يتم التزاوج والتناسل بينهم، ويأتي بالمعنى الثاني وهو الأعم وهو أن الله خلق في هذه الأرض من كل شيء زوجين متقابلين مثل الليل والنهار، والشمس والقمر، والفرح والحزن، والأبيض والأسود، ونحوها، وهذا التقابل يُسمى أزواجاً^(١)، والأول أرجح؛ لأن الخطاب فيه

(١) ينظر: فتح القدير (٥/ ٤٣٩).



للمكلفين، ولكي يظهر أثر هذا التزاوج في استمرار نسلهم!!

ثم ذكر القضية الرابعة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، وهذه نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على الخلق؛ أن صير لهم النوم متقطعاً، من سبت الشيء سَبْتًا إذا قطعته، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى منحكم النوم عند حاجتكم إليه ورفع عنكم حينما لا تحتاجونه، فصار بهذا الشكل نعمة، بخلاف من نام طوال الوقت فهو مريض، ومن صحى طوال الوقت فهو مريض، فجعل الله سبحانه وتعالى النوم متقطعاً نعمة واضحة وفيها فائدة للخلق، وتدل على عظمة قدرة الله وتديره في اختيار ما ينفعهم.

ثم ذكر القضية الخامسة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: صير لنا النهار مكاناً لطلب المعاش، وهو الرزق، والليل جعله للسكون والراحة، وفيه إشارة إلى ضرورة استغلال النهار في العمل والإنتاج وعمارة الأرض، **كما قال:** ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، والليل استغله بالنوم والصلاة والذكر والتسبيح ونحوها.

ثم ذكر القضية السادسة، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، والسبع الشداد، هي السموات، فقد بناها الله بناءً محكمًا، لا تجد فيها من فطور أو خلل، وجعلها فوقنا ننظر إليها كل لحظة فنرى فيها قدرة الله وعظمته!!

ثم ذكر القضية الثامنة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، والسراج الوهَّاج، هو الشمس، وفيها صفتان: **الصفة الأولى:** أنها تُضيء بالنور؛ لذلك لما تغيب يُظلم النهار ويأتي الليل، فهي سبب للنور. **والصفة الثانية:** أنها سبب للحرارة،



فهي نورٌ للأرض، ومصدرٌ لحرارتها، وجعلها الله سبحانه وتعالى بمسافةٍ معينةٍ بينها وبين الأرض فلو اقتربت من الأرض لذابت الأرض من شدة الحر، ولو ابتعدت كثيرًا لمات الخلق من شدة البرد!!

ثم ذكر القضية التاسعة، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۖ﴾، والمعصرات هي السحب التي تعصرها الرياح؛ فتمطر، وسُميت مُعْصِرَاتٍ؛ لأنَّ الرياح تعصرها حتى يخرج منها المطر، فالله سبحانه وتعالى يُرسل الرياح لتعصر السحب وتسوقها إلى مكانٍ مُعينٍ ثم تُنزل ماءها، وهو المطر، والشجاج المتتابع القطرات، من الشج، وهو سرعة التدفق؛ **أي:** تُصَبُّ ماءً مُنْهَمِرًا مُتْتَابِعًا، ومنه قول النبي ﷺ: "أفضل الحج العَجُّ والشَّجُّ" (١).

فالعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، **والشَّجُّ:** تتابع إنهارُ دماء الهدى.

ثم قال: ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۖ﴾، فالعلة من إنزال المطر هي: أن يُخرج به الحب ويُنبِت به النبات ويُنشأ به البساتين الكثيرة الأشجار التي التفت سيقانها وأغصانها على بعضها من كثرتها.

ثم ذكر بعد ذلك الفقرة الثالثة من السورة، فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۖ﴾، والمناسبة بين هذ الفقرة والتي قبلها: أن هذه الحياة التي هيأها الله للعباد بتمهيد الأرض، وجعل الأوتاد فيها، وإنزال الأمطار، وإخراج الثمار والحبوب منها، وجعلها محلًا مناسبًا لعيشكم فيها؛ إلا أنكم لن تستمروا عليها، فحياتكم مؤقتة ومصيركم إلى الموت ثم البعث والحشر، إلى يوم الفصل وهو يوم القيامة،

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٩/٩) برقم (٥٠٨٦) وقال محققه: إسناده حسن.



وسُمي يوم الفصل لأن فيه يفصل الله بين الناس، ويحكم بينهم، ويجازي كل واحد منهم على عمله في الدنيا، وهو يومٌ مؤقتٌ ومحددٌ ومكتوبٌ عند الله يأتي في مواعده، فلا يتأخر ولا يتقدم.

ثم ذكر ماذا يجري في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨)،

فحين ينفخ إسرافيل بالبوق النفخ الثانية، يبعث الناس بعدها جماعاتٍ، جماعاتٍ إلى ساحة المحشر، **وقال بعضهم:** أن الصور؛ جمع صورة، **أي:** يُنفخ في صوركم فتدخل أرواحكم فيها؛ فتُحيون^(١)، والقول الأول، هو الراجح؛ لورود النص في ذلك، **فقد قال** صلى الله عليه وسلم **قال:** "كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ أُلْتَمَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ حَتَّى يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفَخَ؟" (٢).

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩)، وتفتح السماء يوم القيامة أبواباً وطرقاً للملائكة، **كما قال:** ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقوله: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠)، **أي:** تتحرك من أماكنها، ولا يمكن أن تتحرك الجبال، وهي جبالٌ، بل تُدك وتُنسف وتصبح هباءً منثورًا، ثم هذا الهباء هو الذي يسير، وإذا سار ابتعد فيراه الرائي من بعيدٍ على أنه سرابٌ، فإذا اقترب منه فلا يجده، والسراب هو رؤية الخيال في الصحراء على أنه ماءٌ، **كما قال:** ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١)، وتكون جهنم مَرَصَدًا لكل

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢/٣١).

(٢) رواه ابن حبان، كما في الإحسان: ٩٥/٢ برقم (٨٢٠)، وإسناده صحيح.



الناس بدلالة **قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾** [مريم: ٧١]، فهي ترصد الجميع، ويمرون جميعاً من فوقها، فالمؤمنون ينجون منها، والطاغون يسقطون فيها، **وبين ذلك بقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ مَأَابًا﴾** (٢٢)، أي: مرجعاً ومأوىً ومكاناً يعيشون فيه، والطاغون هم الكفار الذين طغوا وبغوا وأكثروا في الأرض الفساد.

وقوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣)، أي: ماكثين في النار أحقاباً، والأحقاب: جمع حَقَب أو حِقْبَة، والحِقْبَة من الزمن، قيل: ثمانون سنة^(١)، وقيل: حَقَب وراء حَقَب^(٢)، وقد فهم بعضهم من لفظ: الأحقاب، مهما كانت، فإن لها نهاية^(٣)، وهذا المعنى إن صح فهو مقيدٌ بما بعده، وهو قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤)، والمعنى: أن هذه الأحقاب التي يمكن أن تنتهي هي المقيدة بمنعهم من البرد والشراب الطيب، ولكن يمكن أن يأتيهم ما هو أسوأ من ذلك، على أن هذا فهمٌ للنص، ومنطوق النص مُقدمٌ على المفهوم، فقد وردت نصوصٌ تفيد بمنطوقها أنهم مخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبداً، فدل ذلك على خلود أهل النار فيها إلى الأبد.

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤)، البرد المقصود به هنا: الريح التي تُبرد أجسامهم، والشراب: الماء الذي يشربونه، فيذهب ظمأهم، والشراب يُتذوّق، ولكن كيف يذوقون البرد؟! **قالوا: إن من أشد حر الكافر وعطشه؛ تؤثر**

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧٨/١٩).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (١٧٧/١٩).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: (٤٢٦/٥).



فيه أدنى نَسَمَاتِ الهواء؛ فيشعر بنوعٍ من الرِّيِّ، وقد منع الله ذلك عن أهل النار، وأبدلهم بقوله: ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ (٢٥)، **فالحميم:** هو الماء الحار، والغساق: هو الصديد التّن والقبیح المنظر والرائحة^(١)، فإذا شربوا منه أحرقت ألسنتهم وقطع أمعاءهم، وإن شموه أفسد عليهم حياتهم من شدة جيفته.!!

وقوله: ﴿جَزَاءً وَفَقًا﴾ (٢٦)، **أي:** هذا الذي حصل لأهل النار إنما هو جزاءٌ مُوافقاً لفعلهم القبيح في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، وهذه قاعدةٌ معروفةٌ دلت عليها نصوص كثيرة، **مثل قوله:** ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، **وقوله:** ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وهذا يدل على كمال عدل الله سبحانه، وأنه لا يظلم أحداً، فما وقع بهم من العذاب كان بسبب اعتقاداتهم الباطلة وأفعالهم السيئة.!

ثم قال: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّابًا﴾ (٢٨) فقد جمعوا بين قبح الاعتقاد وقبح العمل، فلم يفعلوا خيراً قط، ولا تركوا شراً قط، وأضافوا إلى ذلك التكذيب بالآيات، وإنكار المعجزات.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٩) **أي:** كل ما عملوه من أعمالٍ في الدنيا أحصيناه وكتبناه في صحائفهم، فلا يمكن أن يُنسى، **كما قال:** ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] **وقوله:** ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٧).



ثم قال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠)، أي: ذوقوا جزاء عملكم، ولا تنتظروا منا رحمةً ولا عفواً، بل انتظروا مزيداً من العذاب والتبكي؛ لأنكم تستحقون ذلك، وهذا من أصعب ما يسمعه أهل النار من ربهم!

وبعد أن ذكر الله جزاء الكفار المكذبين الطاغين، اتبعه بالحديث عن الجنة وأهلها؛ لكي يتضح لنا حال الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١)، المتقون؛ هم الذين اتقوا الله، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بالإيمان والعمل الصالح، وللعلماء في تعريف التقوى تعريفات كثيرة، ومنها: ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك^(١)، ومنها: أن تفعل الفرائض والواجبات، وتبتعد عن المناهي والمحرمات والمكروهات^(٢)، ومنها: الاستعداد ليوم الرحيل والعمل بالتنزيل، والخوف من الجليل سبحانه^(٣)، وكلها معان وألفاظ متقاربة تدل على الاستقامة والطاعة والعمل الصالح، فالفوز هو النجاة من الهلاك وحصول النعم، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فربما ينجو الشخص من الهلاك، ولكن لا يحصل على النعم، وربما يحصل على النعم، ولكن لا يضمن النجاة، ومن دخل الجنة فقد حصل له الأمان!!

ثم بين سبحانه وتعالى بعضاً من محتويات هذا الفوز، فقال سبحانه: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٣٢)، فالحدايق بدل من (مفازاً)، ولذلك نُصبت.

(١) ينظر: موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري (٢/ ١٨٨٨).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢/ ٤٧٠).

(٣) ينظر: كوثر المعاني الدراري للشنقيطي (١/ ٤٠١).



والحدائق جمع حديقة، وسُميت حديقة؛ لأن أشجارها وثمارها وخضرواتها تُحْدِقُ بالذي يدخلها، وتُغْطِيه، مثل الجنة التي تُغْطِي من دخلها بكثرة أغصانها وأشجارها وتحتوي هذه الحدائق على الثمار، ومن هذه الثمار العنب، وأفردتها بالحديث لأهميتها، ولأنها كانت عند العرب من أعظم وأحسن وأجمل الفواكه، ومنها يصنعون الخمر، فالخطاب القرآني كان يُراعي حال المخاطب، وهم العرب الذين نزل القرآن فيهم، فذكر الحدائق؛ لكونها تعطي النفس نوعاً من البهجة والسرور، وذكر الأعناب؛ لكونها ممن يتذوق ويتلذذ بطعمه!!

ثم ذكر صفات نساء أهل الجنة، فقال: ﴿وَكَوَاعِبُ أُنْثَىٰ﴾، **الكواعب**: النساء الشابات اللواتي ظهرت كواعبهن **أي**: أثداؤهن، والشدي في المرأة عنوان الجمال، وهؤلاء النساء اللاتي أعدهن الله لمن يدخل الجنة، هن من الحور العين، **وقد وصفهن بوصفين:**

الأول: أبرز مكان الفتنة والجمال فيهن وهو الكواعب.

والثاني: أنهن مُتساويات في السن، **وقد جاء في الحديث:** "أن سنّ أهل الجنة حينما يدخلونها ثلاث وثلاثون سنة"^(١)، وهي قمة الشباب والنضارة، فهن في سنٍ واحدٍ، ومتشابهات في الجمال، حتى تطمئن نفوس أهل الجنة، وأن كل واحدٍ عنده مثل ما عند الآخر، **كما قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الْأُنْثَىٰ﴾** [ص: ٥٢].

ثم قال الله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، **الكأس:** الإناء المملوء بالخمر، ولا يُسمى

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٤٥)، (٤/٦٨٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١٨)، (٦٤/٢٠)، وحسنه الألباني.



الكأس كأساً إلا إذا كان مملوءاً بالخمير، ودهاقاً؛ لها ثلاثة معانٍ في اللغة، وهي: مملوءة، وصافية، ومتتابعة^(١)، ويمكن أن تجتمع المعاني كلها في هذا اللفظ، فتكون ممتلئة وصافية ومتتابعة شراؤها، ولهذا الوصف أهميته عند العرب؛ فقد كانوا مدمنين على شرب الخمر، وهذه الآيات مكية، نزلت قبل تحريم الخمر، فكأنه يُرشدهم إلى آثار الخمر على عقولهم وجوارحهم؛ بخلاف حال خمر الآخرة التي تختلف صفاته عن خمر الدنيا، **كما قال:** ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧].

ثم قال الله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾^(٢٥)، **أي:** لا يسمع أهل الجنة في الجنة الكلام الباطل، ولا يوجد فيها كذبٌ ولا تكذيبٌ، وقيل: الضمير فيها يعود على الخمر، **والمعنى:** لا تُحدث لعقولهم السكر؛ فيتكلمون كلاماً باطلاً، كعادة من يشرب الخمر في الدنيا^(٢)، فإنه يتكلم كلاماً فيه من الكذب واللغو والباطل الشيء الكثير؛ بسبب غياب عقله بالسكر، والأول أرجح؛ لأن الجنة دار السلام، ودار الصدق، ودار الهدوء، وليس فيها صخبٌ أو إزعاجٌ كحال الدنيا!!

ثم قال الله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾^(٣٦)، **أي:** هذا الذي حصل عليه أهل الجنة من النعم فيها، وما ذكر هو أمثلة من النعيم فقط، وإلا فهناك آياتٌ أخرى وصفت نعيم الجنة أوصافاً متعددة، فهذا جزاؤهم بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وقد جمع هنا بين العطاء والحساب، فما السر في هذا

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (١٠٦/١٠).

(٢) ينظر: زاد المسير، أبو الفرج ابن الجوزي (١٧٨/٤).



الجمع؟ **والجواب:** السر بناءً على معنى لفظة حساباً، فمن قال: إن حساباً من المحاسبة، فالمعنى: أعطاهم الله حقهم، ثم زاد لهم عطاءً فوقه، ومن قال: إن حساباً من الحسيب، وهو الكافي، **فالمعنى:** أعطاهم الله عطاءً يكفيهم^(١)، فعلى كلا المعنيين، فما هم فيه هو فضلٌ ونعمةٌ من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الله سبحانه: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، **أي:** إن الله الذي أعطاهم وكفاهم بهذه النعم في الجنة، هو ربُّ السموات والأرض ومن فيهن، من أجرامٍ ومخلوقاتٍ كثيرة، فهو رب الكون كله ومالكة والمتصرف فيه، ووصف نفسه بالرحمن بعد ذكر ربوبيته؛ من أجل أن يُحفز الخلق إلى أن يدعوه ويقربوا منه، وهو الاسم المقابل لاسم الذات الإلهية، **كما قال:** ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ولكن لشدة الموقف وعظمته وجلال الله وجبروته؛ لا يقدر الخلق على مخاطبته أو التكلم بين يديه بحرفٍ واحدٍ يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وفي ذلك اليوم يقوم جبريل والملائكة صافين بين يدي الله.

قال بعض أهل العلم: أن جبريل من عظمته يقف صفّاً لوحده والملائكة يقفون صفّاً آخر.

وقال آخرون: بل كل ملك يقف صفّاً بمفرده^(٢)، **كما قال:** ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ

(١) ينظر: تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٣/٣١).

(٢) تفسير القرطبي (١٨٦/١٩).



وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ﴿الفجر: ٢٢﴾، أي: واقفين صفوفًا لعظمة الله، فالله سبحانه وتعالى، والملائكة مع عظمتهم وقربهم من الله إلا أنهم مع ذلك ممنوعون من الكلام من شدة الموقف وهيئته وعظمته، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن، وكان ما يقوله صوابًا، وتكرر اسم الرحمن هنا؛ لعظمة الموقف وما فيه من المهابة والجلال والخوف، مما يجعل النفوس تخاف وترتعب؛ فأبرز لهم اسمه الرحمن لتهدأ نفوسهم، وأن من رحمته أن يأذن لمن شاء منهم بالكلام.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ ﴿٣٩﴾، عبر بذلك، للتعظيم والتهويل، واليوم هو يوم القيامة، والوقوف بين يدي الله، وسيكون بتلك المهابة، ووصف اليوم بالحق، لتحقيقه؛ أو لأنه فيه يُحق الحق، ويُبطل الباطل؛ أو لأن الله الحق ينفرد فيه بالملك والفصل والحساب بين الناس، وكلها معانٍ متسقة لا تعارض بينها.

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾، أي: يتعرف على الطرق التي تُوصله إلى الله وترُجعه إليه رجوعًا حسنًا، وهو ما زال في الدنيا، فالناس كلهم سيرجعون إلى الله، ولكن فرق بين أن ترجع إلى الله صالحًا مستقيمًا مُستعدًا لملاقاته، وبين أن ترجع إلى الله وتتمنى أنك ما بُعثت ولا كُنت إنسانًا بل كنت ذرةً من التراب، **والمآب هنا هو: المرجع**، وأضاف المشيئة إلى العبد، وهي قدرته على الاختيار، فمن اختار طريق الهداية، منحه الله التوفيق والتسديد.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ ﴿٤٠﴾، أخبر الله الخلق بهذه التفاصيل عن يوم القيامة



وما يجري فيه، ومع ذلك استمر بعضهم في الكفر وعدم الإيمان، فأنذرهم الله العذاب القريب، ووصف بالقريب؛ لأن كل آتٍ فهو قريب، ثم بيّن أن كل مكلفٍ يجب عليه أن يُحاسب نفسه، ويُراجعها في الدنيا، وينظر ما الذي قدّمت يده من خيرٍ أو شرٍ، ويده: هي إحدى جوارحه، وإنما عبّر باليدين لأن كثيراً من الأعمال تُنفذ باليدين، أو هو من التعبير بالجزء الذي يقصد به الكل، والمعنى: افعلوا ذلك في الدنيا قبل أن تفعلوا ذلك يوم القيامة، لأن كل واحدٍ ينظر في ذلك اليوم ما قدمته يده في صحيفته.

وقال بعض أهل العلم: أن هذا الخطاب مُوجهٌ للمؤمن^(١)، أما الكافر فقد علم أن ليس لديه شيءٌ، ولكن المؤمن ينتظر ربما حسناته زادت أم نقصت، والأول أرجح، وفي هذا اليوم تُنشر الصحف وتُجرى الموازين ويُعرف المحق من المبطل، وعندما يستيقن الكافر أنه هالكٌ يتمنى أن يعود تراباً، **وقد جاء في الحديث:** "إذا كان يوم القيامة يحشر الله شاتين: أحدهما: جلهاء أي: بدون قرون، والثانية: قرناء، فيقول للجلهاء: اقتصي من القرناء؛ لأنها نطحتك ذات يومٍ في المرعى، فتنطحها ثم يقول لهما كوني تراباً"^(٢)، فإذا نظر الكافر إلى هذا الموقف: تمنى أن يكون تراباً، وهذا نموذجٌ لإقامة العدل، وإلا فالحيوانات ليست مكلفة، ولا تُحاسب في الآخرة، **وقيل:** إن الكافر يتمنى أن لا يُبعث، وأن يبقى تراباً في القبر كما كان، لما يجد من عدل الله وحسابه، **وقيل:** إن الكافر

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٧٩/٢٤، ١٨٠).

(٢) ورواه مسلم، برقم: (٢٥٨٢)، (١٩٩٧/٤)، مختصراً.



المقصود به هنا إبليس^(١)؛ لأنه لما يرى عدل الله وفوز بني آدم المؤمنين؛ يتمنى أن يكون ترابًا، أي: مخلوقًا من التراب؛ لأن سبب كفره أنه اعتدَّ بأصل خلقه، واحتقر التراب الذي خلق منه آدم، كما في قوله: ﴿ءَاسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، [إسراء: ٦١]، والراجع الأول للسياق.

وبهذا خُتِمت سورة النبأ، حيث افتُتحت بالحديث عن التساؤل عن النبأ العظيم الذي قيل إنه البعث، وخُتِمت بالحديث عن البعث والجزاء، فخُتِمت بما فُتحت به.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- كثرة نعم الله على عباده تستوجب شكره وعبادته.
- ٢- أن الطغيان سببٌ لدخول النار.
- ٣- زيادة العذاب على الكفار بسبب كفرهم وقبائح أعمالهم.
- ٤- تعداد نعم الله في الجنة ليتشوق إليها المؤمنون ويستعدوا لها بالعمل الصالح.
- ٥- عظمة وهيبة الوقوف بين يدي الله، فالجميع صامتٌ لا يتكلم.
- ٦- دقة عدل الله في الآخرة، وتمني الكافر لو لم يُبعث وكان ترابًا حتى لا يُعذب.

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ١٨٩).



تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ١ ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ ٢ ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ ٣ ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا﴾ ٤ ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ٥ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ٦ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاكِبَةُ﴾ ٧ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ٨ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ٩ ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرُدُّوْنَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ١٠ ﴿أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً﴾ ١١ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ١٢ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ١٣ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ١٤ ﴿هَلْ أَنتَ إِلَّا حَدِيثٌ مَوْسَى﴾ ١٥ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ١٦ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ١٧ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ ١٨ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ ١٩ ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ٢٠ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ ٢٢ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ٢٣ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ٢٤ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ٢٥ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ٢٦ ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ ٢٧ ﴿رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ ٢٨ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ٢٩ ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ٣٠ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ٣١ ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ٣٢ ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِتَنْمِلَكُمْ﴾ ٣٣ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ ٣٤ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ٣٥ ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ ٣٦ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ٣٧ ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ٣٨ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ٣٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ٤٠ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ٤١ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ٤٢ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ ٤٣ ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ ٤٤ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ ٤٥ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ٤٦ ﴿

شخصية السورة:

سورة النازعات، سورة مكية^(١)، ومقصدها العام الحديث عن البعث وإثباته، والرد على المنكرين له، من خلال عرض مشاهد القيامة، والبعث والنشور، وضرب مثالٍ لأحد المكذبين بالبعث وكيف أهلكه الله، **وقد احتوت السورة على خمس فقراتٍ:**

الفقرة الأولى: بدأ فيها القسم على البعث وما يجري فيه، **فقال:** ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، الواو حرف قسم، **والنازعات؛** هي: ملائكة العذاب المكلفون بنزع أرواح الكفار عند الموت نزعاً شديداً، **وغرقاً؛ أي:** إغراقاً، **أي:** بشدة وقوة وجهدٍ، **وجاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن روح الكافر تخاف فتشتت في جسده، فتُسحب منه سحباً^(٢).

وقوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾، **الناشطات؛** هي: ملائكة الرحمة التي تنشط أرواح المؤمنين، **أي:** تأخذها بسلاسةٍ وهدوءٍ، **فالنشطُ:** إخراج الشيء بهدوءٍ، **وفي حديث البراء السابق:** "أن روح المؤمن تخرج منه كما تسيل القطرة من فم السقاء".

وقوله: ﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبَاقًا﴾، وهي الملائكة التي تسبح بالأرواح وتصعد بها إلى السماء.

(١) وتسمى سورة الساهرة والطامة، وهي مكية بالاتفاق، وعدد آياتها ست وأربعون في الكوفي وخمس وأربعون في غيره. ينظر: روح المعاني، للألوسي (٢٢٣/١٥).

(٢) رواه أحمد: (٢٨٧/٤) رقم الحديث (١٨٧٣٣)، والحاكم في المستدرک على الصحيحين (٨٥/١) رقم الحديث (١٠٧).



وقوله: ﴿فَالسَّيِّئَاتِ سَبَقًا ۝٤﴾، وهي الملائكة التي تسبق إما بالعمل الصالح أو تسبق في نزاع الأرواح أو تسبق بطاعة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَالْمُدْرِبَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾، وهي الملائكة التي يُكَلِّفُها الله بتدبير أعمال الخلق، بأمر الله سبحانه وتعالى، وهذا قول الجمهور في تفسير هذه الخمسة، وهي أنها تعود كلها على الملائكة، وقيل: تعود على الكواكب، وأنها خمسة أنواع^(١)، **والراجع** قول الجمهور، ولم يذكر جواب القسم، **ويمكن تقديره من السياق بعده:** تُبْعَثُنَّ، ثم ذكر متى يكون البعث، **فقال:** ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾، **والراجفة؛** هي: الصيحة التي لها صوتٌ عظيمٌ، أو الهزة والحركة والاضطراب الذي يحصل للأرض، وكلاهما يحصل يوم القيامة، فتحصل الهزة وتضطرب الأرض، ويحصل الصوت القوي بواسطة النفخ بالصور بالنفخة الأولى^(٢).

وقوله: ﴿تَبْعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾، **أي:** يأتي بعد الراجفة الرادفة، من أردفت الشيء إذا جعلته خلفك، وهي النفخة الثانية بالصور؛ التي يبعث الناس بها.

وقوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾، **أي:** يُحْشَرُ الناس بقلوبٍ مضطربةٍ خائفةٍ، وهذا يدل على شدة خوفهم، فالخائف تكون حركة القلب لديه شديدة وسريعة.

وقوله: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩﴾، **أي:** أبصار أصحاب القلوب المضطربة، ذليلة حقيرة في ذلك الموقف.

(١) ينظر: فتح القدير، للشوكاني (٤٤٩/٥).

(٢) روى حديث النفخ في الصور البيهقي في كتابه البعث والنشور (٣٣٦) حديث رقم (٦٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾^(١٠)، **أي:** يتساءل هؤلاء الكفار، وهم بهذه الحال، هل سنعود مرةً جديدةً إلى الحالة السابقة؟!، والحافرة المقصود بها الحالة السابقة، من عاد السابق إلى حافرتة، إذا عاد إلى أصله، والمعنى: هل سنعود أحياء؟!.

وقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً﴾^(١١)، فكيف ستعود لنا حياةً جديدةً بعد أن كنا عظامًا باليةً؟!!.

وقوله: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾^(١٢)، **أي:** إن حصل ذلك، وبُعثنا بعد الموت، وحاسبنا الله على أعمالنا في الدنيا؛ فسنكون من الخاسرين، فالفوز بالنسبة لهم أن يظلوا عظامًا نخرةً، بدون بعثٍ ولا حسابٍ ولا عقابٍ!!، **فرد الله عليهم ذلك، بقوله:** ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١٣) **فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾**^(١٤)، ما استبعدتموه من عودتكم إلى الحياة، وبعثكم بعد أن كنتم عظامًا نخرة، هو بالنسبة لله سبحانه وتعالى لا شيء، بل بصيحةٍ واحدةٍ، وهي النفخة الثانية في الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل؛ فتبعثون جميعًا، وتكونون في أرض المحشر، والساهرة هي: الأرض المستوية البيضاء، ويقال أرضٌ ساهرةٌ، **أي:** سريعة النبات، كأنها سهرة بالنبات، وسميت بهذا الاسم؛ إما لسرعة بعثهم منها وظهورهم على سطحها وكأنهم نبتوا منها، أو لشدة خوف من في المحشر، فلا يقترب من عيونهم النوم ولا النعاس، فيظلون ساهرين^(١) لوقتٍ طويلٍ حتى تكون الشفاعة العظمى من رسول الله ﷺ إلى ربه للفصل بينهم!!.

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٠٠/١٩).



ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة للحديث عن فرعون وما وقع له بسبب

تكذيبه لموسى، والمناسبة في ذكر قصة فرعون هنا، هي: أن يُسلِّي على رسول الله ﷺ وأصحابه، وكأنه يقول له: لست يا محمد أول من كُذِّب من الرسل، وليس قومك أول قوم كذبوا الرسل، فقد سبقهم فرعون وقومه، وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أن عاقبة المكذبين الهلاك، فهي تسلية للرسول ﷺ وأصحابه من جهة وهي أيضًا تهديد ووعد لقريش والمكذبين من قومه من جهة أخرى، **فقال**

سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥)، هل للاستفهام، والمخاطب فيها

محمد ﷺ، فإن كان لم يأتِ الخبر من قبل فمعناه: سنُخبرك، وإن كان قد أُخبر من قبل، فمعناه: هل تذكر قصة موسى لما ذهب إلى فرعون؛ ليكون ذلك تسلية له، ويكون لقومك العظة والعبرة منها، وتسمى القصة حديثًا أو خبرًا، **ثم بدأ ببيان**

ذلك، فقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٦)، وقد تكررت قصة موسى مع

فرعون في أكثر من سورة، وهنا أوجز الخبر عنها، وفصله في سورٍ أخرى، فبعد أن مكث موسى في مدينَ عشرَ سنين ورجع بأهله إلى الشام، فلما وصل إلى جوارِ جبلِ الطور في وادٍ يُسمى وادي طوى، ناداه الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، والوادي المقدس هو: المطهر، المنزه، وطوى بدلًا عن

الوادي، فهو اسمه، **وكان مما ناداه الله به أن قال له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (١٧)،**

اذهب يا موسى إلى فرعون رسولاً إليه، وجرى في تفاصيل القصة في سورٍ أخرى

أن موسى سأل الله أن يضم إليه أخاه هارون، **فأجابه، فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾**

[طه: ٤٣]، اذهب يا موسى ومعك هارون إلى فرعون وقومه، لأنه إذا آمن فرعون



فسَيُؤْمِنُ قَوْمُهُ، وَيَبَيِّنُ لَهُ سَبَبَ إِرسَالِهِ إِلَيْهِ، وَهُوَ الطَّغْيَانُ، وَهُوَ: تَجَاوُزَ الْحُدُودِ سِوَاءَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ كَفَرَ بِهِ وَأَنْكَرَهُ وَادَّعَى أَنَّهُ الْإِلَهِ وَأَنَّهُ الرَّبُّ، وَطَغَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِ الْخَلْقِ؛ فَتَجَاوُزَ الْحُدُودَ فِي الظُّلْمِ وَالْإِفْسَادِ وَالْأَذِيَّةِ لِعِبَادِ اللَّهِ.

وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَخَاطَبَ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَى﴾، **أي:** هل لك رغبة في أن تُطَهِّرَ نَفْسَكَ، فَالْتَزِكِي هُنَا بِمَعْنَى التَّطَهِيرِ، وَهُوَ إِزَالَةُ الْقَبَائِحِ وَإِزَالَةُ الشَّوَابِ الزَّائِدَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْحَدِّ حَتَّى تَنْمُو النَّفْسُ نَمُوًّا صَحِيحًا مَعْتَدَلًا، **وَالْمَعْنَى:** فَهَلْ لَكَ يَا فِرْعَوْنَ إِلَى أَنْ تُطَهِّرَ نَفْسَكَ مِنْ طَغْيَانِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ أَوَّلًا ثُمَّ فِي حَقِّ الْخَلْقِ ثَانِيًا، فَأَرْشَدَ اللَّهُ مُوسَى إِلَى الْأَسْلُوبِ الْمُنَاسِبِ لِدَعْوَةِ فِرْعَوْنَ، وَلِيَكُنْ قَوْلُهُ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَثِّ وَالتَّرْغِيبِ، فَلَا يَأْمُرُهُ فَيَنْفُرُ، وَلَا يَقْسُو عَلَيْهِ فَيَذْهَبُ، **كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾** [طه: ٤٤]، وَهَذَا مِنَ الْأَسَالِيبِ النَّافِعَةِ فِي إِصْصَالِ الْخَيْرِ إِلَى الْآخَرِينَ وَسَبَبِ لِقَبُولِهِمْ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يُعْجِبُهُمْ أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَتَنْهَاهُمْ، وَلَكِنْ يُعْجِبُهُمْ أَنْ تُشِيرَ عَلَيْهِمْ وَتَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِشَارَةِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْحَثِّ، فَيَشْعُرُونَ بِأَنَّكَ تَحْتَرِمُهُمْ وَتَقْدَرُهُمْ، فَهَذَا الْعَرَضُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ، وَأَرْدَفَهُ بِعَرَضٍ ثَانٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾**، **أي:** وَأَدْلِكَ وَأَعْرِفَكَ عَلَى اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنَ الْعِظْمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْمَكَانَةِ، فَإِنَّكَ إِنْ عَرَفْتَ اللَّهَ حَقًّا خَشِيَّتَهُ فَعَلًا، وَلِذَلِكَ قُدِّمَتِ الْهُدَايَةُ هُنَا عَلَى الْخَشْيَةِ؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَارِ الْهُدَايَةِ، فَإِذَا هُدِيتَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ كُنْتَ أَكْثَرَ خَشْيَةً لَهُ، **وَلِذَلِكَ قِيلَ:** أَخْشَى النَّاسَ بِاللَّهِ أَعْرِفُهُمْ بِهِ،



وفي الحديث: "أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له" ^(١)، لأنه أعلمنا بالله، كما في **الحديث:** "أنا أعلمكم بالله" ^(٢)، والهداية هنا هداية الدلالة والإرشاد والبيان، هداية التعريف والتوضيح والإرشاد، وعبر بالخشية وهي: خوفٌ منه مع تعظيم له، فإذا خفت من شيء وأنت تُعظمه في نفسك فهي الخشية، ولذلك لا تقول: خشيتُ الكلب، لأنه لا يوجد تعظيمٌ للكلب في قلبك، وإنما قل: خفتُ من الكلب، أما الله سبحانه وتعالى، فلأنه يُعظم في النفوس، فيُعبر عن الخوف منه بالخشية، وكلما كنت أكثر تعظيمًا لله كلما كنت أكثر خشيةً له، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأتى بالفاء في فعل الخشية التي تدل على التعقيب، ولم يقل: ثم تخشى، أو وتخشى، ليبين سرعة تحقق الخشية من الله، بعد حصول الهداية مباشرة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَآرَأَيْتَ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ^(٣)، فذهب موسى إلى فرعون، فأراه الآية الكبرى بعد أن جرى حوارٌ بينهما، **كما في قوله:** ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ^(٤) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ^(٥) فَأَلْقَى عَصَاهُ ^(٦) [الشعراء: ٣٠-٣٢]، **والآية الكبرى؛** اختلف في تفسيرها، **ف قيل:** هي مُعجزة العصى ^(٣)، **وقيل:** المقصود بها اليد ^(٤)، **وقيل:** المقصود بها الآيتان معًا، وهذا قول جمهور

(١) رواه البخاري: (٢/٧) رقم الحديث (٥٠٦٣)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري: (١٣/١) رقم الحديث (٢٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠٢/١٩).

(٤) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٣٩٦/٤).



المفسرين^(١)، وهو الراجح؛ لأنهما تَمَّتَا في آنٍ واحدٍ، والآية هنا بمعنى البيئة أو المعجزة التي تدل على البرهان، والمقصود بها تحوُّل العصا إلى ثُعبانٍ، وخروج يده من جيبه بيضاء.

وقوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ (٢١)، جاء بالفاء التي تدل على التعقيب وعدم وجود وقتٍ للتأمل في الطلب، فبمجرد أن عرض عليه الآيات، وقع منه التكذيب والعصيان، وهذا يدل على أن التكذيب شيءٌ والعصيان شيءٌ آخر، فالتكذيب المقصود به عدم قبول الحُجة، وعدم الإيمان بالمعجزة، والعصيان ناتجٌ من نواتج التكذيب أو ثمرة له، وهو التمرد والمخالفة، فلم يؤمن بالمعجزة بل ردها، وعصى أمر الله سبحانه تعالى، وأمر رسوله موسى فلم يمثل لهما.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ (٢٢)، وعبر بـ (ثم) التي تفيد التراخي، فقد رَجَعَ إلى قومه وجمعهم وتحدث معهم، **وأدبر بمعنى:** ذهبَ باتجاهٍ دُبُرِه، والتفَّ بوجهه عن موسى، والإدبار يأتي أيضاً بمعنى الإعراض، والحديث هنا عن الهيئة التي يتم فيها المشي، فأدبر الرجل إذا ولَّى وتركك خَلْفَ ظَهْرِه، وهو إشارةٌ إلى الإعراض وعدم القبول، **ويسعى هنا بمعنى:** يجتهد في رد الحق، **والمعنى:** أعرض واجتهد بنشاطٍ وحيويةٍ وجِدِّ واجتهادٍ لإبطال الحق ورده.

وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣)، **أي:** فجمع قومه في مكانٍ واحدٍ، أو جمع مَنْ حوله من الوزراء والكُبراء وصاح فيهم، **فالمناداة هي:** الصوت المرتفع، وهذا

(١) ينظر: المصدر السابق: (٣٩٦/٤).



يدل على الحالة النفسية التي كان عليها فرعون أثناء هذا الاجتماع، فقد جمع الحاشية وبدأ يصرخ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢٤)، أي: لا تُصدقوا موسى فيما يقوله لكم من وجود ربٍ غيري، وأن الحل هو في مجابهته والكفر به، باعتبار أن فرعون هو الإله وهو الرب الأعلى لهم.

فقال الله سبحانه وتعالى ردًا على تصرفه هذا: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥)، أي: فأهلكه الله بسبب كُفْرِهِ وتكذيبه وبإدعائه أنه الرب الأعلى الذي لا أحد فوقه، وجاء هنا بالفاء التي تفيد التعقيب، مع أن فرعون مكث سنواتٍ يُؤذي موسى وقومه وما أخذ إلا في نهاية المطاف، ليدل على تحقق وعد الله، ولو طال الزمن، **والتنكيل معناه:** لم يترك له أثرًا، **وللمفسرين في معنى الآخرة والأولى، عدة أقوال^(١)، ف قيل:** إن المقصود عذاب الدنيا والآخرة، وقيل: أن المقصود بالآخرة والأولى هما العبارتان القبيحتان التي نطق بهما في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله نكالًا بسبب هاتين الكلمتين، **وقيل:** بسبب الطغيان، والتكذيب، فأخذه الله نكال الطغيان ونكال التكذيب، والأول أرجح، ولا يمنع أن تكون الثلاثة الأقوال دائرةً في فلكٍ واحدٍ، فلا تعارض بينها، فأهلكه الله بسببها جميعًا، وأن هذا التنكيل حاصلٌ له في الدنيا والآخرة، ثم ختم الله هذه القصة، بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ (٢٦)، أي: إن في قصة فرعون وهلاكه وتنكيل الله به؛ بسبب كبريائه وطغيانه لعِظة، يتعظُّ بها من يخاف الله ويُعظمه،

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤/٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥).



وهذا هو الهدف من ذكر القصص السابقة؛ كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، **والمعنى:** هذا فرعون كان أكثر منكم مُلكًا، وسلطانًا وأتباعًا، ومع ذلك أهلكه الله بسبب كفره وطغيانه، فكيف بحالكم أيها الأعراب الذين لا سلطان لكم ولا مُلك؟!، فاعتبروا بهلاك فرعون لأنه كذب موسى!!.

ثم جاء الحديث في الفقرة الثالثة من السورة لبيان عظمة الله وقدرته ، فقال: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [٢٧]، الخطاب لمنكري البعث، مَنْ أعظم خلقًا، أنتم أيها الناس أم السماء؟! **والجواب:** واضح، فما نحن إلا خلقٌ ضعيفٌ جدًّا في مقابل هذا الخلق العظيم، فالسماء عظيمةٌ من حيث الخلق والبناء.

وقوله: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ [٢٨]، السماكة من الأدنى إلى الأعلى، فكلما ارتفع يُسمى سَمَاكة، ومن الأعلى إلى الأدنى يُسمى عُمُق؛ فرفع بناء السماء حتى صارت على شكل قُبَّةٍ فوق والأجرام السماوية الأخرى، فسوى خلقها بحيث أنه لا يوجد فيها خللٌ، ولا فُطورٌ، بل أبدع خلقها، **كما قال:** ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وخلقها بدون أعمدةٍ، **كما قال:** ﴿بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا﴾، [لقمان: ١٠]، والتسوية هي أن يصير الخلق في أحسن صورةٍ، **ثم قال:** ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [٢٩]، **أي:** أظلم ليل السماء بغروب الشمس عنها، وأظهر ضوئها بشروق الشمس عليها، وأضاف الظلمة والضوء إلى السماء لأنهما يظهران من جانب السماء عند طلوع الشمس وغروبها، وفي هاتين العبارتين إشارة إلى عظمة خلقِ الشمس المرتبطة بالجُرم السماوي والتي بها يتم الليل



والنهار، **ثم قال:** ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠)، **أي:** بعد أن خلق الله السماء، دحى الأرض، **أي:** بسطها، ولا يعني هذا أن الأرض خلقت بعد السماء، وإنما الدحو الذي تم بعد خلق السماء، وإلا من حيث الترتيب فإنه خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء، ثم عاد فدحا الأرض.

وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١)، وهذا أيضاً أحد تفاسير الدحو، والمعنى: مهّدها وجعلها صالحاً للحياة، والحياة لا تصلح فيها إلا بوجود الماء **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وبوجود الماء تصلح التربة ومن خلاله يتم الإنبات في الأرض، فيخرج الزرع، ونسب الماء إلى الأرض، لبيان أنه يكفيها، **ومرعاها، أي:** ما يحتاج إليه سكانها من الطعام، سواء كان ذلك للبشر أو الحيوان.

ثم قال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (٣٢)، خلق الله الجبال من أجل أن ترسو الأرض وتستقر، **كما قال:** ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧]، فالوتد هو الذي يقبض الخيمة من الاضطراب، فهكذا الجبل يجعل الأرض راسية أي مستقرة غير مضطربة.

وقوله: ﴿مِنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمُ﴾ (٣٣)، هذا الذي فعله الله تعالى من خلق السماء وبنائها وإيجاد الليل والنهار ودحو الأرض وإخراج الماء والمرعى وجعل الأرض مستقرة بالجبال؛ الهدف منه أن تستمتع به أنت أيها الإنسان، وعبر عن هذه النعم كلها بالمتاع، **أي:** الذي يزول بسرعة، وفيه إشارة إلى حقارة هذه الدنيا، فمهما عظمت وكبرت، فهي متاع زائل، سنتركها ونذهب عنها، والآخرة خير وأبقى!



ثم جاء الحديث في الفقرة الرابعة من السورة، عن يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤)، والطامة الكبرى هي: يوم القيامة، أي: بعد النفخة الثانية؛ لأن ما بعدها يدل عليها.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٥)، أي: بعد بعثه ووقوفه في أرض المحشر، يبدأ الإنسان بالتذكر لأعماله التي عملها في الدنيا؛ لبحث لنفسه عن مخرج من هذا المأزق!!

ثم قال: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (٣٦)، فالنار تبرز وتظهر، أمام الخلق في يوم القيامة، وفي الحديث: "يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها" (١)، أي: يُحضرونها إلى ساحة المحشر، فيراها الناس أجمعون المؤمن والكافر، ثم يحاسب الناس فينقسمون إلى فريقين: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٩)، فهذا الفريق الأول وهو الطاغية الباغي المفسد في الأرض، الذي قدم الحياة الدنيا على الآخرة، واستمتع بما أعطاه الله من نعم في معصية الله تعالى، فمصيره ومرجه إلى جهنم، فهي مُستقره ومرجعه ومكانه.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١)، وهذا الفريق الثاني، الذي خاف لقاء الله في الدنيا واستعد له بالأعمال الصالحة، ونهى نفسه عن اتباع هواها ومنعها من شهواتها التي لا ترضي الله سبحانه، فالجنة هي مصيره ومكانه الذي يأوي إليه.

(١) رواه مسلم: (١٤٩/٨) برقم: (٧٣٤٣)، عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ثم خُتِمت السورة في الفقرة الخامسة منها بالحديث عن الساعة، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ﴾ (٤٢)، يسألونك، هؤلاء يا محمد، المكذبون بالساعة، وهو سؤال استفزاز واستهزاء منهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، فيقولون لك: متى تقوم الساعة وتحدث؟! **فكان الجواب له: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۚ﴾ (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَهَا ۚ﴾ (٤٤)، أي لا علم لك بموعدها، بل هي غيب، منتهى علمها إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يُعطِ هذا العلم لأحدٍ من الخلق، والفائدة من إخفاء موعد الساعة هو: أن يظلوا مستعدين لها، ولكنه سبحانه وتعالى أعطى علاماتٍ لها، فمنها علامات كبرى، ومنها علامات صُغرى، تنبيهًا للناس إلى قربها، ولو وقفت على ﴿فِيمَ﴾، ثم استأنفت القراءة بقوله: ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۚ﴾ (٤٣)، **فالمعنى: أنت يا محمد من علامات الساعة الصُغرى، **وهذا موافق لقوله ﷺ: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ" (١)، فبعثته ﷺ من علامات الساعة الصغرى.******

ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا ۚ﴾ (٤٥)، أي: إن مهمتك هي الإنذار للناس أن يخشوا قيام الساعة والوقوف بين يدي الله؛ فيستعدوا لذلك بالطاعة والإيمان والعمل الصالح، وليس من مهمتك إخبارهم بموعد قيام الساعة فهذا غيبٌ لا تعلمه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۚ﴾ (٤٦)، أي:

(١) رواه البخاري: (٨/ ١٣٢)، برقم: (٦٥٠٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم، (٨/ ٢٠٨)، برقم: (٧٥٩٣)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ولا يذكرون منها إلا مقدار ليلةٍ أو مقدار ضُحى ليلةٍ، فحياتهم كلها كانت يوماً أو ليلة، وقد جاء في آية أخرى تقدير حياتهم بأقل من ذلك، **كما قال:** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، **يعني:** غير لحظةٍ من الزمن، وهذا يدل على حقارة الدنيا، وأنها تُنسى بمجرد قيام الساعة!!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن قبض روح الكافر يكون بشدةٍ وعنفٍ، بينما تُقبض روح المؤمن برفقٍ ولينٍ.
- ٢- أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا حال قلوب الكفار وأبصارهم يوم القيامة تنبيهاً لنا على شدة ذلك الموقف حتى يستعد له المؤمن من الآن.
- ٣- وجوبُ الرفق في الدعوة إلى الله، فقد أمر الله موسى وهارون بالرفق بفرعون مع فجوره وطغيانه، فكيف بمن هو دونه!
- ٤- عقاب الفجار وهلاك الظالمين عبرة للمُعتبرين ممن أتى بعدهم.
- ٥- الخوف من الله وكف النفس عن الهوى من أسباب دخول الجنة، والطغيان والانهماك في الدنيا من أسباب الوقوع في النار.
- ٦- علم الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.



تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَى (٥) فَأَنَّ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْتَصِي (٩) فَأَنَّ عَنْهُ نَلَهَى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّيْلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا (٢٧) وَعَنْبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًّا (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهُ تُومِذُ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَجُوهٌ يُومِذُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴿

شخصية السورة:

سورة عبس ^(١)؛ سورة مكية بالإنشباع ^(٢)، وهي من أوائل ما أنزل بمكة،

(١) وتسمى سورة الصاخة، وسورة السفرة، وسميت في غير كتاب سورة الأعمى، وآياتها اثنتان وأربعون في الحجازي والكوفي، وإحدى وأربعون في البصري، وأربعون في الشامي والمدني، ينظر: روح المعاني، للألوسي (١٥/٢٤١).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/٣٩٩)، وروح المعاني، للألوسي: (١٥/٢٤١)، =

والمقصد الأعظم لهذه السورة: بيان حقيقة دعوة الإسلام والقرآن ومكانتهما وعلو مقامهما عند الله سبحانه وتعالى، وعلو مقام من اهتدى بهما، وحقارة من أعرض عنهما.

وقد ورد في سبب نزول مقدمة السورة، أن النبي ﷺ، في ذات يوم كان مشغولاً بدعوة كُبراء قريش لإقناعهم بالإسلام وهدايتهم إلى الإيمان، وبينما هو مشغولٌ بحوارهم ونقاشهم وإقناعهم إذ جاءه عبد الله بن أم مكتوم، وكان رجلاً أعمى، وكان قد أسلم، جاءه ليسأله عن بعض مسائل العلم، وكأنه قطع عليه مهمته وشغله عن تلك الغاية والهدف الذي كان يُريد أن يُحققها مع هؤلاء القوم، فقطّب النبي ﷺ، وجهه، وأعرض عن إجابة سؤال الأعمى، واستمر في دعوة كُبراء قريش، فعاتبه الله تعالى في ذلك، فأنزل هذه الآيات ^(١).

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾، أي: قطب جبينه، وأعرض بوجهه عن رجلٍ أعمى، وهو عبد الله بن أم مكتوم، جاءه يسأله عن بعض أمور دينه، في وقتٍ كان رسول الله ﷺ مشغولاً بغيره من كبار كفار قريش، وهو عتابٌ لرسول الله، ﷺ، في صورة خبر، ما هي الحكمة من هذا العتاب؟! الجواب: حينما تنظر إلى الموقف مجرداً عن مُلابساته تقول: كان بإمكان ابن أم مكتوم أن ينتظر، **ولعل قائلًا يقول:** هو رجلٌ أعمى لم ير أن حول النبي، ﷺ، أحداً، **والجواب:** صحيح أنه أعمى، لكنه ليس أصمًا، فلا شك أنه كان قد سمع

= وتفسير القرطبي (١٩/٢١١).

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/٣١٩)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (٥/٤٣٦).



الحوار بينهم، فعلم انشغال النبي ﷺ بهم؛ فكان الأولى به أن لا يُخرج رسول الله ﷺ بهذا الموقف، غير أن القرآن الكريم كان يتنزل ليقيم موازين جديدةً تختلف عن موازين الأرض، وهذا الحدث من أعظم الأدلة التي يستدل بها المؤمنون في مُحاجة الملحدين الذين يُنكرون أن القرآن من عند الله، ويقولون: أنه من عند محمدٍ ﷺ، فيقال لهم: لو كان من عند محمدٍ ﷺ؛ لما عاتب نفسه، وهُنَاك آياتٌ كثيرةٌ في عتاب الله له قد جمعها أحدهم في رسالة^(١) ومنها هذه الآية.

فما هي الموازين التي أراد الإسلام أن يُقيّمها في الناس في أول ظهوره، غير الموازين الأرضية التي اعتادت عليها جماعات الناس وارتبطت بواقعهم؟!

الجواب: ميزانان؛ الميزان الأول: ميزان التقوى، كما قال: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذا الميزان يحتاج إليه العرب؛ لأنهم كانوا يفرقون بين الناس بموازين أخرى: بمستواهم الاقتصادي، بمستواهم الاجتماعي، بلون بشرتهم، بأنسابهم، ولا شك أن الغني وصاحب الوجاهة له مكانة بسبب هذه الموازين البشرية، فإذا أسلم؛ أسلم من وراءه، وكان النبي ﷺ حريصٌ على أن يُسلم كبراء القوم؛ فيُسلم من وراءهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذه الحادثة أن يقيم ميزان التقوى، فلا فرق بين هذا الأعمى الضعيف، وبين هؤلاء الكبراء من صناديد القوم عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

(١) ينظر: كتاب: "عتاب الرسول ﷺ في القرآن تحليل وتوجيه".



الميزان الثاني: ميزان الرغبة والإقبال، فهناك فرق بين مَنْ أقبل عليك راغباً في الخير، قد هياً نفسه للاستفادة، وبين مَنْ أدبر عنك، واستغنى ولا يريد أن يستمع إليك، فابنُ أم مكتوم من النوع الأول، جاء راغباً طالباً مُستعداً قد تهيأت نفسه للتعليم والتذكرة، وهؤلاء القوم الذين تحرص عليهم، مُعرضون مُستغنون، غير مستعدين لاستقبال النصيحة والدعوة، فمن هو الأولى بالاهتمام؟! لا شك ولا ريب أن الأولى هو الأول، وهذه قاعدة مُطرّدة، لا تختص بالنبي ﷺ، بل تعم كل معلمٍ وداعيةٍ ومُرشدٍ، فعليه أن يعتني ويهتم بالذين يُقبلون عليه، ونفوسهم مهياةٌ للسمع وقبول النصيحة، ومحتاجون إلى التعلم، فهؤلاء هم الذين سيستفيدون من الدعوة، وستثمر فيهم، وأما المعرضون؛ فقد يضيع الوقت في إقناعهم، وكلما ازداد الاهتمام بهم؛ ظنوا أنهم هم عمود الإسلام، وأن الإسلام لا يقوم إلا بهم؛ فازدادوا عتواً ونفوراً، وفي ذلك فائدةٌ تربويةٌ عظيمةٌ لمن يشتغل بالدعوة إلى الله وتعليم الناس، وعليه أن ينتبه لهذا الملحظ، وأن يعتني ويهتم بمن أقبل لسماع النصيح والتوجيه، وألا يشغل نفسه بالمعرضين إلا على سبيل البلاغ والتذكرة!!

وقد جاء العتاب من الله إلى رسوله في هذه السورة على سبيل الحكاية، وهذا من تكريم الله ورحمته بهذا الأعمى، وإلا فالنبي، ﷺ، لما عبس وأعرض، ربما لم يشعر به الأعمى؛ لكن إن كان ابنُ أم مكتوم لم ير؛ فالله يرى، ومن كان حوله قد رأوا!!، ولا شك ولا ريب أن ما فعله النبي، ﷺ، مع قريش كان اجتهداً منه، والنبي ﷺ له أن يجتهد فقد بلغ رتبة الاجتهاد في العلم، فإن أقره الوحي صار



اجتهاده وحيًا، وإن أنكر عليه الوحي صار اجتهاده عملاً بشرياً، وليس بالضرورة أن يكون هذا الاجتهاد خطأ محضاً، فقد يكون ما فعله النبي، ﷺ، مخالفة للأولى، فالأولى هو العناية والاهتمام بالمقبلين الراغبين، مهما كان حالهم ومُستواهم الاجتماعي، ولكن النبي، ﷺ، كان حريصاً على إسلام قادة المشركين؛ فلو أسلم واحدٌ منهم سيُسلم من بعده؛ باعتبار أن لهم مكانة وطاعة عند أقوامهم.

ثم كان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرم عبد الله ابن أم مكتوم^(١)، وكان إذا رآه يقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي"^(٢)، وكان يستخلفه على المدينة عند خروجه للغزو^(٣).

ثم قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، وهو يُحدثه عن تفاصيل هذا العتاب:
﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْزُقُكَ ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُكَ الذِّكْرَى ۚ﴾^(٤)، ما يُعلمك أيها الرسول لعل هذا الأعمى الذي جاء إليك يريد أن يتطهر من ذنوبه بسبب سؤاله لك وجوابك عليه ونصيحتك له، أو يتعظ بما يسمعه منك من مواعظ، فينفعه ذلك في الدنيا والآخرة، وهذا هو الهدف من بعثة الرسل، أن يتطهر الناس من ذنوبهم، ويتعظوا ويُصلحوا أحوالهم!!

ثم قال: ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْيَىٰ ۖ﴾^(٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ^(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقَ ۖ﴾^(٧)، أما الذي

(١) ينظر: الطبري في "جامع البيان" ٣٠/ ٥١ عن ابن عباس.

(٢) ينظر: القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" ١٩/ ٢١٠ - ٢١١، عن الثوري.

(٣) ينظر: ابن سعد في "الطبقات" ٤/ ٢٠٥.



استغنى بماله، أو بجاهة، وأعرض عنك، وابتعد منك غير مُلتفتٍ إليك، فلم يأت ليسأل، ولا يُريد أن يستفيد، فأنت تتعرض له وتهتم به، وتلحق وراءه وتدعوه، وتُحاول إقناعه، وما عليك ألا يتطهر، فلا يضرك لو أنه ظل على ضلاله وانحرافه، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ولست مسؤولاً عن إدخال الحق إلى قلوب الخلق، فلا تشغل بمن هذا حاله.!!

كيفية تشغل بهذا الصنف عن الصنف الآخر، ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ وهو يُحْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾، فمن جاءك مُجتهداً راغباً في الوصول إلى الحق الذي عندك، وهو يُعْظَمُ الله، ويريد أن يعرف حق الله عليه؛ فاهتم به وأقبل عليه ولا تشاغل عنه بهؤلاء الكفار من صناديد قريش المعرضين، وبهذه المقارنة يتضح لك الفرق بين من استغنى، وأنت تصدى له وتهتم به، وبين من جاءك يسعى، وأنت عنه تلهى وتشغل عنه، وعلمنا بهذا مفهوماً جديداً من مفاهيم الدعوة والتربية، وهو ضرورة الاهتمام بمن أقبل عليك، وتهيات نفسه للخير وقبول الحق، ومنه أيضاً استنبطت قاعدةً معروفةً وهي: لا يُهْتَمُّ بموهومٍ على حساب معلومٍ، فمن جاء طالباً للعلم ومُهِتَمّاً به، فهذا شيءٌ معلومٌ، والمعرض عنه؛ فقبوله للعلم موهومٌ، فلا تترك المعلوم للموهوم، ولا تترك مصلحةً متيقنةً للبحث عن أخرى مُتَوَهِّمة.!!

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم تذكرة لكل الناس فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿١١﴾، **كلا:** كلمة ردعٍ وزجرٍ لما سبق، **والمعنى:** لا يصلح ما سبق من تصرفٍ منك مع هذا الأعمى، وعليك أن تعتذر للأعمى، ولا تشغل عنه، ولا



تشغل نفسك بمن أعرض عنك ولم يكن مستعداً لقبول دعوتك، ثم بين أن هذه الرسالة تذكرة عامة، للفقراء والأغنياء، للكبراء ومن دونهم، فلا يُخصص بها أناسٌ دون أناسٍ.

ثم قال: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢)، **أي:** فمن شاء اتعظ بالقرآن وقبّله، لماذا في اللفظ الأول أتى بلفظة مؤنثة، وفي اللفظ الثاني أتى بها مُذكرًا؟!، الجواب: في الأولى إخبارٌ عن ثمرة ووصف القرآن، فهو موعظةٌ وهو تذكرةٌ، وفي الثاني: إخبارٌ عن القرآن نفسه، **وقيل:** فمن شاء ذكره **أي:** الله (١).

ثم حدثنا عن هذا القرآن ومكانته الحسية والمعنوية، فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣)، فهذا القرآن مكتوبٌ في صحفٍ شريفةٍ.

﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤)، في مكانٍ عالٍ، وهي مُطهرةٌ لا تصل إليها النجاسات، ولا يُصيبها الدنس.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥)، **السفرة** هنا المقصود بهم الملائكة، وُسُمي الملائكة سفرة **لأحد سببين:** إما **سفرةٌ** بمعنى كتبة، ويُسمى الكاتب سافرًا؛ لأنه يُسفر عما في فؤاده من معلوماتٍ؛ فيضعها على الكتاب، وإما **سفرةٌ، أي:** رُسُلٌ بين الله وخالقه (٢)، **ومنه** السفير، **ومنه** السفر وهو الانتقال من مكانٍ إلى آخر، وكلا المعنيين صالحان للفظ.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/٢١٥).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤/٢٢١، ٢٢٢).



ثم وصفهم الله بقوله: ﴿كَرَامَ بَرٍّ﴾، أي: مُكْرَمِينَ عند الله، كما قال:

﴿كَرَامًا كَثِيرًا﴾ [الانفطار: ١١]. **وبررة**، من البر، أي: كثيري الطاعة، وبهذا انتهت الفقرة الأولى من السورة التي فيها عتابٌ لرسول الله ﷺ، وفيها بيانٌ للقرآن ومكانته، وأنه تذكرةٌ لكل الناس لا يختص بالأغنياء دون الفقراء، وأنه يجب أن تكون هذه القاعدة معلومة عند الجميع.!!

ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة، تتحدث عن طبيعة الإنسان، قال الله:

﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ﴾، **قُتِلَ بمعنى:** لُعِنَ وأُبعد وطُرِدَ من رحمة الله، ما المقصود بالإنسان؟ هو الكافر؛ **لأن الله قال:** ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾، أي: ما أشد كفره، ثم بدأ يعظ هذا الإنسان الكافر ويذكره، **قائلًا له:** لماذا تكفر بالله سبحانه وتعالى؟! ولماذا تتكبر على الله؟! ألا تعلم ما هو أصلك؟!، ومن أين خلقتك الله؟! فلو تفكرت في ذلك لعدت إلى التواضع، ولما تكبرت.

وقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، لا شك أن الإنسان يعرف من أي شيء خلق، ولكنه أجابه هنا للتوكيد.

فقال: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾، فأنت أيها الإنسان المتكبر المتغطرس على الله، مخلوقٌ من نطفةٍ من ماءٍ مهينٍ، يخرج من مجرى البول، ويستقر في رحم المرأة ثم ينمو ويتطور بتقدير الله في أطواره المختلفة، وأزمنةٍ محددةٍ، فيكون نطفةً ثم علقَةً ثم بعد ذلك مضغَةً، ثم يُصبح إنسانًا كاملاً.

ثم قال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾، في معناها قولان: **القول الأول:** ثم يسر له



سبيل الخروج من بطن أمه^(١)، وهذه من آيات الله العظمى؛ فإن الطفل قد يكون في بطن أمه واقفاً، فإذا جاء وقت الولادة انقلب على رأسه، ثم حصل ارتخاء في العضلات وفي الحوض، ويخرج هذا الطفل من مكان ضيق ثم يعود ويلتئم، فهذا من تيسير الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق، وإذا حصل نوع من التعسير فما أمامهم إلا العمليات القيصرية، وكم هي نسبة العمليات القيصرية إلى تيسير الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق في أن يولد طبيعياً سواءً لهذا الإنسان أو في الحيوانات كما تشاهدون؟!.

والقول الثاني: ثم بين له طريق الحق وطريق الضلال، ولم يتركه بدون إرسال الرسل ولا إنزال الكتب^(٢)، **كما قال:** ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ التَّجْدِينَ﴾ [البلد: ١٠]، **أي:** بينا له طريق الخير وطريق الشر، ولا مانع أن يُجمع بين المعنيين لهذا اللفظ، فلا تعارض بينهما.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [٢١]، **أي:** بعد أن يعيش عمره يُميتته الله، وقد شرع له أن يُدفن؛ لأن لفظة أقبره غير لفظة قبره، **فأقبره بمعنى:** أذن بدفنه، أو شرع دفن الميت، **وأما قبره فمعناه:** دفنه، ولم يجعله كباقي الحيوانات التي تموت فتتحلل جيفتها في التراب، بل كرم الله الإنسان وشرع دفن جثته. **!! ثم قال:** ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [٢٢]، **أي:** وبعد أن يقضي حياة البرزخ كلها، يأذن الله بالبعث والنشور، فيقوم هذا المخلوق مع غيره من الناس، ويُحشرون إلى الله سبحانه وتعالى.

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٣٨).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٤٠٢).



ثم قال الله: ﴿كَلا لَمَّا يَفِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ (٢٣)، **كلا، بمعنى:** حقا، لم يقم هذا الكافر بتنفيذ وإنجاز أوامر الله وشرعه في الدنيا، ولم يعمل للغاية التي من أجلها خلقه الله، فلم يخلقه الله في بطن أمه أطوارًا، ثم يخرج ليأكل ويشرب ثم يموت، فهذه حياة الحيوانات التي لا تكاليف عليها، أما أنت أيها الإنسان فعليك أوامر ونواهٍ، لا بد أن تقوم بها على أكمل وجه، فلماذا لم تقم بما أمرك الله من الأوامر والنواهي، وما السبب في ذلك؟! إنه كفرُك وعنادُك، ولذا لعن الله أمثال هذا الكافر وطرده من رحمته!!

ثم جاءت الفقرة الأخرى تتحدث عن قدرة الله العظيمة وأفعاله في الكون مخاطبًا هذا الإنسان، هل فكرت يومًا في كيفية صناعة طعامك، وكيفية وصوله إليك **فقال:** ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤)، **أي:** فليتكبر وليتأمل في طعامه، في كيفية تجهيز وإعداد وتهيئة الطعام له، فإن هذا الطعام يمر في أطوارٍ، **تبدأ بقوله:** ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥)، فأول طورٍ له هو إنزال المطر من السماء، متتابعًا وبقوة من أجل أن يروي الأرض ويحييها، فلو لم ينزل المطر لما نبت الحب ولا الزرع، فطعامك يبدأ من هذه الخطوة، فتأمل فيها.

واعلم أن الله سخر لك هذا الكون، وأنت مُعرضٌ عن الإيمان به سبحانه.

ثم قال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٦)، فبعد نزول المطر تتشقق الأرض فينبت النبات، فلو بُذرت الحبة ولم تُسَقَّ بالماء، فلن تنشق الأرض عنها، ولن تنبت، **ولذا قال:** ﴿فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧)، فإنبت الزرع الذي يثمر الحبوب، أثرٌ من آثار المطر وهو يشمل كل الحبوب.



ثم قال: ﴿وَعِنْبًا وَقَضْبًا﴾ (٢٨)، أي: وأنبثنا كذلك العنب، وهو نموذجٌ للفاكهة، وإنما أشار إليه هنا لمكانته عند العرب؛ فقد كانوا يصنعون منه الخمر، وذكر القضب؛ وهو نموذجٌ لما يقتاتهُ الحيوان من الزرع والحشائش التي لا ساق لها ولا ثمر.

ثم قال: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩)، الزيتون معروفٌ ومنه يُستخرج الزيت الذي يؤدم به، والنخل معروفٌ وهو الذي يأتي بالتمر، وهل التمر فاكهةٌ أم قوتٌ؟ قولان^(١) للعلماء، والراجح أنه قوتٌ عندما ييبس ولذلك تجب فيه الزكاة.

وقوله: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ (٣٠)، الحدائق هي: الأشجار الكثيفة الملتفة على بعض، **ثم قال:** ﴿وَفِكَهَةً وَأَبًّا﴾ (٣١)، وأنبت فواكه متنوعة غير ما سبق ذكره، والأب هو: الزرع الذي يأكله الحيوان؛ **لذلك قال:** ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمْ﴾ (٣٢)، فما سبق ذكره من النعم هو متاعٌ لكم ومتاعٌ لأنعامكم، وسماه متاعاً؛ لأنه بالنسبة للآخرة قليلٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا يدوم، وأن هذه الحياة زائلةٌ مهما كان فيها من النعم.

ثم ختم السورة بهذا المقطع الذي يتحدث عن القيامة وما يجري فيها، ووجه التناسب بين هذا المقطع والذي قبله؛ كأن الله سبحانه وتعالى، يشير إلى أن من هذه قدرته وعظمته في الكون؛ فهو القادر على البعث والنشور وعودةٍ للأرواح إلى الأجساد وإحيائها، **ولذا قال:** ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ (٣٣)، والمقصود بالصاخة:

(١) ينظر: المغني لابن قدامة (٣/٣) وبداية المجتهد، لابن رشد (١١/٢).



النفخة الثانية من نفخات يوم القيامة، فإن النفخة الأولى يصير فيها الصعق والموت والهلاك للخلق أجمعين، ثم بعد ذلك -بما شاء الله من زمن- يأمر الله إسرافيل فينفخ النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، وُسِّمَتْ بالصاخة؛ لأنها تَصُخُّ الأذان وتدفع الإنسان إلى سماعها رغم أنفه، ثم يأتي بعد الصاخة حشر الناس ووقوفهم بين يدي الله في عرصات القيامة؛ ثم يبين حال الناس كيف تكون آنذاك.

فَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَدِيقِهِ ۚ وَبَنِيهِ ۚ﴾ (٣٦)، أي: في ذلك اليوم يهرب فيه الإنسان من أقرب الناس إليه، وهم: الأخ والأم والأب والزوجة والأبناء، سبب الهروب، قيل: انشغال كلِّ إنسانٍ بنفسه وشأنه يوم القيامة، وقيل: تقصيره في حقهم، فالإنسان يهرب من أقاربه حتى لا يتعلقوا برقبته، ولا يُكثروا من سؤاله، خاصةً من ضيِّع وفرط في أهله وقصّر في حقوقهم، فالهروب محاولةٌ للتخلُّص من المسؤولية، وقيل: إنما عبّر بالهروب هنا عن الحال، كيف يكون في المحشر، وأنه عكس الحال في الدنيا، ففي الدنيا إن حصلت لك مشكلةٌ هربت إلى أخيك أو إلى أهلك أو إلى أمك أو إلى زوجتك أو إلى أولادك، حتى يقفوا معك ويُساعدوك، أما يوم القيامة فأنْتَ تهرب منهم، **والراجع الأول (١)، لقوله في الآية التي بعدها: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ﴾ (٣٧)، أي: يُلْهِيه، ويشغله شأنه عن غيره، فهو في صحائف أعماله، ويتفكر في حاله، فيكون الهروب هنا هو سُرود**

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٠)، والكشاف، للزمخشري (٤/ ٧٠٤).



العقول فلا يدري بمن حوله، وإن كان بجواره أعز الناس إليه في الدنيا، وذلك من شدة المصيبة، **وعلى القول الثاني؛** فهو هروبٌ حسيّ، حيث يهرب بجسده ويبحث له عن مكانٍ يختبئ منهم، وقد رتب الله سبحانه وتعالى الهروب بناءً على درجات العاطفة والقرب، أول شيءٍ تهرب من أخيك، ثم تهرب من أمك وأبيك، وهما أعلى رتبةٍ من أخيك، ثم رجع إلى الزوجة والولد؛ لأن العاطفة بينهما أشد، فعاطفة الأب مع ابنه أشد من عاطفة الابن مع أبيه!

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن الناس يوم الحشر ينقسمون إلى فريقين، فالمؤمنون في الآخرة لهم شأنهم، والكفار في الآخرة لهم شأنهم، **وقد يقول قائلٌ:** أين المنافقون وهم فريقٌ ثالثٌ كان موجوداً في الدنيا؟! **الجواب:** في يوم القيامة تظهر السرائر، فلا يوجد نفاقٌ، فالنفاق حُكمٌ يتعلق بالخلق في الدنيا، أما عند الله فهم كفارٌ في الدنيا والآخرة.

ثم بدأ بذكر حال الفريق الأول وهم: المؤمنون فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٣٩)، **الإسفار،** هو: النور والبياض الذي يظهر على الوجوه عندما تكون النفوس راضية، والأجساد آمنة، والقلوب مطمئنة، والضحك من صفات الأفواه، ولا يحصل إلا إذا كان القلب مطمئناً، فكما يستنير الوجه بتبسم الشفتان، وتكون البشارة ظاهرة على وجوها، بعد معرفتها بفوزها وفلاحها، وحصول الأمن لها، **كما قال:** ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، كل هذه



الصفات ثمرةً من ثمار الاطمئنان والسعادة، وأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم هذا الجزاء بناءً على استقامتهم وإيمانهم في الدنيا.

ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريق الثاني وهم الكفار، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤٠ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ٤١﴾، ووجهٌ أخرى في يوم القيامة يظهر عليها الغبار، ويتبع هذا الغبار السواد، وهي: ظلمةٌ في الوجه، فالغبرة شيءٌ ظاهرٌ على الجسد.

والقتره: وصفٌ لجلد الوجه، وهو السواد من آثار الكفر والمعصية، كما قال الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٤٢﴾.

ثم ختم وصفهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ٤٢﴾، فهناك تقابلٌ في الصفات بين الغبرة والفجرة والكفرة والقتره، فقد جاءت القتره في الوجه بسبب الكفر، وأصيبوا بالغبرة في وجوههم بسبب الفجور، والكفر متعلقٌ بالقلب وهو الجحود وعدم الإيمان، والفجور متعلقٌ بالجوارح، فقد كانوا يفعلون القبائح، فهؤلاء هم أهل النار وتلك هي صفاتهم.

وفائدة المقارنة بين حال أهل الجنة وحال أهل النار، بين المؤمنين وبين الكافرين، لبيان الفرق بينهما، لكي يقرر القارئ ويختار من أي صنف يكون!!



فوائد وهدايات من السورة:

١- أراد الله من معاتبة رسوله في قصته مع الأعمى أن يقيم في هذه الأمة ميزان التقوى، فلا فرق بين الأعمى الضعيف، وبين الكبراء من صناديد القوم عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٢- لو كان القرآن من عند محمدٍ كما يزعم الكافرون لما عاتب نفسه بنفسه.

٣- بيان مكانة القرآن الكريم، وأنه تذكرة لكل الناس، ولا يختص بالأغنياء دون الفقراء.

٤- انشغال كل إنسان بنفسه وشأنه يوم القيامة، وفراره من أقرب الناس إليه.

٥- أن فائدة المقارنة بين حال أهل الجنة وحال أهل النار، بين المؤمنين وبين الكافرين، لبيان الفرق بينهما، لكي يقرر القارئ ويختار من أي صنف يكون!!



تفسير سورة التكويد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ ١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ١٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾

شخصية السورة:

سورة التكويد؛ سورة مكية^(١)، والمقصد العام لها بيان علامات الساعة الكبرى، وما يحدث يوم القيامة من أحداث، والتنويه بشأن القرآن الكريم وبيان

(١) ويقال سورة كورت وسورة إذا الشمس كورت، وهي مكية بلا خلاف، وآياتها تسع وعشرون آية، وفي التيسير ثمان وعشرون، ينظر: روح المعاني، للألوسي (٢٥٣/١٥).

مكانته، وفي حديث ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت" (١).

وجه التناسب بينها وبين سورة عبس: أن سورة عبس اختتمت بالحديث عن حال الناس بعد النفخة الثانية، وهذه السورة تحدثت عن علامات الساعة الكبرى وقيامها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)، (إذا)؛ ظرف للزمان، وكُورَتْ، بمعنى: لُفَّتْ فانمحي ضوءها، ومنه تكوير العمامة (٢) وذهاب نورها، دليل على انهيار الكون؛ لأن الله تعالى خلق الكون بنظامٍ متقنٍ لا يختل.

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢)، أي: تساقطت من أماكنها.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣)، أي: حُرِّكت من أماكنها، فالله خلق الجبال لتثبيت الأرض، فإذا تحركت الجبال وسارت اضطربت الأرض.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤)، العشار؛ المقصود بها النوق الحامل في الشهر العاشر، لأن الحمل يبقى في بطن الناقة سنة، فالشهر العاشر يعني مُنتهى اكتمال الحمل، وكانت العرب تعتني عنايةً بالغةً بالنوق التي اقترَب موعد ولادتها؛ لما تحصل عليه من مولودٍ جديدٍ ومن اللبن والسمن، فأخبر الله

(١) رواه أحمد: (٤٢٣ / ٨)، برقم (٤٨٠٦)، والترمذي وحسنه: (٤٣٣ / ٥)، برقم: (٣٣٣٣)، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢ / ٨١٠).



سبحانه وتعالى، أنهم من شدة الفزع والخوف يتركون النوق وهي قرية الولادة، وخص العشار بالذكر؛ لأنها من أعظم وأحب ما كانت العرب تقتنيه^(١)، مثل ما يقال اليوم: سيارة آخر موديل من أفخم أنواع السيارات.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ، **حُشِرَتْ بمعنى:** جُمِعَتْ، فالوحوش تجتمع بعدما تهتز الأرض وتضطرب، وتَجَمَّع الوحوش؛ إشارة شرودها وفزعها مما يحدث، فالوحش غالباً يظل هارباً في الجبال بعيداً عن الناس، سواءً كان حماراً وحشياً أو أسداً أو ثعلباً ونحوها من هذه الوحوش، فما الذي جعلها تجتمع وتُحشَر مع الإنس وتقترب من بعضها؟!، الجواب: أن شدة الفزع مما يحدث أنساها ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ، **أي:** أوقدت بالنار حتى ذهب ماؤها وأصبح ناراً من كثرة غليانه، وهذه هي الست العلامات الأولى، قبل النفخة الأولى^(٢)، فإذا نُفِخت النفخة الأولى مات الناس أجمعون، ثم بالنفخة الثانية يُبعثون، فإذا بُعثوا جاءت العلامات الست الأخرى، **وتبدأ بقوله:** ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ، **قال بعض أهل العلم:** اجتمعت الأجساد بالأرواح، فكل روح تدخل في جسدها؛ فتُبْعَث. **وقال آخرون:** اجتمع كل صنفٍ مع صنفه، فالمجرمون مع المجرمين، والمؤمنون مع المؤمنين^(٣)، والأول أرجح.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٢٨/١٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢٣١/١٩).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري: (٢٤/٢٤٥، ٢٤٦)، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٤٤٢/٥).



ثم قال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ (٨)، **والموءودة؛ هي:** الطفلة الصغيرة التي دفنها أهلها في الجاهلية بعد ولادتها خشية العار أو خشية الفقر، فتبعث يوم القيامة وتُسأل، لماذا قتلك أهلك؟! وهو سؤال تبكيّ وتوبخ لمن قتلها، ويلحق بها ما يُسمى اليوم بعمليات الإجهاض، فلا يجوز إسقاط الحمل لأي سبب، فبعض الناس اليوم يتساهلون في ذلك، وهو من الواد المحرم، خاصة إذا كان قد نُفخ فيه الروح، فهو قتلٌ لنفسٍ معصومة، فلا يجوز الإجهاض بسبب الفقر، فرزقه من الله، فضلاً عن أن يكون هذا الواد والقتل بسبب الفساد والفواحش والإجرام والحمل من الزنى ونحوه، فهذا أشد قبحاً، وأعظم جرماً!!!.

وقوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠)، في ذلك اليوم تُنشر الصحف، والمقصود بالصحف: صحائف الأعمال، وهي: التي كتبت فيها الملائكة أعمال العباد من حسنات أو سيئات، فتوزع وتصل إلى كل شخص صحيفته.

وقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١)، يعني نزعَت، فطويت، وقال بعض أهل العلم: أن المقصود بالسما هنا غير سماء الدنيا، إذ لو كانت سماء الدنيا لكان ذلك قبل النفخة الأولى، فالمقصود بالسماء هنا سماء الدار الآخرة^(١)، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، **وكُشِطت أي:** أزيلت عن مكانها وصارت في مكانٍ آخر وبُدلت.

ثم قال: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ (١٢)، **أي:** يُراد في وقودها حتى يشتد حرها، كما

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٤٩/٣٠).



قال: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، **أي:** من شدة غيظها على الكفار والمجرمين.

ثم قال: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ ١٣، **أي:** قُرِبَتْ للمؤمنين، وهُيئت في طريقة قُرْبها وتجهيزها وافتتاحها حتى يذهب إليها المؤمنون، فهذه اثنا عشر فعل شرطٍ ذُكرت، فأين جوابها؟! **الجواب** في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ١٤، **أي:** إذا حصل ما سبق ذكره، فعند ذلك تعلم كل نفسٍ ما الذي كتب لها من عملٍ في صحائفها، وستعلم كل نفسٍ مصيرها هل هي من الفائزين أم من الخاسرين!!

ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة مُبتدئةً بالقسم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ ١٥، لا، من ألفاظ التوكيد، **ومعناه:** أُقسمُ بالخُنُس، وقسم الله سبحانه وتعالى بأي من مخلوقاته جائز، ليدلنا على عظمة ذلك المخلوق والذي به تعرف عظمة خالقه، أما أنت أيها العبد فلا تُقسم إلا بالله، ولا يجوز لك القسم بشيءٍ من مخلوقاته، **جاء في الحديث:** "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت" (١)، **وقوله:** "من حلف بغير الله فقد أشرك" (٢).

والخنس: اسم جنسٍ للنجم، ويُقصد به النجوم التي تظهر في السماء ليلاً وتختفي نهاراً، وسمي الشيطان بـ﴿الْخَنَاسِ﴾ [الناس: ٤]، لأنه يخنس **أي:** يتأخر إذا ذكرت الله، وإذا انشغلت رجع مرةً أخرى.

- (١) رواه البخاري برقم (٢٦٧٩)، (٣/ ١٨٠)، ورواه مسلم عنه، برقم (١٦٤٦)، (٣/ ١٢٦٧).
- (٢) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٣٧٥)، (٩/ ٢٧٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، (٣/ ٢٢٣)، وإسناده صحيح.



ثم وصف الله النجم، بقوله: ﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾، أي: الذي يجري ويأوي إلى مجاريه.

ثم قال: ﴿وَالَيْلِ إِذَا عَسَّسَ﴾، فأقسم الله بالليل حال إقباله وإدباره، فعسس
معناه: الإقبال والإدبار، نقول: عسس الليل يعني: أقبل عند غروب الشمس،
ونقول: عسس الليل بمعنى: أدبر عند طلوع الفجر، فالله تعالى أقسم بإقبال الليل
وإدباره في لفظٍ واحدٍ، وهذا يدل على بلاغة القرآن وسعة لغة العرب، وقد لا تجد
مثل هذه الكلمة في لغاتٍ أخرى وبهذا الجمال وبهذا الأسلوب.

ثم قال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، تنفس، أي: ظهر ضوءه، وُسْمِي ظهور الضوء
تنفّساً؛ لانقشاع ظلمة الليل وبزوغ النور، أو لما كان إقبال الصبح يلزمه الروح
والنسيم، جعل ذلك نفساً له، ففي الصباح يكون أحسن وأفضل أنواع الهواء،
والجو لطيفٌ وجميلٌ جداً؛ ولذلك طيباً إذا أرادوا أن يعالجوا شخصاً من بعض
المشاكل التنفسية؛ يجعلونه يصحو مبكراً ويستمتع بالهواء قبل شروق الشمس،
لأن الأشجار بالليل تنتج الأكسجين، فتزداد كمية الأكسجين في الهواء، وفي النهار
تنتج ثاني أكسيد الكربون، فيتغير ما يُسمى بالبناء الضوئي للنباتات، فيكون الليل قد
امتص الأجواء السيئة، فيأتي الصباح بجوٍ لطيفٍ وهواءٍ نقيٍّ، وزاد بعضهم في مدح
هذا الهواء حين سأله صاحبه، لماذا هواء الفجر جميل؟ قال: لم يُعكّرهُ المنافقون
بتنفّسهم، فالمنافقون غير موجودين فهم نيامٌ!!.

ثم جاء جوابُ القسم لما سبق، في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: إن
هذا القرآن أتى به جبريل من عند الله وأقرأه رسول الله ﷺ، ونسب القرآن هنا



إلى جبريل؛ لأن جبريل سمعه من الله، وأسمعه بلفظه لمحمد ﷺ، فالقرآن كلام الله، وجبريل ناقلٌ له إليه، فالنسبة للصوت، وليست للقرآن، فالصوت الذي سمع به محمد ﷺ القرآن هو صوت جبريل، وسُمي رسولٌ؛ لأنه مُرسلٌ من الله إلى محمد ﷺ وباقي الأنبياء؛ فلذلك جبريل رسولٌ، وأُمته الرسل، ومحمد ﷺ رسولٌ، وأُمته الناس الذين أرسل إليهم، وهذا من اللطائف!!

ثم بدأ وصفُ الله لجبريل، فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: أنه صاحب قوةٍ وقدرَةٍ على كل ما يكلف به، فلا يعجز عنه ولا يضعف، وأطلقها لتشمل مفهوم القوة بشكلٍ عامٍ سواءً كانت في البدن أو قوة الطاقة، أو قوة العبادة، وله عند الله مكانةٌ ومنزلةٌ، وجاهه عند الله عظيمٌ.

ثم قال عنه: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾، ثُمَّ، بالفتح، ظرف مكانٍ بمعنى هناك، أي: مطاعٌ في السماء من الملائكة فلا يعصونه، وأمين الله على وحيه، فلا يزيد ولا يُنقص منه، ومن قرأ ثَمَّ، بالضم، أي: هو مُطَاعٌ وأمينٌ في نفس الوقت، والأفصح الأول.

ثم جاء بجواب القسم في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، أي: وما محمد ﷺ بمجنون، بل هو كامل العقل، وعبر عنه بصاحبٍ لهم لأنهم صاحبه أربعين سنةً قبل البعثة، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾، أي: رأى محمد ﷺ جبريل الأمين بصورته الحقيقية الملائكية في الأفق له ستمائة جناحٍ قد سد بها الأفق.

والأفق المقصود به: قطاع السماء الذي تراه بعينك واضحًا، وقد رأى النبي



محمد صلى الله عليه وآله وسلم جبريل على حالته مرتين^(١): مرةً عند بداية الوحي، رآه على جبل جياذ قد سد أفق المشرق، والمرة الثانية: رآه في الأفق المبين عندما عرج به إلى السماء، وهي المذكورة في سورة النجم، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤) [النجم: ١٣-١٤].

ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤)، بضنين، بالضاد ومعناها: البخيل ومعناها: أن محمدًا، صلى الله عليه وآله وسلم ليس ببخيل ولا متهم فيما أوحى الله به إليه، وهي قراءة الجمهور^(٢)، وقرئ: بضنين، بالطاء، ومعناها: مُتهم، وكلاهما وصف صالحٌ لنبينا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، فلا هو مُتهمٌ على الوحي ولا هو بخيلٌ يكتُم ما أوحى الله به إليه فلا يبلغه للناس.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٣٥)، أي: القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، فالقرآن ليس قول شيطانٍ وإنما هو وحيٌّ من الله إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والشيطان معروف، من شطن أي: ابتعد عن الحق، والرجيم، أي: المرجوم وهو الملعون المطرود عن رحمة الله، وفيه وفيما سبق من تنوع القسم وتنوع الحديث عن جبريل وعن القرآن وعن محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، كان ذلك بتناسقٍ عجيبٍ، نظرًا لترابط العلاقة بين القرآن وجبريل ومحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبرنا عن القرآن بوصفه كلام الله، ووصف لنا جبريل الذي أبلغه، ووصف محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم الذي استقبله!!

(١) ينظر: أحاديث رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل في الصحيحين، عن عائشة وابن مسعود وأبي هريرة، البخاري برقم (٣٢٣٢)، ورقم (٤٨٥٥)، ومسلم برقم (١٧٤)، ورقم (١٧٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٢٦٠)



ثم بعد ذكر هذه البراهين والأدلة، وجّه الله سؤالاً لكفار مكة، فقال لهم: ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦)، أي: ليس أمامكم إلا الإيمان والتصديق؛ إن كان لديكم عقل وفهم، فأين تهربون من هذه البراهين، وإلى متى تستمرون في التكذيب، وهو أسلوب تعجب واستغراب يتداوله الناس حتى اليوم، والمعنى: ما لكم من عذرٍ في التكذيب بعد هذه البراهين والأدلة التي تثبت صدق النبي محمد ﷺ، ثم عاد للحديث عن القرآن الكريم.

فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧)، فالقرآن تذكرة وعِظة، ليس لكم أيها المكذبون من قريش، فحسب، بل للعالمين، عالم الجن وعالم الإنس، فإن أمتتم؛ فهو خيرٌ لكم، وإن كفرتم؛ فغيركم يقوم مقامكم، **كما قال:** ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ثم قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨)، فمن أراد أن يستقيم على الحق والطاعة ويفوز بالجنة؛ فلا بد أن يؤمن بهذا القرآن، فهو منبع ومصدر الاستقامة الحقيقية، وبغير القرآن واتباع ما جاء به محمد ﷺ؛ لا استقامة شرعية مقبولة، فمهما حاولت أن تصلح من أخلاقك ومن قيمك ومن تعاملاتك، دون أن تؤمن بالقرآن والسنة وتهدي بهديهما فلا تُسمى مُستقيماً استقامةً صحيحةً!!

ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩)، ولا تتحقق مشيئة العبد إلا بمشيئة الرب سبحانه، فعليك بالسعي والبحث والإقبال على الهداية والأخذ بأسبابها، واطلب التوفيق لذلك من الله، فكم من أناسٍ لم تحصل لهم الهداية وقد عرفوها، كزوجة نوح وابنه، وكأبي إبراهيم، وكزوجة لوط، وكأبي



طالب عم النبي ﷺ، فالهداية بيد الله، يمنحها لمن يشاء، فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله، كما في الحديث: "يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم"^(١)، ومن صدق مع الله صدقه الله.!!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الله سبحانه وتعالى يحشر المرء مع من يُماثلُه، المؤمن مع المؤمنين، والكافر مع الكافرين، وأهل الخير مع أهل الخير، وأهل الشر مع أهل الشر.
- ٢- أن وأد البناتِ ذنبٌ عظيمٌ سيُسأل عنه من فعله يوم القيامة، ويلحق بها ما يُسمى اليوم بعمليات الإجهاض.
- ٣- ترابط العلاقة بين القرآن وجبريل ومحمد ﷺ، فأخبرنا عن القرآن بوصفه كلام الله، ووصف لنا جبريل الذي أبلغه، ووصف محمداً ﷺ الذي استقبله.!!
- ٤- أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هي الأصل وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى.

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم: (٤/ ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ (٤) ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (٥) ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨) ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٩) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كِرَامًا كَانِينَ﴾ (١١) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٢) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَجِيمٍ﴾ (١٤) ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (١٦) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٧) ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٨) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩) ﴿

شخصية السورة:

سورة الانفطار؛ سورة مكية^(١)، والمقصد الأعظم لهذه السورة هو: بيان علامات الساعة وأحوال يوم القيامة، لإقناع المشركين بالأدلة والبراهين والحجج العقلية والنقلية التي تثبت البعث والنشور الذي ينكرونه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢) ﴿، إذا:

(١) وتسمى سورة انفطرت، وسورة المنفطرة، ولا خلاف في أنها مكية، ولا في أنها تسع عشرة آية. ينظر: روح المعاني للألوسي (١٥/ ٢٦٧).

ظرف زمان، **بمعنى:** متى ما جاء هذا الظرف وقع قيام الساعة، وانتهاء الحياة وبداية حياة أخرى، فذكر الله أربع علامات، وهي أربعة أفعال للشرط، وأتى بعدها بجواب الشرط في الآية الخامسة، وهذه الأفعال الأربعة، اثنان علوية واثنان سفلية، فالعلويان هما: انفطار السماء وتساقط النجوم، فإذا حصل تشقق للسماء، بعد أن كانت مُتماسكة متقنة البناء؛ يتبعها تفرق وتمزق وتساقط النجوم.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۖ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۖ﴾، وهذان هما الأمران السفليان: تفجر البحار وبعثرة القبور، والبحار هي المياه الملتصقة باليابسة، وهي كبيرة جداً، ولو نظرت في خارطة الأرض لرأيت أن نسبة اليابسة إلى الماء: ٢٩٪ يابسة، و ٧١٪ ماء، فهذه البحار، تتفجر قبل يوم القيامة، وتمزق الحواجز التي بينها، وتختلط مياهها؛ فتصير بحرًا واحدًا، أو انتهى ماؤها من شدة غليانها وصارت نارًا، وهي علامة على أن الأرض لم تعد صالحة للحياة.

ولذا قال بعدها مباشرة: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۖ﴾، **البعثرة:** التقلب، أي: قلب تراها ليخرج كل من دُفن في باطنها، وهذا يكون بعد قيام الساعة.

وقوله: ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ۖ﴾، هذا جواب الشرط لما سبق، والمقصود بالعلم هنا نوعان، الأول: العلم الإجمالي، بمعنى: أن كل نفس تعلم إجمالاً حالها، هل هي من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة، بناءً على ما يحصل لصاحبها من تكريم أو إهانة عند الموت وأثناء البعث، فإذا بُعث مُكرماً مُعزّزاً بدون فزع ولا خوف، علم إجمالاً أنه إلى خير، وإذا بُعث مهاناً ذليلاً وحصل له



الفرع والخوف والهلع؛ علم إجمالاً أنه إلى شر، والثاني: العلم التفصيلي، وهذا لا يتم للنفس إلا بعد تطاير الصحف، ووزن الأعمال، فعندها يعلم هل ميزائه ثقیلٌ أم خفيفٌ؟!، وهل هو ممن تساوت حسناته وسيئاته أم لا؟!، وما هي الدار التي سيذهب إليها؟!، والعلم التفصيلي لا يكون إلا في ساحة المحشر، فالآيات تذكر لنا بالتدرج أحداث يوم القيامة من علامات الساعة الكبرى إلى أن يصل الناس إلى ساحة المحشر، وقد بُعثوا من قبورهم وُجمِعوا، ثم علموا ما أحضروه من أعمال، سواءً على سبيل الإجمال أو التفصيل، فهذه هي الفقرة الأولى التي تحدثت عنها السورة.

ثم انتقلت السورة إلى فقرةٍ جديدةٍ، وهي قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

الْكَرِيمِ﴾ (٦)، المقصود بالإنسان هنا: الكافر^(١)، وقيل: بل المقصود بالإنسان هنا: الكافر والعاصي ولو كان مؤمناً^(٢)، فالكافر اغتر بما عنده من العلم أو المال أو الجاه، فأدى ذلك به إلى الكفر، وأما العاصي فغره كرم الله ولطفه، فوقع في المعاصي، حيث تكرم عليه بالإمهال والستر ولم يُعاجله بالعقوبة؛ فأدى ذلك إلى اغترار العبد؛ فاستمر على الكفر أو المعصية والذنب!!

والسؤال هنا استنكاري لا يحتاج إلى جواب، بل هو للتقريع والتوبيخ، فكأنه يُنكر عليه حاله، ولا يحتاج إلى جوابٍ منه، والهدف منه التعجب، فهو مُتَعَجِّبٌ من غروره بدون سبب!!، فالله الكريم الذي خلقه ورباه ومنحه السِّرَّ

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/٢٦٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/٤٤٦).



على الذنب وأمهله في العقوبة ولم يُعاجله بها؛ فالواجب عليه مقابل هذا الكرم، هو سرعة التوبة والندم والإقلاع عن الذنب وعدم الاغترار بكرم الله ورحمته، **أما إذا قلنا: أن السؤال استفهامي، فيكون الجواب: غرني الشيطان، أو غررتني النفس الأمارة بالسوء ونحوها، والراجح الأول.**

وقوله: ﴿بَرِّكَ الْكَرِيمِ﴾، وصفٌ لله سبحانه، بأنه الرب، والتربية لها معنى عظيم يهز النفس، ووصف نفسه بالكريم؛ لأن الكريم لا يحصل منه إلا كل خير وفضل وجود.

ثم بدأ يُحدِّث هذا الإنسان عن نعم هذا الرب الكريم عليه، ليشعره بفضله عليه، ويقرعه من خلالها، بأسلوب التعجب من عدم إيمانه به، وعدم استقامته على طاعته، وعدم عودته إليه، فذكر الأفعال التي فعلها الله بالإنسان، **فَقَالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾**، ذكر ثلاثة أفعالٍ تتضمن ثلاث نعم وهي: الخلق، والتسوية للخلق، والاعتدال فيه، **فالخلق هو: الإيجاد من العدم، والتسوية هي: اكتمال الخلق، والاعتدال: جعل الإنسان معتدل الخلق متناسب الأعضاء من غير تفاوتٍ فيها، فلا يوجد فيها نقص ولا تشوه خلقي، وإن وجد التشوه الخلقي والنقص في بعض الأعضاء عند بعض الناس، فهي حالاتٌ نادرةٌ لأسبابٍ مُعينة، مثل أن يخرج أعمى، أو أعور، أو عنده ستة أصابع، ونحوها، فهذه نسبةٌ قليلةٌ جدًّا من خلق الله لها أسبابها، والأصل في خلق الله للخلق هو الكمال لا النقص.**

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، فيها قراءتان^(١)، الأولى: بالتخفيف، ومعناها: صرفك

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/٢٦٩).



عن خِلْقَةٍ غيرِك، وَخَلَقْتَ خَلْقَةً حَسَنَةً مَفَارِقَةً لِسَائِرِ الْخَلْقِ، **والثانية:** بالتشديد، (فَعَدَّلَكَ)، من التعديل **أي:** جعلك مُعْتَدِلًا مُتَوَسِّطًا، ولم يجعلك تَمْشِي على أربع، فلم يجعل أذنك كأذن الحمار أو كأذن الفيل، ولم يجعل لك ذيلًا كذيل البقرة، وقس على ذلك في باقي الأعضاء التي إذا نظرت إليها لم تجد فيها إلا الصورة المعتدلة الحسنة الجميلة، فهذا كله من تعديل الخلق.

ثم قال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، **يعني:** في أي صورة من الصور الجميلة ركبها عليك!!.

نعم، فالإنسان أجمل مخلوقات الله!!، وهذا من نعم الله علينا، نعمة في الخلق، ونعمة في تسوية الأعضاء واعتدالها، ونعمة في جمال الصورة، ومعها نعمة التربية التي هي النمو حالًا فحالًا حتى تصير شخصًا قويًا مُتَمَكِّنًا، فإذا كان هذا فعل الله فيك، فالواجب عليك أن تُقْبِلَ عليه بالإيمان والعبادة لا أن تغتر بهذه النعم وبفضل الله وكرمه عليك، فتعصي الله أو تكفر به!.

ثم جاء المقطع الثالث فابتدأ بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾، **كلا:** كلمة ردع وزجر لما سبق، **والمعنى:** ليس الأمر كما تصورتهم، أيها المغرورون البعيدون عن الله مع ما منحكم إياه من نعم الخلق والإيجاد وتحسين الصورة، التي تدفعكم إلى الإيمان والطاعة، ولكن حصل منكم الكفر والتكذيب، وبناءً على هذا فقد ذهب بعض المفسرين إلى ترجيح أن المقصود بالإنسان هنا هو الكافر؛ لدلالة السياق عليه، **والمقصود بالدين هنا قولان:**



الأول: الإسلام^(١)، أي: تُكذبون بالإسلام، وهو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وما يشمله من أحكام وعقائد وعبادات ومعاملات وغيرها، **كما في قوله:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فأنتم معرضون وجاحدون لهذا الدين ولم تؤمنوا به، وهذا السياق لا يختلف معه.

والثاني من الأقوال، أن المقصود بالدين هنا: الحساب^(٢)، كما في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، **أي:** يوم الحساب، وهو البعث والنشور الذي تُنكره قريش، ويُمكن الجمع بين القولين في سياقٍ واحدٍ، فهم مُكذبون بالإسلام عموماً، ومنكرين للبعث والنشور خصوصاً.

وقوله: ﴿وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾، **الواو هنا** تفيد العطف أو الحال، فعطف جملة على جملة.

والحال من قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي يقع منكم التكذيب في حال وجود حافظين عليكم، والحافظون هم الملائكة، والمعنى على العطف: تُكذبون بيوم الدين والحساب مع أن أعمالكم تُحصى وتُكتب من قبل ملائكة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾، وهذا من كمال عدل الله سبحانه وتعالى، وإلا فالله يعلم من العبد ما يفعل، ولكن لإثبات كمال عدل الله سبحانه وتعالى جعل الملائكة تكتب أعمالك وتحصيها لك في صحيفة، فإذا جاء يوم القيامة سلمك كتابك.

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٧).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٢٧١).



وقال: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) [الإسراء: ١٤]، فحاسب

نفسك واطلع على عملك في صحيفتك بنفسك!!

ووصف هنا الحافظين الذين يحفظون الإنسان، ويكتبون عمله، بأنهم كرام، وهو وصف يمنح العبد الاطمئنان، فالكريم لا يخون، **وكاتبين أي:** يكتبون ما تفعل، وهنا فيه إشارة إلى أن الكتابة وتسجيل المعلومة للحفظ، أولى من الاختصار على الحفظ فقط، فالحفظ بالكتابة يعطيها معنى البقاء وعدم الذهاب، وهل المقصود بالحافظين هنا الذين يحفظونه بأمر الله، **كما في قوله:** ﴿لَهُ، مُعَقَّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يُحَفِّظُونَهُ مِمَّا أَمَرِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١]، أو الذين يُسجلون أعماله، **كما في قوله:** ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، **والجواب** أن الوصف يشملهما معاً، فهناك ملائكة يحفظون العبد من تغوّل الشياطين ومن أذية العفاريت وهناك ملائكة يحفظون أعمال العبد، فيُسجلون ما يفعل من خيرٍ أو شرٍ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٢) ، **أي:** أعطاهم الله سبحانه وتعالى إمكانية أن يعلم ما يفعل العبد فيعلم نيته فيقول: هذه حسنةٌ فيكتبها في الحسنات، وهذه سيئةٌ فيكتبها في السيئات، ومنحهم أيضاً علم بعض ما تخفيه الصدور من خواطر ووساوس، والتفريق بينها وبين حال العزم وقوة الإرادة فيها، فيكتب الإرادة والعزم ويترك الوسوس والخواطر، **كما في الحديث:** "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به" (١)، فيكتبون ذلك كله عن علم، ثم يشهدون عليه يوم القيامة، والشهادة لا تكون إلا بعد العلم!!

(١) الحديث رواه البخاري، (٤٦/٧)، برقم (٥٢٦٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ثم إذا وُزعت الصحائف وعُرف ما فيها، انقسم الناس في الحشر إلى قسمين: الأبرار والفجار، ثم بيّن حال كل منهما، **فقال عن القسم الأول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣)**، **والأبرار:** جمعُ برّ، وهو المطيع، والمقصود بهم المؤمنون، ومصيرهم إلى نعيمٍ مطلقٍ، لم يحدده ولم يحدثنا عنه، بل تركه مفتوحاً لتخيّله، فهنا نعيمٌ في ساحة المحشر، ونعيمٌ عندما تُزف إلى الجنة وهم يستقبلونك فيها، ونعيمٌ في داخلها عند رؤية الله - سبحانه وتعالى - ورضاه!!

وأما القسم الثاني، فقال عنهم: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١٤)، **والفجار:** هم الكفار، والجحيم؛ اسمٌ من أسماء النار.

وقوله: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١٥)، بدأ يفصّل في حال أهل الجحيم لأجل أن تنتبه لها، فالكفار يدخلون النار؛ فتستعر بهم وتُحرقهم، وعبر عن ذلك بالصلاء، وهو ذوق شدة الحرارة فيها.

ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (١٦)، **أي:** أن هذه النار إذا دخلها الكفار لن يخرجوا منها، بخلاف المؤمن العاصي الذي وقع في بعض المعاصي ودخل النار، فإنه سيخرج من النار ولا يخلد فيها، ونفي الغياب عنهم، يفيد أنهم لا يمكن أن يختبئوا من عذابها في أي زاويةٍ من زواياها، فلا مجال لأن تغيب عنهم النار وعذابها، أو يغيبوا عنها، بل هي تمر عليهم، وتبحث عنهم!! والعياذ بالله.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) هل الخطاب للكافر^(١)،

(١) ينظر: زاد المسير (٤/ ٤١١)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٨٠).



أم لرسول الله ﷺ؟ ممكن هذا وممكن هذا، ولكن الرجَّح أن الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه قد انتهى الحديث عن هذا الكافر، وإذا كان الخطاب لرسول الله فالخطاب لأُمته ما لم يكن خاصًا به، فيكون الخطاب لكل من سمعه أو قرأه.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٨)، كرر هنا العبارة، والفائدة من التكرار التعظيم والتهويل، ولأجل أن تستعد لمعرفة الجواب.

ثم قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: يوم الدين هو يوم الحساب، وهو اليوم الذي لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئًا لغيره، ولا يستطيع أن ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) [عبس: ٣٤]، وفي هذا إشارة إلى أن كل إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه، ولا مجال أن ينفع إنسان إنسانًا، كما كان ذلك ممكنًا في الدنيا.

ثم قال الله: ﴿وَالْأَمْرُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ﴾ (١٩)، لما نزع الله الملك من كل النفوس؛ صار الملك كله لله في ذلك اليوم، **فينادي فيقول:** ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فلا يجيبه أحد، فيكون الجواب منه سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فيكون الأمر كله لله، وفي هذا تهويل وتعظيم لشأن ذلك اليوم ودفع للنفوس للاستعداد له بالأعمال الصالحة، فإنه لا يفوز ولا يأمن ولا يكون في كنف الرحمن وظله إلا من كان على طاعة وقربة، والويل ثم الويل لمن أعرض عن الله وغره بربه كرمه ولطفه!!

(١) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٢٧٢).



فوائد وهدايات من السورة:

- ١- على المسلم أن يحذر من الغرور الذي يمنعه من معرفة الحق، فالغرور أحياناً يمنعك من معرفة الحق، والاعتذار بكرم الله يمنعك من التوبة أحياناً، فالله يُمهل ولا يهمل.
- ٢- أن تستحضر أن الله سبحانه وتعالى كما أكرمك بحافظين يحفظونك بأمره؛ كذلك وكل بك كاتبين يكتبون أعمالك.
- ٣- أهمية مراقبة الله سبحانه وتعالى، فمن لم يخف من رقابة الله عليه؛ فلن يخاف من كتابة الملائكة، فليكن خوفك من الله أعظم، واستحضار مراقبته عندك أعظم من كتابة الملائكة، فهو سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية.



تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنْأَىٰ عَنْهُمْ إِذَا تَنَاسَلُوا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُمٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُمْ مِّسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ هَلْ تَوْبُ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾

شخصية السورة:

سورة المطففين^(١)؛ اختلف هل هي مكية أم مدنية؟!، فبعض المفسرين

(١) سورة المطففين مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة. =

يرون أنها مكية، و**آخرون يرون** أنها مدنية، ورجح بعض المحققين من المفسرين أنها نزلت أثناء الهجرة بين مكة والمدينة^(١)، وهو الراجح؛ لأن الوضع في المدينة كان فيه تطفيفٌ للميزان، وكذلك كان الوضع في مكة، فنزولها بين المدينتين إشارةً إلى معالجة هذين الخللين، والله أعلم.

وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الانفطار، والعلاقة بينهما أن سورة الانفطار خُتمت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وابتدأت سورة المطففين بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى هدد المطففين بالويل والثبور في ذلك اليوم الذي لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً وإنما الأمر فيه إلى الله، فيُجازي كل إنسانٍ بعمله.

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، **ويل**، معناه الدعاء بالهلاك والخسارة، وبعض المفسرين يرى أنه اسمٌ لواءٍ في جهنم^(٢)، ولكن الأول هو الراجح، فإن لغة العرب تدل على ذلك، وما زال يُستخدم هذا اللفظ حتى اليوم، فإذا أردت أن تُقرِّع شخصاً، فتقول **له: ويلٌ لك**، والمطففون الذين دُعِيَ عليهم بالهلاك والخسارة جاء تفسيرهم في الآيتين التي تليها، **وهي قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى**

= وهي ست وثلاثون آية، ينظر: تفسير القرطبي (٢٥٠ / ١٩).

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤ / ٤١٣)، والمححر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥ / ٤٤٩).

(٢) ينظر: المححر الوجيز، لابن عطية (٥ / ٤٤٩)، وزاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (١ / ٨٢).



النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾، والمعنى: أنه إذا ذهب ليزن أو يكتال لنفسه؛ أخذ الوزن أو المكيال كاملاً، وإن وزن لغيره أو كال لغيره؛ خان في الوزن وطفف.

والتطفيف: نقص المكيال^(١)، وهذا النقص هو في الحقيقة قليل، ولذلك سُمي تطفيفاً، **والتطفيف في اللغة:** يعود إلى حافة الشيء وعدم استكمال جوانبه، بمعنى أنه إذا جاء ليكيل، فإذا وصل إلى حافة المكيال لا يملأه بل ينقص من جوانبه، **ولذا يُقال للشيء اليسير:** طفيف، فيقال: تعديل طفيف، وخلل طفيف، لأن الغالب أن المطفف لا يُنقص كثيراً من المكيال والميزان؛ لأنه لو أنقص كثيراً من المكيال والميزان لكُشف أمره، فربما قد يجعل شيئاً في أسفل المكيال؛ ليخدع الناس، أو لا يتم جوانبه وحافته بالكيل، وإن كان في الميزان فقد يلعب بشوكته، أو قد يضع في أسفل الميزان شيئاً ليثقل إحدى الكفتين على الأخرى قبل أن يُوضع فيها الوزن، كل ذلك على سبيل الخداع، فهذا هو المطفف، **وهنا لطيفة من لطائف اللغة في قوله:** ﴿إِذَا كَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ﴿٢﴾ حيث عبر — (على) مع أن القياس أن يُعبر بـ(من) إذا اكتالوا من الناس، لأنك أنت الذي تكتال منه وتشتري، ولكن عبر بـ(على) هنا وإن كانت الحروف ينوب بعضها عن بعض في بعض المواضع؛ إشارة إلى حرص هذا الإنسان على استكمال حقه من الآخرين، فمن دقة الملاحظة والمتابعة، كأنه فوق ذلك الشخص الذي يكيل أو يزن، حتى يأخذ حقه منه كاملاً!!

(١) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٣٩٥).



وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ^(٣) حُذِفَ الجار وحلّ المجرور منه، وتقديره: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، إشارة إلى حرص ذلك الإنسان على أن يأخذ من مال ذلك الشخص بقدر الإمكان خلسةً، ففي الأخذ هو موجودٌ، يراقب الكيل من علوٍ، ويريد أن يأخذ حقه كاملاً، بينما في العطاء لم يذكر حرف الجر، بمعنى أن فيه نوعاً من الاختلاس، وإن كانت هذه الأفعال قد تتعدى بنفسها وقد تتعدى بحرف الجر.

ومما سبق يمكننا أن نستفيد درساً عاماً في كيفية التعامل مع الآخرين، وهو: أن نتعامل مع الناس بمثل ما نُحب أن يتعاملوا معنا، فكما تُحب أن يحترمك الناس؛ فاحترمهم، وكما تحب أن يُعطيك الناس كاملَ حقك؛ فأعطِ الناس كاملَ حقوقهم، وكما تحب أن لا يؤذيك الناس؛ فلا تؤذِ أحداً، وهكذا...، فإن لم تفعل واهتممت بنفسك على سبيل الأثرة في ذلك كله، ولم تتنبه لحقوق الآخرين؛ فأنت أحد المطففين، وتمارس التطفيف في صورةٍ من صورهِ!!، فلا نقصر معنى التطفيف على الكيل والوزن، وإن كان هو أصله، ولكنه يشمل أي تقصيرٍ في التعامل والحقوق والأخلاق في حق الآخرين، ومن ذلك: عدم هضم الآخر حقه من الوقت والفرصة أثناء النقاش والحوار معه حتى يقول فكرته؛ كما أخذت وقتاً كافياً لتقول فكرتك؛ فأعطه وقتاً كافياً ليقول فكرته، **ومن التطفيف:** أن تشعر أن لك مزيةً على غيرك، فهذا داخلٌ كله تحت مفهوم التطفيف بمعناه الواسع، فليحذر المسلم من هذه الصفات حتى لا يندرج تحت هذا الوصف المذموم.



ثم وعظهم بقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾، فهذا الفعل إنما يقع فيه من لا يُراقب الله ولا يستحضر وقوفه بين يديه، وقد يقع من الكافر لكفره بالله وعدم إيمانه باليوم الآخر، وقد يقع من المؤمن لضعف إيمانه وقلة استحضاره مراقبة الله، والوقوف بين يديه يوم الحشر،!! والظن إما أن يأتي على بابهِ وهو الشك، فيكون هذا في حق الكافر، وإما أن يأتي بمعنى اليقين، **كما في قوله:** ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: الذين يُوقنون، ويعلمون علمًا يقينًا أنهم ملاقوا ربهم، وهنا إن كان الفاعل مؤمنًا فالظن هنا معناه اليقين، وإن كان الفاعل كافرًا فالظن هنا بمعنى الشك.

ثم فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾، أي: يقوم الناس أجمعون من آدم إلى يوم البعث، فيُجمعون كلهم في عرصةٍ واحدةٍ، ويقومون بين يديه، ينتظرون الفصل منه سبحانه، والحكم والقضاء منه، وهو المطلع على سرائرهم، العالم بأحوالهم، ووصف الله تعالى ذلك اليوم بأنه يومٌ عظيمٌ، فعظمته لا توصف، فالملائكة تقف فيه صفوفًا، والناس في خوفٍ وفزعٍ وشدةٍ إلا من شاء الله، **وقد جاء في الحديث^(١)** أن الناس يقومون في الحشر حتى يبلغ العرق أفواههم من شدة الحرارة والزحام، وتقرب الشمس من رؤوسهم قدر ميل، فهذا الموقف العظيم يجب أن يتذكره الإنسان؛ حتى يُعطي كل ذي حقٍ حقه، ولا يظلم أحدًا، وكفى بهذا تحذيرًا وتوبيخًا وتنبيهًا لمن استمرَّ التطفيف ومغالطة الناس في المكيال والميزان ونحوها من الأمور.!!

(١) رواه البخاري، (١٢٣/٢)، برقم (١٤٧٤)، ومسلم: (٢١٩٦/٤)، برقم: (٢٨٦٤).



ثم قال الله سبحانه وتعالى بعدها: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧)، كلا،

كلمة ردع وزجر، **والمعنى:** ليس الأمر كما تتصورون أيها المنكرون للبعث والنشور، بل هناك بعث ونشورٌ وحسابٌ بين يدي الله سبحانه وتعالى، وسماهم فجارًا لكثرة فجورهم ومعاصيهم، وفي هذا اليوم يتضح حال الفاجر من حال المؤمن، فكتاب أهل الفجور من الكفار والمنافقين في سجين، وهو اسمٌ لمكان، **وقد اختلف المفسرون^(١)** في ذلك المكان، **فقل:** هو مكانٌ في الأرض السابعة، **يعني:** في مكانٍ سافلٍ وضيقٍ وموحشٍ، **وقيل:** سجينٌ مأخوذةٌ من السجن، وفيها معنى المبالغة، والسجن فيه معنى الضيق والشدة، **ويمكن الجمع بين القولين:** أن المكان سجنٌ وفيه ضيقٌ وشدةٌ ومشقةٌ وأنه في الأرض السابعة، وهذا المكان مكتوبٌ فيه كتاب أعمال الفجار من الكفار والمنافقين؛ **ولذا قال الله في الآية التي بعدها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ (٨) والسؤال** بما أدراك يأتي على سبيل التعظيم والتهويل للأمر، والمعنى: ما أدراك يا محمد عن شدة قبح هذا المكان وضيقه، ونحوها من الصفات التي تدل على تهويله والتخويف منه.

ثم قال: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٩)، وهذا تفسيرٌ لكلمة سجين، بأنه كتابٌ مرقومٌ، أي: عليه علامةٌ، أو مكتوبٌ فيه، أو مختومٌ عليه، ويمكن أن يُجمع بين هذه الثلاثة الألفاظ في معنى واحد وهو: أن كتاب الفجار مكتوبٌ فيه أعمالهم، ومختومٌ على هذه الأعمال؛ حتى لا يُزاد عليها ولا يُنقص، وعليه علامةٌ تدل على أنه كتابٌ خاصٌ بالفجار.

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٥).



ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَّيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٠)، **الويل**، الدعاء بالهلاك والخسارة، و﴿يَوْمِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، حين يأتيهم الويل والشور، أو أنهم يدعون على أنفسهم بالويل، **كما في قوله:** ﴿يَوَيْلٌ لِّتَنِي لَّمْ أَتَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨]، بل يقال هذا الدعاء من الجنائز حين تُحمل إلى المقبرة، كما في الحديث (١)، **فتقول:** يا ويلها أين تذهبون بها، **والمكذبون:** الذين كذبوا بالرسول، ومن كذب برسولٍ فقد كذب بهم جميعًا.

ثم ذكر صفاتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١١)، فهم يُكذبون بالدين كله، ولكنهم أيضًا يُنكرون ويجحدون أن هناك حسابًا وبعثًا ونشورًا، **فقال الله ردًا عليهم:** ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢)، **أي:** وما يُكذب بيوم الحساب، ولا يُنكر ويجحد يوم القيامة، إلا كل متجاوز للحدود في الكفر والطغيان والإجرام، ومكثر من الآثام، والفرق بين المعتدي والأثيم؛ أن المعتدي تجاوز الحد في حقوق الآخرين.

والأثيم: ارتكب ذنوبًا كثيرةً في حق الله، فمثلاً السرقة يُسمى فاعلها معتديًا، ومن ترك الصلاة يُسمى فاعلها آثمًا.

ثم ذكر من صفات هذا المعتدي الأثيم أنه: ﴿إِذَا نُنْثِلُ عَلَيْهِ إِبْنُاقَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣)، فإذا تليت عليه آيات القرآن؛ أعرض عن سماعها وكذب بها، وقال عنها: إنها أقاويل وأكاذيب السابقين من الأمم الماضية، والأسطورة هي: القصة المخترعة المكذوبة، وهل هذا المكذب شخصٌ بعينه أم هو عام؟!

(١) رواه البخاري (٢/ ٨٥)، برقم: (١٣١٤) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



بعضُ المفسرين قال: إنه الوليد بن المغيرة^(١)، والآية نزلت فيه، **وقال آخرون:** بل هذا وصفٌ لكل من كذب بالقرآن^(٢) سواءً كان الوليد أو غيره، وهو الراجح، ولو صح سبب نزول الآية في الوليد؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فالآية تشمل كل من هذا وصفه.

ثم رد الله على هذا المكذب فقال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١٤)، أي: ليس الأمر كما يقولون، فالقرآن ليس أساطير الأولين، بل سببُ تكذيبهم وجحودهم وعدم إيمانهم؛ هو ما أصاب قلوبهم وعقولهم، وغطى عليها من الآثام والأوساخ التي هي أثرٌ من آثار ذنوبهم ومعاصيهم، فأصبحت قلوبهم لا تفهم ولا تقبل ولا تستوعب الحق، فحصل منهم التكذيب له ورده، وهنا إشارةٌ مهمةٌ وخاصةٌ بطلبة العلم الباحثين عن الحق، وهي: إذا أردت أن تفهم وتستوعب ويفتح الله قلبك لفهم الآيات والفقهاء في الدين؛ فنظف قلبك من الأدران والأوساخ، واستعن بالله، سبحانه وتعالى، على التوبة والاستغفار حتى يطهر القلب وتزكوا النفس؛ فيحصل لك بعد ذلك الفهم والاستيعاب فإن المعاصي تحول بينك وبين الفهم والحفظ، **كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:**

شَكُوتٌ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءٍ حَفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي^(٣)

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٥٩/١٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٩٨/٣٠).

(٣) ينظر: ديوان الشافعي (٦١).



فانتبه لهذا جيداً، واحرص على أن يظل قلبك سليماً، ونظفه من الأوساخ بكثرة التوبة والاستغفار، وكثرة الطاعات وترك المحرمات، حتى تفهم وتحفظ كلام الله ورسوله، وتفقه دين الإسلام بصورة صحيحة.

ثم قال الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ﴾ (١٥)، **قال بعض المفسرين:** إن (كلا) هنا بمعنى: حقاً^(١)، أي: حقاً إنه بسبب كفرهم وإعراضهم عن آيات الله في الدنيا؛ حرمهم الله سبحانه وتعالى من النظر إليه في الآخرة، ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦]، وهذا دليل على غضب الله عليهم؛ فإذا حجب الله العبد عن النظر إليه؛ فهو دليل على أنه يكرهه، وأنه غير مُرحَّب به عنده، وفي الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة؛ لأنه إذا كان الكافرون يُحجبون عن رؤيته عقوبةً لهم، فمعنى ذلك أن المؤمنين يرونه جائزة لهم، خلافاً **لقول المعتزلة الذين يقولون:** إن الله محجوبٌ عن الجميع، فلا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة^(٢)، **فيقال لهم:** ما فائدة أن يذكر الله أنه قد حجب الكافرين عن رؤيته.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (١٦)، وهذا هو النوع الثاني من العذاب الموجه إلى الكفار، وهو: العذاب الحسي في النار، فهم داخلون إلى الجحيم على سبيل التخليد فيها يحترقون، من صلي الشيء إذا أحرقتة وأنضجته، والجحيم: اسمٌ من أسماء النار، سُميت كذلك لشدة اشتعالها وشدة حرها،

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦١).

(٢) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري (١٤)، والملل والنحل، للشهرستاني

(١/ ٨٩).



إضافة إلى النوع الأول، وهو: العذاب النفسي لهم باحتجاب الله عنهم وعدم رؤيتهم له، وهو أمر شديد على نفوسهم، فلا قيمة لهم عند الله، بل هم مُهانون ومحجوبون عن رؤيته.

ثم قال الله: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧) ثم يُبَكَّتُونَ وَيُؤَبَّخُونَ بعد أن يدخلوا النار، ويقال لهم: أنتم كنتم تقولون: لا يوجد بعث ولا يوجد نار، فهذا هي أمامكم وأنتم تذوقون عذابها، وهو نوعٌ من العذاب النفسي لهم يتم عن طريق التوبيخ.!! وهكذا تنتهي قصة المكذبين في الدنيا والآخرة.

ومن طريقة القرآن: أنه إذا ذكر أهل الباطل وعقابهم؛ ذكر أهل الحق وجزاءهم؛ ولذا عقب هنا بوصف حال المؤمنين، **فقال:** ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ﴾ (١٨)، **كلا:** هنا بمعنى حقاً^(١)، وتصلح أيضاً بمعنى حرف ردع وزجر^(٢)، **والمعنى:** ليس ما سبق عامّاً لكل الخلق، بل هو خاصٌّ بالكافرين، **وأما المؤمنون** فلهم شأنٌ آخر، ودارٌ أخرى، وجزاءٌ آخر، وسماهم أبراراً لكثرة طاعاتهم وعباداتهم، ولفظة عليين مأخوذة من العلو وهو المكان المرتفع، **فقليل هو:** عند سدرة المنتهى^(٣)، **وقيل:** في السماء السابعة^(٤)، **وقيل:** في مكانٍ مُرتفع يتناهى ارتفاعه إلى حيث يشاء الله^(٥).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/٢٦٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/٢٠٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/٢٩٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/٢٩١).

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/٢٦٢).



ويمكن الجمع بين هذه الأقوال كلها، كما قلنا في سَجِّين، فنقول: إن عليين؛ معناه العلو والسعة والارتفاع والشعور بالسعادة، والشعور بالمكانة عند الله سبحانه وتعالى، وسَجِّين: معناه الضيق والشدة، والسفول، والشعور بالمهانة، وبذلك يتضح لنا مكان ومكانة الفريقين.!

ثم قال أيضاً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ﴾، **السؤال** يفيد التعظيم والتهويل، كما سبق.

ثم قال: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾، **أي:** مختومٌ بأعمالهم، وفيه علامةٌ بأنهم صالحون ومكتوبٌ فيه حسناتهم.

ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهذه لفظةٌ زائدةٌ على اللفظ الذي وصف به كتاب الفجار، فكتاب الفجار لا عبرة به عند الملائكة، ولا يلتفتون إليه، ولا يحضرون عنده لما يحتويه من قبائح!! بل لا يصعد كتابه ولا روحه إلى السماء، بل ترد وترمى في سجين، وهو نوعٌ من الاحتقار والذل له بسبب كفره!، أما كتاب المؤمنين الصالحين الأبرار، فإنه يحضره كل ملكٍ مُقَرَّبٍ في السموات السبع، ويمر من عندهم ويرون ما فيه.!!

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، فالأبرار ستكون أرواحهم بعد الموت في البرزخ في نعيمٍ إلى أن يتم البعث، ثم بعد البعث تجتمع الأرواح والأجساد، ويدخلون الجنة ويكونون في نعيمٍ، ونُكِرَ النعيم لعظمته وكماله وتعدد أنواعه، ثم وصف بعض أحوالهم في هذا النعيم.



فقال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٣)، **الأرائك:** هي الأسرة المرتفعة التي عليها ستورٌ مرخاةٌ، وهي التي يجلس عليها الملوك، وأطلق لفظ: ينظرون ولم يذكر معموله؛ ليشمل كل أنواع النظر في الجنة، ينظرون في بعضهم بعضاً، ينظرون إلى نسائهم، إلى غلمانهم، إلى قصورهم، وينظرون إلى وجه الله الكريم، وهذا أشرف النظر وأكمل، ولعله هو المقصود هنا؛ لأن الآية التي بعده تدل عليه، وهي قوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤)، **نضرة النعيم، هي:** السرور والجمال وآثار النعمة التي في وجوههم وابتساماتهم وفرحهم بعد رؤيتهم لربهم، **كما قال:** ﴿وَجُوهٌ يَأْضُرُّهُ﴾ (٢٢) **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣)** [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة نظر المؤمنين لربهم في جنات النعيم^(١)، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن ينظر إلى وجه الله الكريم في جنات الخلد!

ثم قال: ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٥)، **الرحيق المقصود به هنا** عَصَارَةُ الخمر الطازجة المختومة، **ومعنى مختوم:** أي رحيقٌ معصورٌ ثم خُتم عليه بختمٍ فلا يُفتح إلا عند الشرب، وهو مرتبةٌ عليا من الشراب، وإلا فهناك نهرٌ من خمرٍ، ولكن فرق بين أن تشرب من النهر أو أن تشرب من وعاءٍ مغلقٍ ومختومٍ تفتحه بنفسك.

ثم وصفه بقوله: ﴿خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ (٢٦)، **أي:** نهاية الشراب يكون بطعم المسك، وحتى يبين لنا الفرق بين شراب الدنيا وبين شراب الآخرة، فإن شراب الدنيا غالباً يكون في آخره شوائب تبقى في أسفل

(١) رواه البخاري: (٤٤/٦)، برقم (٤٥٨١)، ومسلم (١/١٦٧)، برقم (١٨٣) عن أبي سعيد



الكأس، وهذه الشوائب في الغالب لا تُشرب، أما شراب الآخرة؛ فآخره يكون أطيب من أوله، بل حينما تنتهي من شربه تتذوق وتشم رائحة المسك مما يدل على عظمة هذا الشراب ورتبته.

ثم عقب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي:

من أجل هذا النعيم وأسباب الوصول إليه؛ فليتنافس المتنافسون، فمن أراد أن يصل إلى هذا النعيم في الآخرة؛ فعليه أن ينافس غيره على العبادة والطاعة من الآن، وتقديم الجار والمجور يفيد حصر التنافس المشروع فيما بعده، وهو التنافس على درجات الجنة ونعيمها، وهو المطلوب من كل مسلم، وفيه إشارة إلى تحقير أمر الدنيا والتنافس عليها.!!

ثم ذكر باقي أوصاف الشراب فقال سبحانه: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧)، أي: أن هذا

الشراب يُمزج من عين اسمها تسنيم، وهي: عينٌ عاليةٌ مكانةً ورتبةً ومذاقاً في الجنة، **وسُميت بتسنيم؛** من سنم الشيء، إذا ارتفع وعلا، ومنه سنام الجمل، وهو الجزء المرتفع عن ظهره، حيث يؤخذ منها قليلٌ من الماء ويُمزج بشرابهم به، وهو شراب الطبقة الثانية من أهل الجنة، وهم المؤمنون أصحاب اليمين.

ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨)، المقربون؛ هم السابقون

وأصحاب المرتبة الأولى من أهل الجنة، وشرابهم كله من هذه العين المرتفعة في مكانها ومكانتها، حيث يشرب منها المقربون صرفاً دون أن يُمزج لهم ماؤها بغيره كما يفعل غيرهم!، أو أن الباء في لفظ (بها) للملابسة، أي: أن أهل الجنة يشربون الرحيق، وهم مجتمعون حول هذه العين.!!



قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾^(١)، هذا

هو المقطع الأخير من سورة المطففين، وقد جاء ليبيّن حال ووصف ما كان عليه الكفار والمكذبون المجرمون في الدنيا، وكان هذا هو موقف كفار قريش مع المؤمنين في مكة، فقد كان كبار القوم في بداية ظهور الإسلام على الكفر والتكذيب، وأغلب المؤمنين في مكة كانوا من المستضعفين، فقد كانوا إذا مروا بالمؤمنين وهم يصلون أو يقرأون القرآن أو يتعبدون لله سبحانه وتعالى؛ يسخرون منهم ويضحكون عليهم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾^(٢) أي: وإذا مرّ المؤمنون من بين يدي الكفار، وهم جالسون في ناديهم، فإنه يحصل الغمز في هؤلاء المؤمنين من قبل الكفار المجرمين، والغمز هو حركة بطرف العين، أي: ينظر بعضهم إلى بعض؛ فيحرّك نظره على سبيل الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين والتندر بحالهم.

قال: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾^(٣)، وفي قراءة^(١): فاكهين، أي: متنعمين، أو تكون من الفكاهة، وهو الضحك والتندر، والمعنى: وإذا رجع هؤلاء الكفار بعد فعلهم هذا مع المؤمنين إلى أهلهم، رجعوا متنعمين بما هم عليه من النعم، أو رجعوا فرحين بما قاموا به من أذية للمؤمنين، وكل واحد يذكر قصته التي فعلها مع المسلم المستضعف لمن حوله وهم يضحكون وينبسطون بفعله!!، وهذا في الحقيقة هو واقع المفسدين حتى اليوم؛ فإنهم يفعلون هذه الأفاعيل مع بعض الناس؛ فإذا اجتمعوا قص كل واحد قصته،

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤١٨).



لِيُخْبِرَ إِخْوَانَهُ بِمَا فَعَلَ بِالْآخَرِينَ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى الضَّحْكِ وَإِلَى الْإِنْبَسَاطِ بَيْنَهُمْ، أَوْ تَكُونَ فَاكِهِينَ مِنَ التَّفَكُّهِ، وَهُوَ الْحَدِيثُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ وَهُمْ غَائِبُونَ، وَلِذَلِكَ تَسْمَى الْغِيْبَةُ فَاكِهَةً مَجَالِسُ أَهْلِ السُّوءِ، فَإِنَّهُمْ يَتَفَكَّهُونَ بِالطَّعْنِ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ وَالْكَلَامِ فِيهِمْ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ كُلِّ مَا سَبَقَ مِنْ مَعَانٍ؛ فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُنْعَمِينَ، وَيَضْحَكُونَ بِمَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا يَطْعَنُونَ فِي أَعْرَاضِ الْآخَرِينَ عَلَى سَبِيلِ الْغِيْبَةِ لَهُمْ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾، وَإِذَا رَأَى الْكَفَّارَ الْمَجْرُمُونَ الْمُؤْمِنِينَ حَكَمُوا عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ؛ سَبَحَانَ اللَّهِ! بِأَيِّ مِيزَانٍ يَزَنُونَ الْهَدْيَ وَالضَّلَالَ، كَيْفَ تَرَى مُؤْمِنًا يُصَلِّي وَيَذْكُرُ اللَّهَ، فَتَقُولُ: هَذَا ضَالٌّ؟! إِنَّهُ مِيزَانٌ مَقْلُوبٌ!! وَرِثُوهُ مِنْ عَادَاتِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَدِينِهِمُ الْبَاطِلَ، فَعِنْدَمَا يُقَارَنُ مَا يَفْعَلُهُ هَذَا الْمُؤْمِنُ مِنْ عِبَادَةٍ وَطَاعَةٍ، وَبَيْنَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَقَوْمُهُ مِنْ انْحِرَافٍ وَشُرْكِ وَفَسَادٍ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ عَلَى هَذَا الْمُؤْمِنِ بِالضَّلَالِ، لِمُخَالَفَتِهِ لِدِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَلِذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ أُطْلِقَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ صَبَأُ، وَالصَّبَائِ هُوَ الَّذِي مَالَ عَنْ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ وَانْحَرَفَ عَنْهُ، فَهَذَا هُوَ مِيزَانُ الْكَفَّارِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالضَّلَالِ!!

فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ (٣٢)، أي: هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ الْمَجْرُمُونَ لَيْسُوا بِمُؤَكِّلِينَ بِالْحُكْمِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا بِحَفِظِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَا بِتَقْيِيمِ سُلُوكِهِمْ؛ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ، وَلَكِنِهَا انْتِكَاسَةُ الْفَطْرَةِ وَانْقِلَابُ الْمَوَازِينِ؛ أَنْ يَتَحَوَّلَ الضَّالُّ الْمُنْحَرِفُ إِلَى حَاكِمٍ وَمُقَيِّمٍ لِلْمُؤْمِنِ



الصالح الموحد!!، وهذا يدل على أن المتغلب القوي هو من يحكم على المستضعف، فقد كانت السلطة والأمر والأغلبية بيد الكفار؛ وكانوا هم الذين يحكمون على المؤمنين بالضلال والانحراف، ولما قوي الإيمان وانتشر وصار أهله أقوياء؛ صار الحكم للمؤمنين، ولذلك ظهر النفاق في المدينة ولم يظهر في مكة، فصار الحكم الواسع المؤثر في القوم هو الإسلام فلا بد من إظهاره!!.

ثم قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤)، أي: في يوم القيامة يتغير الحال، وعبر هنا بالفاء التي تُفيد التعقيب دون تراخٍ، فتطوى مراحل الحياة الدنيا في لحظاتٍ وألغى عمل سنواتٍ طَوَالَ قضاها الكافرون في غمز المؤمنين!! فالحال في الدنيا كان الكافر يضحك من المؤمن استهزاءً، ومرت الأيام وانقلبت الأحوال؛ فنعم المؤمن وعذب الكافر، فصار المؤمن يضحك من حال الكافر ومصيره في النار، وسماهم في الدنيا أثناء غمزهم للمؤمنين مجرمين؛ لتعلق أثر فعلهم القبيح بالمؤمنين، وهنا أطلق عليهم اسم الكفر؛ لأن كفرهم بالله واليوم الآخر، هو سبب خلودهم في النار.

وقوله: ﴿يَضْحَكُونَ﴾، فضحك المؤمن من الكافر يوم القيامة؛ إنما يكون جزاءً وفاقاً، حيث كان الكافر يضحك على المؤمن في الدنيا، وشتان بين الحالين، بين من يضحك وهو جالس على حجرٍ، لأن قريش لم يكن لديهم أرائك، وأحسنهم حالاً من يجلس على قطعةٍ من الجلد أو من الحصير على رءائه، وبين من يضحك وهو على أريكته في مكان التنعم والرفعة وراحة النفس والبال!!.



ثم قال في وصفهم: ﴿عَلَى الْأَرْأْيِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٣)، ينظرون إلى ماذا؟، قيل:

ينظرون إلى الكافر وهو يُعَذَّب ويتألم من أجل أن ترتاح نفسه ويذهب ما فيها من آثار ظلم هذا الكافر الذي كان يؤذيه في الدنيا^(١)، **وقيل:** ينظرون إلى وجه الله، فهو أعظم نعمة للمؤمنين في الجنة^(٢)، **وقيل:** بل ينظرون فيما آتاهم الله من النعيم^(٣)، **والحقيقة** أن حمل اللفظ على العموم أولى حتى يشمل كل ما سبق، فهم ينظرون إلى الكفار نظرة ازدراء، وينظرون إلى ما أعده الله لهم من النعم، وينظرون إلى الله، فيزدادون نضرةً وجمالاً وارتياحاً!!

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤)، أي: هل جُوزِي

الكفار على أعمالهم التي عملوها في الدنيا بالعذاب الذي يجدونه في الآخرة؟! **الجواب:** نعم؛ لأن الله لا يظلم أحداً، فما حصل لهم من العذاب، إنما هو جزاءً على أعمالهم.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١ - بيان خطورة التطفيف في الكيل والوزن وسائر المعاملات.
- ٢ - بيان خطورة المعصية على القلب وأثرها في فساد وانحرافه.
- ٣ - أن الله حجب الكافرين عن رؤيته عقوبةً لهم، وأن جائزة المؤمنين هي:

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٤).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٩١٦).



النظر إليه ورؤيته، سبحانه وتعالى، في دار كرامته.

٤- أن المتغلب هو من يحكم على المستضعف غالباً، ويقيم سلوكه بناءً على مذهبه.

٥- أن الجزاء في الآخرة يكون من جنس العمل في الدنيا.



تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ۝٦ فَاَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝١٤ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَا أَقْسِمُ بِالْشفَقِ ۝١٦ وَالْإِلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾.

شخصية السورة:

سورة الانشقاق؛ سورة مكية^(١)، ومقصدها العام بيان علامات قيام الساعة، ورجوع الخلق إلى ربهم وانقسامهم في عرصات القيامة إلى مفلحين وهالكين، وجاءت في الترتيب بعد المطففين، والمناسبة بينهما: أن في نهاية سورة المطففين ذكر الله فيها جزاء الكفار، ثم جاءت سورة الانشقاق لبيان موعد ذلك الجزاء

(١) ويقال: سورة انشقت، وهي مكية بلا خلاف، ينظر: روح المعاني للألوسي (١٥/٢٨٦).

وأنه سيكون في يوم القيامة الذي يأتي بعد قيام الساعة وحصول علاماتها الكبرى من انشقاق السماء ومد الأرض.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١)، أي: تشققت، وتصدّعت، للإذن بخراب الكون، والمقصود بها السماء المعروفة، وهو ظاهر السياق، وقال بعضهم: تشقق السماء الجديدة التي بُدّلت؛ لنزول الملائكة^(١) منها ليقفوا بين يدي الله صفًا واحدًا.

وقوله: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٢)، أي: استمعت وأطاعت ونفّذت أمره، كما نفّذته عند الخلق، كما في قوله: ﴿أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَحُقَّتْ﴾ (٣)، أي: وحق لها أن تسمع لربها، وأن تستسلم وتذعن وتطيع أمره، فلا أحد في هذا الكون يملك أن يعصي الله، أو يتمرّد على أمره، وفي هذا تنبيهٌ للعصاة من العباد الذين يخالفون أمر الله ويعصونه؛ وقد خلقهم الله وأعطاهم السمع والبصر والعقول، ثم أمرهم فلم يطيعوه، بينما أطاعته الجمادات الكبيرة العظيمة مثل السموات والأراض.

ثم قال: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (٤)، ويأمر الله سبحانه وتعالى يوم القيامة الأرض أن تمتد حتى تتسع للخلق أجمعين، فإن هذه الأرض لو بقت كما هي عليه في خلقها الآن لن تسعَ الخلق كلهم حين يُبعثون يوم القيامة من آدم إلى آخرهم؛ ففيها جبالٌ وأوديةٌ ومُنْعَطَفَاتٌ، وفيها مياهٌ وبحارٌ، أما أرض يوم القيامة

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/٤٥٦).



فتمد، **كما في قوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾** [طه: ١٠٧]، فتكون كما جاء في الحديث: "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءٍ عَفْرَاءٍ، كَقُرْصَةِ النَّقْيِ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ"^(١)، وقُرْصَةُ النَّقْيِ؛ هُوَ قُرْصُ خُبْزِ الْبُرِّ، **أي: دائرية مُستوية** ليس فيها مكانٌ مرتفعٌ ولا منخفضٌ، **وهذا المد يكون على وجهين: مد المكور** فينبسط، ثم يأمرها الله أمرًا آخر فتزداد اتساعًا وامتدادًا لتكون أرض المحشر، وتكون دائرية لا عِوَجَ فيها ولا أمتًا؛ فلا يوجد فيها مكانٌ للاختباء!!

وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [٤]، ومن آثار الامتداد إخراج ما في بطن الأرض وإلقاؤه، وهو أمران: إما الأموات كما في قوله **﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾** [الانفطار: ٤]، **وإما إخراج الكنوز** التي في باطنها، **كما في قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا﴾** [الزلزلة: ٢]، فإنها أيضًا تُلقِي بها ويرأها الناس؛ فيستغربون منها كيف تقاتلوا على شيءٍ ثم لم يصلوا إليه، وإذا به يُنْثَرُ يوم القيامة بين أيديهم!! وسواء قلنا: الأموات أو الكنوز أو هما معًا، فلا تعارض بينهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [٥]، **أي: استمعت وأطاعت ربها، وحُق لها أن** تسمع وتطيع ولا تُخالف أمر الله.

وجوابُ الشرط، محذوف يُفهم من السياق، وتقديره: أن البعث والنشور كائنٌ لا محالة، **وقيل: بل مذكورٌ في قوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾**، بعد أن تنشق السماء وتمتد الأرض، **وأن قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾**، جملةٌ

(١) رواه البخاري (٨/ ١٠٩)، برقم (٦٥٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠)، برقم (٢٧٩٠)، عن سهل بن



اعتراضيةً للبيان^(١)، وعلى كلا القولين فإن جواب القسم يتعلق بالبعث والنشور، ولا تعارض بينهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَقِيهِ﴾^(٦)، المقصود بالإنسان

هنا جنس الإنسان، الكافر والمؤمن، والذكر والأنثى، وكادحٌ: معناه كادحٌ في عمله وباذلٌ جهده ونشاطه فيه، أو أنت أيها الإنسان مُعد للكدح، وهو العمل والنشاط مُطلقاً، في باب الخير أو في باب الشر، **قال** صلى الله عليه وسلم "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها"^(٢)، فهذا كادحٌ في الخير، وذاك كادحٌ في الشر، **وفي الحديث:** "أصدق الأسماء حارثٌ وهمام"^(٣)؛ لأنهما صفتان موجودتان في تركيبة الإنسان وينطبقان على حاله، فهو يعمل، ويهم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَقِيهِ﴾، فيها بيان الغاية والنهاية وتوكيدٌ للعمل، **أي:**

أنه مستمرٌ في الكدح طيلة حياته، والفاء تعقيبيةٌ، **والمعنى:** فملاقي الله؛ فيحاسبه، أو ملاقي عمله في صحائفه، **والراجع:** الأول؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وهو لفظ الجلالة، وسيلقي عمله تبعاً لذلك، كما سيأتي في الآيات التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَهُ، يَمِينَهُ﴾^(٧)، هذا تقسيمٌ للعموم الأول،

وبيانٌ لأصناف الناس في الآخرة؛ بناءً على ثمره كدحهم وأعمالهم في الدنيا؛ فمن

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٩).

(٢) رواه مسلم: (٢٠٣/ ١)، برقم (٢٢٣)، عن أبي مالك الأشعري.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٩٤)، (١/ ٢١٤) وإسناده صحيح.



كان عمله في الخير والطاعة؛ فسيُعطى صحيفته في يمينه، ومن كان عمله في الشر والمعصية؛ فسيُعطى صحيفته في شماله أو من وراء ظهره، **فبدأ بالقسم الأول:** وهو الذي يُعطى صحيفته وكتابه فيقبضها بيمينه، وهي علامة على البشري.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)، **أي:** سيكون حسابه يسيرًا، **والحساب اليسير:** هو العرض فقط، كما جاء في حديث عائشة، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، لما سألت النبي، **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، عن ذلك، فقال: "إنما هو العرض، فمن نُوقِش الحساب عُذِّب" (١)، حيث يُدني الربُّ سبحانه وتعالى عبده المؤمن، فيقول: عبدي عملت كذا وكذا، حتى إذا ظن أنه هالكٌ، قال: "سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم" (٢)، فهذا هو الحساب اليسير، يعني: السهل، الذي ليس فيه أي مناقشة.

وقوله: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩)، **أي:** بعد أن يكمل الحساب ينطلق إلى أهله في الجنة سريعا، يرافقه السرور والفرح بهذا الجزاء، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المؤمن أهلا في الجنة، يكونون في انتظاره، ومستعدين لاستقباله، **وفي الحديث:** "ولأحدكم أعرف بقصره في الجنة منه بيته في الدنيا" (٣).

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْكِنَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠)، **هذا هو الصنف الثاني من الناس، وهو الذي يُعطى كتابه من وراء ظهره، وهي علامة على الشقاء، قيل:** إن الكتاب

(١) رواه البخاري (٣٢/١)، برقم (١٠٣)، ومسلم (٢٢٠٤/٤) برقم (٢٨٧٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٨/٣)، برقم (٢٤٤١)، ومسلم (٢١٢٠/٤)، برقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، (١٢٨/٢)، برقم (٢٤٤٠)، عن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.



يُؤْتَى به إلى شماله، ولكن شماله تُعْطَفُ إلى خلفه، احتقارًا وأذيةً له^(١)، وقيل: بعض الناس يُعْطَى كتابه بشماله، وبعض الناس يُرمى كتابه وراء ظهره^(٢)، ولا تعارض بين تلك الأقوال، فكلها علاماتٌ تدل على شقائه، وأنه كان كادحًا في الدنيا في عمل الشر والباطل.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾^(١١)، هذا وصفٌ لحاله عند استلامه لكتاب أعماله، الممتلئ بالسيئات والمعاصي التي ستقوده إلى النار، والعياذ بالله، فعندما يراها يصيح ويدعو على نفسه بالثبور والهلاك، **فيقال له ولأمثاله:** ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤]، فلا فائدة من ذلك، ثم بين الله مصيره **فقال:** ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾^(١٢)، أي: ويدخل نار السعير في جهنم، فيهلك فيها ويحترق.

ثم بين الله سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾^(١٣)، أي: كان في أهله في الدنيا مسرورًا بفعل الكفر والقبائح، وكان يستخدم نعم الله في معصيته ويفرح بذلك، ولا يمكن أن يجتمع السرور بالمعاصي والتلذذ بها في الدنيا، والسرور في الآخرة، بل ينقلب حاله يوم القيامة غمًا وهمًا وثبورًا، وهذا السبب الأول لثبوره.

ثم ذكر السبب الثاني، فقال: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(١٤)، أي: وكان في الدنيا أيضًا مكذبًا بالبعث والنشور، وشاكًا أنه لن يرجع إلى الله؛ فيحاسبه، فرد الله عليه هذا الظن الباطل بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾^(١٥)، بلى سترجع، وستُبْعَثُ

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/٣١٥)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/٢٢٣).

(٢) ينظر: تفسير السمعاني، (٥/٢٦٦).



وتُحاسب، فلم يخلقك الله عبثاً، ولن يتركك سدىً، والعبارة تفيد التهديد والوعيد، فالله تعالى يراقب حاله ويرصد أفعاله من بلوغه إلى موته، ولم يغب عن بصر الله لحظةً، فكل شيءٍ مرصودٌ عليه؛ ويوم القيامة يُجازى عليه، فالله سبحانه بصيرٌ به في حياته، وبعد بعثته ورجوعه إليه.

ثم خُتمت السورة بقوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَفَقِ﴾ (١٦) قال بعضهم: (لا) هنا، بمعنى: بل، وهي حرفٌ إضرابٍ عن ما سبق، كأنه يقول: ليس صحيحاً ما ظنه ذلك الإنسان من أنه لن يُبعث، بل أقسم بكذا^(١).

وقال آخرون: لا، هنا للتوكيد^(٢)، وليست زائدة، كما يقول البعض^(٣): فلا يوجد في القرآن حرفٌ زائدٌ، **والمعنى: أقسم بالشفق، والشفق: هو الحمرة التي** تكون عند غروب الشمس، وبها يدخل المغرب، وينتهي وقته بانتهاء الشفق الأحمر، **وقيل: أقسم بالليل كله الذي الشفق أوله، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل^(٤)، والصحيح الأول^(٥)، وهو قول جمهور المفسرين، لأنه أقسم بالليل في** الآية التي بعدها.

فقال: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧)، فأقسم الله هنا بشيئين: بالليل؛ وهو دخول

(١) ينظر: تفسير السمعاني (٥/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ٣٣٠).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٤٥٨).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٣١٨).

(٥) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤٢١).



ظلمة الليل كاملة، وهي التي تأتي بعد الشفق مباشرةً، وما جمع الليل واحتواه من كل من يعيش فيه من الحيوانات وسائر المخلوقات، فإنه إذا جاء الليل فكل مخلوقٍ يأوي إلى مكانه، ويتهيأ لظلمة الليل ويسكن خلاله عن الحركة، فهو قسمٌ بالليل وبكل المخلوقات التي يحتويها الليل.

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انْسَقَ﴾ (١٨)، أقسم بالقمر إذا اجتمع واكتمل نوره، وهو الكوكب الذي يظهر في السماء هلالاً صغيراً في أول الشهر ثم يكبر حتى يكتمل نوره ليلة أربعة عشر أو ليلة خمسة عشر.

ثم بعد جاء جواب القسم في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩)، واختلف المفسرون في معناها على أقوال:

الأول^(١): أي: لتعيشن أيها الناس حالاً بعد حالٍ، فأحوالكم متعددة، تبدأ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم بعد ذلك يصيرون خلقاً كاملاً، ثم يولد الجنين ثم يكون طفلاً ثم يشب ثم يكبر ثم يشيب، ثم يضعف ثم يموت، فهذه أطوار حياة الخلق، وكذلك الحال في تقلب الأزمان، وتنوع الأماكن التي يعيش فيها الخلق، بل حتى قلوب الخلق وجوارحهم تتقلب من حالٍ إلى حالٍ؛ فتقبل على الله وتُدبر عنه، وتطيع الله وتعصيه، وتقرب منه وتبتعد عنه، فكل هذه المعاني داخلة في معنى الآية.

والقول الثاني^(٢): لتبعن سنن من كان قبلكم، فما فعله اليهود والنصارى

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٣٢٢/٢٤).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤٢٢/٤).



ستفعلونه، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه، كما في الحديث^(١).

والقول الثالث^(٢): أن هذه إشارةٌ للنبي ﷺ بأنه سيركب طبقاً عن طبقٍ عند العروج به إلى السماء فيمر بطبقاتها السبع، والراجع هو القول الأول؛ لأنه عامٌ، فيشمل كل ما يتعلق بالخلق، والحياة التي يعيشها الإنسان حتى يموت!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، السؤال استنكاريٌّ، وهو مُوجَّهٌ للكفار، والمعنى: ما الذي منعهم من الإيمان بمحمدٍ ﷺ، وما جاء به من الحق، وقد اتضحت لهم البراهين والحُجج بأن الله هو الخالق القادر الموجد الذي يستحق وحده العبادة؟!، والجواب: منعهم من الإيمان الكبير والحسد واتباع عادات الآباء والأجداد، مع اعترافهم بأن القرآن حقٌّ، وأن محمداً ﷺ صادقٌ، وفي قصة أبي جهلٍ تبيانٌ لسبب كفرهم، حيث قال: كنا نحنُ وبنو عبد منافٍ في تنافسٍ، حتى إذا كنا كفرسي رهانٍ، قالوا: منا نبيٌّ، ومن أين لنا نبيٌّ، والله لا نؤمن به^(٣)، فالسبب هنا واضحٌ وهو التنافس على الصدارة، فإما أن يكون لنا نبيٌّ مثلهم، وإلا فلا نؤمن به!!

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾^(٤)، وهذا استكمالٌ للسؤال السابق، فلماذا لم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، وما جاء به من الحق، ولماذا لا يسجدون إذا سمعوا القرآن؟! وهم أهل الفصاحة وأرباب البلاغة، وقد

(١) رواه البخاري: (١٦٩/٤) برقم (٣٤٥٦)، ومسلم: (٢٠٥٤/٤)، برقم (٢٦٦٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢٧٨/١٩).

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (٣١٦/١).



أعجزهم القرآن ببلاغته وفصاحته، فالسؤال استنكاريٌّ تعجبِيٌّ من حالهم، والواجب عليهم عند استماعهم إلى آياته أن يخضعوا لبلاغته، وأن يؤمنوا به!!، والسجود، **هنا له معنيان^(١): إما السجود الحسي:** وهو سجود الأعضاء، **وإما السجود المعنوي:** وهو الاستسلام والخضوع لأمر الله والإيمان بالقرآن الذي فيه الحجج والبراهين والإعجاز، وكلاهما مرادٌ من لفظ الآية!

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢)، لكن الكفار طبعهم التكذيب والجحود، مهما جاءتهم الحجج والبراهين؛ لأن الله لم يُرد أن يهديهم وطبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون!

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣)، والله سبحانه وتعالى، مُطلعٌ على ما يجمعونه في قلوبهم من الأفكار والخواطر السيئة، فالقلب مثل الوعاء، والكافر يجمع في قلبه الظنون والخواطر الباطلة، والله مُطلعٌ عليها وعالمٌ بها.

ثم ختم قصتهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤)، البشرى في الأصل: تكون في الخير، ولكنها جاءت هنا على سبيل التوبيخ والتأنيب لهم، فالعذاب الأليم ينتظرهم، وهو عذاب جهنم، وهو خاصٌ بالكفار، لأن الله سبحانه وتعالى استثنى منه المؤمنين.

فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥)، فمن هذه صفاته فليس مبشراً بالعذاب الأليم، بل مُبشراً بالأجر غير الممنون، وهو الجنة،

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤٢٢).



وغير ممنون معناه: الذي لا ينقطع وليس فيه نقص ولا أذية، وهذا لا شك وصف الجنة وما فيها، مما أعده الله جزاءً للمؤمنين فلا انقطاع فيه ولا نقص، ولا أذية فيه مطلقاً، فكل ما يتأذى منه، فلا يوجد منه شيء في الجنة، فلا يوجد في الجنة مخاطٌ ولا بولٌ ولا غائطٌ، ولا شيء من الروائح الكريهة؛ لأنها مما يتأذى منه الإنسان في الدنيا، وما يأكله أو يشربه أهل الجنة يخرج منهم رشحاً كرشح المسك!! كما في الحديث^(١)، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

فوائد وهدايات من السورة:

١- خضوع الكون لله، ومنه السماء والأرض، فمن باب أولى أن يخضع ويسمع الإنسان المكلف ولا يعصي ربه.

٢- طبيعة الإنسان أن الله خلقه كادحاً، يعمل ويسعى في كل حياته، إما في خيرٍ وإما في شرٍ، فانظر ما الذي تكدح فيه وتسعى فيه، فالنتيجة ستجدها عند البعث والنشور.

٣- من علامات السعادة يوم القيامة أن تأخذ كتابك بيمينك، ومن علامة الشقاوة أن تأخذه بالشمال أو من وراء الظهر.

٤- بعض الفرق المنحرفة مأثورٌ عنهم أنهم إذا مات فيهم الميت؛ يكسرون يده اليسرى عند الدفن؛ لأجل أن يقوم يوم القيامة وهي مكسورة فيمسك كتابه

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٣٢) برقم (٣٣٢٧)، ومسلم: (٤/ ٢١٧٩)، برقم (٢٨٣٤) عن أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



باليمين! مغالطةٌ حتى مع رب العالمين!!، ولا يعرفون أن هذه اليد المكسورة أو السليمة ستأكلها الدود، ويُبعث من جديدٍ، ولكن هكذا الاعتقاد الباطل.

٥- بعض العوام لما يدفن الميت يفتح يده، ويضع فيها بعض التراب؛ من أجل أن يُقابل الله بهذا التراب! بمعنى أنه خرج من هذه الدنيا ولم يأخذ منها شيئاً، وهذه اليد أيضاً ستأكلها الدود ولا يُمسك تراباً ولا هم يحزنون!!



تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ١١﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١٢﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٣﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ١٤﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٥﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٦﴾ فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ١٧﴾ هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٨﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٩﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ٢٠﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢١﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ٢٢﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٣﴾

شخصية السورة:

سورة البروج؛ سورة مكيةٌ بالاتفاق^(١)، ومقصد السورة، التركيز على إظهار قوة الله تعالى وإحاطته بالخلق وتوَعُّده للمتربصين بالمؤمنين بالعذاب الشديد^(٢).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣٦/٣٠).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٥٣/٢١).

قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ (١)، أقسم الله بالسماء صاحبة البروج، أي: المنازل (١)، وهي منازل الشمس والقمر، فالله سبحانه وتعالى قدّر للشمس والقمر منازل، وجعلها تجري في المنازل بحسابٍ مُعينٍ؛ ولذلك يجيء الليل والنهار، وتجيء الفصول الأربعة، وتعود السنوات، وتذهب الليالي والأيام بناءً على تلك المنازل.

ثم قال: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ﴾ (٢)، أقسم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، وسمي بهذا الاسم؛ لأن الله وعد أن يجمع الناس إليه، ويحاسبوا فيه.

ثم قال: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (٣)، وأقسم بالشاهد وهو اسم جنس لكل شاهد ولكل مشهود، لأنه ما من شيء إلا يكون فيه شاهدٌ ومشهودٌ، وما من قضية تُثار إلا يكون عليها شاهدٌ ومشهودٌ، وقد اختلف المفسرون في ذلك، فقليل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهد: يوم عرفة (٢)، وقيل: الشاهد محمد، والمشهود أمته (٣)، وقيل غير ذلك من الأقوال (٤)، والعموم والشمول أولى، فإن القسم بالشيء إشارةً إلى تعظيمه، وعندما يكون مطلقاً فالعظمة فيه أبلغ، فيدخل في ذلك كل من ذكر.

وجواب القسم محذوفٌ ويُستفاد من السياق، وتقديره، ليعاقب الله من فعل ذلك بالمؤمنين، أو إنكم مُعاقبون يا أهل مكة، كما عوقب غيركم من المكذبين (٥).

(١) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣٣٣/ ٢٤).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٢٩).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٢٣).

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٣٠٠).



ثم قال الله سبحانه: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودَ﴾ (٤)، هذا اللفظ يصلح أن يكون خبراً، أو يكون دعاءً، فعلى الخبر، **فمعناه:** أن الله أخبر عن موت أصحاب الأخدود، وهم المؤمنون الذين وُضعوا داخل الأخاديد واحترقوا فيها، ونُسبوا إليها لأنهم ماتوا فيها، وعلى سبيل الدعاء، **فيكون المعنى:** لعن وطُرد من رحمة الله الذين شقّوا الأخاديد وهم الكفار، فالكفار يُسمون أصحاب الأخدود؛ لحفرها وشقها، والمؤمنون يُسمون أصحاب الأخدود؛ لأنهم ماتوا بداخلها، فالمعنى يختلف بحسب الأسلوب.

ثم قال الله تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ (٥)، هذه الجملة بدل من التي قبلها، فكأن المعنى: قُتل الناس في الأخاديد التي هي النار، ففسّر الأخدود هنا بالنار، والأخدود في أصل اللغة، هو المكان المحفور المشقوق^(١)، ثم في هذا المكان المحفور المشقوق وُضع الحطب وأشعل فيه النار، فصار أسفل المكان المحفور ناراً مشتعلة، ولا تُسمى النار بذات الوقود إلا إذا كانت مشتعلة، فالوقود هو ما يشتعل، **كقوله:** ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] **أي:** سبب اشتعالها أو المادة المشتعلة فيها، هي الناس والحجارة^(٢)، فأوقدت النار أولاً بالحطب الذي جمعه الكفار حتى إذا صارت ناراً مشتعلة؛ قذفوا فيها المؤمنين، فاشتعلت أيضاً بأجسادهم.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ هُرِّعَتْهَا لِقَوْمٍ قُودُ﴾ (٦)، هذه العبارة، يُمكن أن

(١) ينظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها (٢/ ٤٥٣).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٠).



تُفسر أن المقصود بها المؤمنون، ويمكن أن تفسر أن المقصود بها الكافرون بناءً على ما سبق من تفسير لفظ (قُتل)، هل هو خبر أم دعاء.

فإن قلت: خبر عن المؤمنين، **فيكون المعنى:** إذ المؤمنون جالسين على هذه الأخاديد، حيث أجلسهم الكفار على النار، فاشتعلت بهم حينما قُذفوا فيها^(١).

وإن قلت: دعاء على الكفار، **فيكون المعنى:** أن الكفار جالسين حول الأخاديد يتفرجون على اشتعال النار بالمؤمنين داخل الأخاديد، والراجح هذا، وهو قول أكثر المفسرين؛ لأن السياق يقتضي ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾^(٧)، الضمير هنا عائد إلى الكفار، فلا بد أن يكون الضمير الأول للكفار؛ فتتحد مراجع الضمائر، وتكون متتالية ومتناسقة، **فيكون معنى الآية على الوجه الأرجح:** لعن وطُرد الذين شقوا الأخاديد وأوقدوا فيها النيران وجلسوا على شُرُفاتها ينظرون في المؤمنين وهم يحترقون في تلك الأخاديد الموقدة بالنار، وفي هذا إشارة إلى قُبْح وفساد وقساوة قلوب هؤلاء الكفار، وأن الرحمة والشفقة ذهبت من قلوبهم، فكيف يُلقون بطفلٍ أو امرأةٍ أو رجلٍ، ثم يقعدون ينظرون إليه وهو يحترق، وهم يستمتعون بذلك المنظر المؤلم؟!، مما يدل على أنهم قد بلغوا في القساوة أعلاها، ولم يعد لديهم رحمة ولا شفقة، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة إلا بعد أن يقع في الفجور والكفر والمعاصي التي تُذهب

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٨٥).



عنه الشعور بالرحمة والشفقة، **كما قال:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، فالكافر من كثرة إجرامه يُصبح قلبه قاسياً بل أشد قسوةً من الحجارة!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، بين هنا السبب الذي من أجله حفروا الأخاديد وأوقدوا فيها النيران وألقوا فيها المؤمنين، وهو أن هؤلاء المؤمنين لم يلحقوا بدين أولئك الكافرين، بل آمنوا بالله العزيز الحميد؛ فالخلاف بينهم عقدي، وهنا أمرٌ لا بد أن يُنتبه له، وهو أن أي خلاف بين فريقين أصله عقدي، فإن الحرب ستكون مُشتعلة وقوية وشديدة بين أهله؛ لأن الدافع عقيدة ودين، بخلاف الخلافات التي يكون منشأها دنيوياً، أو مصلحياً، أو سياسياً، فهذه تنتهي بانتهاء المشكلة، لكن أن تختلف مع غيرك بسبب الدين فهذا سيكون الخلاف كبيراً وعميقاً ومُستمرّاً حتى يترك أحدٌ منكما مخالفته للآخر ويلحق بدينه، وهؤلاء ما انتقموا من المؤمنين وعذبوهم هذا التعذيب، وفعلوا بهم هذا التنكيل إلا بسبب أنهم آمنوا بربهم سبحانه وتعالى ووحدوا الله العزيز الحميد، وأولئك القوم المجرمون المكذبون كانوا يعبدون غير الله.

واختلف في تحديد دين أصحاب الأخدود، والصحيح أنهم كانوا من النصارى المؤمنين الموحدين على دين عيسى^(١)، وأن الملك الذي أمر بقتلهم هو ذو نواس الحميري^(٢)، وكان على الكفر والشرك، وقد جاء تفاصيل قصة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١١٠ / ٣١).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٦٢)، وغيره.



أصحاب الأخدود من حديث صهيب، **أن رسول الله ﷺ قال: "كان ملك** فيمن كان قبلكم له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث له غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعده إليه وسمع كلامه وأعجبه، فكان إذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه، فإذا أتى أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال له: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الراهب أفضل أم الساحر؟ فأخذ حبرًا ثم قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي سائر الأدواء، فسمع جليس للملك، وكان قد عمي، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع؛ إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، إن آمنت بالله؛ دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك يمشي، وجلس إليه كما كان يجلس، فقال الملك: فلان من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك واحد، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجاءه بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل، وتفعل؟ قال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجاءه بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في



مفرق رأسه، فشق به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، ف قيل: ارجع عن دينك، فأبي، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبي، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى قوم من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور، فوسطوا به البحر، فلججوا به، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقدفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟، قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتك، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنني، فجمع الناس في صعيد واحد، ثم صلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، ثلاثًا، فأتي الملك، فقيل له: أ رأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحُذت، وأضرَم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأةٌ معها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال



لها الغلام: يا أمه اصبري، فإنك على الحق^(١).

وجمع بين اسميه العزيز والحميد لحكمة؛ وهي: أن معنى العزيز يُشعر بالقوة والعزة وأنه سيقبض منهم ويُعذبهم وينصر أوليائه عليهم، وقرنه بالحميد؛ الذي يشعر بأن فعله بخلقه محمود دائماً، ومن الفعل المحمود هنا، أنه يُمهّل العصاة والكفار لعلهم أن يتوبوا.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فالله العزيز الحميد هو صاحب الملك والتصرف في السموات وفي الأرض، وهو شهيد حاضر مُطلع لا تخفى عليه خافية، وفيه تطمين للمظلومين الموجهين، بأن الله شاهد ومطلع على ما حل بهم، ولن يضيع حقهم عنده سبحانه، بل سيقبض لهم من عدوهم، ويُعطيهم الجزاء الذي يستحقون.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، والآية عامة، يدخل فيها الذين فتنوا هؤلاء المؤمنين والمؤمنات في الأخاديد من أصحاب هذا الملك الكافر، ويدخل فيها كل من يفتن مؤمناً ومؤمنة في أي وقت وفي أي زمان، ككفار مكة الذين كانوا يفتنون المؤمنين الأوائل ويحاولون ردهم عن دينهم، كما حصل لبلال وعمار بن ياسر وغيرهم من المستضعفين، **وكان النبي ﷺ يمر على عمار وأهله وهم يعذبون ويقول لهم:** "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة"^(٢)، **والمقصود بالفتنة** عموم

(١) رواه مسلم، (٤/٢٢٩٩) برقم (٣٠٠٥).

(٢) ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/١٤٠)، وصحيح السيرة ص ١٥٤.



الابتلاء لإخراجهم من دينهم، **وإن كان أصل الفتنة في اللغة:** عرض الذهب على النار ليحترق فيخرج منه الخبيث ويبقى الطيب^(١)، فيكون معنى فتنوا في قصة أصحاب الأخدود: أحرقوا المؤمنين بالنار، وفي غيرهم مطلق الفتنة وهي: محاولة إخراجهم من دينهم بالقتل والتعذيب والأذية ونحوها، وقيد عقوبتهم بعدم التوبة، وفي ذلك بيانٌ لسعة رحمة الله تعالى بهؤلاء المجرمين الكفرة الذين آذوا عباد الله وفتنواهم، حيث فتح لهم باب التوبة، وأعطاهم الأمل في فضله، مع ما فعلوه من الإجرام، فإن تابوا تاب الله عليهم، وقد حصل ذلك لعددٍ غير قليلٍ من المشركين، **مثل:** خالد بن الوليد وأبي سفيان وغيرهم من المشركين الذين فتنوا المؤمنين وعذبواهم، ثم بعد ذلك أسلموا وحسن إسلامهم، فهؤلاء غير داخلين في هذا الوعيد، ولا تنطبق عليهم الآية، وأما من لم يتب ومات على الكفر؛ فالوعيد مُستمرٌّ في حقهم وعذابُ الحريق في جهنم ينتظرهم، وقد ذكر هنا عذاب الحريق من باب المشاكلة، **وقيل:** إن الله سبحانه وتعالى أذاقهم شيئاً من الحريق في الدنيا، فقد كانوا شهوداً على ضفاف وشُرُفات الأخدود التي اشتعلت بها النار، فاشتعلت النار بهم فأحرقت ثيابهم ووجوههم، والأول أرجح؛ لأن التهديد بعذاب الآخرة أشد وأنكى^(٢).

ولما حدثنا عن حال الكفار والمجرمين في الآخرة، لا بُدَّ أن يُلفت نظرنا إلى حال المؤمنين، وهذا من أساليب القرآن؛ أن يقارن حال الكفار والمجرمين ومصيرهم بحال ومصير المؤمنين، ليتضح للسامع الفرق.

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٥١٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٤٠ - ٣٤٢).



فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾،

الجنات هي الحدائق والبساتين الملتفة^(١)، ومن تحت أشجارها تجري الأنهار المتنوعة، وهذا يدل على عظم النعيم الذي فيه أهل الجنة، وسمي هذا النعيم بالفوز بالكبير؛ لنجاتهم من النار، **كما قال:** ﴿فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن قوته وسنته في أخذ الظالمين ومُعاقبة المكذبين، وإن أمهلهم بعض الوقت، **فقال سبحانه:** ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(١٣) **البطش معناه:** الأخذ بقوة^(٢)، **كما قال:** ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، **والمعنى:** أن أخذ ربك قوي للظالم المكذب، فالله يمهله ولكنه لا يمهله، فإذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ﴾^(١٣)، فهو سبحانه يخلق ابتداءً من العدم ويُعيدُ الخلق مرةً أخرى فيبعثهم، وفي هذا ردُّ على من يُكذب بالبعث والنشور واليوم الآخر، وقيل: كلما انتهى شعور الكافر وإحساسه بالألم بسبب موت جلده، أعاد الله جلده من جديد من أجل أن يذوق العذاب^(٣)، **كما قال:** ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، والقول الأول أولى، وهو قول جمهور المفسرين^(٤).

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٣٧/٢).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢٦٢/١).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/١١٤)، وهو عن ابن عباس.

(٤) ينظر: تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/٣٤٥)، زاد المسير في علم التفسير (٤٢٧/٤).



وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (١٤)، وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه كثير المغفرة لمن تاب وأناب ورجع إليه، ووصف نفسه بأنه الودود، **والودود من الود، وهو:** خالص الحب^(١)، **والمعنى:** المُحب لأوليائه، والمحبوب من أوليائه، **كما قال:** ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (١٥)، **أي:** صاحبُ العرش، والعرش خلقٌ عظيمٌ، **وفي الحديث:** "ما السموات السبع في الكرسي، إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"^(٢)، **أي:** كخاتم مرمي في الصحراء، فكم نسبة هذا الخاتم المرمي في الصحراء إلى الصحراء؟! لا شيء، **والمجيد، فيها قراءتان**^(٣)، **بالضم؛** اسمٌ من أسماء الله، **ومعناه:** ذو السعة في العظمة والمجد سبحانه، **وبالكسر؛** صفةٌ للعرش، **أي:** ذو سعةٍ وعظمةٍ كبيرة.

وقوله: ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ (١٦)، هذا وصفٌ لله تعالى، فما أراد فعله، **كما قال:** ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ما فائدة ذكر هذه الأوصاف المتعلقة بالذات الإلهية ما بين مغفرةٍ وودٍ ومجدٍ ومشيةٍ مُطلقةٍ؟

الجواب: في ذلك إشعارٌ للكفار بعظمة الله وبطشه؛ حتى يهابوه ويرجعوا

(١) ينظر: لسان العرب (٣/٤٥٣).

(٢) رواه ابن حبان برقم ٣٦١، عَنْ أَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة: ١٠٩.

(٣) تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/٣٤٦).



إليه، وإشعارُ للمؤمنين أنه وليهم وناصرهم، فاركبوا إليه وتوكلوا عليه!!

ثم قال: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧)، هل بلغك يا محمد خبر الجنود، والمقصود هنا الذين جندوا أنفسهم مع الباطل لمحاربة الحق، ثم بين من هم.

فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (١٨)، وهما نموذجان للجنود الذين حاربوا الحق، وكفروا بالله وكذبوا الرسل، أحدهم متقدم، وهم: ثمود، وقوم صالح، ومعروف عنهم أنهم كانوا أصحاب قوة وشأن، والآخر متأخر، وهم: فرعون وقومه، ولم يفصل في قصتهما هنا، بل أشار إليها إشارة، وقد فصل طريقة هلاكهما في سورٍ أخرى^(١).

ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٩)، أي: ومهما يكن من تذكير؛ إلا أن الكافرين الذين طمس على قلوبهم، ولم يُرد الله تعالى لهم الهداية؛ مُستمرون في التكذيب، بعد أن سمعوا الحقائق والبراهين والحُجج، ويطنوا أن الله يعلم بحالهم ولا يقدر عليهم؛ **فرد الله عليهم هذا الظن، بقوله:** ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠) **الإحاطة معناها:** الرصد والاطلاع على الشيء والقهر والسيطرة، فالله تعالى مُطَّلِعٌ على الكافرين وراصدٌ لأعمالهم، وقادرٌ على إهلاكهم، **كما قال:** ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١]، أي: أحاط بهم بقوته وقهره وقدرته وجبروته^(٢)، وهو نوعٌ من التهديد للكفار المكذبين، وتسليّةٌ واطمئنانٌ للمؤمنين بالله سبحانه وتعالى.

(١) وقد ذكرت قصة ثمود مفصلة في عدد من السور مثل: المائدة، الأعراف، وهود، الشعراء، وذكرت قصة فرعون مفصلة في: الأعراف، يونس، الإسراء، طه، وغيرها.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١١٦/٣١).



ثم ختم الله سبحانه وتعالى السورة بالحديث عن القرآن، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

﴿٢١﴾ وصف القرآن بأنه مجيدٌ، أي: الممجد ذو السعة في العظمة والمجد، وقد جاء هذا الوصف في حق الله سبحانه وتعالى، وجاء وصفاً للعرش، وهو أحد مخلوقاته العظيمة، ووصفاً للقرآن الكريم، كلام الله، والمعنى أن فيه من العظمة وسعة المجد والمعاني ما لا تحيط به العقول، فليس شعراً ولا سجعاً ولا قول كاهنٍ، بل هو قولٌ مجيدٌ من الله العزيز الحميد، وهو مسطرٌ ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ ﴿٢٢﴾، فالقرآن حُفظ في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي كتبت وحُفظت فيه مقادير السموات والأرض قبل أن يخلقهما، ومحفوظٌ من الخطأ والزلل، كما قال عنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وحفظه الله في صدور الخلق بعد أن أنزله على رسوله، ﷺ، فهو محفوظٌ من التبديل والتحريف، ومحفوظٌ من الزيادة والنقص، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد حاول أعداء الإسلام مراراً وتكراراً منذ نزوله إلى اليوم أن يُحرفوه، فلم يتمكنوا من ذلك، وبقي كتابُ الله محفوظاً مصوناً!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن الابتلاء للمؤمن يكون على قدر إيمانه، وأن إثبات سلامة الإيمان على سلامة الأبدان من عزائم الأمور.

٢- أنه يجوز لمن أكره أن يقول كلمة الكفر حتى ينجو من الهلاك، ويبقى الإيمان في قلبه، ولا إشكال في ذلك، وإنما تكمن الخطورة في أن يرتد ظاهراً وباطناً من أجل الدنيا؛ فيخسر -والعياذ بالله- الدنيا والآخرة.



٣- أن التوبة مقبولةٌ بشروطها، فمهما فعل الإنسان من الذنوب ثم تاب توبةً نصوحًا قبل الموت؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته ويبدّل سيئاته إلى حسنات.

٤- أن الله حفظ القرآن الكريم في صدور الخلق منذ أن أنزله على رسوله، فهو محفوظٌ من التبديل والتحريف، ومحفوظٌ من الزيادة والنقص، رغم ^{صلى الله عليه وسلم} محاولة أعداء الإسلام مرارًا وتكرارًا تحريفه، فلم يتمكنوا من ذلك، وبقي كتابُ الله محفوظًا مصونًا!!



تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ
۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِاهْزَلٍ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَآكِيدٌ كَيْدًا ۝١٦ فَمِهلِ الْكَافِرِينَ
أَمْهَلُهُمْ رُودًا ۝١٧﴾ .

شخصية السورة:

سورة الطارق؛ سورة مكية، بلا خلاف بين المفسرين في ذلك^(١)، والمقصود الذي دارت حوله السورة، هو إظهار رقابة الله سبحانه وتعالى النافذة، وقدرته البالغة في الخلق^(٢).

وابتدأت بالقسم، حيث أقسم الله، سبحانه وتعالى، **فقال:** ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾، السماء معروفة، وهي الجرم الذي نشاهده واضحاً بيئاً فوقنا، وأما الطارق فالمقصود به ما جاء بيانه في الآية الثالثة وهو النجم، وإنما أبهم تفسيره هنا لتعظيمه.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٦٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١ / ٣٧٠).

وقوله: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (٢)، وهو أسلوبٌ من أساليب التعظيم للشيء الغائب عنك، والمعنى: وما أعلمك يا محمد ما هو الطارق، وكل شيء قال الله فيه لنبيه: ﴿﴿وَمَا أَذْرَكَ﴾﴾، فقد أعلمه به، مثل قوله: ﴿﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾﴾ [الحاقة: ٣]، وقوله: ﴿﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾﴾ [القارعة: ٣]، فهذه الأسئلة التي بلفظ: ما أدراك، يأتي بعدها الجواب عنها، وإذا جاء السؤال له بلفظ: ﴿﴿وَمَا يُدْرِكُ﴾﴾، فالغالب أن لا يُخبره بجوابه^(١)، كما جاء السؤال به في أكثر من آية عن موعد الساعة.

ثم فسره له بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٣)، فالطارق؛ هو النجم الثاقب، وسمي بالطارق؛ لأنه لا يظهر إلا ليلاً، ومنه الحديث: "لا يطرق أحدكم أهله ليلاً"^(٢)، يعني: لا يدخل عليهم في الليل، لأن الطُّرُوق معناه الظهور المفاجئ في الليل^(٣)، وسمي بالثاقب؛ لشدة قوة ضوئه، فالثاقب: هو الذي يثقب الظلام^(٤)، بل قال بعض أهل العلم أنه خارج الأجرام السماوية ولذلك ضوؤه يثقب السموات السبع حتى يصل إلى الأرض، فيظهر نيراً قوياً واضحاً^(٥)، ثم اختلف فيه، هل هو الزهرة أم زُحل أم غيرهما من النجوم، وما دام أقسم الله به، فالقسم به دليل على عظمتها، فجعله اسم جنس لكل النجوم أولى، فيشمل كل النجوم شديدة الضوء.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٠٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده: (٣٧٧/ ٢٣)، برقم (١٥٢٠٣) وإسناده صحيح.

(٣) ينظر: تاج العروس (٦٦/ ٢٦).

(٤) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١١٧/ ٣١).

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٢٨)، وتفسير السعدي (ص: ٩٢٠)، وتفسير الألوسي

= روح المعاني (١٢/ ١٠٣).



وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (٤)، هذا جوابُ القسم، و(إن) هنا بمعنى: ما النافية^(١)، و(لَمَّا) بمعنى: إلا^(٢)، والمعنى: ما من نفسٍ منفوسة إلا وعليها حافظٌ يحفظها، وهل الحفظ يشمل جميع الأنفس؟ ويدخل في ذلك أنفس البشر، وغيرهم من الحيوان، أم هو خاص بالمكلفين فقط؟ قولان للمفسرين، فإن قنا: إن الحافظ هنا هو الله؛ فيشمل معنى النفس جميع المخلوقات الحية.

وإن قلنا: إن المقصود بالحافظ هنا الملائكة؛ فالمقصود بالأنفس هي أنفس المكلفين فقط^(٣)، والحفظ من الملائكة لها على نوعين: حفظٌ للأجساد من أن تُؤذى، كما قال الله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وحفظٌ للأعمال.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، أي: الملائكة التي تحفظ أعمالكم وتكتبها في الصحف، وهل الحافظ فيهما واحد، أو اثنان؟ الصواب أنهم اثنان، مُكَلَّفون بحفظ الأعمال، ويُسمون ملائكة تَرْقُب وتكتب، كما في قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وملائكة مُكَلَّفون بحفظ هذا المكلف من أن تؤذيه سائر المخلوقات الأخرى، وهل هناك ملائكة تحفظ غير المكلفين، مثل الحيوان، فتوجد ملائكة تحفظ -مثلاً- البقر أو الغنم من الأذية، أم إن الحفظ خاص بالبشر؟! هذا سؤال يحتاج إلى بحث، ولم يرد دليل في ذلك، ولم يمنع العقل منه، والذي ورد فيه النص الشرعي هو حفظ الملائكة

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه (٤٤٢/١٠).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (١٨٦/٢).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١١٩/٣١).



للمكلفين بنوعين من الحفظ: حفظ أعماله بتسجيلها، وحفظ جسده بحمايته من أن يؤذى!

ثم قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾، أمر الله، سبحانه وتعالى، الإنسان أن ينظر في كيفية خلقه، والأمر موجه إلى كل إنسان متكبر متعطرس نسي أصله وتكبر على ربه فلا يؤمن به، أو تكبر على غيره، والمقصود بالنظر هنا ليس نظر العين المجرد، بل نظر التأمل والتفكير في النطفة التي خلقت منها، ما هي مكوناتها؟! من أين تخرج؟! كيف يتم خروجها؟! وأين تستقر؟! وكيف تتحول إلى بشر سويًا؟! كل هذا التأمل والتفكير يجعلك تعرف من أنت من ناحية، فلا تتكبر، ومن ناحية أخرى، تجعلك تعرف أن الذي خلقك وأوجدك من هذه النطفة، قادر على أن يُعيدك ويبعثك ويُحاسبك، ففيه توجيه للإنسان إلى أن يتعرف على خالقه، ثم يؤمن به.

ثم قال سبحانه: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾، أي: خلقه الله، وحذف الفاعل هنا تعظيمًا، والمعنى: خلق الله هذا الإنسان من ماء المني، الذي يخرج من الإنسان بقوة، ويُقذف قذفًا، ومن يُصابون بعدم القدرة على الإنجاب من أسباب ذلك أن الماء لا يُقذف منهم قذفًا، بل يسيل سيلًا ضعيفًا؛ فيموت قبل أن يصل، ولو تنظر في البحوث العلمية المصورة للحيوان المنوي وهو يمشي بسرعة معينة في الرحم وكيف أنه يلتقي ببويضة المرأة، وكيف يتعلق بها حتى يتم الحمل، فستقول: سبحانه الله الخالق العظيم الذي هو على كل شيء قدير، وهذا الماء الدافق، هو مني الرجل، **وهو الذي ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾**، **والصلب:**



هو العمود الفقري^(١)، **وصلب الرجل أي:** عموده الفقري، **وهو:** من الرقبة إلى نهاية العصعص، وهو يتشابك مع باقي الهيكل العظمي للجسم، وبداخله ما يسمى بالجل الشوكي، وماء الرجل يخرج من داخل هذا المكان.

ويقول بعض العلماء: إن جزءاً منه يتكون في الجل الشوكي، ثم ينزل ليكمل تكوينه في الخصية، ولذلك لو دُقت الخصيتان؛ لذهب مصنع الحيوانات المنوية، وهذا يدل على عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه، ولذلك بعض الأطباء المتخصصين في هذا من الكفار يؤمنون لما يقرأون مثل هذه النصوص، ويصلون إلى نتائج توافقها بعد عشرات السنوات من البحث.

وقوله: ﴿وَالْتَرَائِبِ﴾، **الترائب هي:** الصدور^(٢)، وهي أماكن الثديين، بمعنى أنه أيضاً جزء من ماء الرجل يتكون فيها، **وهذا على قول كثير من المفسرين الذين يقولون:** أن المقصود بالماء الدافق ماء الرجل فقط، فهو يتكون في منطقة الصلب ومنطقة الترائب ثم يخرج إلى الخصية ثم يتدفق، **وهناك من المفسرين من قال: إن المقصود بالصلب هنا:** صلب الرجل، **والمقصود بالترائب هنا:** ترائب المرأة، فيكون مصدر نطفة المرأة التي هي البويضة هو أماكن الثديين وهو الصدر وما حوله، وتتلحق بماء الرجل الحيوان المنوي الذي مصدره الصلب، **فيكون المعنى:** يخرج ماء الرجل وماء المرأة من بين الصلب والترائب^(٣)، ومن خلالهما يتكوّن الجنين،

(١) ينظر: لسان العرب (١/٥٢٦).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/٩١).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/١٢٠).



وقد جاء في السنة^(١) أن المرأة عندها ماءً مثل ما عند الرجل ماء، وأنه لا يتم الحمل إلا بتزاوج البويضة مع الحيوان المنوي، فيكون القول الثاني هو الأرجح.

ثم قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾^(٨)، إنه: الضمير فيه عائد إلى الله، ولم يسبق ذكره، ولكن سبق معنا فعل الخلق، فلا بد للخلق من خالق، وهو الله، وقد دل عليه السياق^(٢).

والضمير في ﴿رَجْعِهِ﴾، فيه قولان: الأول: أنه يعود على الإنسان، **والمعنى:** أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان بهذه الطريقة، ثم هو يُميتُه، وهو القادر على بعثه حيًّا بعد الموت، والخطاب موجّه للإنسان الذي ينكر البعث والنشور، **والمعنى:** أن الله الذي خلقك بهذه الطريقة، قادرٌ على إرجاعك وبعثك وإحيائك بين يديه للحساب.

والقول الثاني: أن الضمير يعود على الماء الدافق؛ لأن الإنسان لم يُذكر، وإنما ذكر الماء، فيعود الضمير على أقرب مذكور، **والمعنى:** أن الله قادر على أن يُرجع الماء الدافق إلى مصدره^(٣)، وهذا من المستحيل عند الخلق، ولكن الله لا مستحيل عنده، كقولهم: إذا رجع الحليب في الضرع سيكون كذا، وهذا الكلام مثله، فإن إرجاع المني إلى مكانه الذي خرج منه مستحيل عند الخلق، فخطبهم

(١) ينظر: سنن ابن ماجه (١/١٩٧)، برقم (٦٠٠)، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/١٢١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/٣٥٨).



الله هنا على وفق هذا القول، وأخبرهم أن الله قادر على أن يُعيد هذا المني إلى مكانه، فلا مستحيل على الله سبحانه وتعالى، ولكن القول الأول أقوى وأرجح، ويدل عليه السياق؛ لأن الحديث عن القيامة، ومع قوم يُنكرون البعث والنشور، وجاء باللام المؤكدة، وقد سبقتها إنَّ المؤكدة، كل ذلك ليثبت قدرة الله سبحانه وتعالى على تنفيذ ما وعد، وأنه قادر على البعث والنشور، والقادر اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي لا يُعجزه شيء.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩)، يوم القيامة تُختبر السرائر، وهي: إما الضمائر^(١)، أو الأعمال التي عملتها الضمائر وكانت سرًّا لم تكتشف في الدنيا، فينكشف ما كانت تُضمره وتُخفيه وتُخيه؛ فيظهر ما كان منها صالحًا، ويظهر ما كان منها فاسدًا، ويجازى الإنسان على عمله.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠)، الضمير يعود إلى الإنسان، فوصف حاله حين يقف بين يدي الله، فليس له من قوة ولا ناصر، فقواه الشخصية الذاتية تنهار، والأشخاص الذين كان يعتمد عليهم في الدنيا غير موجودين معه؛ بخلاف حاله في الحياة الدنيا، فقد كان يتخلص من بعض المواقف بأحد هذين الأمرين أو بهما معًا: إما أنه قوي وشديد بنفسه، أو معه ناصر ينصره من الناس الذين حوله، فيفقد هذين الأمرين يوم القيامة، فيبقى ضعيفًا بين يدي الله بلا قوة يدفع بها، ولا ناصر ينصره أو يُعينه؛ فكل إنسان يوم القيامة مشغولٌ بنفسه، **كما قال:** ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣٧) [عبس: ٣٧]،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ١٥٠).



والفائدة من ذكر القوة والناصر هنا؛ أن هذا الإنسان لما كان على باطل؛ فهو مُعرّض للعقوبة والإهانة، فيحتاج إلى القوة ويحتاج إلى الناصر، ليدفع بهما عذاب الله عنه، بعد أن انكشف أمره، وظهر ما في سرائره من باطل، ولو كان مستقيماً صالحاً لكرّم وعُظّم بين يدي الله سبحانه وتعالى، ولم يحتاج إلى قوة ولا ناصر.!!

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۚ﴾، أقسم الله بالسماء صاحبة الأمطار، وُسمي المطر رجعاً؛ لأنه يعود كل سنة، ففيه معنى التكرار، فمطرة بعد مطرة^(١)، وما فوقك يُسمى في اللغة سماء^(٢)، فالسحاب تُسمى سماء، وكل ما ارتفع يُسمى سماء، والمقصود أن المطر ينزل من جهة السماء، ومعروف كيف يتكون المطر، فإن البخار يصعد من الأرض ثم يتكثف في طبقات الجو ليكون ماءً، ثم تسوقه الرياح، ثم ينزل مرة أخرى، وهكذا، ففيه معنى التكرار وفيه معنى الرجوع مرة أخرى إلى الأرض، والصعود إلى السماء، ثم أقسم الله بالأرض، **فقال:** ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۚ﴾ أي: صاحبة الصدع، **والصدع المقصود به هنا:** التشقق، أي الأرض التي من طبيعتها التصدع والتشقق، حتى ينبُت النبات فيها، فلو كانت صماء صامتة؛ لما نبت فيها شيءٌ، فأخبر الله أن السماء سببٌ لوجود المطر، والأرض سببٌ لوجود النبات، وهنا لطيفة من لطائف النظم القرآني، وهي: لما تحدث عن صلب الرجل وترائب المرأة، وهما سببان لوجود الإنسان، تحدث

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢٢)، نقله عن الزجاج.

(٢) ينظر: مختار الصحاح (ص: ١٥٥).



عن مطر السماء واستقبال الأرض له، ليخرج بعد ذلك النبات، فكأن الأرض أمّ له والسماء أبّ له!!، وهذا من أدلة القرآن العقلية التي نبه الله الناس إليها، لإقامة الحجة عليهم، وكأنه يقول لك: انظر إلى مراحل حياة الزرع وتدبر فيها؛ فإنها تشبه مراحل وأطوار حياتك.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (١٣)، هذا جواب القسم، والضمير يعود إلى القرآن، حيث أقسم الله بالسماء والأرض على أن القرآن الكريم قولٌ فصل، يفصل بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، **أي:** يفرق بينهما، حتى يتضح للناس طريق الحق من طريق الضلال.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١٤)، **الهزل** هو اللعب، فنفي عنه الهزل، ليثبت له الجدّ والجديّة، فالقرآن أحكامه كلها جدّ وحيوية وجدية؛ أنزل للعمل به، والتحاكم إليه، ولكي تتخلق البشرية بأخلاقه، وتعمل بأحكامه، وتنفذ ما فيه، فهو صدقٌ وليس بالكذب، وجد ليس فيه هزل ولا لعب!! وهذه قضية من ضمن ثلاث قضايا اهتم بها القرآن المكي مع أصحاب مكة، وهي: الرد على تكذيبهم بالبعث والنشور، والرد على تكذيبهم بمحمد ﷺ، والرد على تكذيبهم بالقرآن، الذي هو أثر من آثار تكذيبهم بمحمد ﷺ، فأخبرهم هنا أن القرآن الكريم ليس بشعرٍ ولا نثرٍ ولا هزلٍ ولا لعبٍ ولا باطل، بل هو قولٌ فصل!!

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن هؤلاء المكذبين، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)، **الكيد هو:** المحاربة للحق والتحذير منه^(١)، وكان الكفار يُنفقون أموالهم، ويسهرون

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢٣/٣١).



ليلهم ويقدمون دماءهم من أجل ألا ينتصر الإسلام، ولا ينتشر القرآن، وقد جاءت كلمة (كيدًا) هنا تأكيدًا، لتدل على كثرة كيدهم، وإشغالهم أنفسهم ليل نهار بالكيد للإسلام وأهله، فرد الله على كيدهم وشغلهم الشاغل في محاربة الحق وأهله؟! **بقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾** (١٦) الله أكبر!!، ما مقدار كيد المخلوق وأنشطته وبرامجه وخططه وأمواله في مقابل كيد الخالق سبحانه، فكيد هؤلاء الخلق قُوبل بكيد الخالق العظيم، الذي يقول للشيء: **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾** (١٧) [البقرة: ١١٧]، فيطُل كيدهم بكلمة، وقد تعدد كيدهم لرسوله ﷺ، ولكنه فشل ولم ينجح، ومن ذلك كيدهم في محاولة قتل النبي ﷺ، وكيدهم في غزوة بدر، وكيدهم في غزوة الأحزاب، وغيرها، وكان الله سبحانه وتعالى، يرد كيدهم ويبطله.

والكيد والمكر والخداع، ليست أسماءً لله ولا صفات له؛ لأن أسماء الله حسنى وصفاته عُلْيَا، والكيد والمكر والخداع ليست بذلك الوصف من الجمال والحسن، فلا تطلق على الله مجردة، بل تطلق على سبيل المقابلة، كما وردت في القرآن مقيدة، ويطلق عليها صفات المقابلة، وليست صفات مُطلقة لله، والمعنى: أنه يمكر بمن يستحق المكر، ويكيد بمن يستحق الكيد، ويخدع من يستحق الخديعة، فهي داخلة ضمن معاني اسمه العدل، وهو اسمٌ من أسمائه الحسنَى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُوِيَ﴾ (١٧)، أي: لا تستعجل على عاقبة كيدهم، ولا تستعجل على هلاكهم، بل اتركهم وأمهلهم، وليكن هذا الإمهال وقتًا قليلًا، بحيث يترك لهم فرصة للتوبة، وهذا من عدل الله ولطفه وكرمه بالخلق، حتى الكفار يُعطيههم فرصة لعلمهم يتوبوا، وقد استفاد أناس منهم من



هذا الإمهال؛ فتابوا، رغم أنهم شاركوا في بدر وقاتلوا المسلمين في أحد والأحزاب، ولكن الله منّ عليهم بهذا الإمهال فتابوا، مثل أبي سفيان وخالد بن الوليد وغيرهم ممن ماتوا على الإسلام، وهناك أناس لم يستفيدوا من هذا الإمهال، بل ماتوا على الكفر، والعياذ بالله، وفي هذا الخطاب تسليّة للنبي ﷺ، وهو خطاب تهديد ووعد لهؤلاء الكفار الذين يكيدون لرسوله ﷺ، ولدعوته، فقد أتم الله نورها وانتشرت وانتصر رسوله ﷺ، وهلك هؤلاء الكائدون، وبقي الحق، واندحر الباطل، والحمد لله.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الله سبحانه وتعالى يحفظ هذا الإنسان بالملائكة، فيحفظوا جسده ويحفظوا أعماله، أما أعماله فلاجل أن يُحاسب عليها يوم القيامة، وأما جسده فلاجل أن يعيش سليماً في هذا العالم المليء بالأجسام الكبيرة والعظيمة.
- ٢- أن القرآن الكريم ليس بشعرٍ ولا نثرٍ ولا هزلٍ ولا لعبٍ ولا باطلٍ، بل هو قولٌ فصلٌ وما هو بالهزل!!
- ٣- ضعف كيد الكفار؛ إذا قُوبل بكيد الله سبحانه وتعالى.
- ٤- أن الكيد والمكر والخداع، ليست أسماءً لله ولا صفات له؛ لأن أسماء الله حسنى وصفاته عُلّيا، والكيد والمكر والخداع ليست بذلك الوصف من الجمال والحسن، فلا تطلق على الله مجردة، بل تطلق على سبيل المقابلة، كما وردت في القرآن مقيدة.



تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ (٧) وَيُخَوِّدُكَ لِلْإِسْرَى ۝ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝ (٩) سِيذَرُكَ مَنْ يَخْشَى ۝ (١٠) وَيَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ۝ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝ (١٩)﴾.

شخصية السورة:

سورة الأعلى؛ سورة مكية^(١)، نزلت قبل الهجرة، والمقصد الأسمى لهذه **السورة**، هو تذكير النفوس بمنة الله سبحانه وتعالى عليها^(٢)، وربطها بالدار الآخرة، ودعوتها إلى تزكية النفس من كل ما يُبعدُها عن الآخرة ويُعلقها بالدنيا.

وقد ورد في فضلها أن النبي ﷺ، كان يقرأ بها في الجمعة وفي العيدين^(٣)،

(١) ينظر: تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٥٧٧).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٨٧).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (٢/ ٥٩٨)، برقم (٦٢).

وذلك لما فيها من التذكير والأمر بالتزكية ونحوها.

وقد افتتحت بالأمر بالتسبيح: ﴿سَبِّحْ أَسْمَرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١)، الخطاب للنبي ﷺ عند نزول الوحي، وأصبح خطاباً لكل من قرأه بعده من أمته، والتسبيحُ معناه: التنزيه عن النقائص.

وقوله: ﴿أَسْمَرَ رَبِّكَ﴾، قيل المقصود به: جنس الاسم الحسن لله سبحانه وتعالى، فتنزه لفظ كل اسم لله مثل: الله، الرحمن، الرحيم، العزيز، الغفور،... إلخ، عن كل عيب ونقص وخلل، وعمّا لا يليقُ به، **وقيل:** سَبِّحْ ربك وذكر لفظ (اسم) من باب التعظيم للذات الإلهية، **والمعنى:** سَبِّحْ الذات الإلهية، ونزهها من كل عيب ونقص، **والمعنى:** أيها العبد، نزه الله سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل والصاحبة والولد وسائر النقائص التي يتصف بها الخلق، فإن الله تعالى مُنَزَّهٌ عن كل هذه النقائص، وله الكمال المطلق في ذاته جلّ وعلا وأسمائه وأوصافه وأفعاله، سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ نعت للرب، فهو الأعلى ذاتاً، أو نعت للاسم، فهو الأعلى اسماً، فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، ولا مانع أن يكون لهما معاً، **فيشمل معنى الأعلى هنا:** علو الاسم، وعلو الشأن، وعلو المكانة، وعلو القدر، وعلو المكان، فإن الله استوى على عرشه، **كما قال:** ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، **واستوى بمعنى:** علا وارتفع (٢). **وقال:** ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، فالله في

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٨٧/٢١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٨٧/١٩).



جهة العلو، وهو بائنٌ من خلقه، لا يحويه شيء من خلقه، ولا هو مختلط بشيء من مخلوقاته، والفطرة السليمة للخلق تقتضي أن الله في جهة العلو، ولذلك لما حاول بعض الفلاسفة والمتكلمين أن ينفي جهة العلو عن الله سبحانه وتعالى، وكان في مجلس ذلك العالم المتكلم، شابٌ ذكيٌّ، من بين الحاضرين، يُقال له: الهمداني، فلما انتهى الشيخ من ذكر نفي علو الله على خلقه، قال له: يا شيخ عندي سؤال، لو لم يكن الله في جهة العلو فلماذا يرفعُ الداعي يديه إلى السماء؟! قال: فقام ذلك الشيخ ينفذ ثوبه وهو يقول: حيرني الهمداني!! حيرني الهمداني^(١)!! نعم إنها الفطرة السليمة التي تثبت علو الله فوق خلقه.!

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ﴾، إن هذا الخالق الذي أمرت بتسبيحه وتنزيهه وتقديسه هو الذي أوجد الخلق من العدم، وهي نعمة عظيمة خاصة بالله سبحانه وتعالى، فالخلق لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، فالله هو الخالق وحده، ولا يُوجد خالق سواه، وقد خلق الخلق خلقاً سوياً، مكتمل الأعضاء، معتدل القامة، حسن الصورة، **والمعنى:** أوجد خلقاً كاملاً، ليس فيه نقص ولا عيب، سواءً كان ذلك في الحيوانات أو في الجمادات، لقد خلق سبحانه وتعالى خلقاً سوياً مكتملاً!!

ثم قال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۖ﴾، **أي:** قدر أجناس الخلائق وأنواعها وأوصافها، فلو زاد شيء على شيء لفسد ذلك الخلق، واليوم جاء العلم

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٤/ ٢٠)، وشرح الطحاوية ت الأرناؤوط (٢/ ٣٩٠)، والشيخ هو أبو المعالي الجويني، والطالب هو المحدث أبو جعفر الهمداني.



الحديث ليكشف لنا صورًا من هذا التقدير العجيب لنسب مكونات تلك المخلوقات، **فالماء مثلاً**: يتكون من الأكسجين والهيدروجين، بنسبة ١:٢، وهكذا باقي المخلوقات، فقد خلقت بنسب محددة، ولذلك لما يتدخل الإنسان في محاولة التعديل على هذا التقدير الإلهي؛ فإنه يُفسدُه!!، ولو بحثنا عن سبب فساد البيئة اليوم؛ لوجدنا أن السبب الرئيس لذلك هو تدخل الإنسان في تعديل هذه النسب المقدرة التي خلق الله الخلق منها، ومن أمثلة ذلك: ما يحصل في هذا العصر من التعديل في الجينات الوراثية للنباتات، أو الجينات الوراثية في البشر أو الحيوانات، مما أدى إلى فساد عظيم في الحياة، والله سبحانه وتعالى قد قدر أنواع الحيوانات وعددها وأجناسها بما يؤدي إلى التوازن البيئي، وقد نشرت بعض المجلات العلمية قديمًا بحثًا حول آثار تدخل الإنسان في التوازن البيئي للحيوانات، فذكر البحث أن الوزغ كثر في مقاطعة من المقاطعات الزراعية في أمريكا؛ فاستخدموا له سُمًّا وتخلصوا منه، ولكنهم فوجئوا بكثرة عدد الفراش، الذي آذاهم وأكل المزروعات عليهم، والسر أن الوزغ كانت هي التي تأكل الفراش الزائد، فلما تم قتل الوزغ تكاثر الفراش، فهذه صورة من صور التوازن البيئي في خلق الله، واليوم يحاول الناس الاستفادة من هذا التقدير في أفعال الخلق، في ضبط الصناعات، **أو ما يُسمونه بـ**: "ضبط الجودة، أو المواصفات والمقاييس"، والتي على ضوءها يُصرَّح للمنتج أن يُباع أو لا، وإذا زاد أو نقص شيء منها، **قبل عنها**: هذا مخالف "للمواصفات والمقاييس"، وهو محاولة للاستفادة من فعل الخالق في مخلوقاته سبحانه وتعالى.



وقوله: ﴿فَهْدَى﴾ هذا موضوع آخر، فالهداية غير التقدير، فالتقدير شيء، والهداية شيء آخر، **فالمقصود بالهداية هنا:** هدى كل مخلوق إلى ما خلق له، فهداه إلى طعامه، وهداه إلى شرابه، وهداه إلى ما ينفعه، فالطير مثلاً كيف هداها الله إلى أرزاقها؟ وكيف هداها إلى أن تطير؟!، وكيف هداها إلى أن تحفظ أولادها وتقوم برعاية بيضها حتى يفقس؟!... إلخ.

فكل مخلوق هداه إلى الغاية من خلقه، فالحيوان له غاية وقد هداه إليها، والإنسان هداه إلى الغاية التي خلق لها، وهي العبادة، فأرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، وجعل له السمع والبصر والعقل من أجل أن يعرف طريق الهداية من طريق الضلال، والآية تشمل الخلق كلهم، إلا أن الإنسان هو محور هذا الكون، فالسموات والأرض والحيوانات والنعم كلها خلقت من أجله، وسُخِّرَتْ من أجله؛ ليقوم بعمارة الأرض بالإيمان والعمل الصالح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ الذي أخرج المرعى هو الله سبحانه وتعالى، والمرعى كل ما ترعاه الحيوانات من الزرع، وأخرجه بإنزال المطر وشق الأرض.

ثم قال: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، أي: صير هذا المرعى بعد أن كان أخضر يابساً، **والغثاء هو:** اليابس^(١)، **والأحوى هو:** المتغير لونه^(٢)، فالأخضر إذا يابس تغير لونه ومال إلى السواد، وهو لون الطبقة التي ظهرت عليه بسبب اليبوسة

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٨/ ١٥٩).

(٢) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٨٥).



وتعرضه للريح ونحوها، وفي هذا إشارة إلى أنك أيها الإنسان الجميل الطيب الذي خلقك الله وصورك فأحسن صورتك؛ ستتحوّل يوماً بعد يوم إلى ما يُشبهه المرعى الأخضر الذي يبس ثم يصبح أحوى، فمصيرك مثله تصبح بعد الشباب شبيهة هرمًا، ثم تموت، ثم تُصبح بعد ذلك عظامًا نخرة!!، فحياتك تشبه حياة الزرع!!، فلا تظن أنك مُخلد، بل حياتك تمر بأطوار مثل ما تمر حياة النبات بأطوار، والفرق بينك وبين النبات؛ أن النبات غير مُكلّف ولا يُسأل، أما أنت فمُكلّف وسوف تُبعث وتُسأل.

ولو أننا إذا مُتْنا تُركنا لكان الموت غاية كل حيٍّ
ولكنّا إذا مُتْنا بُعْثنا ونُسأل بعد ذا عن كل شيء^(١)

ثم قال الله لنبيه: ﴿سُنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦)، سنعلّمك يا محمد القرآن، ونجمعه لك في صدرك فلا تنساه، **وقد كان النبي،** صلى الله عليه وآله وسلم من شدة حرصه على حفظ القرآن، حين كان جبريل يأتيه بالوحي، أنه كان يستعجل في قراءة الآيات بعد جبريل حتى لا ينساها، **فقال الله له:** ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، **وقال له:** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** (١٧) [القيامة: ١٦-١٧]، فانتظر إتمام جبريل القراءة واستمع له، ثم وعد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجمع له ما أوحاه إليه عن طريق جبريل في صدره فلا يضيع منه شيء ولا ينسى منه شيئاً، **ثم قال:** ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وهذا الاستثناء المقصود به **قولان** عند المفسرين:

(١) ينظر: ديوان علي بن أبي طالب (ص: ١٨٥).



الأول: الآيات التي أذن الله بنسخها، فإننا سنُنسِكُ إياها^(١).

والقول الثاني: الحال الذي يطراً عليه كبشر، فإنه كان أحياناً يقرأ آية فينسى، فيُفتح عليه^(٢)، كما قرأ على أبي آية، فسأله أنسخت؟ قال: "بل أنسيْتُها"^(٣)، والأول أرجح^(٤).

ثم قال: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾^(٥)، هل هذا تعليل لنسخ ما شاء الله أن يُنسخ؟ أو تعليل لارتفاع صوتك وانخفاضه؟ أو إخباراً عن علم الله المطلق بمعرفة المسرور والمجهور؟ كله ممكن^(٥)، وإن كان الأخير هو الأولي؛ لأنه جاء على سبيل الإطلاق، فهو وصفٌ لإحاطة علم الله بالسر والعلن.

ثم قال الله لرسوله: ﴿وَنَبِّئْكَ لِلْغَيْبِ﴾^(٦)، ما أجمل وأفضل هذه البشارة!! بشارة عظيمة من الله لرسوله ﷺ؛ فادعوا الله أن يُعطيكم مثلها؛ لأن الله إذا منحكم هذه النعمة؛ عشتم في سعادة واطمئنان؛ لا تجدون عسراً في حياتكم كلها!!، والتعبير بنون العظمة، والمتكلم الله سبحانه، حتى يشعرك بعظمة ما سيمنحك من هذه النعمة وعظمة آثارها في حياتك كلها!!، فلا تمارس أي عمل إلا تجده مُيسراً، تريد أن تتزوج؟! فييسر الله لك الزواج!!، تريد أن تُصلي وتقوم

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣٧١ / ٢٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤٣٢ / ٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة: (٧٧ / ٣٥) برقم (٢١١٤٠)، وإسناده صحيح.

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣٧١ / ٢٤).

(٥) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٣١٩ / ١٥).



الليل؟ فييسر الله لك قيام الليل!!، تريد أن تطلب العلم؟ فييسر الله لك طلب العلم!!، تريد أن تتصدق؟ فنطلق يدك بالصدقة!، تريد أن تذكر الله؟ فينطلق لسانك بالذكر!!، وهكذا... فهذه النعمة والبشارة العظيمة التي أعطاها الله لرسوله، جعلت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم أيسر الناس خلقاً، وأيسرهم عملاً، وأيسرهم تعاملًا، وأحسنهم تصرفًا.

وقوله: ﴿لِيُيسِّرَ﴾، **تكلم المفسرون** حول المقصود باليسرى، **فقال بعضهم:** يُيسر لك أعمالاً تُوصلك إلى الجنة، فاليُسرى هي الجنة^(١)، **وقال بعضهم:** اليُسرى هي الدين اليسر الذي لا عسر فيه^(٢)، **وقال بعضهم:** اليُسرى هي: الأعمال الصالحة مطلقاً^(٣)، **والصحيح** العموم، فيشمل كل عمل صالح من أعمال الدنيا والآخرة، فإن أردت التيسير لليُسرى؛ فعليك باقتفاء أثر رسول الله، النبوية، وسرت عليها واقتديت بها، فانتظر البشرى التي حصلت لرسول الله أن تحصل لك، وهي أن يُيسرك الله لليُسرى!!.

ثم قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾^(١)، أمر الله سبحانه وتعالى، رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يستمر بالتذكير ودعوة الناس للتوحيد، وهنا جعل شرط استمرار الذكرى أن يحصل منها نفع، والمقصود: إن أدت الذكرى إلى مفسدة؛ فتوقف

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦ / ٢٥٤).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ١٣١).



عنها، وإلا الأصل في الذكرى أنها تنفع، والناس أمام الذكرى على ثلاثة أقسام^(١): الأول: المتهيئ المستعد المقبل، فهذا لا تحرمه من الذكرى، بل امنحه إياها.

الثاني: المعاند المعرض، وهذا الذي لا يُريد الذكرى ويتعد عنها، فلا تشغل بنفسك به.

الثالث: المتوقف، فلا هو حريص ولا هو معاند، فهذا لو أتته بأسلوب طيب مناسب يدخل إلى قلبه ويُقنعه؛ **ربما يتحول إلى القسم الأول**، ولو أتته بأسلوب سيء ومُنفر؛ **ربما يتحول للقسم الثاني**، فانتبه له جيداً، ولا تكن سبباً في هروبه عن الخير؛ فينطبق عليك الحديث: "إن منكم مُنفرين"^(٢).

وقوله: ﴿سَيَذَكَّرُ مِنْ يَخْشَى﴾^(١٠)، هذا من القسم الأول: المتهيئ المقبل المحب، فسيقبل الذكرى ويستفيد منها، وعبر عنه بالخشية، ولم يُعبر عنه بالخوف؛ لأن الخشية خوفٌ مع تعظيم لله، وهو الأمر اللائق بالله.

وقوله: ﴿وَيَنْجَبُهَا الْأَشَقَى﴾^(١١) وهذا من القسم الثاني: المعرض المعاند البعيد، والأشقى صيغة اسم فاعل من شقى، **والمعنى:** الذي أُصيب بالشقاوة، وصار أشقى بهذا الفعل، فيتجنب الذكرى بسبب ما عَطَى على قلبه من طبقة الكفر والمعاصي، حتى صار قلبه قاسياً، فصار بذلك شقياً لا يفهم شيئاً ينفعه،

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ١٣٤).

(٢) رواه البخاري: (١ / ١٤٢)، برقم (٧٠٢).



بل يمشي وراء هواه؛ فلذلك يتجنب الذكرى، **أي:** إن الذكرى تكون في جنب وهو يمشي في الجنب الثاني؛ هروباً من أن يستمع إليها، وتجنب بمعنى ابتعد وهرب، وهي أبلغ من أعرض مع حصول السماع وعدم الفائدة، بل لا يريد لها ويتعد عنها ويجتنبها، وذلك بسبب شقاوته التي بلغ الرتبة العليا منها!!، وما هو حال القسم الثالث، الذي لا هو مُحِب ولا كاره، مُتَوَقِّف؟!، هذا سيكون تأثيره بناءً على قدرتك في إقناعه بأسلوبك الحسن، أو على سوء تصرفك في تنفيره، ولذا طُلب من المسلم، وهو يدعو إلى الله ويُعلم خلق الله، أن يقول القول اللين وأن يستخدم الأسلوب الأمثل، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يُجادل بالتي هي أحسن، كل ذلك من أجل أن يتأثر به هذا الفريق الكبير الذي يحتاج إلى من يُقنعه فيقبل الذكرى!!.

ثم وصف الله حال هذا الأشقى في الآخرة، فقال: ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (١٢) ﴿﴾ هذا الأشقى الذي تجنب الذكرى ولم ينتفع بها؛ كان مصيره إلى النار الكبرى، والمقصود بالنار الكبرى هي: نار جهنم، والنار الصغرى هي: نار الدنيا، كما جاء في الحديث: "ما نارُكم إلى نار الآخرة إلا جزء من سبعين جزءاً" (١)، والمعنى: أن نار الآخرة تضاعف على نار الدنيا سبعين ضعفاً، وقيل: إن النار دركات، وكلما نزلت كلما كانت الحرارة والعذاب فيها أشد (٢)، فتكونه النار الكبرى هي التي في أسفل النار، وهي أكثر النار وقوداً وحرارة، والنار التي في

(١) رواه البخاري (٤/ ١٢١)، برقم (٣٢٦٥)، بنحوه.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٤).



الأعلى تكون أخف منها، وهذا مشاهد في نار الدنيا، فكلما اقتربت من عمقها كانت أشد حرًا!!، ولا تعارض بين القولين.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (١٣) ﴿أَي: أن هذا الأشقى الكافر البعيد عن الله سيكون حاله في النار أنه لا يموت فيها فيرتاح بموته، ولا يحيا فيها حياة كريمة، ولذلك فإن أهل النار لما يزداد عذابهم؛ يطلبون أن يميتهم الله كما قال عنهم: ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ تَارُكُكُمْ أَلَّا تَمُوتُوا﴾ [الزخرف: ٧٧]، فهذا الأشقى سيبقى في النار، فلا هو سيموت بسبب احتراقه، ولا هو سيُخرج من النار فيحيا حياة كريمة، بل كلما احترق وذهب الإحساس من جلده أُعيد إليه، كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وعبر ههنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي، **والمعنى:** أن هذا الأشقى يصلى النار، وبعد فترة من احتراقه بالنار يطلب الموت أو يطلب الخروج، فيقال له: لا موت لك فترتاح، ولا خروج منها فتحيا!!

ثم قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤)، ولما ذكر الله حال الأشقى الذي لم يتذكر ولم يخش، وبيّن لنا مصيره في النار؛ انتقل الحديث لبيان مصير المؤمن الذي يخشى الله، وزكّى نفسه، **أي:** طهرها من الشرك بالتوحيد، وطهرها من المعاصي بالطاعات، وطهرها من الرياء بالإخلاص، وزكاها من الجهل بالعلم، ومن الكذب بالصدق، وهكذا...، فتحقق له بذلك الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.



ومصطلح: الفلاح والفوز متكرر في ألفاظ القرآن، ولم يرد مصطلح "النجاح"، فهو مصطلح معاصر، وهو من حيث اللغة صحيح، لكن تعبير القرآن أبلغ **كما قال:** ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، **وهنا قال:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، **وقال:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، فالفلاح والفوز أبلغ من النجاح.

ثم قال سبحانه: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥، **أي:** أن هذا الذي طهر نفسه من المعاصي بالابتعاد عنها؛ شغل نفسه بذكر الله وعبادته!!، وكلما تطهرت النفس أصبح اللسان رطباً بذكر الله، وفي الحديث: "لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله" (١)، فالنفس الزكية الطاهرة لا ترتاح إلا بذكر الله وطاعته؛ والنفس السيئة الدّرنّة المليئة بالأوساخ لا ترتاح إلا بذكر الدنيا ومشاغلها، ولذا ترى أصحاب الدنيا تبقى الدنيا على لسانهم طوال اليوم، وأصحاب الآخرة؛ تبقى الآخرة على لسانهم دائماً.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ **أي:** بالتسبيح، والتهليل، والحمد والثناء لله تعالى، وتعظيمه مطلقاً.

وقوله: ﴿فَصَلَّى﴾، ممكن تكون صلى هنا بمعنى: دعا، أو تكون بمعنى: أتى بالصلوات المشروعة.

فإن قلت: صلى بمعنى دعا، **فالمعنى:** أنك تذكر الله وتحمده وتثني عليه، ثم

(١) رواه الترمذي، ت شاكر: (٤٥٧/٥)، برقم (٣٣٧٥)، قال الألباني: صحيح.



تدعوه، فإن الله سبحانه وتعالى يُعجبه الحمد والثناء، ولذلك من السنة أن الإنسان إذا دعا أن يبدأ أولاً بالحمد والثناء على الله ثم يسأل ربه المسألة.

وأما إذا كان صلى بمعنى الصلاة المشروعة، فيكون **المعنى**: عظم الله في نفسه ثم وقف بين يديه، فصلى ما فرض عليه من الصلوات.

وقال بعض أهل العلم: إن هذه الآية نزلت في زكاة الفطر وصلاة العيد، واستبعد هذا القول^(١)؛ لأن الآية مكية، وزكاة الفطر وصلاة العيد لم تُشرع إلا في المدينة^(٢).

وقال آخرون: حتى لو لم تكن قد شرعت فإن هذه الآية تشير إليها، ففي القرآن المكي إشارة إلى بعض الأحكام التي نزلت في المدينة، وليس بالضرورة أن تُفعل في الحال^(٣).

قلت: وحملها على الذكر المطلق والصلاة المطلقة والتزكية المطلقة أولى، والله أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٦﴾ **بل**: حرف إضراب عما سبق ذكره، **والمعنى**: أن حالكم أيها الناس خلاف ما وصف لكم، فإن من طبيعة البشر الاشتغال بهذه الدنيا الحقيرة عن ذكر الله وتزكية النفوس وفعل الطاعات!!، والحقيقة أن من اشتغل بالدنيا فهو يُقدمها على الآخرة، **والمعنى**: تُقدمون حُب

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣٧٤ / ٢٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤٣٣ / ٤).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٣٦ / ٣١).



العمل للدنيا على حب العمل للآخرة، ولو كنتم تعقلون لما فعلتم ذلك، لأن الله قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٧)، بمعنى أن الآخرة أفضل وأدوم، فالواجب أن تُقدموا حبها على حب الدنيا، لأن الدنيا أقل في الرتبة وسريعة في الزوال، والآخرة أكبر في الرتبة وباقية لا تزول!!

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ (١٨) الضمير يعود على ما ذكر في الآيات التي قبلها^(١)، فالتزكية وذكرُ الله والصلاة والعناية بالآخرة وترك العناية بالدنيا هذا مما اتفقت عليه الشرائع كلها، فهو موجود في صحف موسى، وموجود في صحف إبراهيم، وموجود في الكتب السماوية كلها، فليس هذا من خصائص دين محمد، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل جميع الأنبياء دعوا إلى ذلك كله، والصحف الأولى هي صحف كل الأنبياء، ومنها صحف إبراهيم وموسى، أو أن **المقصود بالصحف الأولى هي: صحف إبراهيم وصحف موسى فقط**^(٢)، والفرق بين المعنيين أن تكون صحف إبراهيم وموسى، هي المكتوب فيها فقط، أو أن تكون صحف إبراهيم وموسى من الصحف الأولى، وجيء بها هنا على سبيل التمثيل، ويظهر، والله أعلم، أن الثاني أولى؛ لأنه يشمل بقايا ما عند الأنبياء من نوح وعيسى وهود وغيرهم من الأنبياء، وخاصة أولي العزم، فقد كان عندهم الكثير من هذه الأمور التي لم تكن عند غيرهم.

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (١٢٩/٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٣٧/٣١).



فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أهمية الخشية عند الإنسان وأنها تبعثه على الاتعاظ وعلى قبول الذكرى وعلى الاستفادة من الموعظة.
- ٢- أهمية التزكية وتطهير النفس من الخبائث الظاهرة والباطنة.



تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنِيٍّ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَوَاجٌ مُبْثُونَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝٢٣ فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾.

شخصية السورة:

سورة الغاشية؛ سورة مكية^(١)، والمقصد الذي دارت حوله السورة هو:

تذكير النفوس بمشاهدة القدرة الإلهية في العذاب والنعيم، وفي الخلق والإيجاد^(٢).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٥ / ٢٠).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ٢٢).

وافتح تحت بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١)، الخطاب موجّه لرسول الله،

هل أتاك يا محمد خبر الغاشية (١) وقصتها، **والغاشية:** اسمٌ من أسماء يوم القيامة، وسُميت بهذا الاسم لأنها تغشى الناس جميعاً بأهوالها، أو لأنها تأتي فجأة وبغته، **وقيل:** إنها النار التي تغشى وجوه الكافرين، والأول أولى لسياق الآيات (٢)؛ فقد ذكر بعدها حال الناس أجمعين، **والمعنى:** إذا جاءت القيامة، وبُعث الناس بين يدي الله سبحانه وتعالى، فإنهم ينقسمون إلى فريقين: أهل الإيمان والطاعة، وهذا سياتي الحديث عنه، وأهل الكفر والشقاء، وقد بدأ في الحديث عنه، **فقال:** ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢)، وهي وجوه الكافرين الذين كانوا في الدنيا كافرين بالله وشرعه، والإيمان بكتبه ورسوله، حيث يبعثون يوم القيامة بين يدي الله سبحانه ذليلين محتقرين؛ لأن الذي منعهم من الإيمان هو الكبر، فيعاقبون بنقيضه، وعبر هنا بالوجوه؛ لأن أشرف ما في الإنسان هو وجهه، فإذا أهين هذا الوجه بالذل والخوف وغشيان السواد له، وظهور القفرة عليه؛ دلّ ذلك على الحال السيئة لصاحبه.!!

ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٣) **قيل:** مُتعبة بالعمل والنصب في الآخرة بالنار (٣)،

لأنها تكبرت عن العمل الصالح في الدنيا؛ فعاقبها الله بالعمل الشاق في النار، فإنها تسلسل بالسلاسل، وتربط وتوضع في أيديها وأرجلها الأغلال، وتضربها

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤ / ٣٨١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤ / ٣٨٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤ / ٣٨٢).



الملائكة، وقيل: متعبة بالعمل بالدنيا ولا أجر لها إلا النصب والتعب، لأنها كانت تعمل على خلاف شريعته أو بدون إخلاص، ثم في الآخرة تدخل النار^(١)، ويمكن الجمع بين القولين، فأهل النار ينصبون ويتعبون فيها بالأعمال الشاقة، وهم في الحقيقة من كانوا يعملون أعمالاً غير صالحة في الدنيا، فلم يؤجروا عليها بل عوقبوا بسببها.

ثم قال: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) **أي:** هذه الوجوه والمقصود أصحابها يدخلون النار ويحرقون فيها، ووصف النار بأنها حامية **أي:** شديدة الحرارة، فإذا دخلت النار أصابها العطش من شدة الحرارة، فتبحث عن الماء ليروي ظمأها، ف﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ﴾ (٥) **أي:** شديدة الحرارة، قد بلغت في الشدة أعلاه، وهم في هذه الحالة من شدة الحرارة، وشدة العطش؛ فإذا أرادوا الشرب واقترب الماء الحار من وجوههم؛ سقط لحم وجوههم من شدة حره، **كما قال:** ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] **أي:** يشوي وجه الشارب بحرارة الهواء الذي يتصاعد من فورة الماء أثناء غليانه، فكيف بالماء نفسه؟!، والعياذ بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) **يعني:** إن عطشوا شربوا من الماء الحار الذي يشوي الوجوه ويُقطع الأمعاء، وإن جاعوا لم يجدوا طعاماً إلا الضريع، وهو نوع من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته، وهو سم قاتل^(٢).

(١) ينظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٤٠).



ثم وصفه بقوله: ﴿لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٧)، لا ينفع الجسد، فلا يوجد فيه مادة غذائية، بل يؤذي بسمه القاتل وشوكة الشديد، وقد كانت العرب آنذاك تمنع إبلها أن ترعى هذا النوع من الشجر؛ لأنه يؤذيها وهو أخضر، فإذا يبس صار ساماً، فجعله الله نموذجاً لطعام أهل النار، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نموذجاً آخر لطعامهم في آية أخرى وهو شجرة الزقوم، وهي شجرة خبيثة، كما قال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ (٦٥) ﴿فَأَنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا أَبْطُونَ﴾ (٦٦) [الصافات: ٦٤-٦٦].

وقد يقول القائل: كيف يوجد في النار نباتات وأشجار؟! **الجواب:** الذي أبقى جسد الكافر في النار لا يموت ولا يحيا، ويظل يحترق فيها؛ هو الذي جعل الشجرة تنبت في النار وتبقى ولا تحترق، فقدرة الله عظيمة، وإنما يستبعد ذلك الإنسان الذي لا يؤمن بعظمة الله ولا بقدرته، بسبب قياسه بعقله الأشياء في الدنيا على الأشياء في الآخرة، وهو قياس فاسد؛ لاختلاف الدارين والحياتين، فالحياة في الآخرة تختلف عن الحياة في الدنيا، فالواجب هو الإيمان بما أخبر الله عنه، والإيمان بأنه لا يقف أمام قدرة الله شيء، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء!!

ثم انتقل إلى الحديث عن الفريق الثاني، وهم المؤمنون، فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ

﴿٨﴾، أي: متعمة يظهر عليها النعيم **بعلامتين: الأولى:** إضاءة الوجه وإسفاره وضحه واستبشاره، **والثانية:** نضرتة وجماله، فالنضرة الجميلة الناعمة أثر من آثار النعيم للجسد، وخص الوجوه بالذكر؛ لأن الوجه أشرف ما في الإنسان،



وهي وجوه المؤمنين الصادقين في الدنيا، فربما تعبوا في الدنيا، وأصابهم ذل الفقر، وذل الحاجة، وذل المرض، وذل الظلم من الظلمة والمجرمين، وربما استهزأ بهم الناس، وربما كانوا ضعفاء غير مُعتنى بهم، ولكن الله عوضهم في الآخرة عن ذلك كله، بنعيم عظيم يظهر أثره في وجوههم؛ لأن الله كريم عدل رحيم، لا يجمع على عبده ذل الدنيا وذل الآخرة، وفقر الدنيا وفقر الآخرة، وخوف الدنيا وخوف الآخرة، فليطمئن من يشعر بهذا في الدنيا من الفقراء والمرضى والمظلومين ومن عليه أذية من غيره، أنه سيأتي يوم يُنصف الله الخلق، ويعوضهم ما فاتهم أو أصابهم في الدنيا بنعيم مقيم في جنات النعيم.

ثم وصف هذه الوجوه بقوله: ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾، فهذه الوجوه الناعمة المشرقة الفرحة المسرورة بقاء الله والفوز بجناته، لما ترى جزاء عملها الصالح الذي عملته في الدنيا؛ ترضى به، والمقصود بالسعي هنا جزاء العمل وثوابه، فالعمل كان في الدنيا، والذي يأتيك في الآخرة هو أجر السعي وثواب العمل، فعندما تُشاهد في صحائفك أجر العمل وثوابه؛ تشعر بالرضى، لأن الله أعطاك وزادك، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف!!، فيحصل الرضى للمؤمن عندما يجد ثواب أعماله؛ لأنها من كريم وجواد وعظيم منحه فوق ما يستحق بأضعافٍ مُضاعفة!!

ثم بين منزلة هذا المؤمن ومكان نزوله في الآخرة، فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، أي: يسكن في جنة عالية المكان، عالية المكانة، فالجنة درجات ما بين الدرجة والدرجة مسافة خمسمائة عام، **وجاء في الحديث: "أن أهل الجنة ينظرون إلى**



من فوقهم، كما ينظر أحدكم الكوكب الغابر في السماء"^(١)، فبين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، فالذي يعلوك بدرجة يكون فوقك بمقدار علو السماء من الأرض وتشاهده كما تُشاهد النجم الغابر في السماء، فهذا العلو في الجنة؛ فيمنحه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، لعلو إيمانهم وعلو مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى.!!

ثم ذكر الله لنا بعض أوصاف هذه الجنة، فقال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾^(١١)، لا تسمع فيها لساناً تلغو، **واللغو هو: الكلام الباطل**^(٢)، فيشمل الكذب والسب والشتم وقول الزور والكلام الذي لا فائدة منه، فكلام أهل الجنة كله طيب، فالجنة ومن فيها وما فيها كله طيب، فلا تسمع فيها إلا التسييح والذكر والسلام والكلام الطيب.!!

ثم قال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾^(١٢)، (عينٌ) هنا اسمُ جنس، **أي: أعين، وهي:** عُيون الماء التي تجري بدون أحاديث ولو أردت في الجنة عيناً في مكان معين؛ لظهر لك ذلك على حسب طلبك، فالجنة كل ما فيها خاضع لأوامرك وتوجيهاتك، فأى شيء تطلبه تجده على حسب طلبك بمواصفاتك التي تريد، وهذا من فضل الله وكرمه عليك، فبقارن أيها العبد بين نعم الدنيا التي تتعب في تحصيلها ولا تكون على وفق ما تريد، وبين نعم الجنة التي تحقق لك حسب رغبتك بدون تعب على وجه التمام والكمال، **كما قال الله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**^(١٣) [الزخرف: ٧١]، وفي

(١) رواه البخاري: (١١٩/٤)، برقم (٣٢٥٤) بنحوه.

(٢) ينظر: لسان العرب (٢٥١/١٥).



الحديث: "أعددت لعبادي في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"^(١)، فهل من مُشَمِّرٍ إليها من الآن؟! فإذا ذُكرت الجنة فشمر لها ونافس غيرك عليها، وابتعد عن المعاصي والمنكرات، واعمل الطاعات، وأكثر من الاستغفار والتوبة، واستعد، فالجنة لا تدخلها إلا نفسٌ مؤمنة، والتنافس على درجاتها يكون بالأعمال الصالحة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الفردوس الأعلى.

ثم قال: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾^(١٣)، **السُرر** جمعُ سرير، **والسرير هو:** المكان الذي يُعد للنوم عليه، ومرفوعة **أي:** مُرتفعة، فإذا أراد الشخص أن يجلس عليها نزلت له، وارتفاع الأسرة حتى يكون الجالس عليها في مكانٍ مرتفع يرى فيها نعيم الجنة بوضوح، وإنما رُفِعَ له السرير لمكانته عند الله، وحتى يأتي عليه الحشم والخدم والولدان فيُناولونه ما يرغب فيه إلى تلك الأسرة وهو مُعزز ومُكْرَّم!!

ثم قال: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾^(١٤)، **الأكواب** جمع كوب وهو: الكأس الذي لا عُروة له، ولا أذن له^(٢).

و﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ إما مُخصصة لصاحبها، فهذا كأس فلان، وهذا كوب فلان، وإما موضوعة بين يديه وضعها الغلمان، فلا يحتاج إلى أن يطلبها فهي جاهزة، وإما موضوعة **أي:** مُقتدرة في الحجم، بحسب رغبة الشارب، يوفر طلبه بطريقة

(١) رواه البخاري (٤/١١٨)، برقم (٣٢٤٤).

(٢) ينظر: العين (٥/٤١٧).



جمالية مُشوّقة، لأن الشرب فيها نوع من النعيم وليس للحاجة أو بسبب العطش، فكل ما في الجنة للتمتع؛ تتمتع بالشرب، وتتمتع بالكأس، وتتمتع بالجلوس، وتتمتع بالنوم، وتتمتع بالنظر، وتتمتع بكل شيء، فالجنة دار التمتع، ولا تشبه متعة الدنيا إلا في بعض الأسماء فقط!!

ثم قال: ﴿وَنَارُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥)، **النمارق:** هي الوسائد التي تضعها عند ظهرك أو تتكى عليها^(١)، وهي وسائد مرتبة بطريقة جمالية عجيبة تراها الأعين فترتاح لرؤيتها، فكيف لو اتكأت عليها أو لمستها؟!

ثم قال: ﴿وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٌ﴾ (١٦)، **الزرابي:** البُسط التي تُفرش بين يديك، ومبثوثة، أي: منتشرة في قصرِك كله، فليست واحدة أو اثنتين، بل بالمئات، وهذا يدلُّ على عمق النعمة وسعتها، وكرم الله في منحها لعباده، وعُد بخيالك إلى قبل ألف وأربعمائة سنة حينما سمع هذا الخطاب العربي الذي كان يجلس على الحجر، أو على التراب أو الحصباء، فقد كان مسجد رسول الله ﷺ مفروشاً بالحصباء، وأحسن شخص من كبار القوم كان عنده حصير من سعف النخل يجلس عليه، وربما فيه بعض الشوك، فهذا الحديث لأولئك القوم بوصف الزرابي والوسائد والفُرُش والأرائك والأسرة، يجعل نفوسهم تطير إلى الجنة وتشتاق لها، ومهما شاهدت اليوم من أنواع النعيم الذي يُوجد الآن في الفلل والفنادق والأماكن الراقية، فإنه لا يُساوي شيئاً مما أعدّه الله لعباده في الجنة!!

وبهذا يكون الله قد وصف لنا حال أهل النار، وحال أهل الجنة، ليقول لنا

(١) ينظر: تاج العروس (٢٦/٤٣٩).



هذا طريق أهل النار، وهذا الطريق أهل الجنة، وأنتم اختاروا أي الطريقين تسلكون، فالعاقل سيختار طريق الجنة، ومن طُبِعَ على قلبه وأغواه الشيطان سيختار طريق النار، والعياذ بالله!!

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧)، ما وجه التناسب بين المقطع الأول والثاني من السورة؟! **الجواب:** في المقطع الأول حدثنا بكلام غيبي لا تراه العيون، وإنما نسمعه، والكلام الغيبي لا يُصَدِّقُهُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِاللَّهِ ويعتقد بقدرة الله وعظمته؛ **فدلهم في المقطع الثاني** على مخلوقاته التي يرونها بأعينهم؛ ليتعرفوا من خلالها على قدرة الله وعظمته، فالذي خلقها وأوجدها بهذه العظمة، وبهذه الصفات؛ فهو كذلك خالق وموجد الجنة والنار التي سمعت وصفها ولم ترها عينك بالدنيا وهي حق لا شك فيه!!

وسؤال آخر، يقول: ما هي العلاقة بين الأشياء الأربعة التي ذكرت في هذا المقطع، وهي: الإبل والسماء والجبال والأرض، ولماذا جمعهم؟! **الجواب:** قيل: إن (الإبل) بتشديد اللام هو: السحاب الذي يحمل الماء^(١)، وبهذا التفسير يظهر التناسق بين السحاب والسماء والأرض والجبال، وقيل: الإبل، هي الإبل المعروفة، وهي الجمال^(٢)، وإنما وُصِفَتْ بالسحاب في بعض الأشعار، على سبيل التعظيم لها، والعلاقة بينها: أن الأعرابي يركب جملة ويمشي في الصحراء، فلا يرى فوقه إلا سماءً، ولا يرى حوله إلا جبلاً، ولا يرى تحته إلا أرضاً، فلو

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٧٤).



أعمل فكره في هذه الأربعة؛ لدلّته على الخالق القادر سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧)، طلب منهم أن يتفكروا في الإبل؛ في خلقها، وطريقة عيشها، وطريقة مشيها وفي تحملها وصبرها، وفي تسخير الله سبحانه وتعالى لها.

ثم قال: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨)، ويتأملوا في السماء، كيف رفعت بغير عمد، وأن الله أتقن خلقها، فلا تجد فيها ثقباً ولا خللاً.

ثم قال: ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩)، أي: ويتفكروا في الجبال، كيف نصبها الله في الأرض، وجعلها أوتاداً ثبّت الأرض؛ فلا تميل ولا تضطرب.

ثم قال: ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠)، ويتأملوا في الأرض كيف مُدت وجعلها مسطحة، وقد يقول قائل: كيف الجمع بين هذه الآية، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]؟ **والجواب:** أن معنى دحاهها، أي: جعلها مثل البيضة، فهي كروية مُسطّحة؛ ولا يتعارض التسطّيح مع الكروية إلا عندما يكون حجم الكرة صغيراً، أما الكرة الأرضية فحجمها كبير جداً، فيظهر السطح فيها رغم كرويتها^(١)، وقد أثبت العلم الحديث أن الأرض كروية، فالحمد لله.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١)، **أي:** ذكّر قومك يا محمد فوظيفتك هي التذكير، فذكر الناس، وأرشدهم ووجههم إلى الحق.

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٥/١٩).



﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢٢) وهذه مثل قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]، فلست مسؤولاً أن تُسيطر عليهم حتى يؤمنوا، أو أن تُجبرهم على الإيمان وقبول دعوتك، بل وُصِّل لهم الحق، وبيِّن لهم الطريق، ولست مسؤولاً عن إدخال الإيمان إلى قلوبهم بالقوة والإكراه.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] فالهداية بيد الله وحده، وعليك أنت الدلالة والإرشاد والتذكير فقط.!!

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣)، إلا، أداة استثناء، والاستثناء هنا منقطع^(١)، بمعنى المُستثنى هنا ليس جزءاً من المُستثنى منه، ومعنى إلا هنا: لكن، فيلتحق اللفظ بالذي بعده وليس له علاقة بالذي قبله، فيكون المعنى: لست عليهم بمُصيطر، فمن آمن فله الجنة.

ومن أعرض وكفر ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤)، أي: فمصيره إلى العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، **كما قال:** ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (١٢) [الأعلى:١٢]، **وقوله:** ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١]، فالعذاب الأكبر هو عذاب جهنم وهي دركات سُفلى، كلما نزلت أسفل؛ كلما كان العذاب أشد وأكبر، والعياذ بالله.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥)، فهؤلاء الكفار المعرضون البعيدون عن الإيمان مرجعهم إلى الله وحده، لا إلى غيره، وهو عودتهم بعد

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٩١).



الموت؛ فيحاسبهم.

كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾، فهو سبحانه من سيتولى حسابهم، لا أحد غيره جلّ وعلا، وهذا نوع من التهديد والوعيد لهم، والمعنى أين تذهب منا، فمصيركم إلينا وحسابكم عندنا؟!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- وصف الله لنا حال أهل النار، وحال أهل الجنة، ليقول لنا: هذا طريق أهل النار، وهذا طريق أهل الجنة، وأنتم اختاروا أي الطريقين تسلكون. فالعقل سيختار طريق الجنة، ومن طُبع على قلبه وأغواه الشيطان سيختار طريق النار، والعياذ بالله!!

٢- أرشدنا الله للنظر والتأمل في المخلوقات العظيمة لتدلنا على وجود الخالق وعظمته وقدرته.

٣- أن مهمة الأنبياء والدعاة إلى الله هي الدعوة والبلاغ، ولا سلطان لهم على قلوب الناس حتى يُدخلوا الإيمان إليها، فالهداية بيد الله يمنحها من يشاء!.



تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسَرَ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
 حَبْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ٨
 وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ١١ فَأَكْثَرُوا
 فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ مُرْصِدٍ ١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ
 إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ،
 فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرَمُونَ ١٧ الْيَتِيمَ ١٨ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ
 ١٩ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ٢٠ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢١ كَلَّا إِذَا
 دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢٢ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٣ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
 يِذْكَرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٤ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي ٢٥ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ
 عَذَابُهُ أَحَدًا ٢٦ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا ٢٧ يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٨ أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً
 مُرْضِيَةً ٢٩ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ٣٠ وَادْخُلِي جَنَّتِي ٣١

شخصية السورة:

سورة الفجر؛ سورة مكية^(١)، ومقصدها الأعظم التركيز على مشاهد العظمة

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٧).

والقدرة الإلهية في هذا الكون وفي أحوال الناس، وبيان عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين^(١).

ابتدأها الله سبحانه وتعالى بالقسم بعدة أمور، فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾، الواو حرف قسم، والفجر، مُقسمٌ به، والمقصود بالفجر؛ زمن الفجر الصادق^(٢)، **وَسُمِّيَ فجرًا؛** لأنه بظهوره يتفجرُ النور ويظهر الضياء وتذهبُ الظلمة، **كما قال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤﴾** [المدر: ٣٤]، **أي:** بان وظهر، **وقال آخرون:** بل أقسم الله تعالى بصلاة الفجر، وذلك لمكانتها وأهميتها وأنها موعدٌ لاجتماع الملائكة الذين يتناوبون في الخلق^(٣)، والأول أرجح للسياق بعده.

وقوله: ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ ٢﴾ أقسم بالليالي العشر، وفي تعيينها أقوال^(٤): **قيل:** هي عشرُ ذي الحجة، **وقيل:** العشر الأواخر من رمضان، **وقيل:** إنها العشر الأولى من شهر محرم، وكل قولٍ أدلُّه، فمن قال هي ليالي العشر الأواخر من رمضان؛ فلأن فيها ليلة القدر، والله تعالى هنا أقسم بالليالي ولم يُقسم بالأيام، والمشهور عن عشر ذي الحجة أنها أيام، فيقال: أيام عشر ذي الحجة، **وفي رمضان يُقال:** ليالي العشر الأواخر، ولا شك أن كل واحدة من العشر لها مكانة وعظمة عند الله سبحانه وتعالى، ففي عشر ذي الحجة يوجد يوم عرفة ويوم

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٢١-٢٢).

(٢) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٣٣٤).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/١٤٨).

(٤) ينظر: تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/٣٩٦)، وتفسير ابن عطية (٥/٤٧٦)، وتفسير الألوسي

(١٥/٣٣٤).



النحر وهما أفضل الأيام على الإطلاق، **ومن قال:** المقصود بها العشر الأواخر من رمضان، ففيها ليلة القدر، وقد جمع بعض أهل العلم في الأفضلية فقال: أفضل الليالي؛ ليالي العشر الأواخر من رمضان لوجود ليلة القدر فيها، وأفضل الأيام؛ أيام عشر ذي الحجة لوجود يوم عرفة ويوم النحر فيها^(١)، فأقسم الله تعالى بهذه أو تلك، **وأضعف الأقوال من قال:** إنها العشر الأولى من شهر محرم قبل أن يفرض صيام رمضان؛ لأن الناس كانوا يصومون فيها اليوم العاشر من شهر محرم الذي نجى الله فيه موسى، وقد هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فوجدهم يصومون؛ فأمر بصيامه^(٢)، فكان واجباً في بداية الإسلام، فلما فرض رمضان أصبح صوم عاشوراء مستحباً^(٣)، والقول الأول هو الراجح^(٤).

وقوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾، وأقسم الله تعالى بالشفع والوتر، **والوتر والوتر**، بمعنى واحد، وهما قراءتان^(٥)، وقد ذكر بعض المفسرين في المقصود بهما عشرين قولاً^(٦)، **والصحيح** أن المقصود بالشفع والوتر: الزوج والفرد من الخلق مطلقاً^(٧)، فيشمل جميع مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وما ذكر من

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٤٧٧).

(٢) رواه البخاري: (٤٤/ ٣) برقم: (٢٠٠٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣/ ٤١٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٩٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٠٠).

(٦) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٩).

(٧) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٠٠).



الأقوال فيهما إنما هي على سبيل التمثيل، وأن الشفع المقصود به الزوج من كل شيء، والوتر المقصود به الفرد من كل شيء، وفي الحديث: "إن الله وترٌ يحب الوتر" (١).

وقوله: ﴿وَالْيَلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ (٤) وقسمٌ أيضًا بالليل حال سريانه وسيره، مثل قوله: ﴿وَالْيَلِ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧]، أي: أقبل وأدبر، فأقسم الله تعالى بالليل إذا جاء واستمر أو أدبر وذهب، فهذه الأقسام الأربعة، وجوابُ القسم لها، قيل: محذوف، ولكنه يفهم من السياق، وتقديره: لتُبْعَثُنَّ أيها الكفار المُكذِبون ثم لتُحَاسَبُنَّ على ذلك التكذيب يوم القيامة، كما عَذِبَ فرعون وثمرود وعاد؛ لأنه ذكر بعد هذا القسم قصة ثمود وعاد وفرعون وما جرى لهم (٢)، وقيل: إن جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ (١٤)، فأقسم الله سبحانه وتعالى على أنه يرصد ويرقب أفعال الكافرين المُكذِبين ليعاقبهم متى شاء، وما بين نهاية القسم وجوابه جُمْلٌ اعتراضية ذُكرت للتوضيح (٣)، وهو قولٌ وجيه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (٥)، هل في ذلك القسم الذي سبق كفاية وحجة لصاحب العقل، وسُمي العقل حِجْرًا؛ لأنه يحجر صاحبه عن القبائح (٤)، ولذلك فالمجنون يفعل كل قبيح، والأبله يفعل أشياء

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٦٢)، برقم (٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٧٨).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٣٩).

(٤) ينظر: مقاييس اللغة (٢/١٣٨).



غير لائقة، ومثله السكران إذا سكر وذهب عقله، فإنه يفعل أشياء غير لائقة، أما من كان عاقلاً متزناً فإن عقله يحجره عن القبائح، وعما لا يليق أن يفعله، والمعنى: أن من أعمل عقله وتفكر في هذا القسم وغيره؛ كان ذلك مقنعاً وكافياً له لمعرفة الحق، أما من كان في عقله خلل أو خبل، أو لم يستخدم عقله في التفكير والفهم والاستيعاب؛ فلا يكفيه ولا يغنيه ذلك القسم ولا غيره!!

ثم قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ

﴿٦﴾، وهذا السؤال هل هو سؤال استفهام أم تعجب؟!

وما الفرق بين سؤال التعجب والاستفهام؟! سؤال التعجب أن تسأل عن شيء وأنت تعرف إجابته من قبل، بينما سؤال الاستفهام تحتاج إلى جواب له، وليس المقصود بالرؤية هنا البصرية، فإن محمداً ﷺ لم ير ما جرى لعاد ولا لثمود ولا لفرعون؛ لأنهم كانوا في أزمان متقدمة، بل المعنى: ألم يأتك علم وخبر هلاك هؤلاء القوم؟! وقد كان عند العرب بعض أخبار يسيرة عن الأمم السابقة، وفيها بعض الأساطير والزيادات والنقصان، فجاء القرآن الكريم بالخبر اليقين عن الأمم السابقة وعن رسلها وعن أقوامها وما جرى لهم في الحال والمآل، فأخبر الله رسوله ﷺ بالوحي عن تفاصيل تلك الأقوام، وهذا يدل على أن السؤال استفهامي، **كما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**

﴿١﴾ [الفيل: ١]، وعادهم قوم هود، وكانوا يعيشون في جنوب الجزيرة العربية بين صحراء حضرموت وعمان، وهي المنطقة التي تسمى بالأحقاف، وقد ذكر هنا شيئاً من أخبار عاد بإيجاز.



وقد جاءت في سُور أخرى بالتفصيل^(١)، فذكر هنا أن عادًا هي: ﴿إِرَمَ ذَاتِ
الْعِمَادِ﴾^(٢)، و(إِرَم) هي قبيلة عاد، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى جد عاد
الثالث، **فإن عاد اسمه**: عاد بن عَوْصٍ بن إِرَم بن سام بن نوح^(٣)، فعاد رجل
وهؤلاء من ذريته، **فإذا قيل**: عاد، فهو الشخص وذريته، **وإذا قيل**: إِرَم فالمقصود
جده الذي هو اسم للقبيلة التي يتنسب إليها عاد، ووصفها بأنها ذات الأعمدة
الطويلة التي تُنصب عليها الخيام، وذلك لطول وكُبر أجسامهم، أو أن تكون
العماد المقصود بها الأعمدة التي بُنيت عليها بيوتهم، كما هو مشاهد من بقايا
بيوتهم التي ما زال موجوداً بعض آثارها^(٤).

ثم وصفها بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ﴾^(٥)، **أي**: لم يُوجد مثل بيوتهم
أو مثل قوتهم أو مثل أجسادهم في البلاد، فهم أصحاب قوة وأصحاب أجساد
عظيمة، وأصحاب بُيوت واسعة، وأعمدة مُرتفعة، فهم قد امتازوا عن غيرهم
بهذه الصفات، ولم يخلق الله تعالى شيئاً لهم في ذلك المكان!! وقد أهلكهم
الله بالريح الصرصر العاتية، لما كذبوا رسولهم هود.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٦)، ألم تعلم كيف فعل
رُبُّكَ بتمود؟! وهم قوم صالح، وموضعها الآن في منطقة العُلا بين تبوك
والمدينة المنورة، فهم أيضاً ضمن سكان جزيرة العرب، وقد وصفهم الله

(١) كالأعراف وهود والشعراء والأحقاف.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص: ٣٢٨).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٤٠).



سبحانه وتعالى بشدة بأسهم في بناء البيوت، ومدائن صالح ما زالت موجودة إلى الآن، وهي من الآثار العظيمة، فيبوتهم منحوتة في داخل الصخر، فقد كانوا يقطعون الصخر، ويصنعون من هذا الصخر بيوتاً، فبُيُوتُهم منقورة ومحفورة داخل الصخور، وذلك من شدة قوتهم وبأسهم، **والواد** هنا هو وادي القرى المعروف الآن في تلك المنطقة^(١)، **والمعنى**: عمروا بيوتاً في داخل الصخور في وادي القرى المعروف للعرب آنذاك، وقصتُهم معروفة، وهم الذين عقروا الناقة وكذبوا رسولهم صالح، فأهلكهم الله بالصيحة، **كما قال**: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

ثم أخبر سبحانه عن المجموعة الثالثة من الكفار، فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ﴿١٠﴾
ألم تعلم كيف فعل ربك بفرعون ذي الأوتاد؟!، وهو الملك الذي كان يحكم مصر أثناء حياة موسى، وإن كان فرعون لقب يُطلق على كل من يملك مصرًا، وقد وصف الله عظمة هذا الكافر بأنه صاحب الأوتاد، والمقصود بالأوتاد عدة أقوال، منها: أنها الأهرامات الموجودة الآن في مصر^(٢)، وهي من بقايا الفراعنة، وسميت أوتادًا؛ تشبيهاً لها بالجبال التي هي أوتاد الأرض، **وقيل**: إن المقصود بالأوتاد: الأماكن التي يُعذب فيها بنو إسرائيل، فكان يربطُهم إلى أوتاد ويُعذبهم بها حتى الموت، **وقيل**: أن الأوتاد المقصود بها الجنود الذين يُثبتون مُلكه، كما تُثبت أوتاد الحديد الخيام، أو كما ثبت الجبال الأرض، وما كان لفرعون أن

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥ / ٣٣٩).



يُثْبِتُ مُلْكُهُ لَوْلَا جُنُودُهُ الشَّدَادُ الْكَثِيرُ^(١)، **وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ** إنها كلها تصلح أن تكون داخلية في معنى الآية، فلا تعارض بينها، وكلها كانت متوفرة عند فرعون، فقد كان يبني الأهرام، وكان معه الجنود، وكان يُعَذِّبُ النَّاسَ بِالْأَوْتَادِ، وكل واحد من المفسرين ذكر نوعاً من أنواعها!!

ثم قال في وصفهم جميعاً: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾^(١١)، **أي:** تجاوزوا الحد، فإن الطاغية: هو المتجاوز للحد في الظلم والجبروت.

وقوله: ﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾^(١٢)، فهم جميعاً قد أكثروا في الأرض الفساد، وتجاوزوا حدودهم كمخلوقين، فمنهم من ادعى الألوهية، **ومنهم من قال:** من أشد مناعة، وهذا كله من الطغيان وتجاوز الحد والفساد في الأرض، لأن الطغيان عادة يؤدي إلى الفساد، **كما قال:** ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(١٣)، [الحاقة: ١١]، فطغى، **أي:** فاض على شكل طوفان يفسد ما يمر عليه من المزارع، ويغرق ما يمر عليه من البيوت، فكأن هؤلاء القوم لكفرهم، وكثرة تجاوزهم في الجبروت والظلم، وقع بسببهم الفساد الكثير في البلاد؛ كثرة لطغيانهم، والفساد ضد الصلاح، سواء كان ذلك في العقائد مثل الشرك والنفاق، أو كان ذلك في الأموال مثل أخذها ونهبها، أو كان في الأعراض مثل هتكها أو الطعن فيها، فهذا كله يُسمى فساداً!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾^(١٤)، **أي:** بسبب فسادهم وطغيانهم أمهلهم الله فترةً، حتى إذا جاء موعد هلاكهم؛ صبَّ عليهم ربُّك عذاباً

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/٤٠٩-٤١٠).



شديداً، فالله سبحانه وتعالى عذابه شديد، وعذابه أنواع، فهناك عذاب دُنْيَوِي، وهناك عذاب أُخْرَوِي، وعبر هنا بسوط عذاب، ومعناه أن الله سيأطاً كثيرة، والسوط هو الذي يُضْرَبُ به، فأعطاهم الله أحد هذه الأسواط التي أعدت لعذابهم، وهو إهلاكهم إما بالريح، وإما بالصيحة، وإما بالإغراق، فهذا السوط الأول، وهو عذابهم وهلاكهم في الدنيا، وهو يسير بالنسبة لعذاب الآخرة، **كما قال: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [السجدة: ٢١]، فهذا سوط الله فيهم **أي:** عذابه ونكأله الدنيوي الذي حصل لهم بسبب كفرهم مع ما ينتظرهم من أسواطٍ شديدة وعذابٍ أليم في الآخرة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصَادِ﴾، الخطاب فيه لرسوله ﷺ، إن ربك يا محمد يرصد ويراقب ويرقب هؤلاء الكفار، وهي عبارة تهديد ووعيد لمن يسمعها من الكفار وغيرهم، **والمعنى:** يا كفار قريش، يا مكذبين رسول الله، يا مؤذنين عباد الله المؤمنين، فهل أنتم أقوى من عاد وثمود وفرعون؟! فكأنه يُشير إلى أن الله قد أهلك هؤلاء الجبابرة الأقوياء الكبار، بسبب تكذيبهم وكفرهم، فمن أنتم حتى لا يهلككم كما أهلكهم؟!، وفيه إشارة أيضاً إلى أن الله مُحِيطُ بخلقهِ، وأنه يُمَهِّل ولا يُهْمَل، لعلمهم أن يتوبوا، وهو سبحانه يرصد أعمال الناس ويراقبها من أجل أن يُجازي كل واحد بما يستحق، فأهل الإيمان يُجازون بالجنة والنعيم، وأهل الكفر والضلال يُجازون بالأخذ العزيز في الدنيا والنار في الآخرة!!

ثم جاء الحديث بعد ذلك عن قضية جديدة، يذكر فيها الله سبحانه وتعالى الميزان



المتعارف عليه عند البشر، **فقال:** ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦)، وخلاصة هذا** الميزان، أن الله إذا أكرمك بالمال والرزق والعيال والمنصب، فمعنى ذلك أنك عند الله كريم، وأن الله إذا قدر عليك الفقر والمرض والحاجة، فمعناه أنك عند الله مُهان وغير مكرم، فصار هذا المقياس الميزان عند الخلق في التكريم، هو العطاء، وفي الإهانة هو المنع، فمن أعطاه الله مالاً وجاهاً وأولاداً وسلطاناً فهو كريمٌ على الله، ومن لم يُعطه ذلك وأُصيب بالفقر والحاجة ونحو ذلك، فهو مُهانٌ عند الله!!، وما زال هذا الميزان موجوداً عند كثير من الناس إلى اليوم!!، وهو ميزان باطل عند الله وفي شرعه، **ولذلك عقب عليه بقوله:** ﴿كَلَّا﴾، أي: ما تقولونه غيرٌ صحيح، فليس إعطاءُ الله الدنيا لأحدٍ من خلقه، دليل على كرامته عند الله، وليس فقر العبد في الدنيا دليل على إهائته عند الله، فإن الله يُعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب، ولا يُعطي الدين إلا من أحبه، وأن العطاء والمنع ابتلاء، فإن الله يبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء وبالخير وبالشَّر، **كما قال:** ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥) [الأنبياء: ٣٥]، فالإهانة والإكرام ليست بمنع ولا عطاء، بل بالتقوى، **كما قال:** ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنَقَّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالعطاء والمنع اختبار للعبد، يختبره الله بالغنَى؛ لينظر هل يشكر، ويختبره الله بالفقر؛ لينظر هل يصبر، فكلاهما ابتلاء، كما نص عليه في الآيتين، **فقال:** ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥)، فالصنف الأول من الناس: اختبره بالنعمة فأعطاه منها وأظهرها عليه، سواء



كانت نعمة المال أو الولد أو الجاه والسلطان وغيرها؛ فإذا به يغتر بها، ويقول
غيره: أعطاني الله ولم يُعطك، وأكرمني ولم يكرمك.!!

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلْكُهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦)، والصنف الآخر

من الناس: اختبره الله بالمنع فقدر، **وفي قراءة^(١):** قَدَّر، بالتشديد، بمعنى ضيق،
مثل قوله: ﴿قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ضيق عليه في رزقه، فصار فقيرًا
مُحتاجًا، فإذا هذا الإنسان الفقير يقول لغيره: لقد أهانني ربي؛ لأنه ما أعطاني
رزقًا، ولو كان الله يُريد إكرامي لأعطاني رزقًا، وهذا دليل على جهله بالله، فإن الله
حكيم، ومن حكمته أنه يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء لحكمة، **وقد جاء في**
الأثر: أن بعض الناس من لو أغناه الله لفسد، وبعض الناس لو أفقره الله لفسد^(٢)،
فأحيانًا يكون الفقر سببًا للفساد، وأحيانًا يكون الغنى سببًا للفساد، والله عليم
بحال العباد، حكيم في أفعاله بهم.!!

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧)، أي: إن واقعكم

وحالكم حتى ولو أعطاكم الله مالًا، فأنتم لا تستخدمون هذا المال في وجوهه
الصحيحة، بدليل أن سيرتكم مع اليتيم غير حميدة، فإذا كان لديكم يتيم
مُستضعف مُحتاج لا تُكرمونه ولا تُعطونه مما أعطاكم الله، ولا تُحافظون على
ماله إن كان له مال لديكم، فإن إكرام اليتيم يكون بحفظ ماله، والتعامل معه
برفق، وإعطائه مما أعطاك الله سبحانه وتعالى إن كان فقيرًا مُحتاجًا.

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤١٣/٢٤)

(٢) ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: (٢٥٦/٤).



ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْضُوتْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨)، وكذلك سيرتكم غير حميدة مع المسكين، والمسكين هو الذي عنده شيء لكن لا يكفيه (١)، ومن دونَه هو الفقير، وهو الذي ليس عنده شيء، فالفقير أقل رتبة من المسكين (٢)؛ فلا يحث بعضكم بعضًا على الإحسان إليهم بالطعام والشراب ونحوها، وهو ما يُسمى اليوم بالتكافل الاجتماعي، **بمعنى:** أنهم كانوا مجتمعًا متفككًا غير متعاون ولا متراحم!!

ثم قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩)، ومن طمعكم أيضًا أنكم تأكلون الميراث، فلو كان عند هذا اليتيم ميراث؛ لأكلتموه عليه، وقسمتموه فيما بينكم، ولم تحفظوه له حتى يبلغ، بل تستغلون ضعفه وقلة خبرته؛ فتبددون ماله بأي صورة، وأكد الفعل هنا ليدل على أنهم حريصون على أكل ماله بأي صورة.

وقوله: ﴿لَمًّا﴾ أي: أكلاً شديداً، بحيث تلمونه كله، ولا تتركون منه شيئاً، وهذا يدل على أنه ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة، وأنهم إذا وصلوا إلى مال الضعيف أخذوه كله!!

ثم قال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠)، والذي دفعكم إلى هذا كله هو حبكم للمال، حباً كبيراً أو كثيراً، حتى دخل إلى شغاف قلوبكم، فلم يدع لكم مجالاً للرحمة ولا للشفقة، ومن كانت هذه صفاته فقد فسد ميزانه للأمر، وأصبح مشغولاً بالمال يبحث عنه من أي مصدر كان، من حلال أو من حرام،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٣٥٥).

(٢) ينظر: تاج العروس (١٣/ ٣٣٦).



فلا يرحم فقيرًا ولا يُطعم مسكينًا، ولا يقبل حقًا.!!

ثم قال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ (١١)، **كلا**، كلمة ردع وزجر لقبائح أعمالهم السابقة من أكل حقوق الأيتام، وعدم الحث على إطعام المساكين، وأكل المال بغير حق، وستجدون عاقبة هذا الفعل القبيح عند قيام الساعة التي من علاماتها: أن الأرض تُدك، وتزلزل وتُبس الجبال بسًا فتُصبح هباءً منبثًا، فتصبح الأرض مستوية، **كما قال:** ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٧) [طه: ١٠٧]، ثم يحشر الناس كلهم إلى أرض المحشر.

وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢)، **أي:** أن الله سبحانه وتعالى يجيء للفصل بين العباد، مجيئًا يليق به سبحانه وتعالى، لا نعرفُ كيفيته، ولا يجوز أن نكيّف هذا المجيء، ولا أن نُنكره، لأن القرآن أثبتّه، بل نقول: يجيء الله سبحانه وتعالى للفصل بين العباد يوم القيامة مجيئًا يليقُ بجلاله لا يُشبهه مجيء خلقه، فليس كمثله شيء سبحانه، ويجيء مع الله سبحانه وتعالى إلى المحشر الملك، يعني: الملائكة، فالملك اسم جنس يعم كل الملائكة، والمقصود به ملائكة كل سماء، فيصرون صفوفًا، بحيث يحجزون ساحة المحشر، فلا يهرب منها أحد، **كما قال:** ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، **أي:** أن تهربوا، فلا تستطيعون لأن وراءهم صفوفًا عظيمة وكبيرة من الملائكة التي تحرسهم.

ثم قال: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَرُ الْإِنْسَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (٢٣)، **ثم** في هذا الجو العظيم الرهيب يُؤتى بجهنم، **وقد جاء في الحديث:** "يؤتى بجهنم



يوم القيامة لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها^(١)، فتكون ظاهرة للناس، **كما قال:** ﴿وُزِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، فإذا بالناس يسمعون شهيقتها وزفيرها، ويرون لهيبها، وفي هذا الوقت العصيب يبدأ الإنسان يُراجع حساباته ويتعظ، ويقر بالبعث والنشور، ويتذكر ما كان يقوله الخطباء والواعظون عن الجنة والنار، ولكن لا فائدة من هذا الاتعاض؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، بل دار جزاء فقط، فلا تنفعه التذكرة ولا التوبة الآن!!.

فيتندم ويتحسر، ويقول: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [٢٤]، حين يرى الحياة الجديدة، ويرى المؤمنين ذاهبين إلى الجنة بسبب أعمالهم الصالحة، وهو مُفلس ليس عنده شيء من أعمال الخير والصلاح، فيندم على حياته التي ضيعها بالكفر والإعراض عن الله، ويتمنى لو أنه اتّعظ في الدنيا وعمل أعمالاً صالحة يقدمها لحياته الجديدة في الآخرة، فلما يقول هذا ويعترف؛ يُؤمر بتعذيبه وتوثيقه **كما قال:** ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ [٢٥] ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ [٢٦]، فتربط يديه إلى رجليه، ويُربط بالسلاسل والأغلال، ثم يُرمى في النار، وهذا العذاب وهذا الوثاق لا يوجد مثله؛ لأنه لا يُعَذِّبُ مثل عذاب الله أحد، ولا يُوثِقُ مثل وثاق الله أحد، فعذابُ الخلق لا يُساوي شيئاً أمام عذاب الخالق!.

ثم ذكر الله حال المؤمنين، فقال: ﴿يَأْتِيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [٢٧]، والمقصود بها جنس الأنفس الموجودة في الحشر التي كانت آمنة مطمئنة بسبب إيمانها وصلاح أعمالها في الدنيا.

(١) أخرج نحوه في صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٤)، رقم (٢٩).



فيقول لها: ﴿أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨)، والمقصود هنا رجوع خاص بهذا الصنف من الناس، فنفسهم راضية، ومرضي عنها، راضية عن حالها وعن ثوابها وجزائها، وعن المكان الذي تسير إليه، ومرضي عنها من قبل الله، فحصل لها الرضى **من جهتين**: من جهتها نحو ربها فقد رضيت بما أعطاهَا، ومن جهة الرب سبحانه فقد رضي عنهم.

ثم يقول لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩)، يأمرها الله أن تدخل ضمن عباد الله الصالحين، وهم الذين سبقوها من الأنبياء والمرسلين وغيرهم.

ثم يأمرها فيقول: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠)، أي: ادخلي معهم جنتي، وهنا أضاف الجنة إليه للتعظيم، وأنها مِنة وفضل وكرم يمنحه الله سبحانه وتعالى النفوس المؤمنة المطمئنة بالعمل الصالح، الراضية بالله وبقضاء الله وقدره في الدنيا!!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- فضل وأهمية العشر الأولى من شهر ذي الحجة.
- ٢- في هذه السورة بيان الميزان الصحيح في مفهوم الرزق، فليس العطاء لأنك كريم عند الله، وليس المنع لأنك مُهان عند الله، وإنما الدنيا تُعطى للإنسان سواء أحببه الله أو كرهه على سبيل الابتلاء.
- ٣- بيان أهمية التكافل الاجتماعي بين الناس.
- ٤- لا ينفع الإنسان التذكر بعد فوات الأوان.



٥- لا أحد أشد عذاباً من الله.

٦- الجنة مِنة وفضل وكرم، يمنحها الله سبحانه وتعالى النفوس المؤمنة المطمئنة بالعمل الصالح، الراضية بالله وبقضاء الله وقدره في الدنيا.



تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُ رَقَبَةً ۝١٣ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّيْنُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٢٠﴾.

شخصية السورة:

سورة البلد؛ سورة مكية^(١)، ومقصدها العام: التركيز على الإنسان وبيان أنه يعيش بين كبد الكفر والعذاب، وبين الصعود لسلم الرحمة والإيمان في الدارين^(٢).

ابتدأت السورة بالقسم، فقال سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١﴾، لا، هنا

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٨/ ٤٠٢).

للتوكيد، ويكون ما بعدها قسمٌ مؤكد، **قال سبحانه: ﴿أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾**، وهذه أحد الأوجه التي صُرح بها بفعل القسم، وإلا غالباً كما مر معنا يُذكر أداة القسم والمقسم به، **مثل: والشمس، والليل، والعصر، بدون أن يقول أقسم،** وهنا جاء بلفظ أقسم بكذا، فتكون الباء هي حرف القسم وأداته، والمقسم به ما بعدها، وجواب القسم سيأتي، فأقسم الله سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وهو مكة.

ثم قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وهذه جملة اعتراضية، وليست ضمن القسم، لأن البعض يخلط بين واو القسم وواو العطف، فكأنه يظن أن الله تعالى أقسم بمكة، **ثم أقسم بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾**، لا، هذه واو عاطفة، وأنت مُبتدأ، وما بعدها خبره، وتعريف البلد في الآية الثانية دليل على أن البلد واحد، وهي مكة، ولو كان يقصد بلداً آخر لنكر لفظ البلد الثانية، لأن التنكير يدل على التعدد، **والخطاب في قوله: ﴿وَأَنْتَ﴾** لرسول الله محمد ﷺ، **وحلٌ، للمفسرين فيها أقوال^(١): الأول:** أنها من حلت بالبلد إذا سكنت فيه، **والمعنى:** وأنت ساكن بالبلد، أي: بمكة، أي: حال فيه.

والثاني: حلٌ بمعنى أنك مُحلٌ دمك وأذيتك للكفار وهم في مكة، وهذا من غرائب التصرفات في أنهم يحرمون قتل الصيد في الحرم ويحللون دمك، فأذوه وطرده وقتلوا أصحابه.

والثالث: حل، بمعنى: أن مكة حلالٌ لك تدخلها وتقاتل أهلها فيها، فإن الله

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٨٣).



يُحِلُّهَا لَكَ^(١)، وقد حرّمها على لسان إبراهيم وحرّمها يوم خلق السموات والأرض، لكنه أحلها لرسوله محمد ﷺ، **كما جاء في الحديث:** "وإنما أحلت لي ساعة من نهار"^(٢)، **والمقصود بذلك** في فتح مكة، فقد دخل النبي ﷺ، فغفى عن عموم كفار قريش الذين آذوه، واستثنى من العفو نفرًا منهم، فقال: "اقتلوهم ولو وجدتموهم مُتعلقين بأستار الكعبة"^(٣)، **فهذه الثلاثة الأقوال** في معنى الآية، **والقول الأول والثاني** لا إشكال فيهما، والإشكال على القول الثالث، فإن السورة مكية، **والتفسير الثالث** يقصد به فتح مكة، وكان في السنة الثامنة من الهجرة، فتكون الآية مدنية، **والجواب:** لا إشكال، فقد تأتي إشارة في القرآن المكي إلى حُكم سيكون في الفترة المدنية، وهذا موجود في القرآن، **كما في قوله:** ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُ الذُّبُرُ﴾ [القمر: ٤٥]، فهذه نزلت في مكة، وما حصلت الهزيمة إلا في بدر، ولو كان هناك طالب علم جاد من طلاب الدراسات القرآنية، يتتبع مثل هذه الآيات، ويجمعها ويفسرهما سيخرج طيب، يستفيد منه، ويُقدّم خيرًا للأمة!!

وقوله: ﴿وَالِدٌ وَمَوْلَدٌ﴾ [الواو هنا حرف قسم، والمُقَسَّم به كل والد وكل ولد، يعني: جنس الوالد وجنس الولد، ويشمل ذلك جميع الخلق، سواء كان

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦٤ / ٣١).

(٢) أخرج نحوه في صحيح البخاري (١٤ / ٣)، برقم (١٨٣٢).

(٣) أخرج النسائي (١٠٥ / ٧)، برقم (٤٠٦٧) نحوه، وقال الألباني: صحيح، **والنفر هم:** "عِكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطّال ومقيس بن ضبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح".



من الإنسان أو من الجن أو من الحيوان، ويستثنى منه الملائكة والجمادات؛ لعدم وجود خاصية التزاوج والولادة لديها، ويدخل في ذلك من يبيض من الحيوان؛ لأن العصفور يسمى ولد لأبيه، فهو ولد رغم أنه خرج من البيضة ولم يخرج بالولادة، والقول بهذا العموم هو الراجح^(١)، ويدل على عظمة المُقسَم به، فإنه يشمل هذه الأنواع كلها، **وقيل**: إن الوالد آدم، والولد أولاده، **وقيل**: إن الوالد إبراهيم^(٢)، والولد إسماعيل.

قلت: وهذا من التفسير بالمثل، ال ولا يتعارض مع القول بالعموم، وقيل: الوالد المقصود به الذي يلد، وما هنا نافية، فيكون القسم بكل من يلد وبكل من لا يلد^(٣)، وهذا له وجه ويكون التفسير به من العموم.

ثم ذكر جواب القسم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿٤﴾ فأقسم الله بهذا البلد الذي هو مكة شرفها الله، وأقسم بكل والد وولده، أن الله خلق هذا الإنسان في كبد، **والإنسان**: اسم جنس، يشمل كل إنسان: المؤمن والكافر، والذكر والأنثى، **ومعنى كبد، أي**: مشقة، أو تعب، **قالوا**: وأصل كبد من المكابدة، والمكابدة هي مُدافعة الشيء ودفعه لمشقة^(٤)، فالإنسان يُكابد في هذه الحياة، فيُكابد الفقر، ويُكابد المرض، **وقيل**: المكابدة أصلها مأخوذة من

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦٥/٣١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤٣٣/٢٤).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٦٥/٣١).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة (١/٣٠٠).



وجع الكبد^(١)، فإذا أُصيبَ الكبدُ بآلمٍ ومرضٍ، وهو أخطر أنواع الأمراض التي تُصيب الإنسان؛ لأن الكبد مُجمع السموم في جسم الإنسان، فإذا تألم الكبد ومرض يحس الإنسان بالتعب والمشقة، ثم ما المقصود بالمُكابدة؟ في أي شيء؟ هل المُكابدة في حياته المعيشية بين فقرٍ وآلمٍ وصحةٍ واغترابٍ وخوفٍ؟! يمكن أن يعيش هذا النوع من المُكابدة، أم المُكابدة في تنقله في الأطوار بين أن يكون جنينًا ثم يخرج من بطن أمه، ثم يتنقل ليأكل، ليتحرك، ليمشي، ليعمل، ليكبر في السن ثم يُصاب بالهرم والتعب والمشقة والضعف؟! وهذا أيضًا وارد، وتفصيل هذا يعود إلى علم الأجنة هو علمٌ مستقل جدًا، فيه ما فيه من العجائب، ولكن هذه المرحلة العجيبة من عمر الإنسان لا يتذكرها، فالنسيان يستمر فيه إلى أن يبدأ يتذكر من سن أربع أو خمس سنين من عمره، ولو استطاع أن يتذكر حاله وعمره شهر أو شهران، لعلم مقدار كم كابد حتى أسك ضرع أمه، وبدأ يمصه ليخرج منه الحليب؟!، ولو تذكر وعمره أقل من سنة، كم كابد حتى بدأ يقف ويخطو الخطوة الأولى؟!، لو جد في ذلك عجائب المُكابدة، وقس على ذلك أنواع الكبد التي تمر بالإنسان في حياته كلها؟!، سواءً في حركته في طفولته، فضلًا عن ما يتعرض له من المشاق، ومن الفقر والمرض والحاجة والخوف والآلم والتنقل، فهذه كلها نوع من مُكابدة الدنيا، فإذا أضفت إليها مُكابدة الآخرة: القبر وما فيه، والحشر وما فيه، لوجدت كمًا كبير جدًا من المُكابدة والآلم، فهذا يدلُّ على عظم القسم الذي أقسم الله تعالى به؛ ليبين لنا

(١) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٣٠٠).



أن المكابدة نوع من الابتلاء والاختبار للعبد، حتى يصبر عليها ويتجاوزها، ولا يوجد أحد من الخلق إلا وقد مرَّ بها، حتى الأغنياء والأثرياء والمُنعمون عندهم مكابدة، فالغني لديه مكابدة الحفاظ على النعمة، والفقير لديه مكابدة الحصول على القرش، فالجميع يعيش في كبد!!

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أيظن هذا الإنسان، الذي عاش هذه المكابدة وخرج منها وتخلَّص منها وصار يكفر بالله ويتعرض لخلق الله، وصار جبارًا هل يظن أن لن يقدر عليه أحد؟! وهذا سؤال إنكاري، وإلا فالله قادرٌ على كل أحد، فهذا الإنسان الذي يظن أن الله غير قادرٍ عليه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾، أي: يفتخر بأنه أولاً جمع ما لا حتى صار كثيرًا، ثم صرفه وقضى عليه في نفقاته، والمال هنا هو ما يتموله الإنسان، وقد يكون ذهبًا أو فضة أو كل ما يُسمى مالا، مما يُتمول به الإنسان ويتحرك به، ويقوم مقامه اليوم الدولار والريال وغيره.

و﴿لُبْدًا﴾، أي: كثير، الأصل في اللُّبْد هو الطبقة فوق الطبقة^(١)، ومنه حديث: "كان إذا أحرم لبْد شعره"^(٢)، قوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبْدًا﴾ [الجن: ١٩]، أي: أن الجن من كثرة تجمعهم واجتماعهم كأن بعضهم فوق بعض، والمعنى: من كثرة المال عنده، صار مُتراكمًا بعضه فوق بعض؛ فأهلكه كله.

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٩٢ / ١٤).

(٢) رواه أحمد في مسند ط الرسالة (١٠ / ٢٤٦)، برقم (٦٠٦٨)، وإسناده صحيح.



ثم قال الله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٧)، **أي:** أيظن أنه لا يراه أحد؟!، وهذا كله إنكار لقدرة الله، وإنكار لرؤية الله وإطلاعه وعلمه بالخلق، وهذا مُنتهى الكفر والجحود لعظمة الله سبحانه!!، فردّ الله على هذا الإنسان المتكبر المتعطرس الذي ادعي أنه أنفق مالا كثيرا، وظن أنه لا يراه أحد، ولا يقدر عليه أحد، فمن الذي خلقه وأوجده؟!

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨)، ألم نخلق له عينين ليرى بهما؟!، وفي هذا توبيخ له، فكيف تظن أنه لا يراك أحد، هل لأن خاصية الرؤيا لك وحدك؟! ألم يخلقك الله مثل غيرك من الخلق؟! فالذي خلق حاسة الإبصار فيك قادر على خلقها في غيرك، وقادر على رؤيتك.

ثم قال: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٩)، وخلقنا له لسانا وشفتين ليتكلم بهما، ويعبر عما في نفسه ويتواصل مع غيره.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠)، **أي:** بينا له **الطريقين:** طريق الخير وطريق الشر، **والنجد،** هو: المكان المرتفع، أو الطريق على مكانٍ مُرتفع^(١)، **والمعنى:** أن وضوح الحق ووضوح الباطل كوضوح الطريق المُرتفع في نجدٍ مُرتفع ليس فيه غموض ولا خفاء، فدل ذلك على عدل الله وكرمه في إيضاح الحق والباطل للناس، **كما جاء في الحديث:** "إن الحلال بين وإن الحرام بين"^(٢)، وهداية الله للخلق: تتم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق السمع والبصر والعقل، فهذه أدوات تلقي

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/٥٤٢).

(٢) رواه مسلم (٣/١٢١٩)، برقم (١٥٩٩).



العلم، ومعرفة الحق، **كما قال:** ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ثم قال الله: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ﴾ (١١)، الخطاب لهذا الإنسان الذي ظن هذا الظن بربه وأعرض عن طريق الحق الذي هداه الله إليه؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنه أعرض فلم يحصل منه اقتحام العقبة، **فهذا هو المعنى إذا قلنا:** إن (لا) نافية لما بعدها، **أما إذا قلنا:** إن (لا) بمعنى: هلاً، فهو حُصٌّ وإرشاد، والمعنى: فهلاً اقتحم هذا الإنسان المعرض عن الله العقبة، أو هل لك أن تقتحم العقبة بالإيمان والعمل الصالح، وتجاوزت موانع الإيمان وصوارفه، يصلح هذا أو هذا، والاقترحام: الدخول والمجازاة بشدة ومشقة^(١)، وهل العقبة حقيقية، أم مثأل ضربه الله؟! **قيل:** هي عقبة حقيقية بين الجنة والنار، لا بد أن تقتحمها حتى تدخل الجنة^(٢)، **وقيل:** هو مثأل ضربه الله تعالى لما يؤصلك إلى الجنة، وما يبعدك عن النار^(٣)، فكل ما يقف بينك وبين طريق الجنة فهو عقبة، والجمع عقبات، **ولذا نقول:** عقبات في طريق العلم، وعقبات في طريق الدعوة إلى الله، فهل نقصد عقبة حسية، يعني جبل نصعده، أم نقصد بالعقبة الصعوبة المعنوية؟!، الثاني هو المقصود، وهو الراجح بدليل السياق الذي بعده.

ثم جاء تفسير العقبة بعد أن قال الله لنبيه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢)، هذا

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٤٠).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٦٨).



الأسلوب من باب التعظيم والتشويق لمعرفة الجواب، ثم بين له كيف يكون اقتحام العقبة.

فقال: ﴿فَكَرَبَهُ ١٣﴾، فذكر هنا الوسيلة الأولى لاقتحام العقبة: وهي فك رقبة، **والمقصود بالرقبة**: العبد الرقيق، فالعبد يكون كالمُقيّد عند سيده، فإذا أطلقته وحرّره؛ فقد فككت رقبته، **ويدخل في فك الرقبة**: فك المسلم المأسور عند الكفار، **والفكُّ** أعم من العتق، فالعتق أن تنفرد بعتقها، بينما الفك أن تشارك بما تيسر من قيمتها، وقد أطلق هنا الرقبة ولم يقيدها، وقد جاء في آيات أخرى تقييد الرقبة بالإيمان، **فذهب الجمهور** إلى أن المطلق يُحمل على المُقيّد، فخصصوا هذه الرقبة بأن تكون مؤمنة، وقد ذكر تحرير الرقبة في أحكام الكفارات^(١)، **مثل**: كفارة القتل الخطأ، وفي كفارة الظهار، وفي كفارة اليمين، وفي كفارة من أتى أهله في نهار رمضان وغيرها، وهذا نوع من التحضيض على إنهاء الرق، والحث على تحريرهم منه؛ لينطلقوا في خدمة دين الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر هنا الوسيلة الثانية من وسائل اقتحام العقبة، فقال: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ١٤﴾، وهي: إطعام الطعام، سواء كان ذلك الطعام مطبوخاً، أو كان الطعام هو: مكوناته من الحبوب وما يتعلق به، وبين أن أفضل أنواع الإطعام الذي يكون عند شدة الحاجة والفقر، **فقال: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾**، **والمسغبة هي**: شدة الجوع والحاجة إلى الطعام^(٢)، فكلما كان إطعام الطعام في وقت الشدة

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٦٢).



كان أجره أعظم، فإذا أثرت غيرك على نفسك به، فذلك دليل على كمال الإيمان، كما فعل ذلك الصحابي الذي أطعم ضيف رسول الله ﷺ، طعام أهله، وولده وباتوا جائعين^(١)، فقال الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ثم ذكر الأصناف التي تستحق الإطعام، فقال: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥)، هذا هو الصنف الأول، وهو اليتيم، وهو من فقد والده وهو صغير لم يبلغ الحلم، واختار اليتيم لضعفه وقلة حيلته، ويُفضل أن تبدأ بإطعام القريب من الضعفاء الذين من أسرتك وأرحامك، فالأقربون أولى بالمعروف، فإذا لم يوجد من أسرتك فأعط الأيتام من غيرهم؛ لأن اليتيم ذا المقربة له حقان: حق اليتيم، وحق القرابة.

ثم ذكر الصنف الثاني، فقال: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (١٦)، وهو المسكين الذي من شدة فقره وحاجته، ليس معه مال إلا التراب، أو قد التصقت يده بالتراب من شدة الفقر، أو ينام على التراب من شدة الحاجة، وفي إطعام من هذا حاله أجر عظيم عند الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الضمير يعود إلى المتصدق، المُتَحِمِّم للعبقة، الذي فك الرقبة بماله، وأطعم اليتيم والمسكين، فلا بد أن يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر ومحققاً لشروط الإيمان المعروفة، من أجل أن يدخل الجنة؛ لأنه لو فعل ذلك وهو كافر بالله، فلا فائدة له من صدقته في الآخرة، وقد يُعطيه

(١) ينظر: القصة في صحيح البخاري (٣٤/٥) برقم: (٣٧٩٨).



الله ثوابها في الدنيا السمعة الحسنة والراحة النفسية ونحوها، ثم أضاف إلى الإيمان صفتين، **فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾** [البلد: ١٧]، والتواصي **بالصبر، يعني:** أن يُوصي نفسه وغيره بالصبر على الحق، والثبات عليه، والبقاء على المبادئ والقيم الصحيحة، فلا يتركها لابتلاءٍ أو إغراء ونحوه، وكذلك يوصي نفسه وغيره بالمرحمة، وهي: الشفقة والرحمة بالخلق، **وهذان أصلان يقوم عليهما دين الإسلام:** الثبات على الحق، والشفقة والرحمة بالخلق، فإن وُجد عندك الأول ولم يُوجد الثاني فاستقامتْ ناقصة، وإن وُجد الثاني ولم يُوجد الأول فاستقامتْ باطلة.

ويبقى هنا سؤال: لماذا أُرِخَ صفة الإيمان مع أنها شرط، وابتدأ بصفة الإطعام؟!، الجواب: أن الإطعام وفك الرقبة وفعل الخيرات؛ لا فائدة منه إن لم يُختم لك بالإيمان، حتى لو كنت مؤمناً عند فعلها، فلا بد أن يستمر إيمانك وأن يُختم لك بالموت على الإيمان، ولذلك ختم بها الآية.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِثْمَةِ﴾ [١٨]، أي من تحققت فيه تلك الصفات السابقة استحق أن يكون من أصحاب الميمنة، وهم أصحاب اليمين المذكورون في قوله: **﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾** [الواقعة: ٢٧]، وما بعدها من الآيات، ولم يذكر هنا جزاءهم، واكتفى بما ذكره عنهم في سورة الواقعة، وهم في الرتبة الثانية من أهل الجنة بعد رتبة السابقين، **كما في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾** [١٠] **﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾** [١١] [الواقعة: ١٠-١١]، بمعنى أن هذه الأعمال تجعل صاحبها في الرتبة الثانية، ولو أراد الرتبة الأولى؛ فلا بد له من الجِد والاجتهاد أكثر.



ثم لما ذكر الله صفات أصحاب الميمنة؛ أخبرنا عن صفات أصحاب المشأمة ممن لم يقتحم العقبة، ولم يؤمن بالله ولم يُطعم يتيماً ولا مسكيناً، ولم يصبر على الحق ولم يرحم الخلق، بل فعل ضد ذلك، **فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾** [البلد: ١٩]، **وأصحاب المشئمة، هم أصحاب الشمال، وهم من أهل النار المذكور جزأؤهم في سورة الواقعة، كما في قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾** [الواقعة: ٤١]، وما بعدها من الآيات، **فأصحاب المشأمة، هم الذين كفروا بآيات الله فصاروا من أصحاب الشمال، وهم الذين يُعطون كتابهم بشمائلهم ثم يدخلون النار، ثم ذكر هنا حالهم فيها.**

فقال: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾، **أي: بعد أن يدخلوا النار تُغلق عليهم أبوابها، لأنه لو لم تُغلق عليهم الأبواب لهربوا منها!!، فأبواب الجنة الثمانية، تكون مغلقة قبل الدخول إليها، فلا يدخلها أحد إلا بعد أن يستأذن، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ يأتي فيستفتح باب الجنة، فيُقال له: من أنت؟ فأقول: محمد، فيُقال لي: أمرنا ألا نفتح لأحد قبلك^(١).**

ثم والذي يظهر لي أن الباب بعد ذلك يترك مفتوحاً؛ لعدم الحاجة إلى غلقه وحراسته، فلا أحد يريد أن يغادر الجنة!!، **كما قال: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾** [ص: ٥٠]، بخلاف النار فأبوابها السبعة مفتوحة على مصراعيها قبل الدخول إليها، فالجميع يهرب منها، وأهلها يسحبون إليها سحباً ويجرون جرّاً، فإذا رُموا في داخلها؛ أغلقت عليهم الأبواب حتى لا يهربوا منها!!، **ولذا قال هنا:**

(١) رواه مسلم (١/١٨٨)، برقم (٣٣٣)، بنحوه.



﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ **أي:** مُغلقة الأبواب، وفي سورة الهمزة بيّن وسيلة الإغلاق، بقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]، **أي:** مغلقة بعمود كبير جدًا يوضع خلف الباب، ممدودًا بين طرفي الباب من العتبة إلى العتبة، وفيه إشارة لصُنع الأبواب، إذا أردت أن تصنع بابًا قويًا لا يفتح بسهولة، فأغلقه من الخلف بعمود حديدي يمتد وراءه من العتبة إلى العتبة، بحيث يمنع من أي محاولة لفتحه بسهولة!!.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن المكابدة نوع من الابتلاء والاختبار للعبد، حتى يصبر عليها ويتجاوزها، ولا يوجد أحد من الخلق إلا وقد مرَّ بها، فالجميع يعيش في كبد!!
- ٢- من عدل الله ورحمته بالخلق؛ بيان الحق والباطل للناس، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.
- ٣- عتق الرقاب وإطعام المحتاجين في وقت الشدة، من أهم وسائل اقتحام العقبات وإزالة العوائق من طريق المؤمن في الدنيا والآخرة.
- ٤- التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، أصلا أن يقوم عليهما دين الإسلام، **فالأول:** يتعلق بالثبات على الحق، **والثاني:** يتعلق بالتعامل مع المخلوقين.



تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮﴾.

شخصية السورة:

سورة الشمس؛ سورة مكية^(١)، وتركز هذه السورة في محورها العام على إظهار آيات الله في الآفاق والأفئس وأحوالها، وتبين أهمية تزكية النفس وزجرها عن العصيان^(٢).

بدأها الله سبحانه وتعالى بالقسم، وهو أطول قسم في القرآن، فإن الله تعالى أقسم بأحد عشر قسمًا، ثم جاء بعدها بجواب قسم واحد، فقال الله سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ﴾، أقسم الله بالشمس؛ وهي هذه الآية العظيمة البيّنة، التي خلقها الله

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٣٥٧).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/٥٩٥).



سبحانه وتعالى بهذا الوصف وبهذا القدر، تنبيهاً لعظمتها، وقد وصل العلم الحديث اليوم إلى تفاصيل دقيقة عن حجم الشمس وشدة حرارتها وقوة أشعتها، ومعرفة فلكها الذي تسير فيه، فاكتشفوا مقدار عظمتها.

ثم قال: ﴿وَضَحَّيْهَا ۝١﴾، وهو وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها من مشرقها إلى أن تصل قاب قوسين من زوالها إلى كبد السماء؛ حين يشتد حرها وضوؤها، وفي الحديث: "صلاة الضحى حين ترمض الفصال"^(١)، والفصال المقصود بها أولاد النوق^(٢)، يعني من شدة الحر تبحث لها عن ظل لتختبئ فيه.

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ۝٢﴾، والقمر؛ هو الآية الأخرى في المجموعة الشمسية، وهو آية عظيمة من آيات الله تعالى، أقسم الله تعالى به؛ حين يتبع أثر الشمس في نصف الشهر الأول، وتتلوه في النصف الآخر^(٣)، وهذا يدل على أن القمر تابع للشمس، وهو الذي اكتشف حديثاً أنه لا ضوء له، وإنما ضوءه انعكاس لضوء الشمس، فإذا جاءت الأرض بينه وبين الشمس؛ حدث ما يسمى خسوف القمر.

ثم قال: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ۝٣﴾، فأقسم بالنهار؛ حين يكشف بضوئه وجه الأرض، فإن وجه الأرض يكون مظلماً أثناء الليل، فإذا جاء النهار؛ تبدد ظلام هذه الأرض بمجيئه، ولا شك أن النهار لا يأتي إلا بعد أن تشرق الشمس،

(١) رواه مسلم (٥١٥/١)، برقم (١٤٣) بنحوه.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٧٦٩/٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤٥٢/٢٤).



فمجيء النهار تبعاً لشرق الشمس.

ثم قال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ٤﴾، فأقسم بالليل؛ حين يغشى بظلامه الأرض، ولا يتم غشيان الليل للأرض إلا بغروب الشمس، فمجيء الليل تبعاً لغروب الشمس.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ٥﴾ فأقسم بالسماء؛ وهي بلا شك آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى، و"ما" هنا للعلماء فيها قولان: إما أن تكون مصدرية أو موصولة، فإن كانت مصدرية؛ فإن الله أقسم بالسماء وبُنيانها، وبنائها آية من آيات الله العظيمة، وإن كانت موصولة؛ فإن الله أقسم بالسماء وبالذي بناها، وهو الله سبحانه (١).

ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ٦﴾، والقول في "ما" هنا كالقول في قبلها، والمعنى: وطحوها، أو: والذي طحها، وهو الله سبحانه. وطحها أي: بسطها ومهدّها وجعلها صالحة للحياة.

ثم قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾، أقسم بكل نفسٍ منفوسة خلقها الله، والمقصود بها هنا نفس المُكَلَّفِينَ بدلالة السياق الذي بعدها، لأن المُكَلَّف هو المُلزم بتزكية نفسه، ومنعها من الفساد، والقول في ما هنا كالقول في التي قبلها، والمعنى: والذي جعلها نفساً سوية، أو وتسويتها.

ثم قال: ﴿فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨﴾ وهذا ليس جواب القسم، كما قد

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٢٦).



يُتَوَهَّم، وإنما هي جُملة اعتراضية؛ لبيان حال النفس، وأن من خصائصها: أنها قابلة للتقوى، وقابلة للفجور، **والمعنى:** أن الله أعطاها قدرة على أن تفهم الخير من الشر، والحق من الباطل، وما ينفعها وما يضرها حتى ولو لم تتعلم، فالعلم سبب لزيادة الفهم، فالإنسان كلما تعلّم كلما ازداد فهمًا، ولكن هناك حد أدنى من الفهم منحه الله للنفس البشرية، فالعامي يستوعب الخطاب ويستوعب الحكم الشرعي العام، ويعرف الخير من الشر؛ ولو لم يكن متعلمًا، وهذه من مميزات النفس البشرية، وهي من خصائص التكليف، وبه تفرق نفس الإنسان عن نفس الحيوان، فالحيوان لديه نفس، ولكنها ليست مُكَلَّفَة؛ لعدم وجود خصيصة فهم الخير وفهم الشر فيها، ويوجد عند الحيوان شيء من الفهم الخاص بما يُصلح حياته فقط، فالنحلة تفهم كيف تصنع العسل، والنمل يفهم كيف يبني مدائه، والعصفور يفهم كيف يبني عشه، وكل حيوان يفهم كيف يبتعد عن الشيء الذي يُهلكه، فلا يُلقى بنفسه من شاهق!!.

ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١، هذا جواب القسم، الذي مضى بأحد عشر مُقسّمًا به، وهي أشياء مُتنوعة وعظيمة، **وكان جوابُ القسم فيها:** أن الفلاح والنجاح في تزكية النفس، وأن الهلاك والضلال في عدم تزكيتها، وفي هذا إشارة إلى أهمية تزكية النفس، وهنا يأتي دور العناية بالنفس، والبحث عن أسباب صلاحها واستقامتها، وتجنّبها ما يُفسدُها ويُغويها، فلا بد من العناية بذلك؛ فالمفلاح من زكّى نفسه، فالفلاح في الدنيا في تزكية النفس؛ فتشعر بالسعادة والاطمئنان والحياة الطيبة السعيدة، ويأتيك من آثارها ما وعد الله به



عباده المؤمنين من الحياة الطيبة والسعادة والاطمئنان، والفلاح في الآخرة؛ بأن يُنجيك الله سبحانه وتعالى من النار.

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ ﴿١٠﴾، **خاب:** من الخيبة، **وهي:** النتيجة المؤسفة التي تُصدم بها حينما تجد أثر ذلك الفساد على نفسك في الدنيا وفي الآخرة، **ودساها، بمعنى:** أخفى هذه النفس، فإن الله سبحانه وتعالى يظهر النفس ويرفعها بالطاعة والعبادة والاستقامة، فتظهر وتكون مشهورة، معلومة، فإذا فعل الإنسان المعصية؛ سقطت هذه النفس، وهبطت من المستوى الممدوح إلى المستوى المذموم^(١)، **كما قال:** ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾** ﴿٥﴾ [التين: ٤-٥]، فالنفس ترتفع بالطاعة وتهبط بالمعصية، والنفس تظهر بالإيمان، ويكون له آثار عظيمة عليها في الحياة وبعد الممات، فيكون لها لسان صدق في الآخرين، ويكون لها السمعة الحسنة بعد موتها، ويذكرها الناس بخير، بينما من يسعى في إفساد نفسه وانحرافها؛ فإنه يُسقط قيمة ومكانة هذه النفس من الناحية الحسية، وينقطع ذكره ويضيع من الناحية المعنوية، فكم من ظلمة وجبارة ومجرمين وفُساق؛ كانت لهم صولات وجولات في حياتهم، فلما ماتوا وانتهوا؛ انتهى ذكرهم، فالمعاصي تغمر هذه النفس فتجعلها لا مكانة لها، لا حسًا ولا معنى، ويعيش صاحبها مكبوتًا ذليلًا، **كما قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾** ﴿٢٠﴾ [المجادلة: ٢٠]، **يعني:** لا أثر له، ولا ثمرة، ولا مكانة في الحياة، ولا مقام له ولا فلاح ولا عزة في الآخرة!!

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥١).



ثم بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن أهمية تزكية النفس، وخطورة تدنيسها بالمعاصي والمنكرات، فذكر لنا أنموذجاً لمن دسّوا أنفسهم ولم يذكروها، بالرغم من أن الله قد منح الناس أسباب التزكية، وهي: السمع والبصر والعقل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأعطاهم فرصة للتذكر والمعرفة، إلا أن هذا النموذج لم يقبل هذه الوسائل، ولم يستخدمها في إصلاح نفسه واستقامتها، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (١١) ﴿ثمود: هم قوم صالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومساكنهم تعرف اليوم بمنطقة العُلا بين تبوك والمدينة، وفيها إلى اليوم مدائن صالح التي هي قصورها وبيوتها التي أهلكهم الله تعالى فيها، وهذه القبيلة كذّبت رسولها ولم تؤمن به، وطغواها، لها معنيان: الأول، وهو المشهور عند المفسرين: أن طغيانها سببٌ لتكذيبها^(١)، أي: كذّبت ثمود بسبب طغيانها، فطغواها بمعنى: طغيانها، والطغيان والطغوى مصدر للفعل طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد والانحراف، رغم أن الله قد أعطاهم من الآيات والمعجزات ما يجعلهم يؤمنوا به، ولكنهم كذبوا بسبب طغيانهم.

والقول الثاني: أن الطغوى هنا: بمعنى العذاب الذي وعدوا به من رسولهم صالح، فكذبوا، وقالوا: إن كان عندك عذاب فأتنا به، فلما كذبوا به؛ نزل بهم، **كما قال:** ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فحصل لهم ذلك العذاب بسبب تكذيبهم^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥٨).



وقوله: ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (١٢)، **انبعث** من الانبعاث، وهو فعل مُطاوَعَة، يدل على الاجتهاد والبذل^(١) والحركة بنشاط وحيوية، **والمعنى:** قام نشيطاً يبحث عن الوسيلة ويُخطط للجريمة، ويجتهد في تنفيذها، فليس كسلاناً أو متهاوناً، وإنما فعل فعله القبيح، وهو عقر الناقة بنشاط وحيوية وتخطيط، وهو أشقى القبيلة، **أي:** كان أكثرهم شقاءً، **وهو:** قُدار بن سالف، ويُطلق عليه أحمير ثمود، تصغير حمار، وكان رئيساً لعصابة مكونة من تسعة رهط^(٢)، **كما قال:** ﴿وَكَاثٌ فِي الْمَدِينَةِ تَسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٤٨].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (١٣)، هذه جملة اعتراضية، قيلت لهم قبل أن ينبعث الأشقي، **والمعنى:** فانبعث هذا الشقي لعقر الناقة، وقد سبق أن حذّرهم رسولهم صالح، **فقال لهم:** احذروا أن تؤذوا ناقة الله، وأضافها إلى الله تزييفاً لها باعتبارها معجزة، **مثل:** بيت الله، واحذروا أن تعتدوا على سقياها، فقد كان لهم عينٌ يشربون منها، فلما أعطى الله سبحانه وتعالى الناقة معجزة لصالح **عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال لهم:** اتركوا الناقة تشرب من العين يوماً، وتشربون أنتم يوماً، فلا أنتم تشربون في يومها، ولا هي تشرب في يومكم، وفي يوم شرب الناقة تُعطيكُم الناقة لبناً يكفيكم ويُغنيكم عن الماء الذي تشربونه في ذلك اليوم؛ فاعتدوا على الأمرين، ولم يمتنعوا من التحذيرين.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، **أي:** كذبوا صالحاً ولم يؤمنوا به، ورفضوا

(١) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥٩).



توجيهاته، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة، **أي**: قتلها ذلك الأشقى بضررها أو نحرها، وقد نسب هذا الفعل للجميع مع أن القاتل هو: قدار بن سالف؛ لأن الراضي كالفاعل، فإنهم رضوا بفعله، **وقد قيل**: إن هذا الأشقى قال لهم: أنا سأعقرها، ولكن عاهدوني واحداً واحداً أنكم راضوان لي بهذا الفعل وموافقون لي على قتلها، فعاهدوه جميعاً^(١).

وهذا يدلنا على خطورة الرضى بالمنكر، فمن رأيته يفعل منكراً، ولم تُنكر عليه بيدك إن استطعت، ولا بلسانك إن استطعت، ولا بقلبك؛ فإنك مُؤاخذ بمثل عقوبته؛ لأنك رضيت بفعله، وقد أعطاك الله رتبة إنكار المنكر بالقلب للتخلص من الرضى به، فإذا كرهته خرجت من الموافقة له، وأمنت من العقوبة النازلة بفاعله.

وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِزْنُهُمْ فَسَوْنَهَا﴾، **أي**: فأطبق عليهم ربُّهم العذاب من جميع الجهات بسبب ذنبهم، وهو الكفر وقتل الناقة، **والتسوية**، **لها معنيان**: إما أن يكون أصابهم العذاب جميعاً ولم يُفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، فتكون التسوية هنا تسوية الأخذ على جميع القبيلة، فكل واحد حصل له مثلما حصل لغيره، **فهنا التسوية بمعنى**: تساوا كلهم في تعرضهم للعذاب ونوعه، وإما أن يكون المقصود بالتسوية هنا تسوية الأرض عليهم، بمعنى: دفنهم كلهم تحت الأرض، وصارت الأرض مُستوية عليهم بعد أن أهلكهم الله بهذا العذاب، ويمكن الجمع بين المعنيين معاً، ولا تعارض بينهما.

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٠/١١٣).



وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا﴾ ١٥، إما أن يكون الضمير عائداً إلى الله، فهو الذي دمدم عليهم، ولا يخاف الله نتيجة أو ثمرة أو آثار العقوبة التي حلت بهؤلاء القوم بعد أن كفروا برسولهم، وإما أن يكون الضمير عائداً إلى الأشقي، ويكون ما بعده جُملاً اعتراضية، فيكون المعنى: أن الأشقي لو كان خائفاً من عاقبة قتل الناقة لما أقدم عليه، وهناك قول ثالث ذكره بعض المفسرين أن الضمير في يخاف، عائداً إلى صالح عَلَيْهِ السَّلَام، لما حذرهم وهددهم بالعذاب، لم يكن خائفاً من مُعاقبة القبيلة له، لأنه يأوي إلى رُكنٍ شديد، وهو الله سبحانه وتعالى، والمشهور عند أكثر المفسرين أنه يعود إلى الله، بحسب السياق وبحسب قاعدة: أن الضمير يعود لأقرب مذكور، وهو أقرب مذكور^(١).

فوائد وهدايات من السورة:

١ - أهمية تزكية النفس، وضرورة أن نتنبه لنفوسنا، ونسعى في تزكيتها وطهارتها بالأعمال الصالحة، والبُعد عن أسباب فسادها، كالرفقة السيئة، وارتكاب المحرمات، والتقصير في الطاعات، فكل هذه تؤدي إلى فساد النفس، والعياذ بالله، فإذا فسدت هلكت!!

٢ - خطورة الرضى بالمنكر؛ فإن الراضي بالمعصية شريك في الإثم، فمن عقر الناقة إنما هو الأشقي، ولكن كانت العقوبة عامة لقومه جميعاً، لأنهم سكتوا عنه وشجعوه على ذلك الفعل.

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٣٦٣).



تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ٤﴾ فَأَمَّا
 مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨﴾ وَكَذَبَ
 بِالْحُسْنَى ٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ
 وَالْأُولَى ١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ١٥﴾ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
 الْأَتْقَى ١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
 الْأَعْلَى ٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٢١﴾

شخصية السورة:

سورة الليل؛ سورة مكية^(١)، وموضوعها العام: بيان الاختلاف بين الآيات
 والآنفس وأعمالها، إظهاراً للتفاضل بين المؤمنين والكافرين^(٢).

قال سبحانه: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ١﴾ **الواو هنا** حرف من حروف القسم، **والليل**
 مُقسمٌ به، وسيأتي جواب القسم في آيات أخرى، فأقسم الله بالليل؛ وهو أحد

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٨/ ٤١٦).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٥).



مخلوقاته العظيمة، وقد سبق معنا مرارًا التنبيه إلى أن الله سبحانه وتعالى له أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن قسمه نوعٌ من الإشارة إلى عظمة المخلوق الدال على الخالق سبحانه، بينما المخلوق لا يجوز له أن يُقسم إلا بالله، سبحانه وتعالى، فلا يأتي أحد فيقول: ما دام أن الله أقسم بالشمس أو غيرها من المخلوقات، فلماذا أنا لا أقسم بها؟! هناك فرقٌ بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق حينما يقسم بشيء فهو تُعظيمٌ له، والتعظيمُ يجب أن يكون لله وحده، كما أنه قد ورد النهي عن ذلك، قال رسول الله ﷺ: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم" (١)، وقال ﷺ: "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت" (٢)، وقال ﷺ: "من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر" (٣)، وقال ﷺ: "من حلف بالأمانة فليس منّا" (٤)، وغيرها من الأحاديث التي تُعطينا حكمًا شرعيًا واضحًا، وهو تحريم الحلف بغير الله، فالحلف بغير الله شرك لفظي لا يخرج من الملة، ولكن يجب على من حلف بغير الله أن يقول: لا إله إلا الله، ويستغفر الله ويتوب إليه من ذلك.

أما الله تعالى فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يُسأل عما يفعل، والحكمة من ذلك، هو: تنبيه المخلوقين على عظمة ذلك الشيء الذي أقسم به.

فأقسم الله هنا بالليل ﴿إِذَا يَنْشِئُ﴾ (١) أي: حال كونه يغشى، أي: يُغطي

(١) رواه البخاري (٢٧ / ٨)، برقم (٦١٠٨).

(٢) رواه البخاري (١٨٠ / ٣)، برقم (٢٦٧٩).

(٣) رواه الترمذي، ت: شاكر (١١٠ / ٤)، برقم (١٥٣٥)، بنحوه، وقال الألباني: صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٢٢٣ / ٣)، برقم (٣٢٥٣)، وقال الألباني: صحيح.



الأرض بظلامه في النصف الأول من الأرض، ويتبعه في الثاني.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۖ﴾، **الواو هنا** حرف قسم آخر، والنهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وتجلّى، أي: ظهر بعد أن كان مخفياً، **والمعنى:** ظهر ضوء النهار بسبب إزالة الظلام.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ﴾، **الواو** حرف قسم، **و(ما)، إما** أن تكون مصدرية، وما بعدها يُؤول بمصدر، **بمعنى:** وخلق الذكر والأنثى، فأقسم الله بخلق الذكر والأنثى، **أو** موصولة فيصير **المعنى:** والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القسم بالله الذي خلق، والمعنى الأول أولى، من أجل اتحاد أنواع القسم وتناسقه، وما علاقة خلق الذكر والأنثى بالليل والنهار؟ من حيث الترتيب، فهذه الأربعة جاءت مُرتبة في الإيجاد، فالليل خُلق قبل النهار، ثم النهار بعده، ثم الذكر خُلق قبل الأنثى، ثم الأنثى خُلفت بعده، فهذا على التناسق في الوجود، والأصل في الأرض أنها كانت ظلمة، ثم جاء النهار، وخلق الله آدم وخلق منه حواء، فأقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأربعة الأشياء، اثنان منهما فيهما تجديد للحياة وهما: الليل والنهار، واثنان منهما فيهما تجديد للخلق وهما: الذكر والأنثى، اللذان يتناسل منهما الخلق، فهذا وجه لاجتماعها في هذا القسم، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۖ﴾، هذا جواب القسم، والمقصود عملكم وما تفعله جوارحكم، سواء كان دينياً أو دُنيوياً، والكاف ضمير يعود إلى المخاطبين، وهم المُكلفون فيدخل الجن معهم، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۖ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذان الصنفان الموجودان على وجه



الأرض هما المكلفان بأداء التكاليف كما أمر الله، وبقي معنا صنف موجود، لكنه غير مُكَلَّف بالأعمال الشرعية اختياريًا وإنما مخلوق عليها فطرةً، وهم الملائكة، ولكنهم غير مُكَلَّفين اختياريًا، **كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [التحریم: ٦]، فإنهم يُلهمون التسييح كما تُلهمون النفس، فطاعتهم ليست اختيارية وإنما بطبيعة فطرتهم.

﴿لَشَقَى﴾، أي: لمختلف، مأخوذ من الشتات، وهو التباعد والاختلاف، وأطلق اللفظ؛ ليشمل الاختلاف في أعمال الدنيا والآخرة، فالخلق في أمور الدنيا مختلفون في أعمالهم وحرفهم، فهذا نجار وهذا طباح وهذا مُدرس وهذا مزارع، وكل واحد عنده حرفة أو مهنة، والله خلقهم على فطر واهتمامات مختلفة، وهذا من كمال علمه وإحاطته بما ينفع الخلق، ومن كمال تدبيره سبحانه وتعالى لعمارة الأرض، فلو كان الناس على اهتمام واحد؛ لفستت الحياة، ولكن الله سبحانه وتعالى نوع الاهتمامات حتى يظل الترابط بين الخلق، ويحتاج كل منهم للآخر، فمهما كان لديك مهنة كبيرة شريفة عظيمة، فأنت مُحتاج لغيرك، وهنا تظهر عظمة الخالق، ونقص المخلوق، فالله لا يحتاج إلى أحد من خلقه لكمال ربوبيته وقِيُومِيَّتِهِ، وكمال صفاته، فهو الذي تصمّد إليه الخلائق كلها، ويظهر في هذا حاجة المخلوق إلى غيره مهما كان ثريًا أو عالمًا أو مسؤولًا، فهو محتاج إلى غيره، وهذا في باب الدنيا، فهذا التنوع والاختلاف في أعمال الدنيا؛ أعطى الناس مراتب في الدنيا، فهذا وزير وهذا أمير، وهذا خادم وهذا مخدوم.!! أما في باب الآخرة؛ فهناك أناسٌ مؤمنون وهناك أناس كافرون، وهناك أناس مخلصون وهناك



أناسٌ مراؤون، وهناك أناسٌ جادّون في الطاعة وهناك أناسٌ كُسالى فيها، وهناك أناسٌ يقومون الليل ويصومون النهار وهناك أناسٌ مُقْصرون، وهناك أناسٌ يُنْفِقُونَ وهناك أناسٌ بخلاء، وهكذا... وكذلك يكون الحال في الآخرة، فهذا في درجة عِلين في الفردوس، وهذا في أسفل سافلين في النار، فبسبب اختلاف أعمالهم في الدنيا؛ اختلفت مراتبهم في الآخرة.

وبسبب جد ونشاط كل شخص في عمله؛ اختلفت أحوال الناس، فلا تظن أن الغني جاءه المال فجأة، بل غالباً تعب في جمعه وتحصيله، ولا تظن أن العالم وُلد عالماً، فما وصل إلى مراحل العلم إلا بطلبه والاجتهاد فيه، وقُلْ مثل ذلك في باقي الأعمال، فهذه الآيات تشير إلى ضرورة العناية بعملك، سواءً من حيث الاهتمام أو من حيث النوع، أما من حيث الاهتمام؛ فالكسلان لا ثمرة له، وأما من حيث النوع؛ فيجب أن يكون عملاً صالحاً ينفعك في الدنيا وفي الآخرة، فمن يزرع الشوك لا يحصد العنب.!

ثم قسم الله الخلق إلى فريقين، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، فهذا هو الفريق الأول، **وأعطى،** فيها تفسيران: أحدهما: خاص، **والآخر:** عام.

فالخاص: قصرها على المال والزكاة، **والعام:** يشمل كل ما يملك الإنسان من نعم موجودة عنده ويستطيع أن يُعطي منها لغيره، والراجع العموم؛ ليشمل أي عطاء حسي أو معنوي، وتشمل كل الخلق، فما من أحدٍ إلا وله قدرة على العطاء مما يملك، من وقته، من جاهه، من ماله، من أخلاقه، من عفوه، من ابتسامته، من أي شيء يملك، أما إذا فسرتها بعطاء الزكاة والمال؛ فهذا خاص



بالأغنياء فقط.!!

وقوله: ﴿وَأَنْفَى﴾، بيان أنه لا ينفع عطاء بدون تقوى، والتقوى معناها هنا عدم الأذى، أي: اتقاء ما يُفسد ذلك العطاء، **كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾** [البقرة: ٢٦٤] إذا فالعطاء لا بد أن يكون معه تقوى، والتقوى معناها: أن تحذر وتبتعد عما يُفسد عطاءك.

ثم ذكر شرطاً ثالثاً، فقال: ﴿وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى﴾، اختلف المفسرون في معنى الحسنى على أقوال^(١):

الأول: أن المقصود بالحسنى هنا: لا إله إلا الله، يعني أن تكون مؤمناً، فإنك إن أعطيت وكانت أخلاقك حسنة مع من أعطيت ولكنك بدون إيمان، فلن ينفعك ذلك في الآخرة، **كما قال عن الكافرين: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾** [الفرقان: ٢٣].

والقول الثاني: أن المقصود بالحسنى هنا الثواب والأجر المترتب على العطاء.

والقول الثالث: أن المقصود بالحسنى هنا الخلف من الله، **كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾** [سبأ: ٣٩]، **وكما في الحديث: "ما نقص مالٌ من صدقة^(٢)"** فتعطي الناس وأنت واثق أن الله سيُعوضك.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه أحمد ط الرسالة: (٣/ ٢٠٨)، برقم: (١٦٧٤)، وإسناده حسن لغيره.



والقول الرابع: أن المقصود بالحسنى الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فهذه أربعة أقوال، ولكن أقواها الأول، ولا مانع أن تكون الأربعة مقصودة من اللفظ ومطلوبة كلها من العبد، فيصدق بالله رباً ومعبوداً، ويصدق بالثواب منه، ويصدق بالخلف من الله، ويصدق بالجنة جزاءً على عمله، ولا تعارض بينها.

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة في العبد؛ حصل على ثمرتها من الله، وهي قوله: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ﴾ (٧) **الفاء** للتعقيب، **والسين** للتنفيس أو للتسويق، فتكون ثمرة هذه الأعمال الثلاثة الصالحة أن يُيسر الله سبحانه وتعالى لليسر، وقد تكلم المفسرون عن معنى اليسر، **فمنهم من قال:** العمل الصالح^(١)، **ومنهم من قال:** تيسير الأمور^(٢)، **ومنهم من قال:** الجنة^(٣)، ولكن الآية تشمل كل تيسير، فيُيسر حياتك الدنيا كلها؛ فييسر أخلاقك، وييسر أعمالك، وييسر معاملاتك، كما أنه يُيسر حالك في الآخرة؛ فيُيسر حالك في القبر، وييسر حالك في المحشر، وييسر سيرك على الصراط، ولذلك جاءت اليسرى بالألف واللام للاستغراق، حتى تعم كل يُسر وكل خير في الدنيا والآخرة، وفي السين التي تفيد التسويق إشارة إلى سنة التدرج، وحتى لا يصاب بالإحباط من قام بما أمره الله به إذا تأخر ما وعده به الله، فيقول: أنا تصدقت واتقيت ولا شيء حصل لي!!، اتقيت كم، وتصدقت كم!!، لا تستعجل فالله يُعطيكَ فرصة من الوقت ليمتحن إخلاصك، وصدق عملك، ثم

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤٧١ / ٢٤).

(٢) ينظر: تفسير السعدي = تفسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٣).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤ / ٤٥٤).



يمنحك بعد ذلك الثمرة.!!

والإعطاء يُمثل معاملة الإنسان مع الخلق، والتصديق بالحسنى يُمثل معاملة الإنسان مع الخالق، واجتناب ما يُفسد هذا وذاك، هو التقوى، فمن فعل ذلك فقد استكمل شروط تيسير الله له لليسرى، من أراد أن ييسر الله أمره وأن ييسره لكل يسرى ولكل خير؛ فعليه بتحقيق هذه الثلاثة الأمور، وليس الأمر فيها صعباً، فأحسن علاقتك بالمخلوقين، وأعطهم مما أعطاك الله، وأحسن علاقتك بالخالق بالإيمان به مع مقتضياته، واجتنب ما يُفسد هذا وذاك؛ تكن قد آتيت بهذه الشروط فيحصل لك التيسير لليسرى بإذن الله في الدنيا والآخرة.!

وهنا لفظة تربوية مهمة جداً ننبه عليها في أمرين، وهما:

الأمر الأول: إذا تعسّرت أمورُك فربما يكون عندك نقص في واحد من تلك الثلاثة، فراجع هذه الثلاثة الجوانب، وانظر هل تتصدق أم لا، وهل أخلاقك طيبة مع الناس أم لا، وهل عندك تقوى أم لا.

الأمر الثاني: فيها إشارة إلى الحل والعلاج لمن حصلت له مُشكلة ويريد أن تيسر أموره فيها، فعليه بالصدقة، بنية التسهيل والتيسير، وكذلك من عنده كُربة؛ فيُخرج مالا بنية تفريجها، لأن الله تعالى يُبادل العبد بنفس العمل، **كما في الحديث:** "ومن فرّج عن مؤمنٍ كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة"^(١)، وهناك قصص حقيقية وليست خيالية لعدد من الناس الذين طبّقوا هذه القاعدة، ووجدوا

(١) رواه ابن حبان، كما في الإحسان (٢/ ٢٩٣)، برقم (٥٣٤)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.



أثرها عاجلاً، منها: أن رجلاً أصيب بالسرطان، فسافر إلى مستشفيات العالم، وكان من الأثرياء، فقالوا له: انتهى الأمر، ولم يبق لك إلا زمن قليل، فودّع أهلَكَ ولا تُتعب حالك، فرجع، وبينما هو ذاهبٌ إلى بيته كان عليه دين للجزار، فقال: نذهب نُسدّد الديون، ونستعد لاستقبال الموت، بينما هو يُسدّد الدين للجزار إذ به يرى شخصاً يجمعُ العظم الذي خارج الملحمة؛ فاستغرب، ماذا يفعل هذا؟! فقال له الجزار: هذا رجل عنده أيتام فقراء ومحتاجون، وكل يوم يأتي يجمع ما طار من اللحم مع باقي العظم، وأحياناً أعطيه قطعة لأجل يُطعم من معه من الأيتام، فرقّ لحاله ثم نوى أن يكون ذلك العمل شفاء له، فقال له: كل يوم اعطه كذا كيلو من اللحم على حسابي، وهذا المبلغ مُقدّم، وكان الرجل يأتي ويأخذ ذلك اللحم، ويأكله مع الأيتام، سبحان الله!! مرّ الأسبوع الأول وتحسّنت حالة المتصدق وكذلك الأسبوع الثاني ثم الثالث وإذا به صحيح معافى، فقال: لا بد أن أذهب وأُعيد الفحص؛ فذهب فأعاد الفحص فتفاجأ الأطباء، وقالوا: صاحب هذا الملف لا بد أن يكون قد مات، فقال لهم أنا صاحبه، فتفاجأوا منه، فجلسوا معه يسألونه ماذا عمل؟! فقال لهم: ما عملت شيئاً غير هذا العمل، وأخبرهم به!! فعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كل شيء، وأن من أحسن إلى الخلق؛ أحسن الله إليه، وأن ما يعجز عنه البشر، فهو سهل على الله سبحانه!!

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى الصنف الثاني، وهو تقيض الأول، وهم من يسرهم الله

للعسرى، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ (٩)، ف﴿بَخِلَ﴾ في مقابل ﴿أَعْطَى﴾، فالأول: أعطى مما أعطاه الله، وأحسن علاقته بالخلق، والثاني: بخل بكل شيء مما أعطاه الله، ولم ينفع به الخلق، فهذا هو البخيل، وإن كان البُخل



يُطلق على البخل بالمال، وهو الشح به وعدم إنفاقه، والحرص عليه واكتنازه، لكنه كما قلنا في الأول: أن لفظ الإعطاء عام في كل ما ينفع المخلوق، فكذلك لفظ البخل عام وهو المنع لكل ما ينفع المخلوق من نعم موجودة لديه.

وأما قوله: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾، فهو مقابل: ﴿وَأَنْفَى﴾، أي: استغنى عن الله، وهذا الفعل قبيحٌ في حق المخلوق، فمن أنت حتى تستغني عن الله، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، واستغناؤك عن الله يتنافى مع التقوى؛ لأنك تشبهه بالخالق العظيم الحي القيوم الذي لا يحتاج إلى أحد، ففعلك هذا قبيح، وذنبٌ عظيم، وهو الكفر بعينه!!، أو تكون بمعنى: استغنى عن تقديم الخير لخلق الله، فهذا ذنب وهو أخف من الأول إن وقع من المؤمن، وغالبًا أن الاستغناء يكون بالمال، فمن أُعطي المال، ظن أنه غني عن غيره، وهو في الحقيقة ليس بغني عن غيره، انظر مثلاً إلى رجل ثري ولكنه أُصيب بالمرض، فهل سيستغني عن الأطباء؟! الجواب: لا لن يستغني عنهم، بل سيتلطف بهم ليُعالجوه، وقل مثل ذلك في باقي حاجاته، فإذا جود المال مع الشخص وغناه بالمال والثروة لا يعني أنه لا يحتاج إلى غيره، فهو ما زال مخلوقاً فقيراً محتاجاً إلى غيره، وهكذا، فالغني يحتاج إلى من يؤمنه ويمشي معه ويسير بجواره، ويحتاج إلى من يطبخ له ويُطعمه ويُقدم له ما يحتاج إليه، فإذا الغنى وحده لا يكفي أو المال وحده لا يجعل الإنسان مستغنياً عن غيره، ولكن الله سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالغني، فهو غني حقيقةً، فهو الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها كلها، وهو لا يحتاج إلى أحد سبحانه وتعالى!!



وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ﴾ (١)، إذا قلنا: أن الحسنى لا إله إلا الله، فهو مُكذِّب بالتوحيد، ومُكذِّب بالإيمان، ويكفيه هذا الذنب في قبحه، فكيف إذا أضاف إلى ذلك البخل والاستغناء عن الهداية، والاستغناء عن الخلق فيما يزعم، فلا شك ولا ريب أنه في خطرٍ عظيم.

ومن توفرت فيه هذه الصفات الثلاث؛ فلينتظر ثمرتها، في قوله: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعَسْرَىٰ﴾

﴿١٠﴾، يعني: فسنبجل حياته كلها عسيرة؛ فنجعل أخلاقه عسيرة، ونجعل حاله عسيرة، ولا شك أن التعسير في أخلاق الإنسان أو في حاله أو في سائر أموره صفة قبيحة تدل على أن الله لم يُرد به خيرًا، ولو تأملت قليلاً في سؤال موسى لربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٤٥) و﴿يَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦)، وتأملت قليلاً في نعمة الله على عبده ورسوله محمد: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) و﴿وَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (٢) [الشرح: ١-٢]، لوجدت أن هذا مطلب من أهم مطالب الأنبياء أن تُشرح صدورهم وتيسر أمورهم.

وكان من دعائه ﷺ: "رب يسر لي أمري" (١)، فإذا يسر الله لك أمرك، ويسر لك ليسرى؛ فتلك نعمة عظيمة، وإذا يسر لك للعسرى؛ فتلك نقمة عظيمة، ولذلك قال ﷺ: "إن من الناس من جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وإن من الناس من جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير" (٢)، فهذا يُيسر للعسرى وذاك يُيسر

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنف (٣/ ٣٨٢)، برقم (١٥١٣٥)، بنحوه وضعفه ابن الملقن في البدر المنير (٦/ ٢٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٨٧)، برقم (٢٣٧)، وقال الألباني: حسن.



للئسرى، وفي الحديث: "اعملوا فكلُّ مُيسَّرٍ لما خُلق له"^(١)، ولا بد ننتبه لشيء مهم جداً، وهو أن الله عدلٌ فلا يظلم أحداً من خلقه، وهو حكيمٌ في أفعاله، وإنما يجعل النتيجة بسببٍ ما يفعله العبد، فمن يسره الله للئسرى فبسبب عمل صالح عمله، ومن يسره الله للئسرى، فبسبب فعلٍ قبيحٍ فعله، والله يمنح فضلاً وكرماً التوفيق من يشاء من خلقه، ويحرم ويمنع من يشاء التوفيق بعدله!!

ثم أخبر الله عن حال هذا الإنسان في الآخرة فقال: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾^(١١)، كما في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾^(٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ^(٢٩) [الحاقة: ٢٨-٢٩]، فهذا المال الذي كان سبباً في استغنائه عن الله وعن الإحسان إلى خلقه؛ قاده في الآخرة إلى التردي في النار، والتردي هو: السقوط من شاهق، كما قال الله: ﴿وَالْمُرْدِيَّةُ﴾^(٣٠) [المائدة: ٣]، وهو: الحيوان الذي سقط من شاهق ولم يذكى، فالكافر الغني لا ينفعه ماله إذا سقط من سفير جهنم إلى قعرها، وهو بعيد المسافة، وتقدر بسبعين سنة، كما في الحديث أن النبي ﷺ سمع ذات يوم وجبة أي: صوتاً شديداً، وهو في المدينة، فقال: "أسمعتم ما أسمع؟" قالوا: نعم، قال: "أندرون ما هذا الصوت؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا حجرٌ ألقى من سفير جهنم، فما زال يتجلى لسبعين خريفاً حتى وصل قعرها الآن"^(٣١)، وفي هذا تحذير وتنبية لمن أعطاه الله مالاً بأن يستفيد منه قبل أن لا يُغني عنه المال، فالمال الذي يُنقذ صاحبه من النار، هو الذي أنفقته صاحبه في الخير وفي نشر

(١) رواه البخاري (١٧١ / ٦)، برقم (٤٩٤٧).

(٢) رواه أحمد في مسند، ط الرسالة (١٤ / ٤٣٣)، برقم (٨٨٣٩)، بنحوه، وإسناده على شرط

مسلم.



الحق، وسيُسأل صاحبُ المال بين يدي الله عن المال سؤالين: من أين اكتسبه؟!، وفيما أنفقه؟!، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، يُنفقه في الخير ويعمل فيه مشاريع الخير، ويُعطي منه المُحتاجين، ويتبته لزكاته فيُخرجها في موعدها ولا يُغالط فيها من أجل أن ينفعه ذلك المال يوم القيامة.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا الْهُدَى﴾ (١٢) وعد الله سبحانه وتعالى خلقه ألا يدعهم هملاً، ولا يخلقهم سدى، بل خلقهم وبين لهم ما المطلوب منهم، وما الغاية من وجودهم، فأنزل إليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل، ليُبينوا لهم طريق الهدى من طريق الضلال، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، **ف قوله:** ﴿إِنَّا عَلَيْنَا الْهُدَى﴾ (١٢) أي أن الله سبحانه وتعالى لا يُعذب حتى يبعث رسولاً، **كما قال:** ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧) [الرعد: ٧]، **وقال:** ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) [البلد: ١٠] **أي:** بينا له الطريقين طريق الخير وطريق الشر، فالله سبحانه وتعالى عليه أن يُبين للخلق طريق الحق من الباطل؛ حتى لا تكون لهم حُجة عند الله ولا يقولون له: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾ (١٢٤) [طه: ١٣٤]، فالله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وبين طريق الحق من طريق الضلال، فمن اهتدى فبفضل الله، ومن ضلّ فبعدل الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (١٣)، قدّم الآخرة على الأولى لأهميتها ومكانتها وعظمتها، وإلا فالدنيا من حيث الوجود قبل الآخرة، وهما مترابطتان، فمن لم يُنصف في الدنيا؛ فليتنظر إنصافه في الآخرة، ومن ظلم في الدنيا ولم يُعاقب؛ فليتنظر عقوبته في الآخرة، فلا انفكاك بينهما، والدنيا دارُ عمل والآخرة دار حساب، وهي كلها ملك لله سبحانه وتعالى، ومُلْكُ الله في الآخرة واضح، فلا أحد



يملك من الخلق منها شيئاً ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فلا أحد يملك شيئاً في الآخرة، فالملك كله لله فهو الحكم الفصل، بخلاف الدنيا، فقد جعل الله فيها الملك لبعض خلقه، والله تعالى يطلع ويراقب ويُمهل ولكنه لا يُهمل، كل ذلك فتنة واختباراً للناس.

ثم قال الله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [١٤]، فأحذركم ناراً تكون مصير من لم يسلك طريق الهدى الذي بيناه للناس، فمن كان غافلاً فلينتبه، ويستعد بالأعمال الصالحة لينقذ نفسه من هذه النار، ونكر النار للتعظيم.

وقال في وصفها: ﴿تَلَظَّى﴾، أي: تتوهج وتشتعل، فليست كامنة، بل تحترق، واللهب فيها مستمر بالاشتعال، وهذا يدل على قوة حرارتها وشدتها، وأنها تنتظر من يأتي إليها.

ثم قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [١٥]، **الأشقى:** صيغة اسم فاعل من شقى، **والمعنى:** الذي أصيب بالشقاوة، وصار أشقى بهذا الفعل، وهو الذي بلغ الرتبة في الفجور والكفر والفسوق، ويصلاها، أي يدخلها ويحترق فيها، ولكن هناك معنى أعمق من مجرد الدخول، وغالباً ما يأتي فعل (يصلي) ومشتقاته في حق الكافر وليس حق العاصي، فالعصاة قد يدخلون النار ولكن لا يخلدون فيها، فدل ذلك على أن المقصود بـ ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يلزمها، ويستمر فيها خالداً مُخلّداً.

ثم وصف الأشقى بأنه: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [١٦]، أي: كذب بالحق لما جاءه وأعرض عنه، وأطلق التكذيب والتولي هنا؛ ليشمل كل أنواعهما، فكذب بالرسول والقرآن والإيمان، وتولى عن الحق والهدى والخير، وتولى عن الطاعة والموعظة



والإرشاد، وتولى عمن يدلّه على الله، وابتعد عنه وأعرض عن ذلك كله!!

ثم قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (١٧)، أي: وسيُبعد عن هذه النار، واستُخدم الفعل جَنَّبَ يُجَنَّبُ تَجَنُّبًا بمعنى أن يكون هو في جانب والنار في جانب آخر، فدلّ ذلك على بُعده عنها مطلقاً، وأنه لن يكون قريباً منها، بل سيكون بعيداً عنها، والأَتْقَى: صيغة اسم فاعل من اتقى، **والمعنى:** الذي بلغ في التقوى أعلى رتبة، وقد وصف الله تعالى أصحاب الجنة بأنهم المتقون، وأن الجنة أُعدّت للمتقين، **وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات** أنها نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١)، واسمه عبد الله بن أبي قحافة، فقد بلغ في التقوى مرتبة كبرى، وقد كان ثرياً من أغنياء مكة، وكان يُنفق ماله في شراء العبيد الضعفاء الذين تُعذبهم قريش، فاشترى بلالاً وأعتقه، وأعتق غيره من ضعفاء وعبيد مكة، وكان له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَالٌ يُنفقه في هذا الباب، وفي يومٍ من الأيام أراد عمر أن يُنافس أبا بكر، لما طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس أن يتصدقوا على المحتاجين الفقراء الذين أتوا إليه، فقال عمر: أما اليوم فسأسبق أبا بكر، فذهب إلى بيته وقسم المال الموجود عنده نصفين، ووضع نصفاً لأهله، وأتى بالنصف الآخر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ماذا تركت لأهلك؟" قال: النصف يا رسول الله، ثم أتى أبو بكر بماله، فوضعه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: "يا أبا بكر ماذا تركت لأهلك؟" قال: تركت لهم الله ورسوله، فقال عمر: لا أنافسك بعد اليوم" (٢)، فنزلت فيه هذه الآيات.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٠٧).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٦١٥)، برقم (٣٦٧٥)، وقال الألباني: حسن.



ثم وصفه بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(١)، يتزكى، فيها معنيان: الأول:

يُنْفِق ماله من أجل أن يطهر نفسه^(١)؛ لأن إنفاق المال في سبيل الله يطهر النفس،
كما قال الله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]،
فإنفاق المال فيه تطهير للنفس من الشح والبخل والطمع وحب الدنيا، فكلما
أنفقت مالاً؛ كلما طُهرت نفسك، ولذلك من دروس هذه الآية وعبرها: أن من
وجد في نفسه كدرًا أو ضنكًا أو تعبًا في بعض الأوقات؛ فعليه بالصدقة، نعم،
أخرج مبلغًا من المال لوجه الله، وأعطه لمن يستحق وانتظر لحظات وستشعر
بانسراح الصدر وطهارة النفس، فالعطاء طُهرة، فقد وصف زكاة الفطر في
الحديث بأنها: "طُهرة للصائم"^(٢).

والمعنى الثاني: يتزكى أي: المال، بمعنى ينمو^(٣)، فإن العطاء من المال

يزيده وينمي.

والزكاة في اللغة تأتي بمعنيين: النمو والطهارة^(٤)، فمن أخرج زكاة ماله، فقد

طهر المال وطهر النفس، ويطرح الله فيه البركة فينمو ويزداد، ولا تعارض بينهما.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾^(١) والمعنى: أنه لا يُعطي

أحدًا بسبب أنه له عليه فضل أو نعمة أو مُقابل خدمة قدمها له، وإنما يُعطيه الله،

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٩٥).

(٢) رواه ماجه (١/ ٥٨٥)، برقم (١٨٢٧)، وقال الألباني: حسن.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٠٩).

(٤) ينظر: العين (٥/ ٣٩٤).



وهذه الصفة تصدق في حق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر في أوصافه وفضائله فقال: "ما من أحدٍ آمنَ عليّ من أبي بكر" ^(١)، لأنه أنفق عليه وأعطاه وبذل له ماله، وضرب من أجله، وفعل كثيرًا من أجل الله سبحانه وتعالى، وقد قيل أن قريشًا كانت تتهم أبا بكر أنه اشترى بلالًا لأنه له نعمة عنده، فردت عليهم هذه الآية، فليس لأحد عليه نعمة، وإنما اشتراه لوجه الله ^(٢).

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ فكان يفعل ذلك قاصدا وجه الله، مُخلصًا الله في فعله، لا يريد جزاء ولا شكورًا من أحد، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، وقد استدلل بعض أهل العلم بهذه الآية على كراهية أن يقول المتصدق للفقير: هذا المال لك وادعُ الله لي، قالوا: لأنك طلبت منه جزاءً على صدقتك، فالدعاء جزاء، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا الله له، فإن دعاءكم مكافأة له" ^(٣)، فلذلك يستحب أن تعطي الفقير الصدقة ولا تطلب منه شيئًا، واترك الأمر لله، فهو الذي يكتب لك الأجر والثواب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ فمن فعل ذلك من أجل الله فإن الله سيُكافئه وسيُعطيهِ حتى يرضى بما أعطاه الله، **كما قال:** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، **وهنا قال:** ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾، هل المقصود ولسوف

(١) رواه البخاري (١٠١ / ١)، برقم (٤٦٧) بنحوه.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨٨ / ٣١).

(٣) رواه أبو داود (١٢٨ / ٢)، برقم (١٦٧٢)، وقال الألباني: صحيح.



يرضى الله عنه، أو ولسوف يرضى هو عن الله؟! الأفضل والأكمل أن تجتمع الاثنتان معاً، كما قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، فيحصل رضى العبد عن الله بما يُعطيه، ويرضى الله عن العبد، فلا يسخط عنه أبداً، فيمنحه الفوز والسعادة التامة في الدنيا والآخرة. لا إله إلا الله ما أعظم كرم الله!، منحك المال، وهياً نفسك للصدقة، وأبعد عنك البخل، وقال لك: تصدّق بجزء من هذا المال، فتصدّقت به لوجه الله، فأكرمك الله بالقبول ومنحك السعادة، وزكّى نفسك، ورضي عنك وأرضاك، فكل النعم هذه من الله، وهذا من توفيقه للعبد، ومن حرمانه للتوفيق أن يمنح العبد مالاً فيبخل به ويقول: أنما أُوتيته على علم، فيحرمه الأجر، ويصيب نفسه بالشقاء والضيق والتعاسة، ويسرّها للعُسرى، ثم لم يُغن عنه ماله حال سقوطه في النار، ثم حرّمه الله الرضى عنه في الدنيا والآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١ - أهمية تزكية النفس وتطهيرها.
- ٢ - أن المتعاونين على المعصية شركاء في الإثم.
- ٣ - أهمية السعي في أسباب تيسير العبد لليُسرى، وخطورة السعي في تيسير العبد للعُسرى.
- ٤ - أهمية أن يُنفق الإنسان من ماله خالصاً لوجه الله حتى يرضى الله عنه ويُرضيه.



تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَافَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا نَهَرٌ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرٌ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾.

شخصية السورة:

سورة الضحى؛ سورة مكية^(١)، والمقصد العام لهذه السورة هو: بيان عناية الله سبحانه وتعالى بنبیه و صفیه و خلیله محمد صلی الله علیه و آله و سلم، والامتنان علیه بنعم عظیمه^(٢)، كل ذلك تسلیة له و تأنیسا لحاله؛ حينما شكك بعضُ المشركين في حب الله و عنايته و رعايته له.

وكان بعضُ السلف يُسميها سورة محمد، أو سورة رسول الله، وكان يُطلق على السورة التي قبلها سورة الصديق، وهي سورة الليل^(٣)، وقد نزل آخرها في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٢٣).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٦).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩١).

وقد ذكر بعض المفسرين: أن سرّ العلاقة بين هاتين السورتين، كسر العلاقة بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ورسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان صاحبه في الغار وخليفته من بعده، **وكان** أول الصحابة قرباً ومكانةً وخلةً مع رسول الله صلى الله عليه وآله!!^(١)

وأما سبب نزولها فقد انقطع عن النبي صلى الله عليه وآله الوحي فترةً من الزمن، فلما رأى ذلك منه المشركون شمتوا به، وذهبت إليه أم جميل زوجة أبي لهب، حمالة الحطب، التي ذكرت في سورة المسد، فقالت له: يا محمد، ما أرى ربك إلا قد قلاك وتركك، وما أرى شيطانك الذي كان يأتي إليك إلا قد ذهب عنك، وتقصد بالشیطان هنا جبريل عليه السلام، الذي كان يأتيه بالوحي، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه السورة تكذيباً لقول أم جميل ودفاعاً عن رسوله صلى الله عليه وآله.^(٢)

وقد اختلف المفسرون في سبب تأخر الوحي أو انقطاعه لفترة - حتى قيل: إنها أربعين ليلة، **وقيل:** أقل من ذلك - **على قولين:**

القول الأول: أن المشركين سألوا النبي صلى الله عليه وآله بعض المسائل فوعدهم أن يجيبهم عنها في الغد، ولم يقل: إن شاء الله، فتأخر الوحي عنه، ونزل عليه قوله: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** [الكهف: ٢٣-٢٤]^(٣).

والقول الثاني: أن كلباً صغيراً دخل تحت سرير النبي صلى الله عليه وآله، ولم ينتبه له، فامتنع جبريل عن الدخول، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/٤٩٣).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٥٦).



مُعْظَمَةٌ^(١)، والقول الأول هو الراجح، وهو قول جمهور المفسرين^(٢)، وكانت فترة انقطاع الوحي نوعاً من تربية الله لرسول الله ﷺ، ليزداد شوقاً إلى جبريل، وكان منتظراً له بشوق كبير بعد هذا الانقطاع.

قوله: ﴿وَالضُّحَى﴾، الواو حرفُ القسم، والضُّحَى مُقْسَمٌ به، والمقصود بالضحى: هو وقت الضحى، وهو من بعد طلوع الشمس إلى قبل زوالها، وفيه تُشرع صلاة الضحى أو سنة الضحى، وقد جاء في الحديث: "صلاة الضحى حين ترمض الفصال"^(٣)، وهي أولاد البهائم الصغيرة حينما تشتد الشمس عليها تبحث لها عن مكان فيه شيء من الظل وتبتعد عن الحرارة لترتاح.

وقال بعض أهل العلم: المقصود بالضحى: النهار كله، وليس وقت الضحى فقط، بل سُمي اليوم كله بالضحى لأنه جزء منه، وهو أحسنه وأفضله^(٤).

ثم قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، أقسم الله تعالى بالليل عندما يغطي الأرض بظلامه، وتأتي سجي بمعنى سكن^(٥)، ولا تعارض بينهما، فالليل إذا أقبل، فإنه يُغطي الأرض بظلامه، وإذا جاء الظلام سكنت المخلوقات، وهدأت!.

وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، هذا جواب القسم، ودَّعَ: من التوديع، ويكون غالباً

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٣).

(٢) ينظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٥/ ٢٦٥).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥١٥)، برقم ١٤٣١ بنحوه.

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥١).

(٥) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٣٧).



عند المفارقة، **ومن ذلك حجة الوداع** التي ودّع فيها النبي ﷺ من حج معه، **والمعنى:** ما تركك ربك على سبيل المفارقة لك وعدم عودة الوحي إليك مرة أخرى.

وفي التعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾، إشارة إلى أن الذي ربّاك ورعاك واعتنى بك في طفولتك؛ لن يدعك في هذا السن وفي هذه المرحلة، كما أن إضافة الرب إلى كاف المخاطب، فيه إشعار بالاختصاص.

ثم قال: ﴿وَمَا قَلَّ﴾ ٢ ﴿قَلَى، بمعنى: أبغض، ولم يقل: وما قلاك، ولم يأت بكاف الخطاب، إما لأنه قد سبق ما يدل عليها، وإما أن المقصود به البغض المطلق، أو من أجل تناسق الفاصلة في النظم القرآني، لأن الضحى تنتهي بالألف المقصورة وسجى كذلك.

ما هي العلاقة بين المقسم به وجواب القسم؟!، الجواب: قال بعض أهل العلم: وإنما أقسم الله بالضحى لأنه أول النهار، وفيه شروق الشمس ومجيء النور وذهاب الظلام وتبديد الظلمة، فتناسق أن يكون هذا القسم بذلك لإثبات استمرار الوحي، فإن الوحي نور معنوي، كما أن الضحى نور حسي، فأقسم بالنور الحسي على بقاء واستمرار النور المعنوي، وهو الوحي الذي يُرسل به جبريل إلى رسول الله ﷺ، وهنا يتم التناسب^(١)، فكما تحتاج الأرض إلى النور من أجل الحياة؛ فإن القلوب والنفوس البشرية أشد حاجة إلى نور الوحي من حاجة الأرض إلى نور الشمس.

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥ / ٣٧٢).



ثم قال الله لنبيه: ﴿وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤)، أي: أن ما سيمنحك الله ووعده لك به من الخير في الدار الآخرة؛ خير مما حصلت عليه في الدنيا، فهذا الفضل الذي من الله عليك في الدنيا ومنحك إياه لا يعني أنه نهاية المطاف، بل الآخرة فيها فضلٌ أكبر ومنحٌ أعظم، ما زالت مُخبأة لك حتى تلقى الله سبحانه وتعالى، وُسِّمَت الدنيا بالأولى؛ لأنها قبل الآخرة في الترتيب، وُسِّمَت بالدنيا؛ لأنها دُونَ الآخرة في المرتبة، وُسِّمَت الآخرة آخرة؛ لأنه لا حياة بعدها، وقد أطلق الله عليها الحيوان، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) [العنكبوت: ٦٤].

ثم قال الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥)، ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ من الثواب الجزيل لك ولأمتك حتى ترضى، فقد وعده الله أن لا يُحزنه في أمته، وقد منحه الشفاعة العظمى التي لم يُعْطِها أحداً من الخلق، وهي المقام المحمود المذكور في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩) [الإسراء: ٧٩]، وفي الحديث: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا كما يقول ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة" (١).

ثم بدأت الآيات تتحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على رسوله على سبيل التذكير والامتنان، فقال الله له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (٦) ^{صلى الله عليه وسلم} الجواب: بلى، فإن النبي كان يتيم الأب ثم يتيم الأم، فقد مات أبوه وأمه حاملٌ به، وماتت أمه وهو

(١) أخرجه مسلم (١/٢٨٨)، برقم: (٣٨٤).



في سن السادسة من عمره، فصار يتيم الأب والأم، ولكن الله سبحانه وتعالى آواه وأخرجه من حالة اليتم بترقيق قلب جدّه عبد المطلب عليه، فكفله جده، ثم بعد أن مات جده، أوكله إلى عمه أبي طالب، فكان يُقدمه على أولاده، فخرج من حالة اليتم إلى حالة الرعاية والعناية، فجده كان يعتني به كثيرًا، وكان عمه يعتني به ويُقدمه على أولاده، واستمر يُدافع عنه حتى بلغ عمره خمسين سنة، والحكمة في جعله يتيم الأب والأم؛ من أجل أن يستشعر ما تمر به هذه الفئة من الناس من الضعف والحاجة، ولذلك كان يعتني بهم ويوصي بهم خيرًا، ويهتم لشأنهم.

ثم قال الله سبحانه له: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، فلما انتهت مرحلة اليتم، وصار النبي ﷺ شابًا، ولم يكن يدري ما الإيمان ولا الكتاب، منحه الله سبحانه وتعالى أولاً العصمة من أن يقع في الشرك كما وقع به قومُه، ومنحه أيضًا الحفظ من أن يقع في قبائح الذنوب كما وقع بها الشباب الذين من حوله، ومنحه أيضًا الحماية والرعاية من أن يحصل منه ما يخدش مروءته، فإنه لم يُشرك ولم يرتكب محرّمًا ولم يقع منه ما يقدر في مروءته طيلة فترة الشباب، بل ظل على الطهارة والصفاء ونقاء الفطرة، فهذه من صور الهداية له قبل البعثة، فلما بُعث ونزل عليه الوحي؛ حصلت له الهداية الكاملة، **فيكون معنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: غير مدرك للحق الكامل.**

نعم، كان هناك بقايا من دين إبراهيم الخليل في مكة، ولكن التشويش والحيرة كانت مطبقة على الناس، وهذا هو المقصود بالضلال هنا، فإذا خرج الإنسان من هذه الحيرة إلى الحق وابتعد عن الباطل، فقد اهتدى!! وقد اختلف



المفسرون في معنى الضلال هنا على أقوال كثيرة، وذكر الرازي عشرين قولاً في معناها، بعضها مُتَكَلَّف وبعضها يُسميه العلماء من التفسير بالمثال، ومن ذلك **قال:** أنه ضلَّ الطريق لما خرج مع عمه إلى الشام ثم وجدوه وأتوا به إليه، ومنها: أنه ضلَّ على حليلة السعدية لما أرادت أن ترده إلى مكة، وضاع في الطريق ثم رأوه وأتوا به إلى جده، ولم يصح في ذلك خبر، وهي تعني ضلال الطريق وغيره^(١)، ولكن النص القرآني هنا يتحدث عن الضلال عن الحق، كحقيقة شرعية، فلا بد أن نبدأ بإعماله وفقاً لهذا الترتيب: إذا جاءك لفظ فأعمل فيه الحقيقة الشرعية، فإن لم يُمكن؛ فأعمل فيه الحقيقة اللغوية، فإن لم يُمكن؛ فأعمل فيه الحقيقة العُرفية، فإن لم يُمكن؛ فانقله إلى المجاز، فهذه أربع مراحل للتعامل مع اللفظ القرآني، فهنا نبدأ فنُعمل الحقيقة الشرعية في معنى: الضلال، فإن أمكن، فلا داعي لنقلها إلى الحقيقة اللغوية أو إلى غيرها.

فهل كان النبي ﷺ ضالاً بمعنى مشركاً؟! الجواب: لا، فإن الله حماه من أن يقع في الشرك، بل وحماه من أن يقع في الكبائر منذ نُعومة أطفاره، وحماه من أن يقع فيما يخرم مروءته، كما جاء في السيرة النبوية أنه كان مع عمه العباس ينقلون الحجارة إلى الكعبة، وكان له إزار يستر عورته، فقال له: يا ابن أخي لقد أوجع الحجر كتفك، فخذ الإزار وضعه تحت الحجر، فما أن خلع الإزار حتى أغشي عليه، وغطى عورته بالأرض^(٢)، فقد كان شديد الحياء، وجاء في قصة

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩٧).

(٢) ينظر: فقه السيرة للغزالي (ص: ٨٤).



أخرى أيضًا، أنه كان يرعى مع فتیان لقريش، فقالوا له: إنه ثمة عرس هنا، فتعال واستمع معنا، وكان فيه نوع من لهو الجاهلية آنذاك، فما إن اقترب منهم؛ حتى ألقى الله عليه النوم، فلم يُوقظه إلا حر الشمس اليوم الثاني^(١)، كل هذه العناية والرعاية برسول الله ﷺ حتى يُهيأ للنبوة والرسالة.

إذاً فما معنى الضلال هنا؟!، الجواب: يمكن أن نحصره بالحيرة التي كانت عليها الجاهلية في معرفة الحق المطلق، وهي ما تُسمى بمرحلة الفترة، **كما قال:**

﴿عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، **فمن مات أثناء الفترة؛ فلا يُحكم عليه بالشرك ولا بالتوحيد**، بل يقال عنه من أهل الفترة، **وحكمه:** أن يُختبر ويُمتحن بين يدي الله، فيرى مصيره إلى الجنة أو إلى النار، أما معنى الهداية هنا فهي إعطاؤه النبوة والرسالة وإنزال الكتاب عليه، فصار خاتم الأنبياء والرسل، ولا يقبل الله أحدًا أن يدخل الجنة إلا من طريق دين نبيه ﷺ.

ثم قال له: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ، **العائل،** هو الفقير، إما من كثرة العيال وعدم وجود ما يكفيهم من الأكل والشرب، ولا شك أن النبي ﷺ كان فقيرًا، فقد كان أكبر أولاده بنات، وأولاده الذكور ماتوا في الصغر، والغالب عند العرب أن الذي يأتي بالمال ويبحث عنه ويقوم بواجب أبيه وأمه هو الذكر، وكان أيضًا فقيرًا في صغره، لما كان في أسرة أبي طالب، فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، فأغنى في معناها أقول^(٢)، **قيل:** حينما تاجر في مال خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،

(١) ينظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/ ١٢٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩٩).



وربح من تجارتها، **والمعنى:** فأغناك بأن هيا لك هذه المرأة فوثقت فيك وأعطتك مالها تتاجر به فصرت غنياً.

وقيل: أغناك الغنى المطلق بعد أن بعثك بالرسالة، وأذن لك بحل الغنائم، وصار المال يجيء إليك من الغنائم والفِيء وما أخرجته الأرض.

وقيل: أغناك بمعنى: منحك غنى النفس، وهذا لا شك أنه مُهم، فإن الله تعالى إذا أعطى العبد مالاً وكان فقيراً ثم لم يمنحه غنى النفس، وهي القناعة، فإنه لا يشبع منه، ومن منحه الله غنى النفس، فإنه يقنع بالقليل ويعيش بالقليل، ويشعر بالغنى ولو كانت يده فارغة، **كما في الحديث، قال ﷺ:** "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس" ^(١).

قلت: والأقوال الثلاثة لا تعارض بينها، بل هي متسقة المعنى؛ فما المانع أن يكون الله منح رسوله غنى النفس، وهياً له خديجة قبل أن يتزوجها، لتثق فيه وتمنحه مالها، فيصير المال في يده متناً، ثم بعد ذلك منحه الغنى بعد البعثة، بأن جاءته كنوز الدنيا بين يديه من خلال الفتوحات والغزوات والحروب التي كان ينتصر فيها على الأعداء، وأحلت له الغنائم وكانت على الرسل قبله مُحَرَّمة.

وهذه الثلاث النعم التي ذكر الله بها نبيه ﷺ، بعد نفيه لتوذيعة وبغضه؛ وكأنه يقول له: لقد مررت في هذه المراحل الضعيفة، فكيف كانت عناية الله بك فيها؟! **فهل من اعتنى بك في هذه المراحل الضعيفة** قبل أن يكرمك بإنزال الوحي عليك؛ سيتركك الآن ويغضبك؟! **الجواب لا.**

(١) رواه البخاري (٨ / ٩٥)، برقم (٦٤٤٦).



ثم وجهه بثلاثة توجيهات، مقابل تلك النعم الثلاث السابقة:

فالتوجيه الأول، في قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١﴾، أي: لا تظلمه ولا تذله ولا تعبس في وجهه؛ ولكن أكرمه وأحسن إليه وتلطف به، وتذكر بيتك حاله وانتبه للتعامل معه، فكما تعامل الله معك وأنت يتيم، فتعامل مع اليتيم بالحسنى، ولا تشعره بالقهر والألم، فإن الشخص الضعيف، إذا حصل له معاملة سيئة من غيره من الأقوياء؛ يتألم ويشعر بالقهر ممن ظلمه، فأمر الله بحسن المعاملة معه بسبب ضعفه، **واليتيم من الإنسان:** من فقد أباه، **ومن الحيوان:** من فقد أمه، لأن الأم في الحيوان هي المسؤولة عن رعاية الصغير، بخلاف الإنسان فالأب هو المسؤول على نفقته، ويزداد اليتيم خطورة عندما يفقد الإنسان أباه وأمه معاً، فإذا اليتيم شخصية ضعيفة تحتاج إلى عناية ورعاية ورحمة، فأمره أن يتعامل معه بإحسان، ونهاه عن قهره.

ثم ذكر له التوجيه الثاني، فقال: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝٢﴾، أي: رد السائل برحمة ولين، **وفي تفسير السائل، قولان^(١):**

الأول: أنه طالب العلم الذي يأتي يسأل العالم عن مسألة، فإذا جاءك شخص يسألك فأجبه أيها العالم، ولا تنهره، **والمعنى:** لا تنهر كل من سألك، بل رحب به وأجب على سؤاله بكل لطف، وبيّن بالجواب حتى يفهم ويتعلم.

القول الثاني: أنه السائل الذي يأتي محتاجاً يطلب نوالاً من الدنيا، فلا تنهره، وبإمكانك أن تردده بأي شيء ولو كان قليلاً، أو بالكلمة الطيبة، ويُمكن أن تأخذه

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١ / ٢٠١).



على انفراد وتنصحه بطريقة مُهذبة إذا كان غير مُحتاج، وقد جاءت أحكام مُفصلة للمسألة في الإسلام، متى تجوز ومتى لا تجوز، ليس هنا محل تفصيلها، ولكن من حيث العموم لا تنهر سائلاً سواء كان طالب علم سألَكَ عن جواب مسألة، أو محتاج سألَكَ شيئاً من الدنيا، فإن لم تُعْطه شيئاً، فردّه بالكلمة الطيبة، **وفي الحديث:** "ردوا السائل ولو بظلف مُحَرَّق" ^(١)، **والظلف المُحرق** هو آخر شيء في قدم الشاة!! ولا مانع من إرادة المعنيين، فلا تعارض بين القولين لاختلاف تعدد الأحوال.

ثم ختم الله، سبحانه وتعالى، السورة بذكر التوجيه الثالث، فقال: ﴿وَأَمَّا نِعمَةٌ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ^(١١)، **النعمة هنا قيل:** هي النبوة ^(٢)، وقيل عموم النعم ^(٣)، وهو الراجح، **والمعنى:** اذكر نعم الله سبحانه وتعالى عليك على سبيل الشكر، ولا تذكرها للآخرين على سبيل العُجب والمن والارتفاع عليهم، فلا تقل على سبيل الكبر والعُجب والغطرسة: أنا من الله علي بكذا، أنا أحسن صوتاً، أنا أكثر جمالاً، أنا أكثر مالاً، أنا أعزُّ نفراً، فهذا لا يجوز، ولكن اذكر النعم التي منحك الله إياها على سبيل الشكر لها، فقل: أعطاني الله كذا فالحمد لله، من باب إظهار النعمة وشكرها، واستخدامها في طاعة الله، **وفي الحديث:** "إن الله يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده" ^(٤)، فإذا أعطاك الله مالاً أظهر هذه النعمة على نفسك، فالبس

(١) رواه النسائي (٨١ / ٥)، برقم (٢٥٦٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨ / ٤٢٨).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥ / ٣٨٤).

(٤) رواه الترمذي، ت شاكر (٥ / ١٢٣)، برقم (٢٨١٩)، وقال الألباني: حسن صحيح.



لبسًا جميلًا، وكُلْ أكلاً طيبًا، وإياك أن تُظهر الفقر والحاجة، وأنت في خير
ونعمة، وإياك أن تكون أشراً بطراً مُتكبراً بهذه النعمة!!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- بيانُ عناية الله سبحانه وتعالى، بنبیه وصفیه وخليله محمد ﷺ،
والامتنان عليه بنعمٍ عظيمة، كل ذلك تسليّة له وتأنيساً لحاله.
- ٢- أن اليتيم شخصية ضعيفة؛ تحتاج إلى عناية ورعاية ورحمة، فأمرنا الله
أن نتعامل معه بإحسان، ونهانا عن قهره وظلمه واحتقاره.
- ٣- مشروعية رد السائل برحمة ولين، سواء كان سائلاً عن مسألة علمية، أو
محتاجاً يطلب نوالاً من الدنيا.
- ٤- مشروعية إظهار أثر النعمة عليك على سبيل الشكر لا على سبيل الفخر
والخيلاء بها.



تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ (١) ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ (٢) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ﴾ (٣).

شخصية السورة:

تسمى بسورة الشرح، وسورة الانشراح، وسورة ألم نشرح لك، وهذه السورة من السور التي نزلت مبكرًا على رسول الله ﷺ وهو في مكة، وترتيبها في المصحف بعد سورة الضحى.

وبعض السلف يرى أن سورة الضحى وسورة الشرح سورة واحدة؛ للتشابه في موضوعاتها، ولكن الراجح أنهما سورتان مستقلتان^(١)، فكل سورة منفصلة عن الأخرى، حتى لو تشابهت في الموضوعات، ولكنها تختلف في الحال الذي نزلت فيه كل سورة، فسورة الضحى نزلت على رسول الله ﷺ في حالة كان يشعر فيها بالألم والأسى فنزلت لتسليته، وردّ كلام المشركين عنه، الذين قالوا أن الله قد قلاه وتركه، وبها عاد الوحي بعد فترة انقطاع.

أما هذه السورة: فإنها نزلت والنبي ﷺ مرتاح البال، مطمئن النفس، منشراح

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥ / ٣٨٥).

الصدر، فجاءت لمزيد من الامتنان عليه بتلك النعم، وقد تشابهت السورتان في المقصد، فسورة الضحى تحدثت عن نعم الله تعالى الحسية التي منحها الله لرسوله ﷺ، وسورة الانشراح تحدثت عن نعم الله تعالى المعنوية التي منحها الله لرسوله ﷺ، وهذا يُعطينا مؤشراً مهماً جداً على أن ترتيب سور القرآن الكريم ليس اجتهاداً، وإنما هو توقيفي، وأن الإنسان قد يُدرك الحكمة من الترتيب وقد لا يُدركها، ولذلك اجتهد العلماء كثيراً في ما يُسمى بعلم التناسب في القرآن الكريم، سواء كان تناسب الآيات، أو كان تناسب السور، وهو علمٌ عظيم أبدع فيه الإمام البقاعي **رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ** (١)، ثم جاء بعده عددٌ لا بأس به من أهل العلم من المفسرين، وهو ذو بُعد اجتهادي تدبري، وفيه لطائف وحكم، وأحياناً شطحات، فعلى طالب العلم أن يقرأ ويتأنى ويبحث عن الصواب، حتى يستفيد من هذا العلم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، **الهمزة** للاستفهام، وبعدها (لم) للنفي، والجواب في الاستفهام المنفي يكون بقولك: بلى، **ولو قلت**: نعم لكانت الإجابة: بالنفي، **وهل هذا السؤال حقيقي يحتاج إلى جواب؟** أم هو أم تقرير؟ **الجواب**: تقرير، **بمعنى**: قد شرحنا لك صدرك.

والنون في ﴿نَشْرَحْ﴾، نون العظمة، فإن عظمة الفاعل يدل على عظمة ثمرة الفعل، أو نون الجمع، **والمعنى**: أن الله سبحانه وتعالى قد هياكل الأسباب لشرح صدره، وكان من ضمن من يُشارك في شرح صدر النبي ﷺ الملائكة،

(١) في كتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.



فتكون نون الجمع على أصلها، **لتشمل**: فعل الله وفعل ملائكته، وما هو المقصود بالشرح؟! هل هو شرح حسي أم معنوي؟ أو هما معاً؟، **الجواب**: هما معاً، فالشرح مأخوذ من التشريح، وهو أن يُؤتى إلى الحيوان فيُقطع جسده ويُنظر ممّ يتكون، **فهذا الشرح الحسي**.

والشرح المعنوي هو التوسعة والانفتاح، **كما قال**: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: ٢٢]، **فشرح هنا بمعنى**: وسّعه، وأدخل عليه الهداية والنور فحصل عنده الاتساع والطمأنينة والراحة، وابتعد عن الضيق، **وقد حصل للنبي محمد ﷺ الأمران: الشرح الحسي، والشرح المعنوي**.

فالشرح الحسي قد ثبت للنبي ﷺ في حالتين:

الأولى: في بني سعدٍ عند مُرضعته حليلة، وهو ابنُ ست سنوات، فجاءه جبريل فصّره من بين الأطفال، فشقَّ صدره وأخرج قلبه وغسله وطيبه ونظفه، ثم أعاده وخاطه، حتى كان يُرى أثر الخيط على صدره **ﷺ** (١)، والقصة مشهورة في كتب السيرة.

الحادثة الثانية: قبل أن يصعد في رحلة الإسراء والمعراج، في السنة العاشرة من البعثة، شقَّ صدره مرة أخرى، وغُسل قلبه ونُظف ثم أعيد إلى مكانه (٢)، وكأن هذه حادثة لتهيئة هذا القلب وهذا الجسد لرحلة الملكوت الأعلى، فليس من السهولة أن يصعد جسم بشر بجسده وحالته الراهنة، ويسلم، فلا بد من

(١) رواه مسلم: (١٠١/١)، برقم (٢٦١).

(٢) رواه البخاري (١٤٩/٩)، برقم (٧٥١٧).



إجراء بعض التعديلات عليه.!!

والشرح المعنوي أوسع في المعنى، فيدخل فيه إزالة أي ضيق أو ضنك أو تعب في الصدر لقبول الحق، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كان يهياً ليكون حاملاً للرسالة العظيمة، المحتوية على الأحكام، وفيها القول الثقيل من التكليف، **كما في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾** [المزمل: ٥]، فيحتاج إلى صدرٍ واسع مُنشرح لذلك، إضافة إلى مهمة البلاغ الشاقة.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سيقوم بالبلاغ لهذه الرسالة ولهذا الدين الجديد الذي كان يتعجب منه الكفار، **كما في قوله: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾** [ص: ٥]، ويقفون سداً منيعاً أمام تبليغه، فيحتاج إلى أن يكون صدره منشرحاً، ليتحمل الأذى والتكذيب والسب والشتم والذم من قومه ويصبر على محاولات قريش كي ترده عن دينه، والتي وردت في سيرته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وخاصة في الفترة المكية، فإذا هو يحتاج إلى صدرٍ واسع يتحمل هذا وذاك.

وينشرح بالإيمان والهداية والذكر والطاعة، كما قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقوله: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقوله: ﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾، قدّم الجار والمجرور للاختصاص، فما كل البشر حصل لهم ذلك، وإنما هذا لك لما لك عندنا من المكانة والخصوصية



والمنزلة، وعبر هنا بالصدر لأن الصدر يحتوي على القلب والفؤاد واللب، وهي الثلاثة الأعضاء هي محور التفكير والهداية والفهم والاستيعاب، وكلها في الصدر، فشرح الله الصدر لينشرح معه ما بداخله من هذه المكونات الثلاثة، فهذه النعمة الأولى التي امتنّ الله بها على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال له: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ ٢، **وضع:** بمعنى أسقط أو مسح وأزال، **والوزر:** بمعنى الذنب أو الهم أو المشقة والتعب، فالله تعالى منّ على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم بوضع هذه الأمور عنه، فإن كان بمعنى الذنب فالمقصود به ما سُمي ذنباً وحصل منه في الجاهلية، **أي:** حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، **وهو كقوله:** ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَذَكَّرَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، **وقيل:** الخطأ والسهو، **وقيل:** ذنوب أمته فأضافها إليه لاشتغال قلبه بهم ^(١).

والصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حماه الله من الذنوب الكبيرة والمعاصي قبل البعثة وبعدها، وأن الذنب بالنسبة له قد يكون مخالفة الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، **يعني:** حسنتك التي تتقرب بها هي بالنسبة لمن هو أعلى شأنًا ومنزلةً منك عند الله يعتبرها سيئة، وذلك لأن هؤلاء القوم قد منحهم الله من الحرص على العبادة وشفافية القلوب وصلاحها ورقتها ما يجعلهم يتأثرون بمجرد التوقف عن العبادة، فيسمي ذلك ذنبًا، بينما غيره يتأثر قلبه فقط بالمعصية، والفرق واضح، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قلبه مثل الثوب الأبيض الناصع، يظهر

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٠٧).



فيه أثر الغبار، بينما غيره يختلف درجة بياض قلبه، ودرجة تأثير الذنب عليه، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنه ليران على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم أكثر من مائة مرة" (١).

فالران والذنب والوزر معناها متقارب، وقد غفر الله له الذنب ووضع عنه الوزر، وأزال عن قلبه الران، وهو أثر من آثار توقفه عن الذكر، أو بسبب انشغاله بقضاء الحاجة فيعتبر ذلك تقصيراً وانقطاعاً عن العبادة، فيستغفر منه، ولذلك كان إذا عاد من الخلاء، يقول: "غفرانك" (٢)، لماذا يستغفر؟! لأنه توقف عن الذكر بمكان لا يجوز ذكر الله فيه!!، فكم من أوقات تضع علينا ونُضِيع فيها ذكر الله ونحن خارج الحمام؟!، وكم نحتاج إلى استغفار عن هذا؟!.

أما إذا فسرنا الوزر، بمعنى الهموم المُلِّقَة على عاتقه من هم الدعوة وهم تكذيب قومه، وهم نصرته الإسلام، وهم أمته، وغيرها من الهموم، فكل هذه الهموم كانت على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت تؤلمه، فوعده الله تعالى أن يضعها عنه، كما قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]، وفي قوله: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٣) هو الصوت الذي يصدر من رحل البعير إذا ثقلت الحملولة عليه (٣)، وهو الأَطيَط، والمعنى: أثقل ظهرك فأوهنه حتى سمع له نقيض، أي: صوت، فشبه الهم الذي يحمله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في دماغه وفي عقله

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، برقم (٤١) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (١/ ١٢)، برقم (٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٨٨٢).



بشيء ثقیل على ظهره، فالظهر هو مكان الحمل وأقوى منطقة للحمل، ومن ثقل هذا الحمل على الظهر، صدر من مفاصله صوت كصوت رحل البعير حينما يشتد عليه الثقل، وفي هذا بيان لمقدار الألم الذي كان يتعرض له رسول الله ﷺ من تكذيب قومه له، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أي قاتل نفسك، بسبب ألمك من تكذيب قومك لك، وهذا همّ عجيب، ومن ذهب من أهل العلم إلى تفسير الوزر بهذا له وجهة قوية؛ لأن الرسول ﷺ من كان معصوماً من الذنب والمعصية، فلا وزر عليه.

ثم وضع الله عنه هذا الوزر، وأزال عنه ذلك الهمّ، فصار في خفة وراحة!!، وهذه هي النعمة الثانية التي امتنّ الله بها على نبينا محمد ﷺ.

ثم ذكره بالنعمة الثالثة، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، قبل أن ندخل في معنى رفع الذكر؛ لا بد أن نبه لشيء مهم، وهو: أن رأس مال الإنسان هو سمعته، فإذا طُعِنَ في سمعتك انتهى رأس مالك كله!!، وهذا ليس فقط بالبشر، بل حتى الشركات والمؤسسات فالسمعة عندهم مهمة جداً؛ ولذلك يُنفقون ملايين من أجل الإعلانات التي من خلالها تنتشر السمعة الطيبة عنهم، ما علاقة هذا الموضوع بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؟! علاقته واضحة، فالنبي ﷺ حاولت قريش أن تطعن في سمعته، مع أنه عاش معهم أربعين سنة قبل البعثة، وهو المعروف عندهم بالصدق والوفاء والأمانة، وقصة بناء الكعبة ورفع الحجر مشهورة^(١)،

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ١٩٧).



حيث قالوا: مرحبًا بالصادق الأمين، رضيينا به، رضيينا به، ولكن لما بُعث محمد ﷺ حاولوا أن يضربوا سمعته، فقالوا: ساحر، كذاب، شاعر، كاهن، مجنون، أفَّاك، وغيرها من هذه الألفاظ السيئة القبيحة التي سُلطت عليه من كل أعدائه من اليهود والنصارى والمنافقين في المدينة ومن قُريش ومن أقرب الناس إليه، فهذا أبو لهب كان يمشي وراءه في الأسواق، ويقول: لا تصدقوا هذا الكذاب، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا عمُّه، فيقولون: صاحبُ الدار أدري بما فيه، وينفضون عنه، فإذا هذه قضية خطيرة جدًا، وكان النبي ﷺ يتعرض لها، وكان يخشى أن تؤثر فيمن حوله من الناس، فلا يُصدِّقوه ولا يقبلوا دعوته، فجاءته البشارة: لا تهتم لهذا، ولا تنظر إلى آثاره السيئة المتوقعة، فالله قد وعدك بأن يرفع لك ذكرك، وهذه الألفاظ السيئة التي حاولوا بها أن يضعوا من مكانتك وقدرك؛ لن تؤثر عليك، بل ستزيدك مكانةً عند الله أولاً وعند الناس ثانيًا.

وكان من ثمار هذا الوعد أنه إذا ذكر الله ذكر معه رسوله ﷺ، كما في قوله:
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، **وفي الأذان، يُقال:** أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، وهذا أحد أنواع رفع ذكره عند الخلق.

وأما رفع ذكره في السماء فكذلك، ففي رحلة الإسراء والمعراج يطرق جبريل باب السماء، فيقال: من؟! فيقول: جبريل، فيقولون: ومن معك؟! فيقول: معي محمد، فيقولون: أمرنا أن لا نفتح إلا له، حتى بعضهم كان يسأل: أو قد بُعث إليه؟! أو قد أرسل إليه؟!، فيُفتح له^(١)، وهو الذي يطرق باب الجنة

(١) رواه البخاري (١/ ٧٨)، برقم (٣٤٩).



فِيُفْتَحْ لَهُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهَا^(١).

وهو الشافع المَشْفَعُ، وهو صاحب المقام المحمود بين يدي الله، كما قال:

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾^(٧٩) [الإسراء: ٧٩]، وغيرها كثير، فمهما

حاول أعداؤه أن يُسْقِطُوهُ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا، فهذا أحد الغربيين كتب عن أعظم مائة شخصية في العالم، فبدأهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو كافر مُلحد بعيد عن الإسلام، لكنه قرأ سيرته فلم يتجاوزَه إلى غيره، **وهذا كله ثمرة من ثمار** ﴿وَرَفَعْنَا

لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٨٠)، وانتهت كلمة ساحر وكاهن وغيرها من الألفاظ وذهبت أدراج

الرياح!!، وتحقق وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهذه هي النعمة الثالثة التي امتنَّ الله بها

على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٦)، ما علاقة هذا بما

سبق؟! الجواب: أن ما حصل لك من النعم التي أزلنا بها عنك آثار النقم

الثلاث: نقمة ضيق الصدر، نقمة الوزر، نقمة مُحَاوَلَة تشويه سمعتك، فهذه كلها

كانت من العسر الذي يُواجهك وتخشى منه، **فجاءك اليُسْر:** بوضع الوزر،

وانشراح الصدر، ورفع الذكر، وهذا من فضل الله ولطفه بعبده ورسوله، وفيه

إشارة إلى أن في كل محنة تقع للعبد في باطنها منحة، فابحث عن أماكن المنح

داخل المحن وستجدها، **وفي الأثر:** "لن يغلب عسرُ يُسرين"^(٢)، **لماذا جعل**

العسر واحدًا، واليُسْر اثنين؟ الجواب: أن العسر جاء معرفًا بالألف واللام، بينما

(١) رواه مسلم (١/ ١٨٨)، برقم (٣٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٧٢)، في تفسير سورة ألم نشرح، من قول سفيان بن عيينة.



اليُسْر جاء مُنْكَرًا، فالمُعَرَّف إذا تكرر مُعرَّفًا فهو واحد، فالعُسْر الأول هو العسر الثاني، واليُسْر الأول ليس هو اليُسْر الثاني؛ لأن كل منهما نكرة، عندنا يسران، ولن يغلب عسرٌ يسرين، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى، ونكّر اليُسْر ليكون أشمل وأكثر وأعظم، فربما يأتيك اليُسْر من حيث لا تدري، فابحث عنه وخذ بالأسباب الموصلة إليه، وقد سبق معنا في تفسير قوله: ﴿فَسَيُسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٧]، إشارة إلى تلك الأسباب، وسيأتي غيرها.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧)، الفراغ هنا بمعنى: قضيت ما أنت مشغولٌ به، **وانصب بمعنى: اجتهد، من النَّصَب وهو التعب، والمعنى:** إذا انتهيت من عمل فاشغل نفسك بعمل آخر غيره، ولا تبقَ فارغًا من العمل والنشاط، واختلف المفسرون في معنى الآية على عدة أقوال، ف قيل: إذا فرغت من الصلاة، فانصب إلى الذكر أو الدعاء، **وقيل:** إذا فرغت من الجهاد، فانصب إلى العبادة، **وقيل:** إذا فرغت من أعمال الدنيا، فانصب إلى أعمال الآخرة والعبادة^(١)، وكل الأقوال لا تعارض بينها، وإنما هي من تفسير الشيء بذكر مثال له، **كما قال:** ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، **وقوله:** ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، **بمعنى:** أنت شخصٌ لك وظيفة وعمل، ولست إنسانًا فارغًا بل خلقت لغاية وحكمة، **كما قال:** ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، **وقوله:** ﴿يَتَحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَن يَبْرُكَ سُدًى﴾ (٣٦) [القيامة: ٣٦]، **والسدى**

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٧).



هو الماء الذي يذهب دون سقي ولا شرب، فالإنسان لم يُخلق عبثاً ولا لعباً، ولن يُترك فارغاً من دون تكليف، وفيه إشارة إلى خطورة الفراغ، بحيث يعيش العبد فارغاً عن العمل، لا هو في عمل الآخرة، ولا هو في عمل الدنيا، ولا يعني ذلك أن تحرم نفسك من الراحة، بل اجعل راحتك ونومك كلها لله، وانوِّبها التقوي على طاعة الله!!

وقوله: ﴿وَالِإِلَهِ رَبِّكَ فَاذْعَبْ﴾ (٨)، **الرغبة الحقيقية** هي في السير إلى الله، ولذلك قدّم حرف الجر، في قوله: ﴿وَالِإِلَهِ رَبِّكَ﴾، الذي يفيد الحصر، **والمعنى**: لا ترغب في غير الله، ولا يشغلك شيء عن الله، ولا تُضيّع وقتك فيما يُبعدك عن الله، بل وجه جهدك ووقتك ورغبتك إلى الله، والرغبة: أن تأتي طواعية ولا تأتي رهبة، والرغبة مُتعلقة برجائك في الله، فأنت طامع فيما عند الله، والرغبة: مجيء الخائف، وهناك فرق بين أن تأتي راغباً في الشيء مقتنعاً محبباً؛ فتكون أكثر إخلاصاً وأحسن أداءً له، وبين أن تأتي بالقوة مُكرهاً خائفاً بسبب الرهبة، فلا تذهب إلى طاعة الله إلا على سبيل الكراهة وعدم الحب، بل اذهب إلى العمل الذي يُقربك من الله على سبيل الرغبة والحب له والفرح بفعله.

وهاتان الآيتان هما في الحقيقة إجابة لسؤال مقدر، كأن سائلاً يقول: هذا الفضل وهذه النعمة وهذه المنّة من الله لرسوله، حيث شرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، ونحن ماذا لنا؟!، فكان الجواب: أن هذا الطريق للجميع، فإذا كان الله قد منّ على رسوله بهذا، لمنزلته ومكانته وكثرة عبادته وقربه، وطُلب منه أن يستمر على العبادة والقرب من الله، حتى تستمر له هذه



النعم، فنحن من باب أولى، فإذا أردنا أن نحصل على تلك النعم، فالطريق إليها **في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٨)**، فإن فعلنا هذا بجِدٍّ واستمرار؛ فسيشرح الله لنا صدورنا، ويرفع لنا ذكرنا، ويضع عنا أوزارنا، فكأن هذه السورة لخصت ملامح المشروع التربوي الناجح للفرد، وبناءً عليه؛ فالمقصر في الطاعة والعبادة الكسلان المشغول المرهوب الذي يتعب متى يشاء ويترك متى يشاء، فهذا قل أن يصل إلى الأهداف الثلاثة الأولى في بداية السورة، والتي يفصلها عن الوسيلة خط في الوسط هو **﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٦)**، فإذا تريد اليسر، فخذ بأسبابه وستحصل عليه، **﴿فَسَيُسِّرُهُ لِيُسْرَى﴾ (٧)** [الليل: ٧].

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الله شرح صدر النبي ﷺ حساً ومعنى، لكي يحمل الرسالة ويصبر على مشقة البلاغ.
- ٢- أن الله وضع عن نبينا محمد ﷺ الوزر، وأزال عنه الهم، فصار في خفة وراحة!!.
- ٣- أن الله رفع ذكر نبينا محمد ﷺ في السماء وفي الأرض، ولم تفلح أساليب الكفار في تشويه سمعته.
- ٤- **أن خاتمة هذه السورة** لخصت ملامح المشروع التربوي الناجح للفرد، فمن أراد أن يصل إلى شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر؛ فعليه بأن يشغل نفسه بالطاعة والعبادة، وكلما فرغ من عمل صالح أقبل على غيره حتى يلقي الله!!



تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ٨﴾ ﴿

شخصية السورة:

سورة التين؛ سورة مكية^(١)، نزلت قبل الهجرة، وعدد آياتها ثمان آيات، وترتيبها في المصحف الشريف رقم خمسٍ وتسعين، بعد سورة الانشراح وقبل سورة العلق، **ومقصدتها العام:** بيان قيمة الإنسان وشرفه بدينه، وسفوله وهوانه بتخليه عنه؛ لذا أقسم بآماكن نزول الوحي^(٢).

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى في أولها بأربعة أشياء، فقال: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ١﴾، أقسم بالتين والزيتون، ثم أقسم بطور سينين، ثم أقسم بالبلد الأمين، فهذه أربعة أشياء جاء بها القسم في هذه السورة، فالقسم الأول بالتين وهو الشجرة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨ / ٤٣٤).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١ / ٥٩٧).



المعروفة، والقسم الثاني بالزيتون وهو الشجرة المعروفة أيضًا، **وهل القسم بالشجرة أم بالثمرة؟! الجواب على قولين: القول الأول:** أن المقصود بالشجرة والثمرة حقيقة، شجرة التين وثمره التين حقيقة^(١)، واختيرت هاتان الثمرتان للقسم بهما وذلك لما يتناسق مع موضوع السورة، وسبق أن أشرنا إلى أن تسمية سور القرآن ليس اجتهدائيًا بل هو توقيفي، فالله تعالى أقسم بثمره التين؛ لأنها ثمرة طازجة لذيدة ليس فيها نوى، ولها فوائد عظيمة جدًا من الناحية الطبية، ولكن الخطورة في أنها لا تبقى كثيرًا على حالتها الطازجة، وإنما تخرب وتفسد بسرعة، وأقسم بالزيتون وهي أيضًا ثمرة طيبة، إلا أن من خصائصها أنها لا تفسد بسرعة، وأنها تبقى طويلًا طازجة لا تفسد، وفي هذا إشارة إلى الموضوع العام الذي جاءت السورة تتحدث عنه وهو فطرة الإنسان، وأن الله تعالى خلق هذا الإنسان على فطرة سليمة نظيفة طاهرة **كما قال:** ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ﴾ [الروم: ٣٠]، والدين القيم هو دين الإسلام، **وكما جاء في الحديث:** "كل مولود يولد على الفطرة"^(٢)، وإنما يحصل التغيير في الفطرة بسبب العوامل الداخلة عليها، فمن اهتم بفطرته وحافظ عليها؛ فله شبهة بثمره الزيتون، ومن أهمل العناية بفطرته؛ فله شبهة بثمره التين من حيث سرعة التغير والفساد، وهذا هو السر في هذه التسمية للسورة من جهة، وفيها سبب القسم بهاتين الثمرتين.

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢١٠).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٠٠)، برقم (١٣٨٥).



والقول الثاني: أنه أقسم بموطنهما وهو بيت المقدس، فهو أكثر مكان يُزرع فيه التين والزيتون، **والسر في ذلك:** لأنه موطن أحد الرسل من أولي العزم، وهو عيسى عليه السلام، ثم أقسم بطور سيناء، وهو موطن موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، أو المكان الذي لموسى به علاقة وطيدة، ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو موطن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١)، وهذا التأويل له وجاهته، باعتبار أن الإشكال فقط في القسمين الأولين الذي هو التين والزيتون، أما طور سيناء والبلد الأمين فهما موضعان، فكان من وجاهة هذا القول أن يُفسر التين والزيتون، بموطنهما وليس بثمرتهما، حتى يتناسق القسم بالثلاثة الأماكن، والقول الأول أكثر وجاهة؛ إذا ما عللناه بما سبق ذكره، وهو علاقة تسمية السورة بالموضوع الذي تتكلم عنه وهو الفطرة وكيف يُحافظ المسلم على فطرته الصالحة السليمة، وأن لا يُدنسها ولا يُفسدها بشيء.

والتين هو الفاكهة المعروفة طيبة الظاهر والباطن، ويقال عنه إنه غذاء وفاكهة ودواء، ولم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة فقط، والزيتون شجرة مباركة، ذكرت في القرآن مع زيتها في سبعة مواطن (٢)، **ووصفها الله بالشجرة المباركة، كما في قوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾** [النور: ٣٥]، **وجاء في الحديث:** أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة" (٣)، **وقد ورد**

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢١١).

(٢) **ذكر الزيتون في سورة** الأنعام مرتين، وذكر في سورة النحل، والنور، والمؤمنون، وعيس، والتين.

(٣) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٢٨٥)، برقم (١٨٥١)، وقال الألباني: صحيح.



النص بركة موطنها، فإنها تُزرع في الشام أو حول المسجد الأقصى وهو الموطن الذي **قال الله عنه**: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وللزيتون فوائد كثيرة جداً سواءً من الناحية الطبية أو من الناحية الغذائية، تكلم عنه علماء التغذية والطب مما يدل على مغزى القسم به، وهو الإشارة إلى عظمتة ومكانته!

وأما قوله: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ ٢، **الطور** اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى، و﴿سَيْنِينَ﴾، **المقصود به** سيناء، وهو الوادي، وأضيف الجبل إليه للتعريف، وفي سيناء ثلاث لغات: بالفتح سَيْنَاء، وسيناء بالكسر، وسينين على أنه لغة^(١)، وأخطأ من قال أن سينين جمع لسيناء، فليس جمعاً وإنما هو لغة من لغات العرب في نطقها، وفائدة ذكرها هنا بهذا اللفظ لتتناسق الفواصل، فأقسم الله تعالى بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، والمذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهذا هو جبل الطور، وستكون في آخر الزمان حوله بعض الملاحم!!

وأقسم كذلك بالبلد الأمين، ولذلك قال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٢، وهذا يدل على أن السورة مكية، بدلالة اسم الإشارة ﴿وَهَذَا﴾ الذي يفيد القرب، والمقصود به مكة، ووُصف بأنه الأمين؛ لأن من دخله صار آمناً، وذلك ما اتفق عليه العرب في

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ١٥٩).



جاهليتهم، أن الحرم يأمنه من دخله، حتى الصيد لا يُصاد فيه، فالوحوش كانت تأتي إليه، ولا أحد يصطادها ولا يؤذيها ولا يُنفرها، وكان القاتل يقتل ويهرب إلى الحرم، وكان أهل الحرم إذا أرادوا أن يخرجوا في التجارة وغيرها في أيام الحروب بين قبائل العرب يضعون على رؤوسهم شجرة من أشجار الحرم؛ **فيعرفهم الناس فيقولون: هؤلاء من أهل الحرم فلا يُعتدى عليهم**، وقد ذكر الله هذا من نعمه على قريش ونبههم إليها، وطلب منهم أن يؤمنوا برسوله فقال: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وجواب القسم لهذه الأقسام الأربعة، جاء في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ والمقصود بالإنسان هنا: جنس الإنسان، فيشمل كل إنسان من ذرية آدم عليه السلام وسمي إنساناً؛ لأنه يأنس ويؤنس، وخلق الله في أحسن تقويم، أي: في أحسن قوام، وأحسن صورة، وأحسن هيئة، فجعل صورته وجعله أحسن المخلوقات صورة، وقد ذكر بعض الفقهاء أن أحد أمراء إحدى الممالك دخل على زوجته فرآها جميلة فقال لها: إن لم تكوني أجمل من القمر في ليلة البدر؛ فأنت طالق، ثم ندم، فجمع الفقهاء في مملكته، طلب منهم الفتوى، فقالوا: ما نراها إلا قد طُلِّقت منك، لأنه لا يوجد أجمل من القمر في ليلة البدر، ويظهر أنها كانت الطلقة الثالثة، ولو كانت الأولى أو الثانية، لراجعها، فكان شبه إجماع من الفقهاء الحاضرين بأنها قد طُلِّقت، إلا واحداً منهم، ويُسمى يحيى بن أكثم القاضي، وكان من أصغرهم سناً وكان مشايخه موجودين، وهو ساكت، وكأنه رأى عليه علامات الاستفهام، لأن الإنسان عندما يُورط يبحث له عن مخرج!!،



فسأله: وأنت ماذا تقول؟ قال: أنا أقول أنها لم تُطلَّق، ففرح الرجل، وقال له: كيف عرفت، ما دليلك وقد خالفك جمهور الفقهاء؟! قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ فلا أحد أحسن خلقاً من الإنسان بنص القرآن، لا قمر ولا غيره، فراجع الفقهاء كلهم إلى فتواه، ورجعت زوجة الوالي وفرح بهذه الفتوى!!، فانظر إلى قوة الفهم وحسن الاستنباط من النص القرآني، وهو طالب علم بين مجموعة من شيوخه، وذلك يدل على أن الله قد يُلهم من يشاء في فهم النص واستنباطه من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ.

فقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ بمعنى: خلقناه في صورة حسنة جميلة، فلا أحد من المخلوقات أحسن منه، سواء كان ذلك في صورته الظاهرة أو في صورته الباطنة، أو في تركيبه من خلال صفاته من العقل والعلم والفهم والذكاء، والاستنباط، وجمال الصورة الظاهرة وجمال الصورة الباطنة، وجمال الفطرة وجمال الهيئة، هكذا خلقك الله أيها الإنسان، والواجب عليك أن تحافظ على هذه الهيئة الحسنة، سواءً هيأتك التي خلقك الله عليها فلا تطع الشياطين في تبديلها؛ فإن الشيطان حريص أن يجعلك تُغير خلق الله، حتى قال بعض أهل العلم: أن خلق الله من تغيير خلق الله، فالله خلق لك لحية وأنت تحلقها، والله يريد أن يجعلك رجلاً وأنت تريد أن تتشبه بالجنس الآخر بحلقها، ولو نبتت لك لحية طويلة عريضة كبيرة فهذبها لا بأس، لكن إذا كان الوضع عادياً جداً فلا تشمئز منها؛ لأن الفطر والطباع والأخلاق إذا تغيرت نظرت إلى القبيح فرأته جميلاً، ونظرت إلى الجميل فرأته قبيحاً، كمال قال ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ



عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا ﴿فاطر: ٨﴾، وهذا كله من تغيير الفطرة، والأصل أن ترى الشيء الجميل جميلاً، فالشياطين يحرصون كل الحرص على أن يُغيروا في الإنسان الهيئة الظاهرة والهيئة الباطنة، ولذلك نُهي عن التشبه سواءً بالكفار أو المنافقين أو الشياطين أو النساء أو الفُسَّاق حتى تبقى على الهيئة الحسنة التي خلقك الله عليها.

وأيضاً لا تُغير فطرتك، فقد فطرت على التوحيد والاستقامة والتدين فلا تجعلها تتغير وتقع في الشرك بالله سبحانه وتعالى، فهذا من معنى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾ فأنت إنسانٌ جميل في مظهرك ومخبرك، في صورتك وهيئتك، خلقك الله بهذه الصورة الجميلة، ولو قارنت صورتك وبين سائر صور الحيوانات لرأيت فضل الله عليك، سواءً في أنفك أو في فمك أو في أذنك أو في سائر أعضائك، فقد خلقك خلقاً مُستقلاً أرادك الله أن تكون عليه، خلافاً لداروين الذي يقول إن أصل الإنسان قرد وأنه تطور وأنه بعدما كان قرداً تطور إلى شمبانزي، ثم تطور إلى إنسان، هذا ضحكك على العقول، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا الإنسان الذي فضله وأكرمه، وخلقته وصوره فأحسن صورته، وأعطاه من الفطرة والهيئة الحسنة والمظهر الطيب ما لم يعطه مخلوقاً آخر، وهو من يُفسد هذه الهيئة ويُفسد هذه الفطرة، ويُفسد هذا الجمال للصورة بمخالفته لأمر الله وشرعه!!

قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿٥﴾ كان في مكانة عالية، مُرتفعاً بأخلاقه وقيمه وصورته وهيئته فرجع إلى مكانٍ مُتدنٍ نازل فيه سفالة وسقوط، فالله يُريد



لك العلو، علو الأخلاق، علو القيم، علو المبادئ، علو الهيئة، وجمال الصورة، وأنت تأبى إلا أن تهبط وتنزل وتسقط إلى الأسفل، في كل جوانب حياتك: في الاعتقاد، والأخلاق، والتصور، والسلوك، والهيئة، وذلك بسبب انحرافك عن شرع الله وعدم إيمانك بالله، وعدم استقامتك على ما خلقك الله عليه من الفطرة الحسنة الطيبة، وتسليم زمام أمورك للشيطان الذي يقودك من أعلى إلى أسفل، فالإيمان يرفعك، والطاعة ترفعك، والمعصية والكفر والشيطان يسقطونك من مرتبتك شيئاً فشيئاً حتى تكون في أسفل سافلين.!!

وقال بعض أهل العلم: إن المقصود بالآية تغير الجانب الجسدي للإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في صورة جميلة بهيئة، ثم إذا كبر سنُّه صار شبيهة هرمًا مخرَّفًا، ضعيف البنية، ضعيف الجسد، وأن معنى أسفل سافلين، هي: هيئة الشخص في آخر عمره وهو شبيهة هرم مخرَّف، ذهب عنه روح الشباب ونشاطه وعقله وحيويته^(١)، وهذا القول مرجوح عندي، وإن رجه بعض المفسرين^(٢)، والراجع الأول^(٣)، لأن الإنسان يمكن أن يكون شابًا قويًا لكنه في أخلاقه وقيمه وتصوراته وفطرته في أسفل سافلين، والعكس صحيح، وأيضا لسياق النص، فقد جاء الاستثناء بعده للمؤمنين، مما يدل على أن المقصود الجانب المعنوي وليس الجسدي.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥١٠)



وقال آخرون: إن المعنى أن أجساد وأرواح أهل النار في سجين، أي: أسفل دركات السفال في النار والعياذ بالله بسبب كفرهم بالله تعالى^(١). وهذا القول هو ثمرة ونتيجة للقول الأول.

وفي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، استثناء للمؤمنين من عموم الإنسان من أن يكون في أسفل سافلين، بأن تنحرف فطرته وأخلاقه وقيمه ودينه إلى الفساد، ويكون في الآخرة من أهل النار، وأنه يمكن أن يبقى في مكانته ومرتبة الطيبة ويحافظ على الفطرة السليمة والهيئة الحسنة والصفة الجميلة التي خلقه الله تعالى عليها، بمجموعة من الوسائل للمحافظة، **وذكر منها هنا وسيلتين وهما:**

الأولى: الإيمان، فإن الإيمان يحفظ لك فطرتك، والكفر يُفسد عليك فطرتك، خلقك الله في فطرة سليمة، في خلق حسن، في صورة حسنة، في هيئة جميلة فلا تُفسدها بالكفر، ولا تفسدها بالشرك، ولا تفسدها باتباع الشيطان والهوى وغيرها من وسائل التحريف، فحافظ على الإيمان فهو أهم سبب لثبات فطرتك على الحق، والإيمان هو قوة الاعتقاد والتصور الجازم بأن الله الخالق الرازق الإله المعبود سبحانه وتعالى.

الثانية: العمل الصالح، فالإيمان اعتقاد قلبي، والعمل الصالح ظاهر، وهو: ما تفعله الجوارح من كل ما يُقرب إلى الله سبحانه وتعالى، والعمل الصالح

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٥).



يعني العمل الطيب سواءً من أمور الدين أو من أمور الدنيا، فأى شيء يُنتفع به، وليس فيه أذية وليس فيه شيء من الحرام؛ فيُعتبر من العمل الصالح، وأى شيء فيه كُفر أو مُحرم أو أذية للخلق؛ فهو عملٌ غير صالح، وبهذا يكون عندنا مفهوم العمل الصالح أوسع من مجرد صلاة وصيام، وطلب العلم، فالعمل صالح يشمل: التجارة الحلال، السعي على الأهل والأولاد، وعمارة الأرض بالخير، ونحوها، فكلها من الأعمال الصالحة، فهذا العمل الصالح أحد أسباب سلامة الفطرة وبقائها على ما هي عليه، فيبقى الإنسان في أحسن تقويم، في أحسن صورة، في أحسن مكانة عند الله.!!

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦)، أي: فمن اعتنى بالإيمان والعمل الصالح، بقت فطرته سليمة، وحُفظ له دينه، ووعد الله تعالى بالأجر العظيم، وغير ممنون، **له معنيان: الأول:** أنه مُستمر غير مقطوع.

والثاني: أنه لا أذى فيه ولا مَنْ، فلا يَمُن عليه فيه أحد.

وهذا هو وصف نعيم الجنة، ومن أهم صفاتها أنها مُستمرة لا تنقطع، وليس فيها مَنْ أو أذى بل فيها الرضى والسعادة والاطمئنان، وهذا يدلنا على فضل الله وكرمه، وأنه يمنح العبد الأجر والثواب، ولا يَمُن به عليه، ليجمع له بين النعيم الحسي والمعنوي، لأن الانقطاع حسي، والمنّ معنوي، فمَنع عنه الأمرين حتى يكون في راحة وسعادة حسية ومعنوية.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ (٧) الخطاب للكافر السامع



لهذه الآيات، ما الذي يمنعك أن تؤمن؟! أو ما الذي يدفعك إلى التكذيب بالدين؟ والمقصود بالدين هنا إما الجزاء والحساب كما قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وهذا واضح لأن أهل مكة المخاطبين بهذه الآية. كانوا يُنكرون البعث والنشور، ويُنكرون الجزاء والحساب في الآخرة، أو يكون المقصود به: دين الإسلام، الذي هو دينُ الفطرة، كما قال: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَّتِي الْفِطْرَةِ﴾ [الروم: ٣٠]، فالفطرة هي الدين القيم، فلماذا تكذب به، ولماذا لا تؤمن به وهو يدعوك إلى التوحيد والأعمال الطيبة، ويدعوك إلى أن تبقى فطرتك سليمة، فهلاً تفكرت في الدلائل والبراهين والحُجج التي تدعوك إلى الإيمان!!، قبل التكذيب!!؟ والأول أرجح، للسياق.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [٨]، سياق هذه الآية يُرجِّح لنا أن المقصود بالدين هنا هو الجزاء؛ لأن الجزاء والحساب، هو ثمرة الحُكم بين الناس في الآخرة كما قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ [النبا: ١٧]، والذي يقوم بهذا الحساب هو الله الحَكَم العدل، ولا يوجد أعدل من الله، ولا أحسن حُكمًا من الله، فهو أحكمُ الحاكمين، فهو يحكم، وحُكمه يكون بالحكمة، والحكمة: وضعُ الشيء في موضعه، فيُعطي كل شيء حقه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٩] [الكهف: ٤٩]، ويُجازي كل إنسانٍ بعمله، فيُجازي المُحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.



فوائد وهدايات من السورة:

١- امتنان الله على هذا الإنسان بالخلق الحسن والفطرة الحسنة، ثم دله كيف يُحافظ عليها بالإيمان والعمل الصالح، وحذره من الانحراف عن هذه الفطرة؛ بالشرك والأعمال الفاسدة.

٢- أن من سار في طريق الإيمان والعمل الصالح، وحافظ على الفطرة وبقي على تكريم الله له في خلقه وهيئته؛ فسيجد تكريمًا آخر أعظم منه في الآخرة، وهو الأجر الذي لا منة فيه ولا ينقطع في جنات عدن.

٣- أن من انحرف واتبع هواه وخالف الفطرة، وكفر وأشرك، فقد أسقط نفسه من المكانة والتكريم الإلهي في الدنيا، وأسقط نفسه في الآخرة في النار، والعياذ بالله، لأنه من لم يُكرّم نفسه فلن يُكرّمه غيره، كما قال: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، والله أعلم.



تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ (٦) أَلَمْ يَرَهُ اسْتَفْعَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ (١٤) كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يَهْتَفِ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾

شخصية السورة:

سورة العلق؛ هي أول سورة نزلت من القرآن على نبينا محمد ﷺ (١)، والمقصود صدرها، وهي الخمس الآيات الأولى من السورة، فهي أول ما نزل على نبينا محمد ﷺ من القرآن على الإطلاق، وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة (٢)، أن النبي ﷺ كان يُحِبُّ إِلَيْهِ أَنْ يَخْتَلِيَ بِنَفْسِهِ، فكان يذهب إلى غار حراء ليتعبد، وكان يتزود لليالي ذوات العدد، وفي مرةٍ من إحدى ليالي رمضان؛ جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذه وغطّه، أي: ضمّه بقوة، ثم قال له: اقرأ، فأجابته

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٣٦).

(٢) رواه البخاري (١/ ٧)، برقم (٣) بنحوه.

النبي ﷺ: "ما أنا بقارئ" أي: لا أستطيع القراءة، فكرر عليه الثانية ثم الثالثة، ثم قال له: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ ثم تركه فإذا فرائضه ترتعد وقد أصابه الخوف، فرجع إلى زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال لها: "إني أخشى على نفسي"، لأنه لا يدري ما الذي أصابه، فقالت: "والله لا يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمِلُ الكلَّ، وتُقرئُ الضيف، وتُعِين على نوائب الدهر".

فهذه أعمال وأخلاق من فعلها فإن الله لا يُخزيه، ولا تقترب منه الشياطين، ولا تتلبس به، ثم من حسن فهمها واستيعابها وفقهها لما يدور؛ أخذته إلى عمها أو ابن عم لها وهو ورقة بن نوفل، وكان رجلًا قد تنصّر في الجاهلية وقرأ التوراة والإنجيل، وعنده معلومات عن الأنبياء والرسل والوحي، قد كان كبر سنّه، فذهبت به فقالت له: "اسمع من ابن أخيك"، فلما سرد عليه القصة، قال له: "ذاك الناموس الذي كان يأتي إلى موسى"، والناموس هو الرجل الطيب وصاحب الوحي والأخبار الحسنة، بمعنى: لا تخشى أن يكون شيطانًا، ثم قال له: "يا ليتني أكون حيًا حين يُخرجك قومك، قال: أو مُخرجي هم؟ قال: ما أتى أحدٌ بمثل ما أتيت به إلا أُوذي"، فنبّهه إلى أن القوم لن يقبلوا دعوته وأنهم سيؤذونه وسيخرجونه من مكة، وتمنّى ورقة أن يكون حيًا؛ فينصره، ثم مات ورقة بعدها بفترة قليلة، ولذلك من كتب في تراجم الصحابة^(١)، ذكر ورقة بن نوفل من ضمن الصحابة الذين آمنوا برسول الله ﷺ!!

(١) ينظر: أسد الغابة لابن الأثير، ط العلمية (٥/٤١٦).



فَالآيَاتِ الْخَمْسِ التي أُوحيَ بها إلى رسول الله ﷺ في بداية الوحي لها ميزة خاصة، فاختار الله سبحانه وتعالى أن يكون أول ما يقرع سمع رسول الله ﷺ من الوحي هو كلمة: ﴿أَقْرَأْ﴾، وهي دليل على أهمية العلم في هذا الدين، وفي هذه الرسالة، بل ودليل على أهمية العلم في الحياة كلها، وبيان خطورة الجهل!

والمقصد الأعظم للسورة، هو: بيان كمال الإنسان بالعلم والوحي الباعث على تعلق العبد بربه وخضوعه له، ونقصه بمخالفة ذلك، فلذلك كان أول ما نزل الأمر بالقراءة، والقراءة لا تكون إلا بالكتابة، والقلم، **هو كما قيل^(١):**

العلمُ صَيْدٌ والكتابةُ قَيْدُهُ قَيْدُ صَيْدِكَ بِالْحَبَالِ الْوَائِقَةُ
فَمَنْ الْحَمَاقَةُ أَنْ تَصِيدَ غَزَالَةً وَتَرْكَهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ طَالِقَةُ

ومع أن الحفظ له قيمة ومهمة، لكن أيضاً لا بد من تدوين العلم وكتابته؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بكتابة القرآن في الصحف^(٢)، ثم تم جمعُ القرآن وتوثيقه في المصاحف، ثم أذن بعد ذلك لأصحابه أن يكتبوا عنه الحديث، فكان ثمرة ذلك أن دُوِّنَ الكتب، وحفظ العلم بالقراءة والكتابة والتدوين!!

قول الله سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، **الخطاب موجه لمحمد ﷺ**، والباء هنا للاستعانة **أي:** استعن باسمه العظيم الكريم، وعبر هنا بالرب ولم يُعبر بالذات الإلهية التي هي الله مع أنه الاسم العلم على الذات الإلهية، ليشعر المُخاطَب بأن الذي تقرأ باسمه هو الذي ربّاك، وهو الذي أحسن إليك، فالربُّ

(١) تُنسب للإمام الشافعي، وتُنسب لسحنون وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٢٤ / ٤)، برقم (٢٨٣١).



هنا بمعنى السيد الذي تحتاجه الخلائق ثم وصفه بأنه هو الذي خلق وأوجد الخلق، وهذا يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية؛ لأن الألوهية كان المشركون لا يعترفون بها، فأخبرهم بالشيء الذي يعرفونه، وهذا أيضًا وسيلة من وسائل الحوار والنقاش والتفاوض مع الذي يُخالفك، أن تبدأ معه من نقاط الاتفاق؛ حتى يقترب منك أكثر، وحتى تُقنعه أكثر، وأطلق لفظ الخلق ولم يقيدَه ليشمل كل المخلوقات في هذا الكون.

ثم فصل في خلق الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢)، الإنسان اسمُ جنس، والمقصود به هنا المرحلة الثانية من خلق الإنسان، فإن المرحلة الأولى من خلق الإنسان كانت من طين، فإن الله خلق آدم من طين، ونفخ فيه الروح فصار آدم إنسانًا، ثم بعد ذلك صار الخلق من ذريته يتناسلون بهذه الطريقة، والعلق هنا جمع علقه، والعلقة مُضغَةٌ من الدم الرطبة، وُسِّمَتْ علقه لأنها تعلق في جدار رحم المرأة (١) عند التكوين، وأشار إلى العلقه هنا لأنها في الحقيقة مُستقدرة عند الناس من حيث شكلها وهيئتها وما تحتويه من دم متجمد، وهذا كله إشارة إلى ما سيأتي في المقطع الثاني من السورة من حصول التكبر والتجبر والاستعلاء والاستغناء عند بعض الناس، فالله تعالى يُشير إلى هذه العلقه بهذا الأسلوب حتى يُذكر الإنسان بأصله الذي خُلق منه، فلماذا التكبر والاستغناء والطغيان.

ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢)، كرر عليه الأمر بالقراءة، ففي الأولى قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وهنا قال له: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فالواو مع ما بعدها في

(١) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣٠٤).



محل نصب حال^(١)، أي: اقرأ فإن الذي منحك القراءة وأعطاك الوحي، هو ربك الأكرم، فاطلب أنت العلم، فمانحه الكريم.

وقوله: الأكرم، صيغة تفضيل لمعنى المبالغة، وأتى هنا بهذه الصيغة ليشعر السامع أنه يمنح ويُعطي من طلبه، وأنك ستعرض لكرمه؛ كلما قرأت كتابه، وكلما أقبلت عليه، وتدبرت في آياته، وأن الله سيكون معك كريماً في ذلك كله، وهذا على خلاف صفة البشر، الذين كلما اقتربت منهم، وأكثر عليهم سقطت من أعينهم، **حتى قيل:** كثرت الخلطة تُذهب الألفة، أما الله سبحانه وتعالى الخالق العظيم، فكلما زدت في قراءة كتابه، كلما وفقك للفهم والاستنباط، ومنحك درر هذا الكتاب العظيم.!!

ثم وصف نفسه جلّ وعلا بقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، الذي علّم بالقلم، فذكر وسيلة التعليم وهي القلم، وهي عام لكل البشر، لكن بعض الخلق ممن يصطفيهم الله ويمنحهم من فضله وكرمه، فلهم وسيلة أخرى للعلم، وهو العلم اللدني، كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فمحمد ﷺ، لم يقرأ ولم يكتب، لكنه صار أعلم أهل الأرض بالله وبكتابه وشرعه، فقد منحه من فضله، العلم اللدني، وهو علم يصل إلى الرسل مباشرة من الله، خلافاً لبعض الصوفية الذين يقولون: نحن ممكن نحصل عليه من خلال الرياضة والسلوك، حتى أنهم يستهزئون ببعض المُحدثين، ويقولون لهم: أنتم تقولون: حدّثنا فلان عن فلان، ميّت عن ميّت، ونحن نقول: حدّثني قلبي عن ربي، مباشرة!!، وهذا

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ٨٢٧).



فهم خاطئ، فالعلم اللدني خاص بالرسول عليهم السلام، وغيرهم يجب أن يتعلم وأن يأخذه من خلال وسائل العلم ومنها: تعلم القراءة والكتابة.

ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)، انظر حديثه عن الإنسان في الآية الثانية، وانظر إلى حديثه عن الإنسان في الآية الخامسة، فهناك قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٢) ليُبين ضعف الإنسان، وحقارة أصله، وهنا قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ ليُبين مكانة الإنسان، وقيمته عند الله، فارتفع هذا الإنسان بالعلم والتقوى، وأصل التنافس ليس العلة، فالجميع خلق منها، فإذا أرت أن تنافس غيرك، فكن أكثر منه علمًا، وأكثر منه عملاً صالحًا، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] والتقوى لا تأتي من الجهل، وإنما تأتي من العلم والعمل به، وخاصة العلم الشرعي، فلا تنافس مع الناس في أصلك، ولا في سُلالتك، ولا تتحدث عن النطفة التي خلقت منها، ولا القبيلة التي تنتمي إليها، ولا شيء من هذا كله، فالناس سواسية، **كما في الحديث:** "الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب"^(٣)، **وقوله** ^{صلى الله عليه وسلم} **أيضًا:** "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"^(٤)، فإن أردت التنافس فميدانه العلم والتقوى؛ لأن خلقك أمر قدرتي كوني، لا رأي لك فيه ولا إرادة ولا اختيار، في أن تكون أسود أو أبيض، عربيًا أو أعجميًا، طويلًا أو قصيرًا، فهذا كله ليس لك فيه إرادة أو اختيار، أما في العلم والعمل فلك إرادة واختيار، وهنا يصح أن تنافس فيه مع غيرك، تقول له: أنا يمكن أن

(١) رواه الترمذي، ت بشار (٦/ ٢٢٨)، برقم: (٣٩٥٥)، وإسناده حسن.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة (٣٨/ ٤٧٤)، برقم (٢٣٤٨٩)، وإسناده صحيح.



أَسَاقِبَكَ فِي الْعِلْمِ، أَسَاقِبَكَ فِي الْعِبَادَةِ، أَسَاقِبَكَ فِي الطَّاعَةِ، أَسَاقِبَكَ فِي دَرَجَاتِ الرُّقِيِّ، أَسَاقِبَكَ فِي الْإِسْتِقَامَةِ، فَهَذَا لَا حَرْجَ فِيهِ!!

وفي قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، بيان لشيء من خصائص النفس البشرية، وهي: أنه يُولد جاهلاً، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه خاصية التعلم، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. وهذه وسائل للتعلم، فهذا أيضاً من تكريم الله للإنسان، وقد كرّم آدم بالعلم، كما قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، والحديث عن العلم والتصاقه بكرامة الإنسان أمرٌ يطول، وله أقسام وأنواع كثيرة ليس هذا مكان تفصيله.

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ﴾، يبدأ المقطع الثاني من السورة بكلمة: ﴿كَلَّا﴾ وهي كلمة لا توجد إلا في النصف الثاني من القرآن، من سورة الكهف فما دونها، وهي بمعنى: الردع والزجر، أي: ليس الأمر كما تتوقعون، وتأتي بمعنى: حقاً، وتأتي بمعنى هلاً التي للتحبيب، ويختار المعنى المناسب له بحسب السياق، وهنا: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقاً، والمعنى: إن من طبيعة الإنسان أن يطغى ويتجاوز حده، ويستكبر على ربه، فيكفر به، إذا رأى نفسه قد استغنت، وفي هذا تقرير لطبيعة النفس البشرية، وعادة مُلتصقة بها، وهي: أن الطغيان سببه الغنى، لأنه قل أن تجد فقيراً يطغى، وهذه هي المرة الثالثة في هذه السورة التي يذكر فيها الإنسان، فقد ذكر الله الإنسان في المرة الأولى: وهو في حالة الدم المتعلق بجدار الرحم، وهي مرحلة الضعف.



وفي الثانية: وهو حالة الرقي والعلم والاستقامة، وهي مرحلة العلو الممدوح.

وفي الثالثة: وهو في مرحلة الكبر والخطيئة والاستغناء عن الله، وهي مرحلة السقوط المذموم، وأنه متى ما وصل إلى مرحلة الاستغناء عن الله، سواءً بالمال أو بالجاه أو بالسلطان أو بغيرها، وظهر منه الطغيان؛ فقد صار مذموماً معرضاً للعقاب!!، **فإذا الآية الأولى:** تذكر الإنسان بأصله، **والثانية:** تتحدث عن العلم، وهو وسيلة لتهديب النفوس من الكبر والطغيان ورفع مكانتها، **والثالثة:** تتحدث عن المال والغنى، وهو وسيلة إلى الكبر والطغيان.

ثم وعظ الله هذا الإنسان الطاغى المستغنى عن ربه، بكلمة قصيرة، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ (٨)، يعني سترجع إلينا ونُحاسِبُكَ على طغيانك، وهذا الأسلوب فيه تهديد ووعيد وتخويف للطغاة، **والمعنى:** لن تفلت من عقابنا، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥) **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦)** [الغاشية: ٢٥-٢٦]، فانتبه!! أيها الإنسان الطاغى، سترجع إلى الله، وستترك المال والجاه والمنصب ومن حولك ممن أشعرك بقوتك؛ فأدى ذلك إلى طغيانك، فستتركهم فجأة، وترجع إلينا وحيداً فريداً ضعيفاً خائفاً، لسان حالك يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

نعم، إنها موعظة قصيرة كافية لمن ألقى لها السمع، بقلب حاضر، ونستفيد منها أنه يُستحبُّ للواعظ ألا يُكثر من الكلام في الموعظة، ولا يتشعب فيه؛ فإن الكلام الكثير يُلغي بعضه بعضاً!!



ثم تحدثت السورة في مقطعها الثالث عن وصف عمل قبيح، وهو أثر من آثار الطغيان والانحراف، **فقال الله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾﴾**، فعند وصول الإنسان إلى مرحلة الاستغناء بما عنده من مال وأولاد وحشم وخدم وجاه وسلطان، فالأصل أن يستخدم ذلك في إحقاق الحق وإبطال الباطل، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أن يستخدم ذلك في النهي عن الخير، فهذا دليل على انتكاس الفطرة، وعلامة على الطغيان!!، والمقصود بالعبد هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم، والمقصود بالشخص الذي نهاه، هو أبو جهل بن هشام، وكان يُكنى بأبي الحكم، فلما حصلت منه هذه التصرفات السيئة؛ لُقِّبَ بأبي جهل، فلا يصلح أن يكون أبا الحكم، فأبو الحكم لا بد أن يكون إنساناً عاقلاً أفعاله كلها حكيمة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يُصلي حول الكعبة، فبلغ أبا جهل ذلك، فنهاه، وقال: لئن عاد إلى الصلاة مرة أخرى لأطأنَّ عنقه، وهو ساجد، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فذهب إلى الصلاة، فلما رآه من رآه أخبروا أبا جهل، فذهب أبو جهل متوجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لِيُنفذ وعده وتهديده؛ فما كاد أن يقترب منه إلا وهو يمد يديه، ويصيح ويرجع القهقري، والناس ينظرون إليه، ويضحكون ويقولون له: لماذا تفعل هكذا؟ فقال: رأيتُ أهوالاً وخنادق من نار أمامي أو بيني وبينه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو اقترب مني لأخذه الملائكة عياناً" ^(١)، فأنزل الله هذه الآيات وما بعدها، وقد جاء الخطاب فيها بأسلوب التعجب، **والمعنى: كيف يُمكن لإنسان عاقل أن يذهب وينهى شخصاً يُصلي؟!، فهذا لا يليق ولا**

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٥٤)، برقم (٣٨) بنحوه.



يستقيم، ويدل على جهله وسوء تصرفه، ولو ذهب ينهى سارقاً إذا سرق، فهذا عمل مقبول وغير مستغرب؛ لأنه نهي عن منكر، ولكن أن ينهى شخصاً يُصلي، فالصلاة لا تؤذي أحداً، بل سلوك شخصي يهذب أخلاق الناس، قد جاء الإسلام بالنهي عن التعرض لأهل الأديرة والصوامع من عباد النصارى وغيرهم، حتى ولو كانوا على ضلالة، فلا تمنع يهودياً يُصلي في بيعته، أو نصرانياً يُصلي في صومعته، ولا تؤذي أحداً من العباد، حتى لو كانت عبادته غلط، ولكن انصح به برفق وبين له الحق بالحجة!!

ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يُصلي على الهدى، فكيف يجوز منعه؟!، **والمعنى:** ما الداعي أن يمنع من كان على الطريق المستقيم؟!، وكيف يمنع من يأمر بالتقوى؟!، والتقوى هي معالي الأمور والأخلاق والقيم، والمعنى: أن من العمل القبيح؛ أن تنهى الصالحين عن عمل الخير، أو أن تنهى من يعبد الله ويُصلي له، أو أن تنهى من يأمر بالتقوى ويدعو إليها، وهو أسلوب تهديد ووعيد وزجر ومنع لهذا الفعل القبيح وتشجيع لمن ينهى عن الصلاة، فكيف بمن يقتل المصلين؟! لا شك ولا ريب أن عمله قبيح، وأن جرمه كبير وعذابه عند الله سبحانه وتعالى أليم!!

ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾﴾، والخطاب في الآيات السابقة كان لمحمد ﷺ، **والمعنى:** أَرَأَيْتَ يَا مُحَمَّد، حال أبي جهل، وهو ينهى المصلي ويمنعه عن صلاته وعبادته، وهو يدعو ويأمر بالتقوى، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ هَذَا النَّاهِي بِمَا جَاءَ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فأعرض عن دينه وكفر ولم يؤمن به، ثم هدده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ



اللَّهُ يَرَى ۝١٤، أي: ألا يخشى هذا الإنسان من الله، وهذه الآية يجب أن تكون موعظة مُطلقة، تُحفظ في ذهن كل إنسان حتى يصدق في عبادته واستقامته مع الله، فكلما حدثته نفسه أن تنحرف، قرأ عليها هذه الآية وقال لها: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ۝١٤، ولو تذكّرنا هذه الآية في كل أحوالنا، سواء كانت صالحة أو طالحة؛ لأثرت فينا، ففي الصلاح سنزداد إخلاصًا وتعبّدًا وتألُّهاً وقربًا من الله، وعند المخالفة سنزداد خوفًا وابتعادًا عن فعل ما يقبُح بنا؛ لأننا نستحضر عظمة الله ورؤيته لنا، ولذلك كان الإحسان أعلى مراتب الدين وهو: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ^(١)، لقد قالت امرأةٌ لأُمّها هذا الكلام، وهي تأمرها بالغش، فقد نهى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُخْلَطَ الماء باللبن، حتى لا يكون نوعًا من الغش، فمر ذات يومٍ فسمعَ امرأةً وهي تقول لابنتها: اخلطي اللبن بالماء، فقالت: إن عمر قد نهى عن ذلك، قالت: فأين عمر الآن؟ قالت: فإن رب عمر يرى ^(٢)، انظر إلى الرقابة الذاتية، عند هذه البنت، فهذه ثمرة من ثمار الإيمان بأن الله يرى، ولو تقرأ في قصص التائبين المنيبين الراجعين إلى الله، لوجدت أن كثيرًا منهم تاب وأناب إلى الله حينما سمع مثل هذه الموعظة، كما جاء في قصة الثلاثة الذين حبسوا في الغار، فإن أحدهم قالت له ابنة عمه عندما أراد أن يفجر بها: "اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه" ^(٣)!!، فتركها وقام عنها، وآخر اختلى بامرأة ليفجر بها: فقالت: هل هناك من يرانا؟ قال: لا يرانا أحد إلا هذا الكوكب

(١) رواه البخاري (١١٥ / ٦)، برقم (٤٧٧٧).

(٢) ينظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس (٢ / ٣١٥-٣١٦).

(٣) رواه البخاري (٧٩ / ٣)، برقم (٢٢١٥).



الذي في السماء، فقالت له: فأين مُكوكبها^(١)، وخالقها وموجدُها، فارتجف وتركها؟!، وهنا يأتي تأثير هذه الآية في النفس؛ فاجعلوها نصب أعينكم وإن شاء الله ستجدون أثرها في أنفسكم، في استقامتكم، وفي بُعدكم عن المُحرمات والمُلهيات، خاصةً في هذا العصر الذي من السهولة بمكان أن تُتابع فيه كل المحرمات على هاتفك في مكانٍ خالٍ لا يعلم بك إلا الله سبحانه وتعالى!!

ثم قال سبحانه: ﴿لَا لَيْنَ لِمَنْبَتِهِ لِنَفْعٍ بِالنَّاصِيَةِ﴾^(١٥)، فهذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، وكذب وتولى، وليس عنده إحساس بعظمة الله، وأنه يراه ويُراقبه، إذا لم ينته عن هذه الأفعال القبيحة؛ لناخذنه بشدة من ناصيته، فالسفع: هو أخذ الشيء بقوة وبشدة^(٢).

والناصية هي مقدمة الرأس، ثم وصف هذه الناصية بقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾^(١٦)، فناصيته كاذبة، والمقصود صاحبها، فهو كذاب مُخطئ، متجاوز للحدود، وفي هذا إعجاز علمي؛ فقد اكتشف الطب الحديث أن الناصية وهي الفص الأمامي من المخ، هو المسؤول عن الصدق والكذب لدى الإنسان، وهو مكان التخطيط للخير أو الشر، وأن أبا جهل لم يمتنع عن أذية محمد بل استمر في التحريض والتفكير في ذلك، حتى خرج إلى بدرٍ يُقاتل رسول الله ﷺ، فقتل في بدر، فسقط مُضرباً بدمائه، وقتله معاذ ومعوذ ابنا عفراء بمُساعدة ابن مسعود وحز رأسه ابنُ مسعود، فقال له: يا رويعي الغنم، لقد ارتقيت مُرتقاً صعباً^(٣)، ثم

(١) ينظر: شعب الإيمان (٢/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ٨٣٩).

(٣) ينظر: الروايات المتعارضة في غزوة بدر جمعاً وتوثيقاً (ص: ٣٩)، وإسناده حسن.



لما انتهى القتال أمر بقتلى بدر فأخذوا إلى القليب، وهو البئر الذي لا ماء فيها، فأخذ أبو جهل برأسه، وشد من ناصيته إلى القليب!!، قال بعض أهل العلم: إنما ذكر الله ناصيته هنا؛ لأنه كان حريصاً كل الحرص على مشطها وتدهينها وتجمُّله بها، فجاءه العذاب والنكال من المكان الذي اعتنى به!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧)، فقد جاء عن أبي جهل أنه لما انتهر محمداً، وهو يصلي، قال له: إن لم تبتعد عن هذه الصلاة وتركها؛ لأتيك بأصحابي ومن معي في النادي يمنعونك منها^(١)، **والسياق يقول:** إن هذا الرجل لن ينفعه ناديه في حالة أن تم سفعه وضربه وأخذه في الدنيا أو في الآخرة، والنادي هو المكان الذي يجتمع فيه الناس، ولا يُسمى نادياً حتى يكون فيه بشر^(٢).

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (١٨)، **والزبانية** هم الملائكة الغلاظ الشداد، وسُموا زبانية لما يفعلونه من زبن في الشخص، والزبن هو اللكم والضرب^(٣)، فهو لاء زبانية العذاب من الملائكة الذين هدّد الله أبا جهل بهم.

ثم قال الله لرسوله: ﴿كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩)، **أي:** لا تُصدقه فيما يقول، ولا تمتنع عن صلاتك، بل استمر عليها، فإنك كلما استمريت في السجود والصلاة، كلما اقتربت من الله سبحانه وتعالى، وهذا الخطاب، وإن كان لرسول الله ﷺ، فهو خطابٌ لكل من أراد أن يقترب من الله في كل زمانٍ ومكان، فمن

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٤٤٤)، برقم (٣٣٤٩)، بنحوه، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٠٥).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢١٣٠).



يريد أن يقترب من الله أكثر؛ فعليه بالصلاة وكثرة السجود، **وجاء في الحديث:** "أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد" ^(١)، **وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ** يطلب منه أن يكون رفيقه في الجنة، فقال له: "أعني على نفسك بكثرة السجود" ^(٢)، **والمقصود بالسجود** هو الصلاة؛ لأن أعظم شيء في الصلاة هو السجود، فأكثر من الصلوات، وأكثر من النوافل، وحافظ على الفرائض، وأكثر من إطالة السجود، ولا تنقر السجدة كنقر الغراب، فلا بد أن تسجد سجوداً فيه معنى الخضوع والذل والاستكانة بين يدي الله، فإن فعلت ذلك وأكثرت من التسبيح فيه، اقتربت من الله، وكلما اقتربت من الله، كلما كان الله مدافعاً عنك، وولياً لك يرد عنك كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - كان أول ما قرع سمع رسول الله ﷺ من الوحي هو كلمة: ﴿اقْرَأْ﴾، وهذا يدل على أهمية العلم في هذا الدين، وفي هذه الرسالة، بل ويدل على أهمية العلم في الحياة كلها، وبيان خطورة الجهل!

٢ - أن ارتفاع هذا الإنسان يكون بالعلم والتقوى، وأن أصل التنافس هو العلم والتقوى، وليس هو العلقه، فالجميع خلق منها، فإذا أردت أن تنافس غيرك، فكن أكثر منه علماً، وأكثر منه عملاً صالحاً!

(١) رواه النسائي (٢/ ٢٢٦)، برقم (١١٣٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣٥)، برقم (١٣٢٠)، وقال الألباني: صحيح، والرجل هو ربيعة بن كعب الأسلمي.



- ٣- أن من طبيعة الإنسان أن يطغى ويتجاوز حده، ويستكبر على ربه، فيكفر به إذا رأى نفسه قد استغنت عن غيره!!
- ٤- أن من العمل القبيح؛ أن تنهى الصالحين عن عمل الخير، أو أن تنهى من يعبد الله ويصلي له، أو أن تنهى من يأمر بالتقوى ويدعو إليها!
- ٥- أن من أراد أن يقترب من الله كثيرًا في كل زمانٍ ومكان؛ فعليه بكثرة الصلاة، وكثرة السجود!



تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ
 ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ .

شخصية السورة:

سورة القدر؛ سورة مكية في قول الجمهور^(١)، وبعضهم قال: إنها مدنية^(٢)، وآياتها خمس آيات، وترتيبها في المصحف سبع وتسعون، والمقصد الأسمى والأعلى للسورة، هو إنزال القرآن، في ليلة هي أعظم الليالي على الإطلاق^(٣).

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١)، **النون** هنا نون العظمة، أي: أن الله سبحانه وتعالى، عظم نفسه ونسب الإنزال إليه، وليست هي نون الجمع، فإن الله واحدٌ فردٌ صمدٌ، والضمير يقصد به القرآن الكريم، وقد كان شغلُ أهل مكة الشاغلَ لهم، فبين الله أنه هو الذي أنزله، وليس من قول محمد، كما تزعمون.

(١) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦ / ٣١١).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤ / ٤٦٩).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٧٨٠).



وقوله: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى، اختار ليلة من ليالي السنة ذات قدرٍ وشرفٍ وعظمةٍ، لتكون ظرفاً لنزول القرآن فيها، وهذا النزول على نوعين:

الأول: أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم جُملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، كما رُوي ذلك عن ابن عباس^(١)، ثم بعد ذلك كان ينزل على قلب رسول الله ﷺ مُنْجَمًا أي: مُفْرَقًا حسب الأوقات والأحداث، واستمر نُزُولُهُ ثلاثًا وعشرين عامًا.

الثاني: ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ في ليلة القدر في شهر رمضان، وكان أول ما نزل منه هي الخمس الآيات الأول من سورة العلق، كما مر معنا، فكانت أول آيات تصل الأرض بالسماء من هذا القرآن العظيم، وكانت في ليلة ذات شرف ومكانة وقدرٍ عند الله.

فيكون المعنى: أنزلناه جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وابتدأنا إنزاله على قلب رسول الله ﷺ في ليلة القدر، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وليلة القدر لا تكون إلا في شهر رمضان، ثم بعد ذلك نزل مُنْجَمًا على قلب رسول الله ﷺ على الأحداث والوقائع.

وقوله: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، اختلف في سبب تسميتها بليلة القدر، فقيل: من

(١) ينظر: المستدرک على الصحيحین للحاکم (٢/ ٢٤٢)، برقم (٢٨٧٩)، وقال الذهبي: صحيح.



الشرف والعظمة^(١)، وقيل: سُميت بهذا الاسم من التقدير، وأن الله بهذه الليلة يُقدّر أعمال السنة كاملة، فتكون هذه الليلة هي الليلة التي تُقدّر فيها أعمال السنة من الأرزاق والأقوات والأمراض والأحياء والأموات المولودين والمعدومين وغيرهم^(٢)، وقيل: أن ليلة القدر سُميت بهذا الاسم من التقدير، ومعناه التضيق، كما في قوله: ﴿فُدِّرْ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضَيِّقْ عليه رزقه، قالوا: أن الأرض تضيق بالخلق بسبب كثرة الملائكة النازلين في هذه الليلة^(٣)، كما سيأتي في آخر السورة.

وعلى كل الأحوال لا مانع من أن تكون المعاني كلها واردة، وإن كان الأول هو أرجح وأولى، فإن القدر هنا بمعنى الشرف والعظمة والمكانة، وهذا أليق بالقرآن، فإن الله اختار له أفضل الأوقات لنزوله، واختار له أفضل الأشخاص لحمله وإبلاغه، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أفضل الملائكة، واختار له أفضل الأنبياء والرسل، لينزل على قلبه، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أفضل البشر، واختار له من الأشهر، شهر رمضان وهو أفضل الشهور، واختار من الليالي ليلة القدر، وهي أفضل الليالي، واختار له من الأمم، أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فضل الله وكرمه، ولفظ الإنزال يدل على أن القرآن كلام الله، وأنه صفة من صفاته، وما يُقال في صفات الله من العظمة والكمال، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٠٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ١٨١).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٩).



القرآن مخلوق مثل غيره من المخلوقات، فلا بد من أن يعطى القرآن المكانة اللائقة به من التقديس والتعظيم والتنزيه، فلا يمس إلا على طهارة، ولا يدخل به الأماكن النجسة، وغير ذلك من الأحكام التي تدل على تعظيم القرآن، كما يلزم من قولهم: إنه مخلوق، أن يعتريه ما يعتري المخلوقين من النقص، وهذه تهمة خطيرة جداً؛ ولذلك لا تستغرب أن تسمع من بعض الفرق المنحرفة من يقول: إن القرآن ناقص، أو القرآن مُحَرَّف، والسبب يعود إلى مُعتقدهم في القرآن، وأنه مخلوق.!!

ثم قال الله تعظيماً وتفخيماً لهذه الليلة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ﴾، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة عند العرب، إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يُعظم الشيء عند السامع يذكر له الشيء ثم يقول له: ما أدراك، ما هو كما، قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ **﴿١﴾** وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ **﴿٢﴾** [الطارق: ١-٢]، ﴿الْحَاقَّةُ﴾ **﴿١﴾** مَا الْحَاقَّةُ **﴿٢﴾** [الحاقة: ١-٢]، ﴿الْقَارِعَةُ﴾ **﴿١﴾** مَا الْقَارِعَةُ **﴿٢﴾** وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ **﴿٣﴾** [القارعة: ١-٣]، **والمعنى:** هل تدري أيها النبي الكريم ماذا في ليلة القدر من الفضائل والمكانة والشرف؟!، فيبقى السامع منتظراً ثمار هذا التعظيم.

ثم بدأ يفصل مكانة ليلة القدر وما فيها من الخير والبركة والخصائص والفضائل، فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ **﴿٣﴾**، فهذه أول فضيلة وخصيصة ليلية القدر، طبعاً وردت بعض الأحاديث والآثار الضعيفة في سبب نزول هذه السورة، وليس بالضرورة أن يكون لكل سورة سبب نزول، أو لكل آية سبب نزول، بعض السور والآيات لها سبب نزول، والأكثر نزل ابتداءً بدون سبب نزول،



ومما قيل ويُمكن أن يكون هذا في التفسير العام، وليس سبباً للنزول: أن النبي ﷺ نظر في أعمار أمته، وهو القائل ﷺ: "أعمار أمتي بين الستين والسبعين وقليل من يُجاوز"^(١)، فإذا كانت أعمار الأمة التي بُعث فيها ستين وسبعين سنة، فمهما تعبد المتعبد، وأطاع الطائع، فما هي بالنسبة لأعمار قوم نوح، فقد كان الواحد منهم يعمّر ألف سنة، فلما نظر النبي ﷺ في ذلك، فكأنه تحسّر على أمته، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر^(٢) وهذه الخصيصة التي لا تساويها خصيصة، فعبادة في هذه الليلة تُساوي عبادة ثلاثة وثمانين سنة من ليالٍ ليست فيها ليلة القدر، فتخيّل معي الآن أنك تبلغ وعمرك خمسة عشر، وتعيش إلى سن خمسة وستين سنة، فيكون معك خمسون عاماً بعد التكليف، فاضربها في ثلاثٍ وثمانين سنة، يطلع المجموع: أربعة آلاف ومائة وخمسون سنة، فهذا فضل ليلة القدر إذا أدركتها كل سنة خلال خمسين سنة من عمرك، فكيف لو طال عمرك أكثر؟!، فهذا تعويض لقلّة العمر في هذه الأمة، وهذا من فضل الله وكرمه على عباده.

وهذه ليلة لا تكون إلا في شهر رمضان على القول الراجح من أقوال أهل العلم، وأنها تكون في العشر الأواخر منه، وعلى القول الراجح أنها تكون في ليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان، **فبعضهم قال**: ليلة سبع وعشرين، **وبعضهم قال**: ليلة واحد وعشرين، وبعضهم قال غيرها، والراجح أنها تنتقل بين

(١) رواه الترمذي، ت: شاكر (٥/ ٥٥٣)، برقم (٣٥٥٠)، وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه مالك في الموطأ برواية الزهري برقم (٨٨٩) بلاغا، وانظر: تفسير ابن كثير ت سلامة



ليالي الوتر من سنة إلى أخرى، فمرة تكون ليلة واحد وعشرين ومرة ليلة ثلاثة وعشرين، وهكذا... وهذه الليلة العظيمة القدر، أخفى الله سبحانه وتعالى وقتها لكي يتنافس الناس في العشر كلها، إذ لو قُدِّرَ لهم متى موعدها بالضبط، لاشتغلوا في تلك الليلة، وضيّعوا العبادة في غيرها، فأخفاها الله سبحانه وتعالى لهذه العلة، وبعض العلماء يرى أنها تتنقل في رمضان كله، وهو قول غريب، وأغرب منه من قال أنها تتنقل بين أيام السنة كلها؛ لأن النصوص الصحيحة دلّت على أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها في الوتر منها، وفي فضلها قال صلى الله عليه وآله وسلم: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه" ^(١).

ثم ذكر الأمر الثاني من خصائصها وصفاتها ومميزاتها، فقال: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ

وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، أي: أن الملائكة تنزل في هذه الليلة من السماء إلى الأرض، والتنزل معناه النزول الذي يكون معه ارتفاع؛ لأن القول بنزولهم وبقائهم، فإن الأرض لا تسعهم، فالسماء مع كبر حجمها وسعتها، وهي سبع سموات وحجم الأرض بالنسبة إلى السماء لا شيء، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما في موضع شبر في السماء إلا وفيه ملك راکع أو ساجد" ^(٢)، وهذا يعني أنه ينزل عدد ضخم جداً من الملائكة في تلك الليلة، وقد سبق أن قلنا: أن أحد معاني القدر: الضيق، أي: تضيق الأرض من كثرة نزول الملائكة، أو نقول أن المقصود بالملائكة هنا ليس كل الملائكة وإنما عدد معين ومُحدد من الملائكة، فقال بعضهم: هم

(١) رواه البخاري (٢٦/٣)، برقم (١٩٠١).

(٢) رواه الترمذي ت شاكر (٥٥٦/٤)، برقم (٢٣١٢)، وقال الألباني: حسن دون قوله لوددت.



عظماء الملائكة وكبارهم، ومنهم الروح الأمين جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، في أصح أقوال المفسرين، كما في قوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وأفرد مع أنه من الملائكة تعظيمًا لشأنه، فكأنه في شق والملائكة في شق آخر، فهؤلاء من يأذن الله سبحانه وتعالى لهم أن ينزلوا في هذه الليلة المباركة إلى الأرض.

وقوله: ﴿يَاذِنِ رَبِّهِمْ﴾ بمعنى أنه لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، وفي هذا إشارة إلى طاعة الملائكة وانضباطهم الكبير، وأنه لا يتحرك أحد منهم إلا بعد أن يستأذن ربه، وفيه إشارة أيضًا إلى عظمة الله جل وعلا في نفوسهم، فمع عظم خلق هذه الملائكة إلا أنها تُعظم ربه وتخاف من مخالفته، كما قال: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، فإذا حصل لهم الإذن من الله نزلوا، وقد يأذن الله لعدد معين من الملائكة فقط.

وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ إذا قلنا: أن ﴿**مِنْ**﴾، بمعنى الباء **أي**: تنزل الملائكة بكل أمر، فيكون نزول الملائكة بأوامر وأحكام متنوعة من اللوح المحفوظ إلى الأرض، فتكون هذه الأوامر هي تقديرات السنة، حيث تأخذها بإذن الله من اللوح المحفوظ، مثل: سيولد كذا ويموت كذا، ويرتفع فلان، ويسقط فلان، ويصير كذا من الأمطار والزراعة والخير، وكذا من المصائب والابتلاءات، ونحوها، ولذلك يُستحب أن يدعو الإنسان في تلك الليالي، فيقول: اللهم ما أنزلت في هذه الليلة المباركة من رزقٍ وخيرٍ وصحةٍ وسلامةٍ وسعة رزقٍ؛ فاجعل لنا منه أوفر الحظ والنصيب، وما أنزلت فيها من شر وبلاء وفتنة؛ فاصرفه عنا وعن المسلمين، أو تكون ﴿**مِنْ**﴾، بمعنى لام التعليل، **أي**: لكل أمر



أمرت بإنزاله، فتنزل من أجل الأمر الذي أمرت به وهو القدر، وهو التقدير السنوي، وهو قريب من المعنى السابق، **وقيل**: إذا وقفت على قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾، ثم تستأنف فتقول: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۖ سَلَامٌ﴾، **فيكون المعنى**: أن الملائكة تنزل بكل شيء فيه سلام في تلك الليلة^(١)، والأول أرجح.

ثم ذكر الأمر الثالث من خصائصها وصفاتها ومميزاتها، فقال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ۖ﴾، **وفي معنى**: ﴿سَلَامٌ﴾، **قولان**: **الأول**: أن الملائكة تسلم على الخلق في تلك الليلة، وبسلامهم على الخلق، تحصل لهم السلامة من الشر؛ لأنه دعاء ودعاؤهم مستجاب، لأنه بسبب سلام الملائكة المباشر على إبراهيم الخليل، حفظ الله جسده من نار النمرود، كما في قوله: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأن الملائكة دعاؤهم مُستجاب^(٢).

قلت: الذي يظهر أن تسليم الملائكة عليه كان بعد نجاته من النار بفترة وليس قبلها، وأن نجاته كان بأمر الله للنار أن تكون سلاماً عليه، كما في قوله: ﴿قُلْنَا نَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ومع هذا فتسليم الملائكة على الخلق في هذه الليلة المباركة، نعمة عظيمة لها آثارها في الأرض.

القول الثاني: أن هذه الليلة، ليلة سالمة من المصائب الكونية القدرية^(٣)، وليست سالمة من المصائب التي هي بمعنى المعاييب وهي الذنوب التي يفعلها

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٣٦/٣٢).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٣٦/٣٢).



الخلق، مثل القتل والزنى وشرب الخمر والفساد، لأنه خلاف الواقع، فالناس يفسدون في الأرض حتى في هذه الليلة، ولكن المقصود سلام من الزلازل والمصائب الكونية الأخرى، والراجح أن معنى السلام فيها أن تكون هذه الليلة سالمة لمن وُفق إليها، فيكون الإنسان قد حلّ به السلام إن وُفق إليها، فيسلم من العذاب، ويسلم من النار، ويسلم من سائر ما يخشى منه.

وقوله: ﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطَلْعِ الْفَجْرِ﴾ أي: أن هذه الليلة ليلة مباركة، وسالمة، وفيها الخير كله، وتبدأ من غروب الشمس، وتنتهي مع طلوع الفجر.

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن القدر والشرف إنما يلتصق بالخير والفضل والعمل الصالح، فإن أردت شرفاً ومكانةً وقدرًا عند الله فخذ بأسبابه، وأن الابتعاد عن طاعة الله والاستقامة على هديه يجعل الإنسان لا قيمة له عند الله، بل يكون من أشر المخلوقات.

٢- أن السلام؛ هو أن تسلم من الشرك والشكوك والنفاق، فالسلام هو الإسلام، وهو كمال الخضوع والطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى، فمن أراد السلام، فليسلم لله، وليخضع له، ولا يتمرد على الله ولا يكفر به فمن فعل ذلك فهو مُحارب لله تعالى.

٣- أن القرآن الكريم نزل ليُشعر البشرية والعالم كله، أنه دين السلام، دين المحبة، دين الإخاء، إذا عرف كل واحد ما له وما عليه، فالحياة حقوق



وواجبات، فخذ ما لك، واعط ما عليك، وستعيش بسلام، وستعيش الأمة بسلام، وسيعيش العالم كله بسلام.

٤- أن الحروب التي قامت في الأرض أتت من البغي والعدوان والظلم، ولذلك صارت حياتهم حياةً تعيسة مليئة بالقتال والحروب وسفك الدماء ولو أن كل إنسان أخذ حقه وأعطى ما عليه لما تقاتل الناس، ولعاشوا في سلام وأمن ووثام وراحة وسعادة في الدنيا.



تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١)

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يُلَاقُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَكَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

شخصية السورة:

سورة البينة؛ الجمهور على أنها مدنية^(١)، ومقصدها العام: بيان كمال رسالة محمد ﷺ ووضوحها^(٢)، وأنها ناسخة لما قبلها من الرسالات، وكتابتها الذي هو القرآن مهيمناً على ما سبق من الكتب، ومصدق لما فيها من الأحكام الإجمالية قبل التحريف.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٧٥).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٨).

وَسُمِّيتْ بِالْبَيِّنَةِ؛ لَذِكْرِ هَذَا اللَّفْظِ فِيهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْيَبْنَةُ﴾ (١)، وَأُطْلِقَ
عَلَيْهَا بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ فِي كَتَبِهِمْ اسْمَ (لَمْ يَكُنْ) (١)، لَوُرُودِ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ، فَقَدْ
وَرَدَ فِي فَضْلِهَا وَفَضْلِ أَبِي بَن كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثًا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَن
كَعْبٍ: "أَمَرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ سُورَةَ لَمْ يَكُنْ"، قَالَ أَبِي: وَسَمَّانِي؟! قَالَ:
"وَسَمَّاكَ"، فَبَكَى أَبِي (٢)!!، لِمَاذَا بَكَى أَبِي؟ بَكَى إِمَّا فَرَحًا بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ
وَالْمِيزَةِ، بِأَنْ يُذَكَرَ فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى، وَيُقَالُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأْ هَذِهِ
السُّورَةَ عَلَى فُلَانٍ مِنْ أُمَّتِكَ، وَإِمَّا بَكَى خَشْيَةً أَلَّا يَقُومَ بِالْوَاجِبِ مُقَابِلَ هَذِهِ
الْفَضِيلَةِ وَالْخَصِيصَةِ، وَفِي قَوْلِ أَبِي: وَسَمَّانِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْاسْتِثْقَاءِ وَالْإِسْتِفْصَالِ
لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ اخْتِيَارُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي اجْتِهَادِي، كَأَنْ يَقُولَ
اللَّهُ لَهُ: اقْرَأْ هَذِهِ السُّورَةَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَيَخْتَارُ مَنْ يُرِيدُ، فَكَانَ مِمَّنْ
اخْتَارَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَبِيًّا، فَأَبِيٌّ يُرِيدُ أَنْ يَنْظُرَ هَلْ هَذَا اخْتِيَارٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ
اخْتِيَارٌ مِنَ اللَّهِ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ: وَسَمَّانِي؟! فَقَالَ لَهُ: "نَعَمْ"؛ فَبَكَى أَبِي، وَالرَّاجِحُ
بِحَسَبِ سِيَاقِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ بَكَى فَرَحًا، كَمَا حَصَلَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا أُذِنَ
لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْهَجْرَةِ، وَاخْتَارَهُ صَاحِبًا لَهُ فِيهَا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ مِنْ
الْفَرَحِ (٣)!!.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾ ذَكَرَ

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٥٣٧/٢٤)

(٢) رواه البخاري (٣٦/٥)، برقم (٣٨٠٩)، بنحوه.

(٣) ينظر: أسد الغابة ط العلمية (٣/٣١٥).



الله هنا أصناف الذين كفروا، وحصرهم في صنفين، **وهم**: صنف أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، الذين أرسل الله إليهم رُسلًا، وأنزل عليهم كُتبًا، فالتوراة لليهود، والإنجيل للنصارى، ولكنهم حرّفوها، وصنف المشركين وهم الذين لا كتاب لهم ولا رسول، وكانوا يعبدون الأصنام، ويدخل في ذلك عبدة النار من المجوس والبوذية وغيرها من أديان الهند الكبرى، فهؤلاء كلهم في صنف المشركين، فبيّن سبحانه أن هؤلاء جميعًا باقون على الكفر غير تاركين له، أو غير تاركين ومُفارقين لدينهم، حتى ﴿حَقَّ تَأْيِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ **أي**: يأتيهم البرهان الواضح، والحجة الواضحة، ثم بيّن الله ما هي البيّنة، فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ ۝٢﴾، فالرسول هو البيّنة، وكان الناس في جزيرة العرب ومَن حولها في تلك المرحلة ينتظرون متى يُبعث هذا الرسول الخاتم، لوجود عدد من البشارات والأمارات في الكُتب السابقة التي تدل على قرب بعثته، والمقصود به محمد ﷺ، وقوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ ۝٣﴾، يبان أن الله هو المرسل له، ولا يكون الرسول رسولاً إلا إذا أرسله الله، والمرسل هنا ليس اسمًا من أسماء الله، وإنما يجوز لنا أن نُخبر عن فعل الله، فهذا من باب الخبر عن الله، وأنه المرسل الذي أرسل الرسل.

ثم بيّن لنا صفة هذا الرسول، فقال: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٤﴾، فقد جاء بمعجزة عظيمة خالدة لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، وهي القرآن، وسماه صُحُفًا؛ لأن القرآن كان في عهد النبي ﷺ يُكتب في صُحف، فلما تُوّفي جُمع القرآن الجمع الأول في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحف إلى مصاحف، ثم جاء عثمان



رضي الله عنه فجمع المصاحف في مُصحف واحد، ويُسمى المصحف بالرسم العثماني الذي نقرأ فيه اليوم.

وهذه الصُّحف التي كُتب فيها القرآن، يلزم أن تكون طاهرة، كما يلزم تطهيرها بعد كتابة القرآن فيها من كل ما لا يليق به، فصارت هذه الصحف محترمة ومقدسة، بسبب القرآن المكتوب فيها، وصار يطلق عليه بعد ذلك المُصحف، وله أحكام خاصة به، فلا يجوز أن يمسه المُحدث حدثاً أكبر بالاتفاق، فلا يمسه جنبٌ ولا حائض ولا نَفْسَاء، ولا يمسه مشرك ولا يهودي ولا نصراني ولا كافر، وكذلك يرى الجمهور أنه لا يجوز للمحدث حدثاً أصغراً مسه ^(١)، ولا تدخل به مكاناً نجساً كالحمام ونحوه.

ولو تعمّد شخصٌ أن يدوسه بقدمه على سبيل الإهانة؛ فإنه يكفر بهذا الفعل، من أجل ذلك يطلب الساحر ممن يتعلم السحر عنده أن يهين القرآن، ولذلك تسمعون عن بعض الحوادث التي يُكتشف فيها مصاحف ملقاة في الحمامات أو في أماكن القاذورات أو عليها الأذى، فمن يفعل ذلك غالباً هم السحرة، فالشياطين لا يمنحون الإنسان القدرة على تعلّم السحر حتى يضع القرآن في مكان النجاسة أو يتأذى عليه بالبول والغائط، والعياذ بالله.

ثم قال: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (٢) أي: هذه الصحف فيها أخبارٌ وأحكامٌ مكتوبة وهي مستقيمة لا اعوجاج فيها، ولا ظلم، ولا كذب، ولا خلل.

(١) ينظر: المغني لابن قدامة (١/١٠٨).



ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ٤،

ذكر هنا التفرق عند أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وهل البيّنة هنا هي البيّنة في الآية الأولى؟! **فإذا قلنا:** إن البيّنة هنا هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، **فالمعنى:** وما تفرّق اليهود والنصارى إلا من بعد ما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فمنهم من صدّقه وأسلم، ومنهم من كفر به وبقي على كفره مع علمه بصدق رسالته، فأدى ذلك إلى افتراقهم، وقد كانوا على دين واحد هو اليهودية أو النصرانية، فهذا حصل بينهم الافتراق.

وقد كان اليهود يستفتحون على العرب ببعثة نبي آخر الزمان، كما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ

كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩ [البقرة: ٨٩]، وكانوا يظنون أن يأتي من أبناء إسحاق، فلما جاء من أبناء إسماعيل، وجاء من العرب، وبُعِثَ في مكة؛ حسدوهم وكفروا به، وقالوا: كيف يأتي نبي من العرب!، وقد كانوا يعتبرون أن العرب أمة من الدرجة الثانية، كما قال الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ نَسِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، **يعني: نأخذ أموالهم ونسبي نساءهم ونقتل من نقتل منهم.**

ثم قال الله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، لم يأمر الله اليهود والنصارى

والمُشركين والناس أجمعين إلا بعبادته، وما أُمروا في القرآن إلا بما أُمروا به في التوراة والإنجيل وعلى لسان موسى وعيسى وسائر الأنبياء، وهو التوحيد.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، الإخلاص: هو نبذ الشرك والرياء، وإفراد الله



بالعبادة، فإن عبادة الله هي الدين الذي بُعث الأنبياء جميعهم للدعوة إليه، كما قال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله: ﴿حُفَاءَ﴾ الحنيف هو: المائل عن الشرك إلى التوحيد، والحنيف الذي لا اعوجاج فيه^(١)، ولا تعارض بين القولين في المعنى، **فإذا قلنا:** مائل، أي: مال من الشرك إلى التوحيد، **وإذا قلنا:** لا اعوجاج فيه، فالمقصود به الاستقامة المطلقة، وهو السليم من الشرك، **وفي الحديث:** "بُعثت بالحنيفية السمحة"^(٢)، **والمعنى:** الملة المستقيمة التي لا انحراف فيها، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، أي: مستقيماً مستسلاً لا اعوجاج لديه ولا شرك.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ هذا من ضمن ما أمروا به، فقد أمروا بالإخلاص، وأمروا بإقامة الصلاة، وأمروا بإيتاء الزكاة، **وهذه الثلاث القضايا، وهي تمثل أصول دين القيمة، فالتوحيد:** اعتقادي، **وأداء الصلاة:** عملي بدني، **وإيتاء الزكاة:** عملي مالي، وباقي الفرائض تلحق بها، فالصوم بدني يلحق بالصلاة، والحج بدني مالي يلحق بالصلاة والزكاة، فكأنه جمع أركان الإسلام الخمسة.

ثم قال: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾، **ذلك:** إشارة إلى ما سبق من فرائض الدين القيم الذي لا اعوجاج فيه أبداً.

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤ / ٧١).

(٢) رواه أحمد، ط الرسالة: (٤١ / ٣٤٩)، برقم (٢٤٨٥٥)، بنحوه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بسند



ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ

فِيهَا ﴿هؤلاء الثلاثة الأصناف: يهود ونصارى ومشركون، أمروا بعبادة الله، وأرسل إليهم رسول بالبينّة بالبرهان الواضح والحجة الكاملة، فأعرضوا ولم يؤمنوا به، فعاقبتهم وخيمة عند الله، فإنهم متوعدون إن ماتوا على الكفر والشرك بنار جهنم خالدين فيها، أي: لا يخرجون منها بسبب كفرهم وشركهم، فإن الذي لا يخرج من النار ويخلد فيها هو الكافر المشرك الذي مات على كفره وشركه، بخلاف المؤمن العاصي وإن دخل النار بسبب كثرة معاصيه وسيئاته إلا أنه موعود بالخروج من النار بعد أن يؤدب ويُطهر من معاصيه التي زادت على حسناته، ويخرج بشفاعة الشافعين.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٦﴾، أي: هؤلاء الذين اختاروا طريق الكفر والشرك، وعبدوا غير الله، وماتوا على غير التوحيد، هم شرُّ الخليقة، ولك أن تتخيّل أي حيوان قبيح وشرير، **مثل:** الخنزير والكلب والحمّار والدود والحشرات، والأوساخ، والجُعل الذي ينبت من الغائط وأماكن النجاسات، فالكافر والمشرّك الذي يموت على الكفر والشرك شرُّ من هذه الحيوانات؛ لأن الحيوان غير مُكلّف، والإنسان مُكلّف، قد أعطاه الله سمعًا وبصرًا وعقلًا، وأرسل إليه رسلاً، وأنزل إليه كُتُبًا، حتى يدلّوه على الحق والهدى، فأبى إلا الكفر والضلال، والعياذ بالله.

ثم بيّن الله مكانة المؤمنين العاملين للصالحات، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾، هم خيرُ الخليقة، فأراد الله تعالى أن يرشدنا



في هاتين الآيتين إلى ميزان الخيرية عنده، فليست الخيرية عند الله أن تكون جميلاً أو غنياً أو كبيراً متبوعاً، لك حَشَمٌ وخدم وأنت تكفر بالله وتعصي أمره وتُخالف طريقته، فمهما كان جمالك ومالك ومنصبك وغناك في الدنيا، ومهما التفتت إليك الأعناق والأبصار، وعظمتك القلوب المخلوقة حولك؛ بسبب هذه النعم التي منحك الله إياها، وأنت مصرٌّ على الكفر والشرك، فأنت أقبح مخلوق عند الله، وأشر مخلوق عند الله، سواءً قلنا: الخنزير، أو الحشرات والدود، أو الكلاب، أو سائر ما تتصوره من مخلوقات قبيحة، فمن كفر بالله وأشرك به فهو عند الله بهذه المنزلة، وأما من آمن بالله وأطاع أمره وعمل الصالحات؛ مهما كان فقيراً أو ضعيفاً أو صورته غير جميلة، أو ليس عنده مال ولا نسب ولا حسب ولا منصب ولا جاه ولا سلطان، وعنده الإيمان والتقوى، فهو عند الله خيرُ الخليقة بنص القرآن، **فالبرية**: هي الخليقة، مأخوذة من برأ النسمة، **أي**: خلقها، **ومن هنا قال العلماء**: إن المؤمن الصالح التقى أفضل من الملائكة عموماً بنص هذه الآية^(١)، واختلفوا في جبريل وحَمَلَةُ العرش، وبهذا المعيار يُعرف به من هم شر الخليقة، ومن هم خير الخليقة!!

ثم بين الله تعالى حالهم في الآخرة، فقال: ﴿جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: ثوابهم، وفي الصنف الأول، لم يقل: عند ربهم، مع أن الجنة والنار كلاهما عند الله، ولكن ذكرها هنا تكريماً لهم، بمعنى أن لهم القرب والمكانة عند الله، وأولئك مُبعدون عن الله وعن رحمته والقرب منه، **وقال آخرون**: إن النار في أسفل

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٣٩).



سافلين، بينما الجنة في أعلى عليين^(١)، والله تعالى في جهة العُلو، وسقف الجنة عرشُ الرحمن، فاجتمع لهم القرب من ناحية المكان، ومن ناحية المكانة.

وقوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾، الجنات: جمع جنة، وهي البساتين الكثيفة أشجارها، **وعدن:** تعني الإقامة في المكان، وعدم الزوال والتحول عنه^(٢)، **والمعنى:** أن أهل الجنة ما كثون فيها، لا يتزحزون عنها ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، بل يبقون فيها على ما هم عليه من النعيم، شبابًا أبد الأبد لا يهرمون، **كما جاء في الحديث:** "أن أهل الجنة يدخلونها وهم في سن ثلاثة وثلاثين سنة"^(٣)!

وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، أي: من تحت قصورها وأشجارها، فيستمتعون بالمكان من ناحية النظر ومن ناحية النعم المحيطة بهم، ويبقون فيها على التأبید، لا يتزحزون منها ولا تنتهي النعم عنهم ولا يموتون، والشعور بالخلود في الجنة مُهم جدًا؛ فالنفس البشرية إذا أتمتها نعمة تخاف من **أمرين:**

الأول: ذهاب النعمة، فهذه النعمة يمكن أن تنتهي ويذهب أثرها، فالغني يُمكن أن يفتقر بانتهاء المال من يده، والصحيح يُمكن أن يمرض بذهاب العافية عنه.

والثاني: التعرض للموت، فحتى لو كنت غنيًا؛ فالموت يذهب بك وتترك

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ١٠٣).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢١٦٢).

(٣) رواه أحمد، ط الرسالة (١٣/ ٣١٥)، برقم (٧٩٣٣)، **وقال المحقق:** حديث حسن بطرقه

وشواهده.



النعمة، ويأخذها غيرُك، فهذان الأمران جيء بهما هنا لتطمين أهل الجنة، بأنه لا موت، ولا زوال للنعمة، فعيشوا مطمئنين البال.!!

ثم قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وهذه نعمة ثالثة، فمهما كنت في نعمة ونعيم وينقصُك رضى الله؛ فسعادتك ناقصة!!، والنعيم في الجنة نوعان: حسي ومعنوي، فالحسي دخول الجنة والتنعم بنعمها الحسية، ورضى الله من النعيم المعنوي، فراحة البال، والسعادة والاطمئنان لنفوسهم أثر من آثار رضى الله عنهم ورضاهم عنه؛ لما أعطاهم من الثواب، فلا يوجد أحد منهم غير راضٍ عن الله فيما أعطاه بل الكل قد رضى بدرجته ومكانه في الجنة، وقد ذهب منهم الطمع الذي طبعوا عليه في الدنيا وحل محله الرضى، فالיום لو تُعطى مليوناً؛ تطمع في المليون الثاني، ولو تزوج الأولى؛ تطمع تزوج ثانية، ولو يُعطوك كذا وكذا؛ تُريد الذي بعده، أما في الجنة فهذا ليس موجوداً، بل يحصل الرضى التام بما يمنحك الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يرضى أصحاب الجنة في الدرجات الدنيا بدرجاتهم، ولا يحسدون من فوقهم أبداً!!

ثم قال الله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، اسم الإشارة يعود إلى النعيم والجزاء والسعادة والفوز الحاصل لأهل الجنة، وقد مُنحوا ذلك الجزاء بسبب خشيتهم لله، فكل من يخشى الله في الدنيا سيجد ثواب تلك الخشية في الآخرة: الخلود في جنات عدن، ورضى الله سبحانه وتعالى عنه، ورضاه عن الله.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، وأن يُوفقنا لما يُحب ويرضى.



فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الصُّحف التي يُكتب فيها القرآن، يلزم أن تكون طاهرة، كما يلزم تطهيرها بعد كتابة القرآن فيها من كل ما لا يليق به، وصار يطلق عليها بعد ذلك المصحف وله أحكام خاصة به.
- ٢- أن الكافر بالله شر الخليقة، وأن المؤمن التقي خير الخليقة.
- ٣- أن النعيم في الجنة نوعان: حسي ومعنوي، **فالحسي**: دخول الجنة والنعيم بنعمها الحسية، **والمعنوي**: راحة البال، والسعادة والاطمئنان لنفوسهم، وهو أثر من آثار رضى الله عنهم، ورضاهم عنه.
- ٤- أن كل من يخشى الله في الدنيا؛ سيجد ثواب تلك الخشية في الآخرة: الخلود في جنات عدن، ورضى الله سبحانه وتعالى عنه، ورضاه عن الله.



تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

شخصية السورة:

سُميت هذه السورة بـ(سورة الزلزلة)، وسُميت أيضاً بـ(إذا زُلزِلت)، واختلف المفسرون في مكّيتها ومدنيتها^(١)، فمنهم من قال: إنها مكية، وقال آخرون: إنها مدنية، ورجّح الجمهور أنها مدنية، وعلاقة السورة بما قبلها؛ في السورة السابقة ذكر أن الناس ينقسمون بحسب أعمالهم إلى صنفين: خير البرية، وشر البرية، ثم ذكر في هذه السورة جزاء أعمال الصنفين، حين يصدرون يوم القيامة ويرون جزاء أعمالهم التي عملوها، والله أعلم^(٢).

وقد ورد في فضلها حديث: أنها تعدل ربع القرآن أو نصف القرآن، رواه

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٧٧)، تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٤٣٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٢٠٢).

الترمذي^(١)، وصححه بعضهم، وضعفه آخرون، **والمقصد الأعظم لهذه السورة هو: التذكير بأهوال يوم القيامة، وبيان دقة الحساب في ذلك اليوم العظيم^(٢).**

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ **الزلزال هو:** الاضطراب الشديد، يُخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الأرض، بأنها تتحرك وتضطرب.

وقوله: ﴿زُلْزِلَتْ﴾، فعل لم يُسم فاعله، مع أن الفاعل معلوم، وهو الله الذي يأمرها أن تتزلزل، **والتقدير:** إذا زلزل الله الأرض زلزالها، وهذا الزلزال الذي يحصل لها: قد يكون قبل يوم القيامة، فيكون أحد علامات قيام الساعة، وبعده تتم النفخة الأولى؛ فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وقد يكون في يوم القيامة، وبعده تتم النفخة الثانية؛ فيخرج من في بطن الأرض من الأموات أحياءً ويُساقون إلى المحشر.

وقوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾، أضاف المصدر إلى فاعله، **وفائدته:** الاختصاص والتهويل والتعظيم، فكأنه يقول لك: إن هذه الأرض حصل لها زلزلة بقدر حجمها وجرمها الكبير، وإن هذه الزلزلة شديدة وعظيمة وكبيرة.

ثم قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، **والأثقال:** إما أن تكون ما في بطنها من كل من دُفن فيها أو مات على ظهرها، أو أن تكون الأثقال ما في بطنها من كنوزها وذهبها وفضتها وما كان مخبوءاً في باطنها من خير، **فإذا قلنا:** إن إخراج ما في بطنها من أثقالها يعني: المعادن من ذهبٍ وفضة ونحوها، فتكون الزلزلة

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/١٦٦)، برقم (٢٨٩٣) و(٢٨٩٤)، وقال الترمذي: حسن.

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/٥٩٩).



قبل البعث، فقد ورد -كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة- أن الأرض تضطرب في نهاية الحياة الدنيا؛ فتُخرج (أكباد) ما في بطنها من الذهب والفضة والكنوز، فينظر إليها الناس فلا يحتاجونها؛ لأنهم يستعدون للرحيل، للموت، فينظرون إليها فيقولون: على هذا كُنَّا نُقْتَل، ونُقَاتِل، ونُسْرِق، ونعصي الله، ونحو ذلك من أقوالهم^(١)، **وإذا قلنا: إن أثقالها أي:** ما في بطنها من الموتى فيكون ذلك يوم النثر والحشر، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] **أي:** يخرجون، فهي تُلقى ما في بطنها من كل من دُفِن فيها أو مات على ظهرها؛ فيحشر ويحاسب ويُنظر مصيره إلى الجنة أو إلى النار، وسياق الآيات يدل على أن القول الثاني هو الراجح.

وقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الإنسان هنا يُفسَّر على قولين: إما جنس الإنسان المؤمن والكافر، فالكل يتساءل: لماذا اضطربت الأرض في هذا الوقت؟!، **أي:** قبل يوم القيامة، أو يتساءل: ما الذي حصل لها؟! لماذا اضطربت، ولماذا خرجت هذه الأثقال المخفية في هذا الوقت?!]

والقول الثاني: أن المقصود بالإنسان هنا: هو الكافر، بناءً على أن إخراج الأرض أثقالها يكون عند الحشر يوم القيامة، فيتساءل مالها، ما الذي حصل لها؟!، **وإنما قيل هنا:** الكافر؛ لأن المؤمن يعلم أن هناك بعث ونشور، فهو يعلم مصيره - من خلال نصوص القرآن والسنة التي آمن بها -، وكيف أن الأرض ستتغير، وأن ما فيها من الأموات سيُبعثون ويُنشرون، فسؤاله غير وارد؛ لأن

(١) رواه مسلم (٧٠١/٢)، برقم (٦٢).



عنده علمٌ بذلك، وإنما يُمكن أن يكون هذا حال الكافر الذي كان يجحد ويُنكر البعث والنشور^(١)، وهو الراجع للسياق.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤) أي: يوم القيامة، فهو اليوم الموعود الذي يأمر الله سبحانه وتعالى الأرض أن تُحدث الناس بأخبارها، **أي:** تُخرج أخبارها، وتُشَرُّ المعلومات المُخزنة فيها عن كل شخص سكن على ظهرها من الخلق، وتقول: هذا عمل كذا وهذا عمل كذا، من خيرٍ أو شرٍ، فأنت اختبأت في المكان الفلاني، وعملت المعصية الفلانية، وظننت أن أحداً لا يراك، فالله يُراك أولاً، والأرض سجّلت ما جرى على ظهرها من أحداث وحفظتها، وستأتي يوم القيامة تقول لك: أنت هنا فعلت طاعة أو فعلت معصية، فانتبه لهذا جيداً، فمن يستشعر هذا الأمر لن يجد مكاناً يعصي الله فيه.

ومن مواعظ إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ لبعض العصاة، قال له: كيف تعصي الله وأنت تأكل من رزقه، وتعيش في أرضه، إن كنت تُريد أن تعصيه فكل من رزقٍ غير رزقه، وعش على أرضٍ غير أرضه^(٢).

فكانت موعظةً بليغة له، فنحن نأكل من أرزاق الله، ونعصي الله الذي رزقنا، ونعيش على أرض الله، ونعصي الله على هذه الأرض التي سهلها ويسرها ومهدّها من أجلنا، وفي هذا الفتنة تربوية، لكي يُحاسب الإنسان نفسه، فعين الله تنظرُ إليه، وأن هذه الأرض التي يختبئ في زواياها أو يتعد عن أنظار الخلق فيها ويُمارس بعض

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٠).

(٢) ينظر: التواوين لابن قدامة (ص: ١٦٨).



المعاصي عليها، فإنها تشهد عليه.

وقد ذكر بعض أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]، أن السماء تستوحش وتحزن حينما يموت
العبد الصالح؛ لأن أعماله كانت تصعد إليها، ويذكر باسمه عندما تمر هذه
الأعمال من سماء إلى سماء إلى أن يُكتب كتابه في أعلى عِلين، فتحزن السماء
عليه حينما يموت وينقطع عمله الصالح الذي كان يُرفع له كل يوم وكل لحظة،
وأما الأرض فإنها تحزن وتبكي على ذلك العبد الصالح الذي كان يُقيم فيها
العدل، ويعمل فيها الطاعات، ويذكر الله فيها، ويسجد ويتعبد لله فيها^(١)، وسواء
قلنا: البكاء حقيقةً أو مجازاً، إلا أنه يدل فعلاً على أن هذا الكون يتفاعل مع
عبادة الله، يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع الصالحين، وتفاعلاً سلبياً مع العاصين؛
لأنه كونه طائعٌ خاضعٌ لله سبحانه وتعالى، بخلافك أيها العبد العاصي الشاذ،
فالحجر والشجر والرياح والمطر والبحر خاضع لله طائع له، وأنت تستخدم هذه
النعمة التي منحك الله وتعصي الله بها.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْحَىٰ إِلَيْهَا﴾ الباء هنا سببية، بمعنى: بسبب أن الله

أوحى لها أن تحدث أخبارها، وهي ما كان لها أن تتكلم إلا بأمر الله كما قال:
﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فالأرض جماد، لكنها يوم
القيامة حينما يُوعز إليها الله أو يُشير إليها الله أو يأمرها الله أو يأذن لها أن تتكلم،
فإنها تُخبر عن حالها وتتكلم بما جرى على ظهرها من أعمال بني آدم من خير أو

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٣٤).



شر، حتى لا يتملص الإنسان ولا يقول: أنا لم أفعل، **فهناك شهود كثيرون، منهم:** أعضاؤك ستشهد عليك، **ومنهم:** الملائكة ستشهد عليك، **ومنهم:** الكتب والصحف التي كتبت ورُقمت، كما قال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ستشهد عليك، ومنهم: الأرض التي كنت على ظهرها تعمل العمل، ستشهد عليك بالخير أو بالشر، فأين المفر؟!، فهذه محكمة إلهية عادلة، قال الله عنها: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فليس في الأمر أي مغالطة كما كانت تحصل في محاكم الدنيا!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَانًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ [٦]، إذا حصل ذلك وزلزلت الأرض وأخرجت ما فيها، وتحدثت عن أخبارها، **وستكون هذه الأخبار على صنفين:** صنفٌ عمل خيراً وطاعة على ظهر هذه الأرض، فكان الحديث عنه حديث خير، وصنفٌ عمل شراً ومعصية فكان الحديث عنه حديث شر، فانقسم الناس في المحشر تبعاً لذلك إلى فريقين: فريق أهل الجنة، وفريق أهل النار، وفريق أهل الجنة مُتفاوت المراتب والمنازل، وفريق أهل النار مُتفاوت المراتب والمنازل.

وقوله: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾، أي: يتفرق الناس بعد الحشر، كقوله: ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣]، أي: يتفرقون عن البئر مع أغنامهم، وينصرفون من حوله.

وقوله: ﴿أَشُنَانًا﴾ أي: فرقاً شتى مختلفي المراتب، سواء كانوا من أهل



الجنة، فهم درجات، والجنة مائة درجة، أو من أهل النار، والنار مائة دركة، فإذا سيكون هناك أنواع شتى من أصناف الناس يوم الحشر، سواءً من صنف أهل الجنة، تتفاوت درجاتهم بحسب أعمالهم، أو في صنف أهل النار الذين تتفاوت درجاتهم بحسب كبر ذنوبهم ومعاصيهم، ويخرجون من الحشر متفرقين، فالله يجمعهم لأجل أن يحاسبهم ثم يخرجون من ساحة المحشر أشتاتاً **أي: فرقا متنوعة ضمن قسمين: القسم الأول:** باتجاه اليمين، ومصيرهم إلى الجنة مع اختلاف درجاتهم، **والثاني:** باتجاه الشمال، ومصيرهم إلى النار مع اختلاف درجاتهم، كما قال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَ أَعْمَلَهُمْ﴾، **أي:** ليُشاهدوا جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهذا واضح، فيوم الحشر ينشر الله الصحف، وقد كتب فيها كل ما عمله الإنسان من الأعمال دون زيادة أو نقصان، كما قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فإذا أخذ صحيفته؛ رأى عمله بنفسه، سواءً كانت تلك الرؤيا رؤيا بصرية حيث يرى حسناته وسيئاته مكتوبة أمام عينيه، أو كانت الرؤيا قلبية، بمعنى: صار عنده علم وإحاطة أنه من أهل الجنة في المرتبة الفلانية، أو من أهل النار في الدرك الفلاني، وهنا أطلق الأعمال؛ لتشمل أعمال الخير وأعمال الشر كلها، صغيرها وكبيرها!! فربما يتبادر إلى ذهن بعض الناس اليوم سؤال: ما هي الأعمال التي ستكتب في الصحف والتي سيرها الإنسان في صحيفة



عمله يوم القيامة؟!، وبناءً على ذلك، يحدث الطائع نفسه ويقول: أنا أهتم بالفرائض لأنها هي التي تكتب وتأتي بالأجر، والسنن والمستحبات والأعمال الخفيفة لا داعي أن أهتم بها، وبنفس هذا المنطق يحدث العاصي نفسه ويقول: أنا أبتعد عن المنكرات والكبائر من المعاصي فقط، أما الصغائر فإنها لا تضر!! والجواب: أن كل الأعمال تكتب صغيرها وكبيرها، كما في قوله: ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهذا الإحصاء للعمل عند فعله، فيكتب كل شيء عمله، ثم يُجازيك الله على كل شيء ولا يترك شيئاً من عملك من خير أو شر مهما كان صغيراً إلا وجزاك عليه، **ولذا قال هنا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾** (٧) **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** (٨)، ما هو مِثْقَالُ الذرة؟ فسّر السلف قديماً مِثْقَالُ الذرة بالشيء الصغير الحقير^(١)، فالذر هو النملة الصغيرة التي تمشي على الأرض، ومِثْقَالُ الذرة هو: ما تحمله من طعام ويُثقل كاهلها، فكم مقدار ما تحمله الذرة الصغيرة؟! **وقيل: الذرة من الشيء أن تضع يدك على تراب الأرض ثم ترفعها، فما ألصق بيدك فهو الذر، وتسمى ذرة من تراب، وقيل: مثاقيل الذر، هو ما تراه من الهباء على شعاع الشمس الذي يدخل إلى غرفتك، يعني لا تراه إلا بوجود شعاع الشمس، أو من خلال أشعة الشمس، حيث تكشف لك عن أشياء موجودة داخل الغرفة وهي جسيمات بسيطة ولو ذهب شعاع الشمس لا تراها، فهذا هو مِثْقَالُ الذرة^(٢)، وهذا كله بحسب ما وصل إليه علمهم آنذاك، أما الذرة الآن فهي: أحد الاكتشافات الحديثة في العلم، ولا تُرى بالعين المُجردة بل**

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥١١).



تحتاج إلى مجهر يكبرها؛ لكي تراها، فإذا كان الله سيعطيك أجرًا على الخير بمقدار مثقال الذرة، وسيُحاسبك على الشر بمقدار مثقال الذر، وهذا يعني أن الحساب سيكون دقيقًا!!، فانتبه لنفسك أيها الكسلان!! واجتهد في العبادة والطاعة في الفرائض والواجبات، والسنن المستحبات والنوافل؛ وإلا فسيضيع عليك خير كثير!!، وانتبه أيها العاصي المقصر الذي تقول: هذه من الصغائر وهذه لا تضر!!، وهذه قضية ليست خطيرة، بل ستتجمع عليك هذه القضايا الصغيرة وتهلكك، **وقد جاء في الحديث:** "إياكم ومُحقرات الذنوب فإنهن إذا اجتمعن على العبد أهلكنه، إنما مثل مُحقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واديًا وكل واحد أتى منهم بعود صغير فاجتمع لهم من هذه الأعواد ما أنضج لحمهم وخبزهم" ^(١)، اليوم تعمل معصية صغيرة وغداً معصية صغيرة وهكذا...، فإذا اجتمعت هذه المعاصي عليك هلكت، والعياذ بالله، وتذكر كم من خير بسيط جدًا يجمع لك في صحائف أعمالك وأنت لا تنتبه له!! وتأتي يوم القيامة فتجده عظيمًا في الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، فجاءت هذه الآية لتكون عامة شاملة.

وقد جاء في الحديث: أن النبي ﷺ سئل عن زكاة الحُمُر، فقال: "لم يأتني فيها شيء غير أنه نزلت عليّ هذه الآية الفائزة الجامعة المانعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ^(٧) يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٨)﴾" ^(٢)، **يعني:** أي شيء ستعمله من خير أو شر لن يضيع، بل سيُسجل لك أو عليك، وهذا

(١) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة (٦/ ٣٦٨)، برقم (٣٨١٨)، قال المحقق: حسن لغيره.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١١٣)، برقم (٢٣٧١) بنحوه.



معناه أن الإنسان يجب أن ينتبه لنفسه سواءً في عمل الخير فلا يُفرط فيه ولو كان قليلاً، **كما في الحديث:** "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق" ^(١)، هذا في باب الخير، وفي باب الشر لا تستهن بالصغيرة فإنها ربما تجتمع عليك هذه الصغائر فتُهلكك كما سبق في الحديث، فيحتاج الإنسان إلى الحيلة والحذر، ويعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يُظلم عنده أحد، وأن فضله عظيم، وأنه كريم سبحانه وتعالى، وأنه حكم عدل، فالمثقال من الخير يُضاعفه عشرة أضعاف؛ حتى يزداد ويكبر لصاحبه، وهذا من كرمه وفضله وجوده مع العبد، وفي باب الشر يُجازي السيئة بمثلها فقط، وذلك من عدله سبحانه.

فوائد وهدايات من السورة:

أن الله سبحانه وتعالى يُقيم العدل في الآخرة، وأن الشهود الذين خُصصوا لإقامة الحجة مُتنوعون، فالأعضاء تشهد، والملائكة تشهد، والصحف تشهد ويُرقم ما فيها، والأرض تشهد، فشهادة الأرض على أعمال بني آدم هي خاتمة الشهداء سواءً في الخير أو في الشر، **وقد جاء في حديث** عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قَالَ لَهُ: "إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ، أَوْ بَادِيَتِكَ، فَأَذْنَتَ بِالصَّلَاةِ فَارْفَعُ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ، جِنَّ وَلَا إِنْسٍ وَلَا شَيْءٍ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، **قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:** سَمِعْتُهُ

(١) رواه مسلم (٢٠٢٦/٤)، برقم (١٤٤).



مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١)، فالأرض تشهد أنك فعلت على ظهرها معصية أو طاعة؛ ولذلك استحب بعض السلف لأي إنسان يزور مكاناً من هذه الأرض أن يترك له فيه عملاً صالحاً ولو أن يذكر الله، فإذا زرت مكاناً فصلّ فيه ركعتين واذكر الله، واقرأ شيئاً من القرآن، واستغفر في هذا المكان، في هذا الجبل، في هذا الوادي، لا تدع أي مكانٍ وصلت إليه قدمك إلا واترك فيه أثراً من آثار العمل الصالح، فضلاً عن أن تحذر من العمل السيء، فبعض الناس إذا أراد أن يعمل معصية؛ يختفي أو يذهب إلى جبل، أو مغارة أو مكان بعيد ويظن أنه اختفى عن عين الله!! ولم يعلم أن الله لا تخفى عليه خافية، وأن ذلك المكان ينتظرك إلى يوم القيامة؛ ليشهد عليك بما فعلته فيه من المعاصي، أما غرفتك التي تسكن فيها وتعيش فيها وتنام فيها فاعمل حسابك معها، ففيها بطانيات وفيها فرش وفيها جدار وفيها ستائر وكل شيء حولك اعمل حسابك منهم فهو لاء كلهم شهود على ما تفعله داخلها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فاحذر، وكما تحذر اليوم من المكان الذي فيه (كاميرات) مراقبة، لاحتمال أن (الكاميرات) قد تلتقط لك صورة وأنت في وضع غير مناسب، وتخاف من الفضيحة أمام الناس، فكيف لا تخاف من الفضيحة أمام الله سبحانه وتعالى، وأمام الناس كلهم!!

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٥)، برقم (٩٠٦).



تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ
۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

شخصية السورة:

سورة العاديات؛ آياتها إحدى عشرة آية، وترتيبها في المصحف رقم مائة، واختُلف في مكّيتها ومدنيتها، فذهب بعض المفسرين إلى أنها مدنية؛ بدليل أن الله أقسم بالخيال التي تغزو في سبيل الله، والغزو لم يكن إلا بعد أن شرع الله الجهاد في المدينة، وقال آخرون: بل هي مكية لمشابقتها للقرآن المكي، من حيث الموضوع وقصر الآيات، وهو الراجح^(١)، والمقصد الأسمى لهذه السورة هو: تحذير الإنسان من الجحود والطمع، وتذكيره بأنه راحل إلى الله سبحانه وتعالى^(٢)، وقد احتوت السورة على ثلاثة موضوعات رئيسية:

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢١٠).

الأول: وهو الخيل وصفاتها، **والثاني:** الكشف عن بعض صفات الإنسان،

والثالث: النهاية التي يصير إليها الناس ويرجعون فيها إلى ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَّاتِ﴾ الواو أداة قسم، والعاديات مُقسَمٌ به، والمقصود بالعاديات هنا الخيل التي تعدو وتمشي عدوًا، حينما يركبُ عليها الفارس، ويخرجُ بها غازيًا في سبيل الله تعالى.

وقوله: ﴿صَبْحًا﴾ حال خروج صوت أنفاسها عند الجري، وهو ما يُسمى الحمحمة، وهو صوت الخيل حينما تشتدُّ في السير، فإن الضبح هو صوت النفس الذي يخرجُ من الحُنجرة، **وقد قال بعضُ المفسرين:** إن المقصود بالعاديات هنا كل ما يعدو ^(١) أي: كل ما يجري، ومن ضمنها الإبل، لكن الراجح أنها في الخيل لتطابق هذه الصفات على الخيل أكثر منها على الإبل ^(٢)، فعُدو الإبل أقل من عدو الخيل، والإبل معها أخفاف، خُف، والخُف غير الحافر، والإبل في الغالب لا يحصل لجريانها ضبح ولا صوت ولا حمحمة، فكان الراجح أن المقصود بالقسم هنا الفرس أو الخيل عمومًا، فأقسم الله بالخيل حال عدوها وهو شدة جريانها مع سماع صوتٍ يخرج من حنجرتها وأنفاسها، وهذا من شدة النشاط والحيوية والجري.

ثم أقسم الله فقال: ﴿فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا﴾، وهي الخيل حال كونها تقدح، لأن القدح هو ضرب شيء بشيء، ومن أثره يخرج شرر النار، والمعنى: التي

(١) ينظر: المصدر السابق: (٢٢ / ٢١١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤ / ٥٥٩).



تجري وتصطكُ حوافرها بالحجارة في الطريق؛ فربما انقَدَح منها النار، إما من اصطدام الحافر بالحجر، فإذا انصدم الحافر بالحجر ظهر منه شرر النار، وإما أن تضرب بقدمها حجرًا فتصطك تلك الحجر بحجرٍ أخرى فيخرج منها شرر النار، **فالمقصود بالموريات:** إشعال النار التي تُضيء كما في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]. وهذا يشير إلى أنها في الخيل لشدة جريانها، وليست في الإبل؛ إلا إذا قلنا إن الإبل ممكن أثناء جريها قد ترمي حجرًا إلى حجر فيصدر منهما شرر النار، لكن أن تصطك قدمها بالحجر فتصدر شررًا، فهذا غير ممكن؛ لأنه لا حافر لها.

ثم قال: ﴿فَالْمَغِيرَاتُ صُبْحًا﴾ [٢]، وهذا القسم الثالث، أقسم بالمغيرات، وهي الخيل التي تُغير وقت الصباح، فقد كان من عادات العرب قديمًا أنهم إذا أرادوا أن يغزوا فإنهم يخرجون مع آخر الليل، حتى إذا اقتربوا من ديار عدوهم؛ أغاروا عليهم مع طلوع الصبح، فينقضون عليهم وهم نيام، غير مستعدين لهم.

أما قوله: ﴿فَأْتَرَنَ بِهِ نَفْعًا﴾ [٤]، فليس قسَمًا، وإنما هو وصف لما يحصل من الخيل المُقسَم بها عند العدو، هو الجري الشديد أثناء الإغارة على العدو؛ من إثارة للغبار، فالنقع هو الغبار الشديد الذي يرتفع في ساحة المعركة من حركة الخيل، وهذا له آثاره من الناحية الحربية، ففيه قذف الرعب من جهة، ومن جهة أخرى، فيه التضليل على العدو ومباغتته، من وراء الغبار، فلا يرى ولا يدري إلا وقد ضُرب بالسيف من فوق الفرس!!

وقوله: ﴿فَوْسَطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [٥] وهذا ليس قسَمًا أيضًا، وإنما هو وصف



لحال الخيل المُقسَم بها حينما تتوسط جمع العدو مع فرسانها الراكبين عليها، وفيه إشارة إلى قوة وشجاعة الخيل ومن عليها، حيث اقتحمت الميدان ودخلت إلى وسط المعركة، وأثارت الغبار في وجوه العدو، وهذا كله يُصوِّر لنا طبيعة المعركة التي يقودها الفرسان على هذه الخيول التي أقسم الله سبحانه وتعالى بها، وهذا المقطع الأول من السورة؛ يعطينا صورة حقيقية لمكانة الخيل في الجهاد، فيها معنى العزة والقوة والشجاعة، كما قال النبي ﷺ عنها: "الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" (١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦)، هذا جواب القسم، فأقسم الله بالخيول وصفاتها على أن هذا الإنسان لربه لكنود، وما علاقة جواب القسم بالمقسم به؟، **الجواب: لقد أقسم الله بثلاثة أمور**، وجاء جواب القسم في ثلاثة أمور أيضاً، **الأول: جُحود الإنسان لربه، والثاني: إقراره بذلك الجحود، والثالث: حبه الشديد للمال**، ثلاثة مُقابل ثلاثة، ويمكن بيان العلاقة، أن هذه الخيل ستذهب للغزو وفي هذا الغزو النصر والغنيمة، فالنصر نعمة عظيمة معنوية، والغنيمة نعمة حسية، وهذه النعم تستحق الشكر، ولكن بعض الناس قد يجحدُ شكر نعمة الله عليه، فينسى أن الله هو من مدهُ المال بهذه الوسيلة، أو تلك، ثم ينسى طاعة الله سبحانه وتعالى؛ فيصرف هذا المال فيما حرم الله!!

والألف واللام في الإنسان هل للاستغراق أم للعهد؟ الجمهور على أنها

(١) رواه مسلم (٣/١٤٩٣)، برقم (٩٧).



للاستغراق^(١)، **والمقصود:** كل بني الإنسان يحصل عنده جُحود ولو لبعض نعم الله، إلا من عصمه الله من الأنبياء والرسل، وقيل: المقصود بالإنسان هنا الكافر^(٢)، والقول الثاني أرجح للسياق.

وقوله: ﴿لِرَبِّهِ لَكُنُودٌ﴾، أي: لجاحد، فينكر أن أصل النعمة من الله، أو يستخدمها في معصية الله، ويمنع صرفها في الخير، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فالجحود بمعنى الإنكار، وقد وقع من قارون كما قال الله عنه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، فهذا جُحود منه لمُبدئ النعمة وخالقها ومُعطيها، كما قال: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وإذا استخدمت هذه النعمة في معصية الله فهو نوعٌ آخر من الجحود، **وقال بعض أهل العلم:** كنود هنا بمعنى: بخيل، أو مانع للخير^(٣)، واللفظ يشمل المعاني الثلاثة كلها ولا تعارض بينها، **فالإنسان لا يخلو من هذه الثلاثة الأحوال:** إما منكر لنعم ربه، أو مانعٌ لنعم ربه، أو مُستخدمٌ لنعم ربه في معصيته، وكلها جحود للنعمة!

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، وهذا هو الأمر الثاني، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والمعنى: أن الإنسان شاهد على جُحوده، فشهِيدٌ هنا بمعنى: شاهد، **والشاهد هنا بمعنى:** المُقر بذنبه ومعصيته، سواء كان

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤٤٣/٣٠).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤٨١/٤).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٧٨٨/٤).



ذلك الإقرار في الدنيا، حيثُ يحصل للنفس نوع من الاعتراف أحياناً، حينما تقف مع نفسها وتتفكر في فعلها، أو كان ذلك الإقرار في الآخرة، حينما يقف بين يدي الله، ويرى الحقائق؛ فلا يستطيع أن يفر من الإنكار، فيعترف بجحوده ويقر به.!!

ثم قال: ﴿وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، وهذا هو الأمر الثالث، وهنا الجملة معطوفة على التي قبلها، والخير هنا بمعنى المال، **أي:** وإن الإنسان لحب المال لحريص، فقد فطر الناس على ذلك، وقذف الله في قلوبهم حُبَّ المال، وخاصةً النقد من ذهبٍ وفضة ونحوه، **وقيل:** شديد بمعنى بخيل^(١)، يجمع المال ويبخل في إنفاقه وإخراجِه، **وقيل:** شديد السعي في كسبه^(٢)، فإنه يبذل وقتاً وجهداً ومشقةً يتحملها من أجل أن يكسب المال، وإنما يتحمل المشقة في الكسب، لدخول حب المال إلى قلبه، فإن من أحب شيئاً تحمّل في كسبه المشقة، وتخيل طالب علم يتحمل المشقة في طلب العلم وطالب دنيا يتحمل المشقة في طلب الدنيا، ستجد فرقاً، لأن حب المال من الشهوات المقدوفة في النفس، وانظر مثلاً إلى العُمال الذين يشتغلون في الأعمال الشاقة، كلما شعر بالألم والتعب والمشقة؛ تذكر الأجرة والمال الذي سيحصل عليه، فيندفع للاستمرار والنشاط، بينما تجده في باب العبادة وفي باب الطاعة لديه كسل وخمول، فلماذا لا يتذكر الأجر والثواب من الله عند الكسل عن الطاعة؛

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٥٦٧/٢٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٦٢/٣٢).



فتشتد نفسه وتجتهد؟!، ويقول لها: سأحصل على كذا حسنة؟!، ويكون العبد متيقناً من الأجر والثواب، وسيجد نفسه تشتد وتنطلق للعبادة والطاعة.

وهنا لفظة تربوية؛ أن النفس إذا أحبت شيئاً؛ تحملت من أجله المشاق، فإذا أردت أن تجتهد في شيء؛ فحببه إلى نفسك أولاً، ثم مارسه ثانياً، وستجد نشاطاً في ذلك، **فمثلاً:** تريد حفظ القرآن؛ حبب حفظ القرآن إلى نفسك، ثم احفظ، تريد طلب العلم، تريد قيام الليل، فحببه إلى نفسك، فإذا أحببته كان ذلك دافعاً لأن تتحمل من أجله المشاق، فإن الحب للشيء يدفع إلى تحمُّل المشقة في تحصيله، كما يدفع إلى التمسُّك به وعدم التفريط به.

ثم جاءت الفقرة الثالثة من السورة تتحدث عن عودة الناس إلى الله فقال: ﴿أَفَلَا

يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ﴾، فهل يعلم هذا الإنسان الكنود المُقر بجحوده الحريص على كسب المال والبخيل في إنفاقه، فالجميع سيرجعون إلى الله، وُبُعثر، بمعنى: أخرج، **والبعثرة هي:** إخراج الشيء بدون ترتيب، ولذلك يُقال: لا تُبعثر الأوراق، أو أنت حياتك مُبعثرة، مشتتة غير مُرتبة، والمعنى: حشرها وجمعها بين يدي الله.

ثم قال: ﴿وَحِصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ﴾، أي: إذا جُمعت بين يدي الله وأُخرج ما كان مخفياً في صدورها من خير أو شر، إما بخروج الصحف وتوزيعها، وإما بنشر ما كان مخفياً علناً على الناس، كما في قوله: **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾** [الطارق: ٩]، وغالباً ما تُذكر الصدور عند الشهوات والفتن والأهواء، وتُذكر القلوب عند العلم والعقل، فلو يُتبع هذا في نصوص القرآن، لمعرفة السر في ذلك.



ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، الضمير يعود على أهل القبور، وهم كل الأحياء الذين ماتوا ودُفِنُوا، ويومئذ، أي: يوم القيامة، لخبير، أي: لا تخفى عليه خافية من أمورهم، لماذا علّق خبر يوم القيامة؟! **الجواب:** أن علم الله على نوعين: علم الإحاطة، فلا يغيبُ عنه شيء، وعلم الجزاء المترتب على حدوث الشيء، فعلم الجزاء، كقوله: ﴿نَعْلَمُ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١] هذا علم جزاء، ولا يعني ذلك أنه ما كان يعلمهم من قبل، **والمعنى هنا:** خيرٌ بما يستحقونه من الجزاء، وأما أنه خير بهم في الدنيا، فهو من العلم المطلق الذي هو له سبحانه في هذا الكون كله منذ أن خلقه في الأزل.

فوائد وهدايات من السورة:

هذه السورة في الحقيقة تُعطينا مجموعة مشاهد متسلسلة ومتراصة:

١ - المشهد الأول: يتعلق بالخيال والفرسان والغزاة وذهابهم للقتال والجهاد في سبيل الله، وأظهرت لنا تلك الصورة التي فيها الشجاعة والإقدام، وفيها الإقبال على نصره دين الله سبحانه وتعالى، فهذا المشهد العظيم مؤثر في النفس، وهو يتوافق مع مشهد أهل الآخرة، فحرصهم واضح في الجهاد والغزو والقتال وحُب معالي الأمور.

٢ - المشهد الثاني: وهو مشهد الجحود وحُب الدنيا، والإقرار بذلك الجحود، هذا مشهد مُعاكس ومُنَاقِض للمشهد الأول، وهو يلتصق بأهل الدنيا الحريصين عليها، فيتحدث عن وصفهم المرتبط بالمال والجحود واستخدام المال في المعصية، والشقاء في الكسب والتعب من أجله.



٣- المشهد الثالث: مشهد وعظي للطرفين، أنتم أيها المؤمنون الصالحون المجاهدون الذين تهتمون بمعالي الأمور وأعاليتها، ستقفون بين يدي الله ويظهر ما في صدوركم، وعلى صحائف أعمالكم من الفضل والأجر والخير، وأنتم أيها الجاحدون الكافرون المهتمون بالدنيا وأشغالها؛ سيظهر أيضًا ما في صحائفكم وما في قلوبكم، والنتيجة أن كلا الفريقين راجع إلى الله ربهم، وهو خيرٌ بحالهم، فيُعطي الجزاء لكل صنفٍ منهم على ما يستحقه، فهو أسلوب تشجيع لأصحاب المشهد الأول، وتحذير من أصحاب المشهد الثاني، ووعظٌ وتذكير بنهاية الصنفين، حينما يقفون بين يدي الله بعد بعثتهم من قبورهم، وتحصيل ما في صدورهم من خير أو شر!!



تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
 كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴿ فَأَمَّا
 مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴿
 فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ١٠﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾﴾

شخصية السورة:

سورة القارعة؛ هي السورة رقم مائة وواحد في ترتيب المصحف، وآياتها إحدى عشرة آية، وهي مكية^(١)، وسميت بالقارعة لأن إسرافيل يقرع الصور؛ فيحدث الصور صوتاً مزعجاً مخيفاً، يتبعثر منه من في القبور، ويخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون^(٢)، **ومقصدُ السورة العام هو:** الحديث عن يوم القيامة، وانقسام الناس فيه إلى مفلحين وخاسرين^(٣)، والمناسبة بين العاديات والقارعة؛ أن العاديات خُتِمَت بالبعث، فذكر في هذه السورة صيحاته، وهي القارعة^(٤).

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٤٤٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/٢٦٥).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٢٢٠).

(٤) ينظر: المصدر السابق.



قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾، القارعة هي: التي تفرغ الأسماع بصوتها الشديد فتوجل منها القلوب، وترتعش الأجساد خوفاً من آثار ذلك الصوت المرعب؛ والقرع معناه الضرب بشدة، **تقول:** قرعت الباب قرعاً؛ إذا ضربته بشدة، **والقارعة:** كما أنها الضرب الشديد مع الصوت المفزع، كذلك هي التأنيب المعنوي الذي يؤلم النفس، ولذلك يطلق التقريع على التأنيب والتوبيخ بالكلام الشديد، فإذا وبخت شخصاً لديه مروءة وحياء، بكلمات شديدة بسبب مخالفة أو خطأ وقع فيه، فإنه يتألم منه ويتأثر، وأما النفوس التي ذهبت مروءتها، فمهما أثبتته وقرعته فإنه لا يتأثر ولا يتأذى، والقارعة المقصود بها هنا يوم القيامة، أو قيام الساعة، وقد فخم الله سبحانه وتعالى أمرها.

فقال: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ انظر إلى الترتيب في الألفاظ فقال: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ لفظة واحدة، ثم انتقل إلى قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ لفظتان، ثم انتقل إلى الآية الثالثة، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ أربعة ألفاظ، هذا الترتيب اللفظي هو ترتيب بلاغي له أثر عند السامع، فالله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾، مبتدأ، ثم قال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ ما: هنا استفهامية، وهو سؤال حتى تستحضر نفسك عظمة هذا الموقف وشدته، ثم كان الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ الذي يوحى إليه، فقال الله له: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يا محمد، وهنا الإخفاء لتسهيل وتعظيم الواقعة والوصف والحادثة، والإدراك معرفة الشيء والإحاطة بجميع جزئياته، أو العلم بالشيء من جميع وجوهه، وهو أبلغ من العلم، فالإدراك مرحلة متقدمة من مراحل العلم التفصيلي.

ﷺ
عليه السلام
والصلاة والسلام



قال بعض المفسرين أن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ المقصود به السؤال عن ماهية الشيء^(١)، ما هي القارعة، وهذا تفخيم لأمر القيامة والساعة، لأنها تقرر قلوب الناس بعظم الأحوال فيها، وتقرر أسماع الناس فيصابوا بالفزع والخوف وهي كذلك تقرر باقي مكونات هذا الكون، فتقرر السماء فتكشط، وتقرر النجوم فتندثر، وتقرر الجبال فتبس، وقل نحو ذلك في باقي أجزاء الكون كما جاءت في ذلك آيات متعددة.

ثم ذكر ما يجري للناس في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْثُوثِ﴾، أي: يبعث الناس، ومن شدة فزعهم وخوفهم وتصعد قلوبهم؛ يخرجون من قبورهم كالفراش المنتشر، لا يدرون إلى أين يسرون، فيسيرون في كل اتجاه، كما تسير الفراشات في كل اتجاه حتى يتصادم بعضها مع بعض، **والفراش: حشرة طائفة، قيل: إنها لا ترى وإنما تستشعر حينما ترى النور، ومن ذلك، قول النبي ﷺ عنها: "إن مثلي ومثلكم كمثلي رجل أوقد ناراً، فإذا الفرّاش تتساقط فيها وهو يردّها عنها، وإني لأخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفتحمونها"**^(٢)، فهنا شبه الناس عند خروجهم من قبورهم مذعورين فزعين خائفين، بالفرّاش المبعوث لا يدرون في أي اتجاه يسرون من شدة الفزع والخوف والذعر، فيصدم بعضهم بعضاً، وكلمة بث لها معنى، **البثُّ يعني: المتطاير في كل اتجاه**^(٣)،

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٠٨ / ٢١).

(٢) رواه البخاري (١٠٢ / ٨)، برقم (٦٤٨٣).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة (٦٣ / ١).



والكلمة مختارة بعناية لتصف لك حال الناس في تلك الساعة، والتشبيه بليغ حيث شبه خروج الناس من قبورهم بخروج الفراش المبعوث، ووجه الشبه: الفوضى والفرع وعدم الانتظام وشدة الهلع، فهم لا يدرون في أي اتجاه يذهبون!!، ولكن قد جاءت آية أخرى كما في قوله: ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وانتشار الجراد يختلف تمامًا عن انتشار الفراش، فإن الجراد يُبصر وله عينان يرى بهما الطريق فيسير في اتجاهات متزنة، وفي جماعات متساوية، بينما الفراش يسير في اتجاهات متضادة ومضطربة، فما وجه الجمع بين الآيتين؟ الجمع هو أن يُقال: إن خروج الناس وانتشارهم بعد القارعة من قبورهم كانتشار الفراش المبعوث؛ بأن ذلك يكون بعد الحشر مباشرة، فمن شدة الفرع والخوف والذعر؛ لا يدرون في أي اتجاه يسرون؛ فإذا عرفوا مكان الداعي اتجهوا إليه، **كما قال:** ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]، فيتبعون الداعي؛ كأنهم جرادٌ منتشر، فيُجمع بين هاتين الآيتين أنهما مرحلتان: مرحلة بداية الحشر عند الفرع والخوف والذعر، يكونون كالفراش، ومرحلة الاتجاه نحو الداعي، فتبدأ الصفوف تتجه كما تتجه الجراد إلى مكان الحشر، والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر المشهد الثاني، فقال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [٥]،

فذكر هنا كيف تصير الجبال عند القارعة لما تقرر عليها؛ فتكون كالعهن وهو الصوف، **والمنفوش أي:** المضروب بالحديد؛ حتى ينتفش ويتطاير، فالانتفاش يدل على أنه جاف وخفيف، وممزق الأوصال ولا ترابط بين أجزائه، **وتخيل**



الصورتين: صورة الجبال وقد وصفها الله بالرواسي والأوتاد؛ لتماسكها وقوتها وأنها تثبت الأرض، كيف وصفها الله سبحانه في هذا الموطن وقد ذهبت هذه الصفات العظيمة منها، وتحولت في ضعفها وتفتتها وتطاييرها إلى ما يُشبه الصوف المنفوش!!، وعندها يظهر لك الفرق بين الحالتين؛ بين جبال الدنيا الجامدة وبين وصفها وهي في الآخرة عند مجيء القارعة والساعة وأنها أصبحت كالصوف المتطايير، **وقارن بين قوله: ﴿كَالْفَرَّاشِ الْمَبْثُوثِ﴾** **وقوله: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾**، ما وجه التشابه بين هذين اللفظين: مَبْثُوثٌ وَمَنْفُوشٌ؟ الأفراد صاروا كحشرات منشورة، والجبال بصلابتها القوية وعظم حجمها؛ صارت كجزئيات منفوشة يابسة، وعبر هنا بالنفش لأنه فيه معنى اليبوسة، لأن الصوف إذا كان فيه أدنى رطوبة، أو أُصيب بشيء من الماء؛ تلبد وتماسك ولا يتطايير، وكل ذلك من بلاغة القرآن وإعجازه؛ حتى يتصور الإنسان من خلال معرفته بمدلولات هذه الألفاظ ذلك الموقف العظيم حين يقوم الناس بين يدي الله سبحانه وتعالى!

فهذان المشهدان: خروج الناس مبعثرين خائفين فزعين، كالفراش المَبْثُوث المتطايير التي تمشي في كل اتجاه، وتحول الجبال الراسية القوية إلى ما يشبه الصوف المنفوش الضعيف المتطايير في الهواء، وفائدة ذلك: بيان شدة أهوال يوم القيامة، وأن الإنسان يصبح فيها كالفراش التائه، تأخذه الريح يمينا وشمالا، ولا يدري أين يذهب، إلا من أخذ بطريق السلامة في الدنيا واهتدى إليها!!، ولذلك أشارت الآيات التي تليها إلى المخرج من هذا الفزع، وإلى ضرورة



التحول الإيجابي في حياة هذا الإنسان في الدنيا، فقد صور الله له حال القيامة، وأطلعته على ما يجري فيها، من أجل أن يستعد لها.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦)، **أي:** ثقلت الحسنات والأعمال الصالحة في كفة ميزانه الذي يُوزن به عمله، وجمع الموازين هنا مع أنه ميزان واحد؛ ليدل على تكثير أبواب الخير من الله تعالى للعبد باعتبار أن كل عمل يُوزن بمفرده^(١)، التوحيد، الصلاة، والصوم، والزكاة، وهكذا، فصار عندك عدة موازين، فإذا ثقلت هذه الموازين وهذه الأعمال وثقل أجرها وثوابها عند الله، فقد فاز وأفلح صاحبها، كما قال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، **أي:** ثقلت في باب الحسنات، فكان من الفائزين، وقد ثبت أن الوزن يوم القيامة يكون بميزان حقيقي له كفتان تُوزن فيه أعمال العباد^(٢)، **وقيل:** يُوزن فيه العبد مع عمله^(٣)، **والمقصود** ليس حجم العبد من دم وشحم ولحم، بل المقصود مكانته عند الله، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والذي يُوزن حقيقة هو عمله، كما في حديث البطاقة^(٤)، **وحديث:** "كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"^(٥)، **أي:** يوم القيامة أجرها ثقل، وكلها تدل على وزن العمل، فإذا

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٠٣/١٤).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٢٤/٥)، برقم (٢٦٣٩)، **وقال:** حسنٌ غريب.

(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٠٩/٧).

(٤) رواه أحمد، ط الرسالة (٤٠٣/٩)، برقم (٥٥٦٩)، وإسناده صحيح.

(٥) رواه البخاري (٨٦/٨)، برقم (٦٤٠٦).



كان -الإنسان- عمله صالحًا، ثقل به جسده، **كما في الحديث:** أن النبي ﷺ كان مع بعض أصحابه في إحدى الغزوات وبينما هم يستظلون تحت شجرة الأراك خرج عبد الله بن مسعود، فصعد تلك الشجرة، فمالت به أغصانها، وكانت الريح تأخذه مع الغصن يمينًا وشمالًا من شدة نحافته، والصحابة يضحكون، فقال النبي ﷺ: "أتضحكون من دقة ساقيه؟!، والله إنهما لترنان يوم القيامة أثقل من جبل أحد" (١).

وقوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧)، أي: فصاحبها قد فاز وأفلح ودخل الجنة، وانتقلت الآيات مباشرة إلى وصف حاله بعد أن دخل الجنة، ولم تصفه هو، بل وصفت عيشته، فإذا كانت العيشة التي هو فيها راضية، فكيف بصاحبها؟! **والمقصود بالعيشة هنا** المكان الذي يعيش به الإنسان، وهو الجنة، فصارت عيشته ومعاشه وموطنه كله رضا، فيشمل أن الله قد رضي عنه، وأن صاحبها قد رضي عنها وأن ما حوله كله رضا، كله سعادة!!

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨)، فجمع لفظ ميزان، هنا أيضًا لكثرة هذه المعاصي وتنوعها وأنها تُوزن أيضًا بانفراد الكفر والإجرام والزنا والسرقة، وغيرها، وهذا هو الصنف الثاني، فإن الناس يوم القيامة ينقسمون إلى صنفين: صنف المفلحين، وهم الذين لهم أعمال وحسنات كثيرة وطاعات عظيمة، تثقل بها موازينهم وترجح بهذه الأعمال؛ فيكونون من أهل الجنة، ويعيشون فيها عيشة راضية مرضية، **كما قال:** ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]،

(١) رواه أحمد، ط الرسالة (٧/ ٩٨)، برقم (٣٩٩١)، بنحوه، وقال المحقق: صحيح لغيره.



وصنف الخاسرين، خسروا الفلاح بسبب كفرهم وبعدهم عن الله سبحانه وتعالى، فشغلتهم الدنيا عن الآخرة، حتى جاؤوا يوم القيامة بلا حسنات، وبكثير من السيئات؛ فلما وُزنت أعمالهم؛ طاشت كفة الحسنات، وثقلت كفة السيئات، فترجَّح الميزان بالسيئات، فكان مصيرهم كما في قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ^(١)، وقد اختلف المفسرون في تفسيرها على أقوال، وكلها تدل على النتيجة السيئة المُرعبة المخيفة لصاحبها يوم القيامة، والعياذ بالله، فقال بعضهم: أن جهنم تحتضنه كما تحتضن الأم أولادها ^(٢)، وذلك لأن لفظ أم، لا يُطلق إلا على شيءٍ يحتضن أفرادَه ويشملهم كلهم، مثل لفظ: أم القرآن، الذي سُميت به الفاتحة؛ لأنها تشمل مُفردات القرآن كله، وسُميت مكة: أم القرى؛ لأنها تشمل القرى التي حولها، فهنا سُميت جهنم بأم للعصاة والكفار؛ لأنها تحتضنهم وتستقبلهم في قعرها، ولا يخرجون منها، وقال آخرون: المقصود بأمه هنا: أم رأسه ^(٣)، أي: أنه يسقط على أم رأسه، والمقصود بأم الرأس الدماغ؛ لأنه يحتوي على كل أجهزة الجسم، فلو حصلت لك ضربة في دماغك، لذهب السمع أو الصوت أو العين أو أي شيء من أجهزتك، أو صار عندك شلل في الأطراف، لأن محل أجهزة جميع الجسد موجودة في الدماغ، والمعنى: أنه سيسقط على أم رأسه، أي على دماغه في جهنم، والأول أرجح ^(٣)، ولا مانع من الجمع بينهما،

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٧).

(٢) المرجع السابق.

(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٥٣).



فجهنم أم للكفار تحتضن أجسادهم بعذابها، وسيهوي كل واحد منهم فيها على أم رأسه!! **ووصفت جهنم بأنها:** هاوية، لبعد المسافة بين فوهتها وقعرها، فقد جاء في الحديث: أن النبي ﷺ سمع وجبةً، أي صوتاً قوياً، فقال: "أتدرون ما هذا؟"، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا صوتُ حجرٍ أُلقي من شفير جهنم فما زال يتجرجل فيها سبعين خريفاً حتى وصل قعرها الآن" ^(١)، وهذا يعني أن المسافة بين شفير النار إلى قعرها سبعين سنة، ولفظ هاوية هنا مُناسبٌ لحال الشخص؛ لأن كل متبع لهواه سيوصله للهاوية!! فالمؤمن في الدنيا كان يمشي وفق أمر الله ورسوله، فقاده ذلك إلى عيشةٍ راضيةٍ في الآخرة، والكافر كان يمشي في الدنيا تبعاً لهواه، فأهوى به في قعر النار على أم رأسه، والعياذ بالله!!

ثم جاء السؤال لرسول الله، وهو لكل سامع بعده، عن وصفها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا

هِيَ﴾ (١٠) والمعنى: حتى لو وصفنا لك النار وما فيها؛ فلن تُدرك تفاصيلها؛ لشدة ما فيها من العذاب والسعير والألم، وأتى هنا بالهاء ويُسمونها هاء السكت؛ لكي تُظهر ما قبلها، وهو الياء، **مثل قوله: ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٣٩) [الحاقة: ٢٩]**، وهي تفيد مزيداً من البيان والوضوح والفخامة والتهويل للأمر الذي يُتحدث عنه، ثم بيّن له تفاصيلها، وأنها: **﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (١١)**، **قالوا:** إن النار في أصلها لا بد أن تكون حارة، فما فائدة أن أضاف عليها هنا لفظ: **﴿حَامِيَةٍ﴾**؟! **والجواب:** لتوكيد شدة حرارتها ^(٢)، حتى لا يتبادر إلى ذهن السامع أنها نار مثل نار الدنيا، فقد جاء

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٤)، برقم (٢٨٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٦٨).



وصفها في قوله ﷺ: "ما نارُكم التي توقدون إلى نار الآخرة، إلا كجزءٍ إلى سبعين جزءاً"^(١)، فنار الآخرة تزيد على نار الدنيا بتسع وستين مرة، مما يدل على عظمتها وشدتها وحرها، نسأل الله السلامة والعافية منها.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - هذه السورة، بتعبيراتها البليغة وألفاظها القصيرة؛ أعطتنا صورةً واضحة عن الدار الآخرة، وعن فزع الناس يوم القيامة، وانتشارهم كالفراش من شدة خوفهم وذعرهم، وعن ذوبان الجبال الراسية وتمزقها وأنها تصبح كالصوف المنفوش.

٢ - أن الله سبحانه وتعالى يقيم الموازين القسط يوم القيامة، فينقسم الناس إلى صنفين: صنف ثقلت موازينه بالحسنات وهم أهل الجنة، راضون مرضيون في عيشهم في الآخرة، وصنف خفت موازينهم من الحسنات، وهم أهل الكفر والفساد والإجرام، تتلفهم النار بحرها وسعيرها، وتحتضنهم كما تحتضن الأم ولدها.!!

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٤)، برقم (٢٨٤٣) بنحوه.



تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّىٰ ذُرِّمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧ ﴿﴾

شخصية السورة:

سورة التكاثر؛ سورة مكية^(١)، ترتبها في المصحف مائة واثنان، وآياتها ثمان آيات، **والمقصد الأعظم لهذه السورة هو:** وعظُّ الناس وتذكيرهم بالاهتمام بالآخرة، والاستعداد لها، وترك التنافس على الأموال والأولاد في الدنيا^(٢)، وقد ذكر بعض المفسرين أن السورة نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور للتفاخر بعدد الأموات^(٣)، وهو ضعيف.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ①، **ألهى،** فعل ماضٍ من اللهو، وغالبًا ما يُطلق اللهو على ما يتعلق بالقلب والنفس، ويطلق اللعب على ما

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت سلامة (٨ / ٤٧٢).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١ / ٦٠٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨ / ٤٥١).



يتعلق بالجوارح، وكاف الخطاب يدخل فيه كل من سمع الخطاب من مؤمن وكافر، وذلك لأن من طبيعة الإنسان حُب التكاثر، فقد غرس في فطرته الاستكثار من كل شيء يرغب فيه!!، **كما جاء في الحديث:** "فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى الثالث، ولا يُشبع جوفه إلا التراب"^(١)، فحب الإكثار من الخير صفة مُلتصقة بكل الناس، إلا أن المؤمن تتهذب لديه هذه الصفة وتعتدل؛ باعتبار أن الدين يُذكره بالآخرة، ويرشده إلى التقليل من الدنيا، والتكاثر من المُكاثرة، وهو صيغة تفاعل، ولا يكون التفاعل إلا بين اثنين وأكثر، **مثل:** تقاتل، وتضارب، ونحوها من صيغ التفاعل، **والمعنى:** يُكاثِرُ بعضُكم بعضًا، ويحاول بعضكم أن يكون لديه أكثر من غيره، أو يحاول الحصول على الكثير من الشيء، والألف واللام في التكاثر تُفيدُ الاستغراق **أي:** جنس التكاثر، والأصل في صفات الكفار أنهم يُعجبُهم التفاخر، ويُعجبهم التكاثر، كما جاء في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، حين قال لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، فهذه صورة من صور التكاثر، حينما تقول: أنا أكثر منك، سواء قلت: أنا أكثر منك علمًا، أو أكثر منك مَالًا، أو أكثر منك جاهًا أو سلطانًا أو عددًا أو قبيلةً، كله داخل في معنى التكاثر.

وفي هذه الآية أخبر عن التكاثر الذي هو صفة الفعل الذي يحصل بين طرفين، ولم يُخبر عن المُكاثَر به، بل أطلقه ولم يعيّن، فلم يقل: ألهاكم التكاثر بالمال، أو ألهاكم التكاثر بالولد، أو ألهاكم التكاثر بكذا، بل تركه مُطلقًا، وفائدة

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٥٦٩)، برقم (٢٣٣٧)، وقال الألباني: صحيح.



ذلك الإطلاق: ليُعم كل ما يُمكن التكاثر به قديماً وحديثاً، فقديمًا كانوا يتكاثرون بالأنعام ونحوها، واليوم يتكاثرون بناطحات السحاب والبنيات والسيارات، ونحوها.!!

وفي قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (٢) في معناها قولان: الأول: أنهم من تكاثرهم بأعدادهم وأفرادهم وحصروا الموجودين وذهبوا لزيارة القبور لكي يحصروا الذين في المقبرة من أصحابهم!!، وقد سبق الإشارة إليه.

والثاني: أنه عامٌّ، بمعنى: أن التكاثر بالدنيا مُستمرٌّ بينكم ومثله لكم؛ حتى يفجأكم الموت ويذهب بكم إلى المقبرة، لدفنكم فيها^(١)، **وسمي الدفن** في المقبرة زيارة؛ لأنه لن يبقى فيها المدفون دائماً، بل يبقى فترة محددة بحسب ما يشاء الله، ثم يخرج من المقبرة إما إلى الجنة وإما إلى النار، وفترة المكوث في القبور تسمى دار البرزخ، **أي:** دار انتظار بين دارين: دار الدنيا، ودار الآخرة التي أنت منتقلٌ إليها، فهي محطة في الوسط، وعبر هنا بـ(حتى) التي تفيد الغاية، بمعنى: لن ينقطع تكاثركم بالدنيا ولهوكم بها حتى تموتوا، وتُدفنوا في القبور، وهذا هو القول الراجح^(٢)، عند عامة المفسرين.

والمقصود بالتكاثر هنا: التكاثر المذموم، وهو التكاثر بالدنيا؛ لأن كلمة ألهي تدل عليه، إذ هو من اللهو، فإن التكاثر على نوعين: تكاثر مذموم، وجاء النهي عنه في قوله ^{صلى الله عليه وسلم} **"انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو**

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٩١-٧٩٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٧٣).



فوقكم، فهو أجدر أن لا تزددوا نعمة الله عليكم^(١)، وتكاثر ممدوح، والتكاثر الممدوح لا حرج فيه، بل قد رغب الله العباد فيه، كما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وذلك من أجل التنافس في أمور الآخرة، فانظر إلى من هو أكثر منك عبادة وطاعة، من أجل أن تتنافس معه، وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تنافس مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ففي يوم من الأيام حث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس على الصدقة والبذل، فقال عمر: أما اليوم فإني سأسبق أبا بكر، وذهب إلى المال الموجود لديه في البيت فقسمه نصفين، فترك نصفه لأهله وأتى بنصفه الآخر في صرة ووضعها بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: "ماذا تركت لأهلك يا عمر؟" قال: نصفه، فقال: "بارك الله لك فيه"، وجاء أبو بكر بصرة أخرى، فسلمها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: "ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟"، قال: تركت لهم الله، أي: أتى بالمال كله، فقال عمر: لن أنافسه بعد اليوم^(٢)!! فالتنافس في الخير مطلوب، كالتنافس في العلم ومن يحفظ أكثر، ومن يقوم الليل أكثر، من يتصدق أكثر، فهذا مشروع، وممدوح، فالدار الآخرة: جنات متنوعة ودرجات عالية، يتنافس من أجلها المتنافسون!!

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾، ثم حرف عطف يفيد التراخي وكلا، بمعنى: الزجر والردع، **والمعنى:** انزجروا عن التكاثر وعن اللهو به؛ لأنكم سوف تعلمون نتيجة وثمره لهوكم، وتصلح أن تكون بمعنى: حقاً، **والمعنى:** حقاً

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٥)، برقم: (٢٩٦٣).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٦١٤)، برقم (٣٦٧٥)، بنحوه، وقال الألباني: حسن.



سوف تعلمون ثمرة ونتيجة لهوكم، حينما تموتون؛ ينقطع الأجل وتزورون المقبرة.!!

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤)، هل التكرار هنا للتوكيد أم للتأسيس؟، فالتكرار يأتي لأحد معنيين: إما للتأسيس، وإما للتوكيد، فالتأسيس هو: إعطاء معنى جديد غير الأول^(١)، **والتوكيد:** يأتي لتأكيد المعنى الأول، **فقل:** للتوكيد، **وقيل:** للتأسيس^(٢)، وهو الراجح؛ بناءً على قاعدة: إذا جاء معنى يفهم من التأسيس أو التوكيد فالأولى أن يكون للتأسيس^(٣)؛ لأن زيادة معنى جديد أفضل من توكيد معنى سابق، فمعنى ذلك أن العلم سيكون مرتين **وفي مكانين مختلفين: الأول:** ستعلمون ذلك وأنتم في قبوركم، **والثاني:** ستعلمون ذلك وأنتم في المحشر.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾، تكررت ثلاث مرات في سورة واحدة، وتعني الردع والزجر، وهذا يدلنا على أن الموضوع الذي نتحدث عنه السورة خطير، وأن الانغماس في الدنيا بلغ من القلوب مبلغه، فردعهم الله عنه، المرة الأولى والثانية والثالثة، لعلهم يتنبهون!!

وقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (٥)، **مراتب العلم ثلاث:** علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، هذه كلها مراتب العلم، فذكر هنا اثنين، **والثالثة ذكرها في**

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو (٣٢٦/٢).

(٢) ينظر: الباب في علوم الكتاب (٧/٢٠، ٥١١/٤٧٨).

(٣) ينظر: الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٤/١٧١).



قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، والضمير يعود إلى عذاب جهنم، فما الفرق بين هذه الثلاث المراتب؟! **الجواب:** الترتيب من الأدنى إلى الأعلى: فعلم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، **فعلم اليقين:** أن يصل إليك خبر عن طريق السمع، كأن تسمع أو يُحدثك شخص ثقة معروف عندك لا تشك في كلامه، يقول لك مثلاً: عندي عسل درجة أولى، فصار عندك الخبر علم اليقين، ثم إذا قلت له: أرني هذا العسل، فأحضره وأراك إياه، فصار عندك الخبر عين اليقين؛ لأنك رأيته بعينك، ثم إذا أعطاك شيئاً منه فذقته؛ فقد صار عندك الخبر حق اليقين^(١)، فهذه هي مراتب العلم، وقد ذكرها الله في أمر النار، فأخبرهم عنها من خلال المُخبر، وهو النبي ﷺ الذي لا يكذب، فهذا علم اليقين، فإذا مات الناس وحُشروا وعُرضت عليهم جهنم، ورأوها بأعينهم، فهناك يكون العلم بها عين اليقين، فإذا دخلها الكافر وذاق حرارتها واحترق جسده فيها، فهناك يصيرُ علمه بها حق اليقين!.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿٦﴾، **اللام** لام القسم والنون للتوكيد **أي:** والله لتروُنَّ الجحيم يوم القيامة، وقد جاءت الأحاديث أن بداية رؤية الجحيم تكون في القبر، فالمؤمن يُفتح له طاقة إلى النار **ويقال له:** انظر إلى منزلك من النار لو عصيت الله، ولكن الله قد أبدلك بمنزلٍ آخر من الجنة، ويُفتح له طاقة إلى الجنة فيرى منزله، **فيقول:** رب أقم الساعة حتى أذهب إليه، وأما الكافر فيُفتح له طاقة إلى الجنة ويقال له: هذا منزلك لو أطعت الله، لكنك ضيَّعت، وقد

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٥٤).



أبدلك الله منزلاً غيره في النار، ويفتح له طاقة إلى النار فيراها، **فيقول**: رب لا تقم الساعة^(١)!! فهذه رؤية الجحيم قد صارت عين اليقين.

ولذا قال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(٧)، تؤكد لرؤيتهم لجحيم بأعينهم حقيقة، وفي آية الواقعة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٨) [الواقعة: ٩٥]، أي: بعد أن يصير أهل النار في النار ويدوقون حرارتها وعذابها؛ يصير العلم بها في حقهم يقيناً.

ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٩)، سيسأل الله الجميع؛ المؤمنين والكافرين عن النعيم، وهو جمع نعمة، ونعم الله لا تعد ولا تحصى، **كما قال:** ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١٠) [النحل: ١٨]، وكل هذه النعم مصدرها الله، **كما قال:** ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(١١) [النحل: ٥٣]، **وقد جاء في الحديث** أن النبي ﷺ، خرج جائعاً من بيته فلما مشى قليلاً، فإذا بأبي بكر يمشي فمشى معه قليلاً، فأروا عمر يمشي، فسألهم رسول الله: "ما الذي أخرجكما؟" قالوا: الجوع، يا رسول الله، فقال: "وأنا كذلك".

نعم رسول الله يخرج جائعاً!، ومعه وزيره أبو بكر وعمر، فبينما هما يمشيان إذ رآهم أبو الهيثم -رجلٌ من الأنصار-، وكان صاحب حائط وغنم، فلما رآهم عرف في وجوههم الجوع، فقال: لا أحد أسعد مني اليوم ضيوفاً، ثم استدعاهم إلى حائطه وأجلسهم تحت الظل وأعطاهم من عذق التمر رطباً فأكلوا منه، ونزع لهم من البئر ماءً فشربوا، ثم أخذ السكين، فقال له النبي ﷺ: "إياك والحلوب"، يعني: إذا كنت ستذبح لا تذبح الحلوب من الشياه، **أي: دع**

(١) رواه أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٥٠١-٥٠٢)، برقم (١٨٥٣٤)، قال المحقق: إسناده صحيح.



الحلوب يُستفاد منها اللبن، وكأنه لا يريدُه أن يتكلّف، وهذا من خلقه ﷺ، فذهب فذبح لهم شاة، ثم طبخها لهم، ثم أتى بها، فلما أكلوا وشربوا وشبعوا، قال **النبي ﷺ لصاحبيه: "والله لتُسألن يومئذٍ عن هذا النعيم" (١)**، سبحان الله!! على أكلة واحدة! ينبههم أن الله سيسألهم عنها!! ونحن كم وجبات نأكل؟! وكم مرات تشبع بطنونا؟!، وهذا يعني أن النعيم المسؤول عنه يعم كل النعم ويعم الجميع مسلمين وكفارًا، أما المسلم فيُسأل عن هذا النعيم سؤالًا ليس فيه تبكيت، وإنما سؤال تذكير، أعطيتك وأعطيتك!!، فيقول: نعم يا رب الحمد لله، فيقال له: ذاك نعيم الدنيا القليل، وأنت استغليته في طاعة الله، فادخل الجنة التي فيها النعيم المقيم، فيكون السؤال تهيئة لنعيم أعظم، وأما بالنسبة للكافر فهو سؤال تقريع، فيقال له: نعمة كذا ونعمة كذا استغليتها في معصية الله، **ثم يقال له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُخْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]**، فيتجرع عذاب الإهانة؛ لعدم شكره للنعمة، نسأل الله السلامة والعافية.

وعلى ضوء ذلك ينبغي للمسلم أن ينتبه لهذا جيدًا، فإذا أعطاه الله نعمة، فلا مانع أن يستفيد منها، ولكن يؤدي حق الله فيها، فالصحة نعمة فاستغلها في طاعة الله، والمال نعمة فاستغله في طاعة الله، والقوة والشجاعة نعمة فاستغلها في طاعة الله، وهكذا... فمن استعمل نعم الله في معاصي الله فهذا هو الكفر بالنعمة، **كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]**، فالمسلم ينبغي أن ينتبه لهذا

(١) رواه مسلم (٣/١٦٠٩)، برقم (٢٠٣٨).



وَيَتَّعِظْ، وَلَا مَانِعَ أَنْ تُظْهَرَ آثَارُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَتَغَطَّرَسَ أَوْ تَتَكَبَّرَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، بَلْ أَظْهَرَهَا عَلَى سَبِيلِ الشُّكْرِ، وَوَسَّعَ عَلَى نَفْسِكَ، وَاجْعَلِ النِّعْمَةَ تُظْهَرُ عَلَيْكَ فِي شَأْنِكَ كُلِّهِ، بِدُونِ كِبَرٍ وَلَا خِيَلَاءٍ!!

فوائد وهدايات من السورة:

١ - هذه السورة مع قصر آياتها، إلا أنها موعظة بليغة كاملة للإنسان، سواء كان مؤمناً أو كافراً كيف يشغل وقته في هذه الدنيا؟، وكيف يبتعد عن التكاثر المذموم؟، وكيف يشتغل بالتكاثر الممدوح؟، وكيف يحذر من أن يقع في النار التي وصله العلم بها وترقى من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين؟، وكيف يتعامل مع نعم الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا ويستغلها في طاعة الله حتى لا يندم حينما يفارقها، فيشكرها وتظهر عليه بدون تكبر؟

٢ - أن الإنسان الكافر يتذكر النعم التي كان يتمتع بها في الدنيا، حين يُقذف في النار، فيقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩) [الحاقة: ٢٨-٢٩]، فالسلطان نعمة، والجاه نعمة، والمال نعمة، والأولاد نعمة، والصحة نعمة، فهلاً استغلتيها أيها المسلم فيما ينقذك من النار ويرفع درجاتك في الجنة، وإلا فستندم وتتمنى وتقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤) [الفجر: ٢٤].



تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ .

شخصية السورة:

سورة العصر؛ سورة مكية في قول جمهور العلماء^(١)، عدد آياتها ثلاث آيات، فهي قصيرة في المبنى، ولكنها طويلة وعظيمة في المعنى، **والمقصد الأسمى من هذه السورة هو:** بيان أسباب النجاة من الخسارة، والتنبيه على أهمية الوقت الذي يعيشه الإنسان^(٢).

وقد جاء عن الشافعي، رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قال: لو تدبّر الناس هذه السورة لكفّتهم^(٣).

وجاء أن عمرو بن العاص زار مسيلمة الكذاب، بعد بعثة النبي ﷺ، وادّعاء مسيلمة النبوة، فقال له: ماذا أنزل على صاحبكم من القرآن؟! وكان عمرو آنذاك

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨٧).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠١).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٣٤).



ما زال كافراً، فقال: نزلت عليه سورةُ العصر، فقرأها عليه، فقال مسيلمته: أما أنا فقد نزل عليَّ سورةُ الوَبَر: يا وَبْرُ يا وَبْرُ، إنما أنت أذنانٌ وصدرٌ، ثم قال لعمرُو ما رأيكَ بهذا؟ فقال له عمرو بن العاص: والله إنك تعلم أني أعلم أنك كاذب^(١)!! سبحانه الله، لم يقبل عمرو مع كفره من مسيلمته هذا الهُراء الذي لا معنى له، والوَبَر حيوان يُشبه الهر، وهو كما وصفه أذناه واسعتان وصدره واسع وباقي مؤخرته ضعيفة جداً.

علاقة سورة العصر بالسورة التي قبلها :

سورة العصر جاءت في الترتيب بعد سورة التكاثر، والتي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها حال الإنسان المضيق للآخرة المشغول بالتكاثر والتنافس حتى يزور المقابر، وفي هذه السورة ذكر الله الإنسان الفائز الذي لم يخسر، وبيّن صفاته، ففي سورة التكاثر ذكر صفات الخاسرين، وفي هذه السورة ذكر صفات الفائزين، فكان السورتين تكمل إحداهما الأخرى، والله أعلم.

وقد بدأت السورة بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ، **الواو** حرفُ قَسَمٍ، والعصر مُقَسَّمٌ به، وهو: الزمن، وهو مأخوذ من قولهم: عَصَرَ الشيء يعصِرُه عصراً، بمعنى ضغطه واستخرج ما فيه من سائل^(٢)، **وسمي الدهر** عصراً؛ لأنه يعصِرُ أهله^(٣) بالابتلاء والمحن حتى يخرج منهم: الطيب بالإيمان والتقوى والعمل الصالح،

(١) ينظر: البداية والنهاية ط إحياء التراث (٣٥٩ / ٦).

(٢) ينظر: العين (٢٩٧ / ١).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (١١ / ٢).



والسيء بالكفر والمعاصي، فكما يكون حال ثمرة الليمون التي تُعصر بين يديك، فيخرج منها العصير الطيب، ويبقى منه القشر الذي ترمي به لعدم قيمته، وسواء كان القسم بالاسم أو بالمصدر، فالنتيجة واحدة، لكن يرى بعض أهل العلم: أن القرآن يُفسَّر بالعادة المُطَرَّدة من الاستعمال^(١)، **والاطراد في النص القرآني هو: القسم بالأسماء لا بالمصادر، ثم اختلفوا في تعيين هذا الزمن، فقال بعضهم: العصر: الزمن كله الذي خلق الله فيه الكون والحياة، وسيبقى إلى أن تقوم الساعة.**

وقال آخرون: المقصود بالعصر وقت صلاة العصر^(٢)، فإن الله أقسم بالضحى وهو مقدمة النهار، وأقسم بالعصر وهو الشيء الأخير من النهار.

وقال آخرون: بل هو قسمٌ بعصر النبي ﷺ، أي: بالزمن من بعثته إلى أن تنتهي أمته^(٣).

وقال آخرون: بل القسم هنا صلاة العصر^(٤)، فحُذف المُضاف وأُتي بالمُضاف إليه مكانه، وأقسم بصلاة العصر؛ لمكانتها، وهي الصلاة الوسطى، المذكورة في قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، **فقد جاء في الحديث النبوي تفسيرها: أن الصلاة الوسطى هي: صلاة العصر^(٥)؛ لأنها تأتي**

(١) ينظر: الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير (ص: ٢٧٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٢٣٦).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/٤٥٨).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٨٧).

(٥) ينظر: صحيح البخاري (٤/٤٣)، برقم (٢٩٣١).



في الوسط بين أربع فرائض: الفجر والظهر، والمغرب مع العشاء، وهي في الوسط، **ورجع الإمام ابن جرير، رَحِمَهُ اللهُ،** أن العصر هو: الدهر^(١) كله، وهو كما قال.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾^(٢)، هذا جوابُ القسم، والمقصود بالإنسان هنا جنس الإنسان، فالألف واللام للاستغراق، وهل يدخل في هذا اللفظ الجن باعتبار أنهم مكلفون؟!، الجواب: من حيث اللغة لا يدخل؛ لأن لفظ الإنس يُطلق على من يُؤنس به، وهم بنو آدم، حيث يمكنك الجلوس معهم وتراهم ويرونك، وتتصاحب معهم^(٢)، أما الجن فلا يُؤنسون، بل الصفة العامة لهم هي صفة التخفي، فإن الجن ما سُموا جنًّا إلا لاختفائهم، ولكن لا مانع أن يكون بين الجن أنفسهم تآلف وتأنس، فهم كذلك قبائل وشُعوب وأُمم مثل الإنس، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ فِدْدًا﴾^(١١) [الجن: ١١]، فيكون عموم الإنس هم المقصودون، ويدخل في عموم الحكم الجن أيضاً، لأنهم مكلفون، ويشمل جنس الإنسان سواء كان مُسَلِّماً أو كافراً، ومثله في جنس الجن، فإن كان كافراً فتنطبق عليه الخسارة الكلية، وإن كان مُسَلِّماً فسيكون عنده خسارة جزئية بحسب حاله، فالخسارة الكلية أو المُطلقة لمن كان على الكفر، ولم تتحقق لديه الصفة الأولى، وهي الإيمان، كما قال: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١٥) [الزمر: ١٥]، فالإنسان

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٥٨٩ / ٢٤).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (٦١ / ١٣).



الكافر يخسر نفسه ويخسر أهله يوم القيامة، وهذا هو الخسران المبين، وتكون الخسارة جزئية في حق المؤمن إذا قصر في بعض هذه الأمور الأربعة، ولذلك تتفاوت درجات الناس في الآخرة بحسب أعمالهم، ونكر كلمة ﴿خَسِرَ﴾، ليفيد التعميم، أي: أن خسارته عامة تشمل الدنيا والآخرة، وتشمل أحواله كلها، واحتوت الآية على عدد من المؤكدات وهي: إنَّ، والألف واللام في (الإنسان)، ولام (لفي) والتنكير في (خسر) ليؤكد للقارئ أن الوضع خطير جداً وعبر كذلك بـ(في) التي تفيد الظرفية، وتعني داخل الشيء، والمعنى: أن هذا الإنسان داخل في عمق الخسارة وليس في ظاهرها، فالخسارة عميقة ووصل الشخص إلى عمقها، وهذا الوصف في الحقيقة مخيف جداً، واستُخدمت فيه كما يقول علماء البلاغة أسلوب الخطاب السلبي، وهو عكس أسلوب الخطاب الإيجابي، فالخطاب الإيجابي أن يقول الله: والعصر إن بعض الناس لفي ربح، فهذا أسلوب إيجابي، وهنا قال العكس، فحكم على الجميع بالخسارة.

ثم استثنى المفلحين من هؤلاء الخسرانين، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والاستثناء من أساليب تخصيص العموم، والتخصيص ليس نسخاً، فالأصل أن يبقى النص مُحكمًا، وأن بني الإنسان كلهم في خسارة ولكنه استثنى منهم هؤلاء، والقاعدة النحوية المعروفة: أن المُستثنى أقل من المُستثنى منه، فلا يصح مثلاً أن تقول: أعطيتك ثمانية ريال إلا عشرة ريال، لأن الاستثناء لا بد أن يكون من الكثير، فتقول: أعطيتك عشرة إلا خمسة، فلو أعملنا القاعدة النحوية في هذا الاستثناء؛ فسيكون الفائزون أقل من الخاسرين، وقد ورد ما يدل على ذلك من



السنة النبوية، **ففي الحديث** أن الله سبحانه وتعالى يقول لآدم: "ابعث بعث النار، قال: وما بعثُ النار؟ قال: ابعث من ذريتك من كل تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة"، فانظر كم نسبة الخسارة وكم نسبة الفوز، فلما سمع ذلك أصحاب رسول الله ﷺ استغربوا!!، فقال لهم: "ما أنتم في أهل يأجوج ومأجوج إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو الأحمر"^(١)، بمعنى اطمأنوا، فواحد في الألف من الناجين سيكون منكم، وتسعمائة وتسعة وتسعون هالكون وسيكونون من قوم يأجوج ومأجوج الكفار، ولذلك خف عليهم الأمر، وذهب منهم اليأس والقنوط، والمُستثنى من الخسارة من اتصف بهذه الصفات الأربع، ولذلك سماها أهل العلم قوارب أو شروط النجاة، **فالناس كلهم في خسارة إلا من توفرت فيه أربعة شروط وهي:**

الأول: الإيمان بالله، وهذا الشرط يطول فيه الحديث، إذ هو يتعلق بكل تفاصيل الإيمان، وأركانه الستة وما يتعلق بها، سواء فيما يتعلق بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأقسام التوحيد وأنواعه وما يناقض التوحيد من الشرك والنفاق أو ينقصه من الرياء ونحوه، أو غير ذلك مما يتعلق بالإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر والقدر، ونحوها، كل هذا يدخل في موضوع الإيمان، بمعنى أن جميع أعمال القلوب الخفية هي مُكون للإيمان من التوكل واليقين وحسن الظن وغير ذلك، ويدخل في الإيمان بالله الإيمان برسوله فإنهما قد أصبحا شيئاً واحداً، لا يُقبل إيمان إنسان حتى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله

(١) رواه البخاري (٩٧ / ٦)، برقم (٤٧٤١) بنحوه.



وأشهد أن محمداً رسول الله، وقد سبق أيضاً أن من ضمن مفردات الإيمان، الإيمان بالرسول، ليس محمد صلى الله عليه وآله وسلم لوحده بل بجميع الرسل، فمن كفر برسول؛ فقد كفر بسائر الرسل، ومن كفر بكتاب واحد؛ فقد كفر بسائر الكتب، فهذا هو الشرط الأول وهو تحقيق الإيمان، والإيمان ليس ادعاء ولا مجرد تلفظ باللسان، **قال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل^(١). ولذلك كان تعريف الإيمان الصحيح أنه: قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. قول القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح، فقول القلب: التصديق، وعمله: الإخلاص، وقول اللسان: النطق بالشهادتين، وعمل الجوارح: امتثال الأحكام، وتنفيذ التكاليف والطاعات.

الشرط الثاني: قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وتجد في القرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً جداً بين الإيمان والعمل الصالح، مما يدل على التلازم، وقد ورد في القرآن أكثر من سبعين آية جمعت بين الإيمان والعمل الصالح، **والمعنى**: أنه لا ينفع إيمان بدون عمل صالح، ولا ينفع عمل صالح بدون إيمان، والمفهوم الشامل للعمل الصالح هو الذي يشمل البعد الديني، فيدخل أول شيء فيه العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وبر الوالدين وغير ذلك، والبعد الدنيوي الذي فيه خير للبشرية، فيدخل في مفهوم العمل الصالح كل ما يُصلح حال الناس، من علم الطب الذي يعالج الناس به وعلم الهندسة الذي تُشيد به المباني

(١) ينظر: شعب الإيمان (١/١٥٩)، برقم (٦٥).



وعلم الزراعة واستصلاح الأراضي، وإمالة الأذى عن الطريق، كل ذلك ونحوه من العمل صالح، وضده العمل القبيح مثل الشرك والكفر والنفاق، وسرقة الأموال وقتل الأنفس، وانتهاك الأعراض، فهذا كله يُسمى عمل غير صالح، كما قال الله في ابن نوح: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] فجعل الابن كله بسبب كفره عملاً غير صالح؛ أو على **قراءة أخرى**^(١): ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرَ صَالِحٍ﴾، لأنه كفر وذهب مع الكفار، ولا يصح أن يحصر العمل الصالح بإصلاح الدنيا فقط، فتسمع بعض الناس يقول: انظر اليابانيين ماذا فعلوا من جسور ومن قصور ومن سيارات ومن اختراعات، وأنتم مشغولون بالصلاة والصوم والذكر والحج، ونحوها، فهؤلاء هم من عمروا الأرض، وهم الناس الصالحون، وأنتم أيها المسلمون لا يوجد معكم إلا الكلام، وكلكم فاسدون في أعمالكم متخلفون في بلادكم لا إنجاز ولا إنتاج!!!

ورداً على هذا الكلام نقول: إن الأصل في العمل الصالح أول ما يتبادر هو أن تصلح علاقتك مع الله، وما يُصلح آخرتك، ثم تعمل ما يُصلح علاقتك بالخلق وما يُصلح دُنياك، فهذا هو المفهوم الشامل للعمل الصالح الذي يشمل صلاح الدنيا والآخرة، وتكون العناية بصلاح الآخرة في مقدمة اهتمام العبد، لأنها هي الحياة الحقيقية له، أما الدنيا فغايتها ستون أو سبعون سنة ويموت، فلا تُضيع عمرك في حياة مدتها سبعون سنة وبعدها تذهب إلى الجحيم وهناك تمكث فيها آلاف السنين، كما قال: ﴿لَبِثَينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] في عذاب

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة (٤/ ٣٤١)، وهي قراءة الكسائي.



وحريق، والعياذ بالله.

الشرط الثالث المذكور في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، فمن آمن وعمل صالحًا، فقد أصلح نفسه، وبقي عليه أن يسعى في إصلاح غيره، فالإسلام لا يكتفي من الفرد بإصلاح نفسه فقط، بل لا بد أن يصلح ويصلح غيره، **والتواصي: صيغة تفاعل بين طرفين، يعني: تُوصني وأوصيك، باعتبار أن عندي نقصًا، وعندك نقصًا، فكلُّ منا ينصح الآخر؛ ليكمل النقص الذي لديه؛ ف"المؤمن مرآة أخيه"**، كما في الحديث^(١)، والحق إذا أُطلق يقصد الصواب والخير، فليس فيه شر، وليس فيه باطل، كما قال: **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾** [يونس: ٣٢]، فالحق يشمل: الحق في الدين، وأعظمه التوحيد، فالشرك ليس بحق، والنفاق ليس بحق بل باطل، ثم أداء العبادات كما شرع الله فهي حق، والبدعة فيها من الباطل، وهكذا... فالحق هو كل ما كان صوابًا من أمور الدين، وأمور الدنيا، وأمور الأخلاق، وأمور الأعراف والعادات الحسنة، ومطلوب من كل مسلم التواصي به حتى ينتشر العمل به وتقل مخالفته وينعم الجميع بآثار ظهوره وغلبته.

الشرط الرابع: المذكور في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فإذا آمنت وعملت صالحًا ووصيت نفسك وغيرك بالحق، فلن تسلم من الأذى، ولن يقبل الحق منك كل الناس، فالرسل جاؤوا بالحق ورفضه أقوامهم، وآذوهم؛ فتحملوا وصبروا على تكذيبهم وأذيتهم، وهكذا يجب على أتباع الحق أن يبلغوه ويصبروا على التكذيب والأذية لهم، وقد قرن هنا بين التواصي بالحق

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد: (ص: ٩٣)، برقم (٢٣٨)، وقال الألباني: حسن.



والتواصي بالصبر؛ إشارة إلى ضرورة أن تصبر على الأذى الذي يحصل لك أثناء نشر الحق، والعمل به، ويشمل التواصي بالصبر أنواعه الثلاثة، وهي: الصبر عن معاصي الله، والصبر على طاعة الله، والصبر على الابتلاءات والمصائب، وفي سورة أخرى قرن الأمر بالتواصي بالصبر، بالتواصي بالمرحمة، كما في قوله:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، **فصار عندنا ثلاثة أنواع من**

التواصي: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، والعلاقة بين هذه الثلاثة واضحة، فما دام أنك ستوصي غيرك بالحق، والحق غالباً مرّ لا تقبله النفوس، فسيوجد من يؤذيك، فتحتاج إلى أن تتواصى مع أخيك بالصبر حتى يظهر هذا الحق، وأثناء التواصي بالحق والتواصي بالصبر ستضيق النفوس وتشتد، فتحتاج إلى الرحمة من أجل أن تزول الشحنة، فكما تريد أن تحرك تروس مكيعة لتشغيلها بكل سهولة؛ فلا بد أن تضع لها قليلاً من الزيت، فالرحمة هنا بمثابة الزيت الذي يلين النفوس ويسهل التعامل معها بدون مشقة!!، والتعبير بالتواصي مأخوذ من الوصية التي تتم قبيل الموت، وفيه معنى الوداع، ففيه إشارة إلى قرب الرحيل والمفارقة لغيرك، فاترك له أثراً طيباً في نفسه، والحقيقة أن الجميع على سفر في هذه الدنيا، فعلينا بالتواصي قبل الرحيل، فربما لا نلتقي، وفيها كذلك معنى الرقة والهدوء، فلا تنصح غيرك بطريقة خشنة، فلا يقبل منك، فالوصية في الغالب تكون بأسلوب هادئ وسهل.



فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن هذه السورة كافية للناس؛ لو تدبروا ما فيها.
- ٢- أن الإيمان يشمل: جميع تفاصيل الإيمان، وأن العمل الصالح يشمل: جميع تفاصيل العمل الصالح، من عبادات وطاعات، وأي عمل فيه صلاح للبشرية ولالأمة.
- ٣- أن التواصي بالحق؛ مطلوب من أجل أن ينتشر هذا الحق ولا يضيع، ولا يكتفي الإنسان بصلاحه وحده، بل لا بد أن تكون له نية في إصلاح نفسه وغيره، وبهذا يصلح المجتمع، وتصلح الأسرة، ثم الأمة والبشرية كلها.
- ٤- أنه لا بد من التواصي بالصبر لأن التواصي بالحق سيؤدي إلى وجود أذية من المخالفين، فلا بد أن يُوصي بعضنا بعضًا بالصبر على ذلك.
- ٥- أنه أثناء التواصي بالحق وبالصبر على الأذى، قد توجد نوع من الحزازات في النفوس وتظهر الآلام والمشقة، فلا بد من التراحم، وإعمال الرحمة في هذا وذاك حتى تسير الأمور في انسيابية وسهولة؛ فتستقر الحياة ويتقبل الناس دين الله سبحانه وتعالى، ويفوزون بالربح والفلاح، وينجون من الخسارة والهلاك.



تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُجُورَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ .

شخصية السورة:

سورة الهمزة؛ سورة مكية^(١)، نزلت قبل الهجرة، وتتصف بالصفات التي يمتاز بها القرآن المكي من قصر الآيات وقلة عدد آياتها، إضافة إلى حديثها حول قضية لها علاقة بالإيمان والاستقامة وصلاح النفوس، **ومقصدها الأعظم هو:** التحذير من الاستهزاء بالمؤمنين سواء كان ذلك باللسان أو بالجوارح.

وجاءت هذه السورة في الترتيب بعد سورة العصر، التي ذكر الله فيها صفات المؤمنين الناجين من الخسارة، وذكر هنا صفات الخاسرين، وهم أصحاب الأخلاق السيئة وأصحاب المال مع قلة إنفاقه، وعدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨ / ٤٨١).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢ / ٢٤٣).

وقد أفتتحت سورتان في القرآن بلفظة "ويل": الأولى سورة المطففين، والثانية هذه السورة، ففي الأولى تهديدٌ ووعيدٌ للذين ينتقصون المكيال والميزان، وفي هذه تهديدٌ ووعيدٌ للذين ينتقصون الأعراس!

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١)، المقصود به الوبال الشديد، الويل هو الوبال الشديد، وهو في الحقيقة دعاءٌ بالهلاك على من تحققت فيه الصفات المذكورة بعده، فالويل هو الشدة، والعذاب، وقد قيل: وإِ في جهنم لو سُيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره (١)، ولكن اللفظ في اللغة أعم من أن يُحصر باسم وإِ في جهنم، فيشمل ما سبق كله، وجاء بصيغة الرفع على أنه مبتدأ وهو أقوى من أن يكون على النصب؛ لأن الاسم المرفوع أقوى في الدلالة والاستمرار من الاسم المنصوب، ومثله في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]، وقد قيل: كيف يرد التحية بمثلها وهو نبي، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]؟!، والجواب: أن قوله: ﴿سَلَامٌ﴾ أبلغ من قولهم: ﴿سَلَامًا﴾، لأن الرفع أقوى من النصب، فتحققت الزيادة، في قوله على ما قالوا له (٢)، كما لو قال لك شخص: السلام عليكم فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله، فتكون قد رديت التحية بأحسن منها امتثالاً للأمر، وهذا الويل مُوجه لكل هُمَزَةٍ، وفي معناه عدة أقوال (٣)، منها: اللمز بالجوارح، والهمز

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٢٧٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٨/ ١٧٥).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨٨).



باللسان، **وقيل**: إن الهمز بالجوارح، واللمز باللسان، **ويشهد لذلك قوله تعالى**: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩] ومعروف أن ذلك كان في المنافقين بالكلام، فقد كانوا إذا رأوا مُتصدقاً بصدقة كبيرة، قالوا: مُراءٍ، وإذا تصدق بقليل. **قالوا**: هذا بخيل، ما يفعل الله بصدقتك هذه، فيلمزونه **أي**: يسخرون منه ويطعنون فيه بألسنتهم ويتحدثون عنه فيما بينهم، **وقيل**: **الهمز**؛ الطعنُ في الشخص في غيابه، **واللمز**؛ الطعنُ فيه بحضوره، **وقيل**: العكس، **وقيل**: الهمز واللمز، العيابُ والغيابُ: تعيُّه تطعن فيه، وتغتابه، وقد وصف الله سبحانه وتعالى بعض الكافرين مثل الوليد بن المغيرة وغيره كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِنَ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١]، فوصفه بأنه هماز، **أي**: أنه يعيب في رسول الله ﷺ ويطعن فيه، والراجح: أن معنى الهمزة اللمزة؛ هو ذكر الشخص بعيبٍ والاستهزاء به سواءً كان ذلك في حضوره أو في غيابه، في شكله أو في لبسه أو حركته أو وضعه، أو ذكره بما ليس فيه^(١).

وقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾، هذا وصف آخر له، فهو سيء الأخلاق، وسيء الظن بالناس، يطعن في هذا، ويتكلم في عرض هذا، ويحقدُ على هذا، ويحسدُ هذا، فأخلاقه سيئة، وتربيته رذيلة، وسلوكه مشين، وتعاملاته مع الآخرين قبيحة، وهو أيضاً جُموعٌ للمال بخيلٌ في إنفاقه، ولكثرة ماله فقد انشغل بعده، لأن المال القليل لا يُعد، فانشغل بعده في الليل، كما انشغل بجمعه في النهار، ونكّر المال هنا ليدل على أن هذا الشخص حريص على جمع المال من

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٨٤).



حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، فَهَمُّهُ الْأَكْبَرُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى الْمَالِ بِأَيِّ سَبَبٍ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَبَ الْحَرَصِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٣)، أَي: يَظُنُّ
أَنْ هَذَا الْمَالُ الَّذِي يَجْمَعُهُ؛ سَيَجْعَلُهُ خَالِدًا فِي الدُّنْيَا وَلَنْ يَمُوتَ، وَهَذَا ظَنٌّ بَاطِلٌ
مُخَالَفٌ لِلْوَقْعِ، فَإِنْ كَلَّامٌ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ يَمُوتُ، بَلْ رُبَّمَا يَمُوتُ الْغَنِيُّ قَبْلَ
الْفَقِيرِ بِسَبَبِ هَمِّهِ فِي جَمْعِ الْمَالِ وَالْإِهْتِمَامِ بِهِ، وَالْوَقْعُ أَنَّهُ لَا يَخْلُدُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا، فَهَذَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِمَامُ الْمُتَّقِينَ وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ قَدْ مَاتَ، **كَمَا قَالَ:**
﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْنَا فِانٍ﴾ (٦) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) [لرَّحْمَنِ: ٢٦-٢٧]، فَهُوَ
الْحَيُّ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَمُوتُ سُبْحَانَهُ، أَمَّا الْخَلْقُ فَكُلُّهُمْ يَمُوتُونَ، وَهَذَا الظَّنُّ
السَّيِّئُ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِ بِحَقِيقَةِ الْحَيَاةِ، وَجَهْلِهِ بِحَقِيقَةِ مَنْ يَمُنَّحُ
الْعُمُرَ وَمَنْ يَأْخُذُ الْأَرْوَاحَ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَلَا عِلَاقَةَ لِلْمَالِ وَلَا لِلْإِسْلَامِ وَلَا
الْعِبَادَةِ وَلَا الْحَسَبِ وَلَا النَّسَبِ بِذَلِكَ!!

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (٤)، كَلَّا، حَرْفُ رَدٍّ وَزَجْرٍ، تَبْطُلُ مَا
قَبْلُهَا مِنْ كَلَامٍ، فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي ظَنَّ أَنَّ الْمَالَ سَيُخْلِدُهُ، **فَقِيلَ لَهُ: ظَنُّكَ هَذَا**
بَاطِلٌ، فَالْمَالُ لَيْسَ سَبَبًا لِلْخُلُودِ، وَالنَّبْذُ، هُوَ الطَّرْحُ بِشِدَّةٍ ^(١)، وَفِيهِ مَعْنَى الْإِهَانَةِ
وَالْإِذْلَالِ وَالْكُرْهِ، **وَالْمَعْنَى: لَيُنْبَذَنَّ هَذَا الشَّخْصُ الَّذِي جَمَعَ الْمَالَ وَعَدَّدَهُ مَعَ**
سُوءِ أَخْلَاقِهِ مَعَ الْخَلْقِ، فَيُطْرَحُ وَيُرْمَى بِشِدَّةٍ، وَفِي قِرَاءَةِ: (لَيُنْبَذَنَّ) ^(٢)، أَي: هُوَ
وَمَالُهُ فِي النَّارِ.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (٤/ ١٥٢).



وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾، هذا التعبير يفيد التهويل والتفخيم والتعظيم، ويلفت انتباه السامع إلى الشيء الذي يُريد أن يخبره عنه، ما عظُمته؟! وما شأنه؟! وما حجمه؟! وما خطورته?!.

ثم بين ما هي الحطمة، فقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾، **فالحطمة** اسمٌ من أسماء النار، **وقيل:** دركةٌ من دركات النار، **وقيل:** فُوهُ النار، وُسِّيت بالحطمة؛ لأنها تحطِمُ من يُلقى فيها^(١)، **أي:** تكسر عظامه، وتخلخل أضلأعه، والتحطيم هو ضرب الشيء حتى يتقطع ويتمزق، **وقد جاء في الحديث:** "شر الرُّعاة الحُطْمَةُ"^(٢)، **والرُّعاة** جمع راعٍ، وهو الذي يرعى الأنعام ويتعامل معها بشدة، وهو مثلٌ ضربه الله لرعاة الأنعام، ويدخل فيه كل من يرعى حقاً من حقوق المسلمين فيشق عليهم، وأضاف النار إلى نفسه للتعظيم، فإن النار تكون شديدة الحرارة قوية كبيرة بقوة وشدة وعظمة من أوقدها، فلما نقول: نار الكبريت، ستكون قيمة هذه النار إلى عود الكبريت، ولكن لما نقول: نار البراكين، نسبة هذه النار إلى البركان، فلما أُضيفت إلى الله؛ المقصد منه تعظيمها، فالذي أوقدها هو الله العظيم ذي القوة والجبروت سبحانه وتعالى، فإذن لا تسأل عن شدتها وعظمتها وحرارتها وأثرها في من يُلقى فيها، ووصفت بأنها مشتعلة لا تنطفئ.

وهنا مسألة تناقش فيها العلماء: هل تفتنى النار؟! الصحيح أن نار الكافرين لا تفتنى، وأنها تستمر بالاشتعال، وهم لا بشين فيها أحقاباً أبد الآبدين، وإن كان

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٨٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٦١)، برقم (١٨٣٠).



من فناء للنار؛ فهو خاصٌ بالنار المُخصصة للعصاة الذين يدخلون فترة مُحددة ويتطهرون فيها بسبب معاصيهم وعندهم أصل التوحيد والإيمان؛ فيخرجون منها، فتنتفي نارهم.

وقوله: ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۖ﴾، أي أن هذه النار المشتعلة؛ إذا أُلقي فيها الأشخاص الذين يستحقون العذاب؛ فإنها تحرقهم وتحطم أعضائهم، ويصل حريقها ووقودها وشدة حرها إلى سُويداء قلوبهم، وهي الأفئدة، وذكر الفؤاد لأنه حساس جدًا في الآلام وفي المشاعر، ووصول النار إلى الأفئدة، علامة على نضج الجلود واللحوم، ثم يبدلون غيرها، **كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ﴾** [النساء: ٥٦]، فلا يموتون، **كما قال: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۗ﴾** [الأعلى: ١٣]، **وقال بعض أهل العلم: إن النار يمنحها الله سبحانه وتعالى قدرات فتطلع وتنظر في فؤاد صاحبها ماذا عنده من جرائم كانت موجودة في قلبه في الدنيا، فيُعطيها الله من العذاب والعقاب على ضوء نسبة تلك الجرائم والمعاصي^(١)، فيكون معنى تطلع: تنظر في مقدار ما يستحق صاحبها من العذاب، ولذلك يتفاوت عذاب الكفار والعصاة في جهنم بحسب ذنوبهم، كما تتفاوت درجات ونعيم أهل الجنة بحسب حسناتهم، وهو قولٌ وجيه.**

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ ۗ﴾، أي أن النار تكون مغلقة على أهلها الذين اتصفوا بهذه الصفات، موصدة وموصدة، كلاهما بمعنى واحد، **أي: مطبقة عليهم من جميع الجهات، أو مغلقة عليهم، من أوصد الباب إذا أغلقه،**

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٦٢).



وفائدة قفل الأبواب على من أدخل النار؛ إشعارهم باليأس والإحباط والقنوط، فلو بقيت الأبواب مفتوحة لحصل عنده أمل في الخروج.

ثم ختم هذه السورة، بقوله: ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ٩ ﴾، العَمَدُ والعُمْدُ جمع عمود، وهو الشيء الطويل يقوم عليه غيره، والمقصود بها هنا الأعمدة تُغلق بها الأبواب بإحكام، حيث يوضع خلف الباب عمود ممدود بحيث لا يمكن أن يُدفع الباب بسهولة، كما يفعل الآن في المخازن المهمة والخطيرة فلا يكتفون بهذه الحلقة أو القفل، يجعلون القفل عبارة عن عمود من ركن الباب إلى ركنه، فهنا جاءت العُمْد لتضيف مزيداً من الإحكام في إغلاق أبواب النار بحيث يشعر من بداخلها أنه لا مجال لفتحها.

وفي هذه السورة قال: ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ٩ ﴾، وفي سورة البلد قال: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ٢٠ ﴾ [البلد: ٢٠]، فقط، ما السر في ذلك؟؟!! **الجواب: في سورة البلد ذكر الله هناك الكُفر المُطلق، وهنا ذكر مع الكفر معاصٍ أخرى، فهذه المعاصي الأخرى عقابها في الآخرة لها من جنس فعلها في الدنيا، كما قال: ﴿ جَزَاءُ وَفَاءً ٢٦ ﴾ [النبا: ٢٦]، فهذا الرجل لما جَمَعَ المال وعدده وأوصده وكنزه وحبسه في الدنيا عن أن يُنفق في طاعة الله؛ حبسه الله في جهنم وزاد مع الحبس العُمْد الممددة التي فيها إشعارٌ باليأس والقنوط من أنه لن يخرج من هذا المكان.**



فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الهمز واللمز هو ذكر الشخص بالعيب والاستهزاء به سواء كان ذلك العيب في حضوره أو في غيابه، في شكله أو لبسه أو حركته أو وضعه، أو ذكره بما ليس فيه.
- ٢- أن النار يمنحها الله سبحانه وتعالى، قدّرات فتطّلع وتنظر في فؤاد صاحبها ماذا عنده من جرائم كانت موجودة في قلبه في الدنيا، فيُعطيها الله من العذاب والعقاب على ضوء نسبة تلك الجرائم والمعاصي.
- ٣- أن العُمْد الممددة جاءت هنا لتضيف مزيداً من الأحكام في إغلاق أبواب النار بحيث يشعر من بداخلها أنه لا مجال لفتحها، فينقطع عنده الأمل من الخروج.



تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

شخصية السورة:

سورة الفيل؛ مكية، وتحكي لنا قصة حصلت قبل أن يُولد النبي ﷺ، وصارت العرب تُؤرخ بها، ومنها ولادة النبي ﷺ، فيقال: وُلد النبي ﷺ في السنة التي وقعت فيها حادثة الفيل، فما هي قصة أصحاب الفيل؟! ذكر المؤرخون أن أبرهة الأشرم، وكان نصرانياً يحكم صنعاء، وكان يستغرب أن العرب لديهم بيتٌ عظيمٌ في مكانٍ شبه صحراء، لا زرع فيه ولا كثير من وسائل الراحة، يحج إليه الناس ويعظمونه، بينما صنعاء مدينة من المدن، فالأولى أن يكون مثل هذا البيت فيها، فوقع في نفسه حسدٌ شديد للعرب، فأراد أن يصرف أهل الجزيرة كلهم عربهم وعجمهم إلى بيتٍ غير ذلك البيت، فبنى بيتاً كبيراً ضخماً في صنعاء **وسماه:** (القليس)، **قال بعض أهل اللغة:** إنما سُمِّيَ قُلَيْسًا لأن العرب كانوا يلبسون القُلَيْسُوة، وهي غطاء للرأس ذو قبة، وكانوا إذا نظروا إلى



البيت من ارتفاعه تسقط عليهم، فسُمي بهذا الاسم؛ لأنه شديد الارتفاع^(١)، ثم زيّنه وجملّه، ودعا الناس إلى زيارته والطواف حوله، كما يفعل العرب حول الكعبة، فجاء أحد الأعراب، **قيل**: إنه من قُريش، **وقيل**: من غيرهم، فدخل هذا البيت ثم تغوّط ومسح بجدرانها، ثم هرب، فبلغ سدنة البيت أبرهة بما حصل، فأقسم أبرهة ليغزون مكة بجيشٍ عظيم، ويُحطم ويُدمر البيت الحرام، ويجعله عبرةً للمُعترين، فجمع جيشًا عظيمًا وجعل ضمن هذا الجيش عددًا لا بأس به من الفيلة، وكان على رأس هذه الفيلة فيل عظيم يُطلق عليه محمود وهو ضخّم جدًّا، ونادى في الناس بالرحيل من اليمن باتجاه مكة حتى يهدم الكعبة، فقام بعض أهل اليمن من المناطق البعيدة من صنعاء بمحاربته ومنعه، ولكنه هزمهم، وفعل ذلك القبائل التي تليهم، حتى وصل إلى قبيلة ثقيف، فهادنته وأرسلت معه أبا رغال، ليدل أبرهة على الطريق إلى الكعبة، فلما وصل أبرهة إلى منطقة المُغمّس، وهو وادي خلف عرفة من جهة الطائف، وكان هناك إبل وأغنام لقريش ترعى هناك، فأخذها واغتنمها وأرسل شخصًا إلى قُريش يُبلغهم أنه قادم لهدم البيت فمن تركني وشأني فلن أقرب منه، فهدفنا هدم البيت وليس لنا هدف في أموالكم أو في قتل رجالكم، فوصل الخبر إلى عبد المطلب، وكان سيد قريش آنذاك، وكان قد بلغه أن هذا الجيش قد أخذ عليه مائتين من الإبل من ذلك الوادي، فقال له الرسول: إن أبرهة أرسلني أبلغك أنه قادمٌ لهدم البيت،

(١) ينظر: الروض الأنف ت السلاوي (١/١٣٦).



فقال له عبد المطلب: للبيت ربٌ يحميه، فقال: تعال معي لتُخبره بنفسك، فأخذه معه، وكان عبد المطلب رجلاً سميناً ضخماً الجثة، فلما جاء عبد المطلب كبر في عينه، ونزل له من سريره وجلس بجواره، وقال له: ماذا تريد؟! قال: أريد إبلي التي أخذها جنودك، فقال: ظننتك أتيت لتردني عن البيت، قال: للبيت ربٌ يحميه ويمنعه، وأنا ربُّ إبلي، فقال: لن يمنعني منه أحد، فقال: أنت وشأنك، فقال: أعطوه إبله، فأخذ إبله وذهب، فأبلغ أهل مكة، أن يرتفعوا إلى الجبال حتى لا يحطمهم هذا الجيش، ثم نزل هو ومجموعة من كبار قومه، وتعلّقوا بحلق البيت، ودعوا الله سبحانه وتعالى، مع أن قريشاً تعبد الأصنام، ولكن وقت الشدة يرجعون إلى الله، فقال أبياتاً جميلة، منها **قوله**:

يا رب إن العبد يمنع رحله فامنح رحالك لا يغلبن صليهم ومحالهم محالك

ثم دعا وابتهل هو ومن معه، ثم غادروا وصعدوا إلى الجبل، فجاء الجيش حتى إذا وصل إلى نهاية مُزدلفة وبداية منى في وادي يُسمى وادي مُحَسَّر، برك الفيل، فخطموه وضربوه؛ فأبى أن يتحرك، وغضب أبرهة، وأتى بساسة الفيلة كلهم، فكانوا إذا وجّهوه جهة اليمن مشى، وإلى جهة مكة يرفض ويبرك، حيث حبسه الله سبحانه وتعالى أن يقترب من البيت، وبينما هم هكذا مشغولين بالفيل إذ أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم مجموعةً من الطيور من جهة البحر لم يرها الناس من قبل، جاءت على شكل جماعات متتابعة، وأتى كل طير ومعه ثلاثة أحجار كحب العدس صغير، حجر في منقاره، واثنين في رجليه، فلما أظلمت كالغمام فوق رؤوسهم؛ أسقطت عليهم تلك الأحجار وكل حجرٍ كان يُصيب



شخصاً، فإن أصابه في رأسه خرقة حتى يخرج من دُبُرِهِ، فبعضُهم يهلك في الحال، وبعضُهم يمشي حتى تتقطع أعضاؤه، وكان أبرهة ممن أُصيب في غير رأسه، فمشى مسافة كبيرة وجسمُه يتقطع حتى هلك، وقريش تنظر إليهم من رؤوس الجبال، ورأت بأعينها هذه المُعجزة، وهلك أبرهة مع جيشه وفيله، وحَمَى الله بيته من الهدم، فهذه قصة أصحاب الفيل، وكانت قبل مولد النبي ﷺ (١)، ويذكرها علماء السيرة كإرهاصات لمجيء نبي جديد.

يبقى سؤال: لماذا حمى الله البيت الحرام مع أن أهل مكة مشركون وداخل الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان ممكن أن يهدمها أبرهة، ثم يُبعث النبي ﷺ وتبنى من جديد؟!!!

والجواب: أن مكة والبيت الحرام هو مركز قبائل العرب، ومكان حجهم، ولا بد أن يبقى كذلك؛ لكي تكون الأجواء مُهيأة لبعثة رسولٍ من العرب في مكانٍ تلتفت إليه أنظار الناس، ولو هُدم البيت وتشردت قريش، فلن يأتي أحد للحج، لذلك حمى الله البيت، والأمر الآخر أن حادثة هلاك أبرهة والجيش كانت إرهاباً لولادة وبعثة النبي ﷺ، فقد وُلد النبي ﷺ في هذا العام، ثم عاش بعده أربعين سنة، وعلى رأس الأربعين من حادثة الفيل بُعث رسولاً ونبيّاً إلى الناس كافة، فأخبره الله سبحانه وتعالى بقصة أصحاب الفيل للعظة والعبرة.

وجه التناسب بين سورة الهمزة وسورة الفيل، أن الله ذكر في الهمزة عاقبة من اغتر بماله، وفي الفيل ذكر الله عاقبة من اغتر بجنده وسلطانه، وفي سورة

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ت السقا (١/٤٩-٥١).



الهمزة ذكر عقاب الطغيان في الآخرة وهو النار المؤصدة، وفي سورة الفيل ذكر عاقبة الطغيان في الدنيا وهو الهلاك الذي سلطه الله عليهم بالطير فجعلتهم كعصفٍ مأكول، فالسورتان بينهما تشابُه وترابط^(١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١)، الخطاب لمحمد ﷺ، والهمزة للاستفهام، ولم للنفي، ولماذا قال: (تر)، مع أنه لم يرها، فقد كانت قبل ولادته؟! **والجواب:** أن الأخبار كانت متواترة فيها، فمنذ أربعين سنة والنبي ﷺ يسمع تلك الأخبار من قومه عنها، ثم إن معرفة الكيفية هي المطلوبة من التذكير بالحادثة، لا مجرد معرفة حصولها، فكان التعبير بالرؤية أبلغ، للفت انتباهه إلى الكيفية التي تم بها هلاك أصحاب الفيل، وهي التي فيها مظاهر الإعجاز العظيم.

فقد أتى القوم بجيش كبير وفيل عظيم لهدم البيت، والله تعالى ردهم وهزمهم بطير صغير وبحصى مثل حبة العدس، فإذا الكيفية عجيبة، وكان من الممكن أن يهلكهم الله بصاعقة أو غرق، ولكنه أهلكهم بهذه الكيفية ليريهم قوته.

وقوله: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ولفظ الرب هنا له مغزى، فكلمة الرب فيها معنى الحماية والدفاع، ولذا يُقال: رب الأسرة، رب البيت، فهلاكهم بهذه الكيفية فيها حماية للبيت، وهذا من بلاغة النظم القرآني أن يأتي من أسماء الله أو صفاته بما يتناسب مع الحدث.

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٤٩).



وقوله: ﴿يَأْصَحِبِ الْفِيلِ﴾، أضاف الجيش إلى الفيل، وأسقط اسم أبرهة لتحقيره، ونسب القوم إلى الفيل؛ لغفلة أصحابه وعدم انتباههم لعظمة البيت، والأصل أن يُنسب الشيء إلى صاحبه، فهم مُلاك الفيل، والفيل تبعاً لهم، ولكن لما لم يكن لهم سيطرة عليه نسبهم إليه.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، **الكيد** هو المكر الخفي السعي لأذية الآخرين، **وقد يقول القائل**: كيف سماه الله كيداً مع أن الرجل قد أعلن في صنعاء أنه سيهدم البيت ودعا الناس لذلك واستمر يمشي حوالي شهر حتى وصل؟! **والجواب**: أن هناك دافعين: دافع ظاهر وهو ما أعلنه، ودافع خفي وهو الحسد وإرادة صرف الناس من مكة والبيت الحرام إلى البيت الذي بناه في صنعاء، وما ذكر من قضية تلطيخه بالأذى إلا البحث عن وسيلة لإقناع الرأي العام لمناصرته، مثل ما تعمل اليوم بعض الدول الماكرة، فلا تظنوا أن بعض الأحداث تكون حقيقية، بل بعض الأحداث تكون الدولة نفسها هي التي فعلتها؛ من أجل أن تُوجد مُبرراً للحرب مع غيرها، مثل ما ذكر من سبب دخول أمريكا فيتنام، أو حادثة ضرب أبراج التجارة في أمريكا، أو قصة أسلحة الدمار الشامل في العراق، وغيرها، فكلمة الكيد جاءت على بابها وهو المكر الخفي لهذا الرجل، فأظهره الله سبحانه وتعالى.

واستخدام كلمة (جعل) هنا له مغزى أيضاً، وهي بمعنى صير، أي أنهم كانوا يريدون شيئاً لصالحهم؛ فردّه الله عليهم، حيث أراد أن يصرف الناس عن البيت الحرام إلى بيته الجديد، فحوّل الله هذا الكيد ضده؛ فدمرت مملكته كلها،



وزذهب هو وجنّده، وعبر عن هلاكهم بكلمة (تضليل)، وأتى بها بصيغة المبالغة، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فكلما حاول أن ينجح في كيده، فشل، مرة بعد مرة، فدل على تعدد الفشل، أو تعدد الكيد وتنوع أساليبه، وتضليل تفعيل من الضلال، وهو الهلاك، وهو الفشل وعدم النجاح، وأنهى الله هذا الكيد بوسيلة سهلة، فقال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾^(١)، **والرسول**: شخص يبعثه الله لإنجاز مهمة، **قال بعض أهل العلم**: أي خلق الله تلك الطير في الحال من أجل أن تقوم بالمهمة، وقد تكون هذه المهمة هي الوحيدة في حياتها، خاصة إذا كانت هذه الطير أنشئت في الحال وليست طيرًا عادية، وبعضهم قال: إنها طير من طيور البحر، أرسلها الله وعلمها كيف ترميهم^(٢)، وهذا من تدبير الله سبحانه وتعالى في خلقه، واختيار الطير لتنفيذ المهمة؛ ليُبين للخلق أن نصره ليس بكثرة البشر، ولا بعتاد الجيش وقوتهم، وإنما بتوفيق الله وتأيدته، ولماذا نكر لفظ الطير؟! **قيل**: إن التنكير للتحقير في مقابل عظمة الفيل؛ ليُظهر عظمة الله فيها، **وقيل**: إن التنكير للتعظيم، فالطير من الجند العظيمة^(٣)، بدليل أن الله جمع بينها في قصة سليمان مع الجن والإنس، **كما قال**: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧] فهي عظيمة، بل إن عمل الهدد في قصة سليمان أبلغ من عمل المارد والجان والكبار من القوم، ولذلك فالتنكير للتعظيم، وهي من جند الله التي لا يعلمها إلا هو كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، **والأبَابِيل**، جمع، **قال بعضهم**: لا مفرد له من نوعه، **وقال آخرون**: أبابيل جمع

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤ / ٦٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢ / ٢٩١).



إييلة أو إباله، مثل دينار ودنانير^(١)، والمعنى: كثيرة متتابعة وتجيء على شكل جماعات متتابعة من جهات مختلفة، وفي هذا إعجاز في السبق العسكري، فاليوم يُدرس في كليات الطيران الحربي هذا النص كإعجاز عسكري، وهو الهجوم بأسراب الطيران، ليحمي بعضها بعضاً ويكون ذلك أكثر تأثيراً في العدو.

وقوله: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ بيان لنوع السلاح المستخدم في إهلاكهم وطريقة استخدامه، وكان بالإمكان أن يُهلكهم الله بالخسف أو بالصيحة، ولكنه اختار هذا النوع من الهلاك بهذه الوسيلة، ليُري الخلق صورةً واضحةً لقدرته وقوته، فكان هلاكهم بواسطة الرمي بحجارة من سجيل، وهو: الطين المطبوع بالنار، **وقيل هو: النار^(٢)**، والأول أرجح، كون الطير حمله بمنقاره ورجليه ولم تحرقه، والإعجاز فيها أقوى، وفيها إشارة إلى أهمية الرمي في القتال، **وفي الحديث: "ألا إن القوة هي الرمي"^(٣)**، وفيها إشارة إلى صناعة الطيران الحربي، فالطيارة الحربية مصممة على شكل الطير وطريقة طيرانها مستفادة من طريقة طيرانه. فكانت نتيجة رميهم بتلك الحجارة الصغيرة أن صيرهم مثل العصف المأكول، فتخيل الشاب القوي من هؤلاء الجنود، حين تصيبه هذه الحجرة الصغيرة في رأسه فتخرج من دبره، فيتحول إلى عصفٍ مأكول.

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٩٢).

(٣) رواه مسلم (٣/ ١٥٢٢)، برقم (١٩١٧).



قال بعض المفسرين: العصف المأكول؛ التبن الذي يتساقط أو يخرج في روث الحيوان، وقيل: العصف هو: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة، وقيل كطعام مطعوم^(١)، وكلها معانٍ متقاربة، **والمعنى:** أنه هلك وتناثر جسده، ومن خلال النظر في مطلع السورة وفي خاتمته، يظهر لنا الإعجاز البلاغي، ففي مطلع السورة وصف القوم بأصحاب الفيل، وهو وصف تعظيم للجيش عند إقباله بجبروته وطغيانه، وفي آخرها شبههم بالعصف المأكول عند هلاكه واندحاره، في صورة مُحترقة جداً كالتبن الذي أكله الحيوان وأخرجه من دُبُرِهِ، وفي ذلك إشارة إلى بيان السبب في إهلاك أصحاب الفيل، فلم يكن السبب هو الكفر فقط، فأهل مكة كانوا كفاراً، وأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة آنذاك^(٢)؛ وإنما السبب في إهلاك هؤلاء القوم هو الطغيان، ولو نظرنا في قصص الهلاك لوجدنا أن الإنسان الكافر بدون طغيان؛ قد يتركه الله، ولكن حينما يجمع بين الكُفر الطغيان على الآخرين يهلكه الله، مثل النمرود وفرعون وقارون وغيرهم، وفي هذا تنبيه للبشرية كلها إلى خطورة الطغيان، والقرآن الكريم مليء بالأمثلة والنماذج عن الطغيان ونهايته الوخيمة، وهناك تشابه بين قصة فرعون وأبرهة، وفرعون قاد الجيش بنفسه، وتبع موسى للقضاء عليه مع بني إسرائيل الهاربين معه، وكان بإمكانه أن يرسل لهم قائداً من قواد جيشه بفرقة من فرق الجيش تتبعهم، ونفس الصورة

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٧٤).



تكررت مع أبرهة؛ لأن الطغيان هو الذي يقود صاحبه إلى الهلاك، فقال: سأقود المعركة بنفسى، فقاد نفسه إلى الهلاك، وحفر قبره بظفره!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- عظمة البيت الحرام ومكانته ودفاع الله عنه قبل ولادة النبي ﷺ.
- ٢- اختيار هذا النوع من الهلاك لأصحاب الفيل، وبهذه الوسيلة وتلك الكيفية، ليُريَ الخلق صورة واضحة لقدرته وقوته، وكان من الممكن أن يهلكهم الله بصاعقة أو غرق ونحوه.
- ٣- في ذكر الطير الأبايل إعجاز في السبق العسكري، فالיום يُدرّس في كليات الطيران الحربي هذا النص كإعجاز عسكري، وهو الهجوم بأسراب الطيران، ليحمي بعضها بعضًا ويكون ذلك أكثر تأثيرًا في العدو.
- ٤- من خلال النظر في مطلع السورة وفي خاتمتها؛ يظهر لنا الإعجاز البلاغي، ففي مطلع السورة وصف القوم بأصحاب الفيل، وهو وصف تعظيم للجيش عند إقباله بجبروته وطغيانه، وفي آخرها شبههم بالعصف المأكول عند هلاكه واندحاره، في صورة مُحترقة جدًا.
- ٥- في قصة أصحاب الفيل إشارة إلى بيان السبب في إهلاكهم، فلم يكن السبب هو الكفر فقط، فأهل مكة كانوا كفارًا مشركين، وأصحاب الفيل كانوا نصارى، وإنما السبب في إهلاك هؤلاء القوم هو الطغيان الذي يقود صاحبه إلى الهلاك.



تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١﴾ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

الْبَيْتِ ۝٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

شخصية السورة:

سورة قريش؛ سورة مكية^(١)، وترتيبها في المصحف الشريف بعد سورة الفيل، وفي مُصحف أبيّ ذكرت بدون بسملة، حتى جعلها بعضُ المفسرين مع سورة الفيل سورة واحدة، **والصحيح** أنهما سورتان^(٢)، وعلاقة سورة قريش بسورة الفيل واضحة، فإهلاك أصحاب الفيل كان لأجل أن تستمر نعمة الألفة والتألف في قريش، أو لاستمرار نعمة تعوّدهم على الرحلة في أمنٍ وأمانٍ شتاءً وصيفاً، **أي:** أن ما جرى في سورة الفيل كان سبباً لاستمرار أمنٍ وأمان قريش، **ومقصد السورة:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على قريش، وأن هذه النعمة العظيمة تستلزم الشكر، وأن ما فعلته قريش خلاف شكر النعمة^(٣).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٢١).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٦٠).

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ (١)، اللام إما للتعليل أو للتعجب، **فإن قلنا:** للتعليل. فهي إما متعلقة بما قبلها أو بما بعدها، أما تعلقها بما قبلها فستكون نتيجة وثمره لهلاك أصحاب الفيل، وهي جواب لسؤال مقدر: لماذا أهلك أصحاب الفيل فصاروا كعصفٍ مأكول؟ **الجواب:** لأجل أن تستمر نعمة الألفة والتألف في قُرَيْش، وأما إذا قلنا: إن لأم التعليل متعلقة بما بعدها، فإن التعلق سيكون في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ (٢)، **والمعنى:** أعطيناهم هذه النعمة؛ حتى يقوموا بعبادة الله حق العبادة؛ وإذا قلنا: إن اللام لام التعجب، فالمعنى: عجباً لقريش وتعودهم على استخدامهم نعمة الله سبحانه وتعالى مع كفرهم بها.!!

والإيلاف هو: التعود، ألف الإنسان الشيء ألفاً وإيلاًفاً، إذا تعود عليه، وألف الإنسان الشيء ألفاً وإيلاًفاً، إذا ائلف^(١)، **ويمكن أن يجتمع المعنيان** ولا حرج في ذلك، فتقول: ألفت قريش الرحلة بعد ائلاف قلوبهم، وقد جاء في كتب السير والتاريخ أن قريشاً - وهم أولاد النضر بن كنانة، **كما في الحديث:** "إن الله اصطفى كنانة واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"^(٢) - كان عندهم أنفة، وكانوا يعيشون متفرقين، فإذا أصيب أحدهم بالمسغبة والجوع؛ خرج فنصب على نفسه وأهله خباءً حتى يموت، ولا يتعرض للحاجة، حتى جاء هاشم بن عبد مناف، **فقال لهم:** لماذا

(١) ينظر: العين (٨/ ٣٣٦).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢)، برقم (٢٢٧٦).



تعيشون متفرقين؟ **قالوا:** وليّناك علينا ونحن تبعاً لك، **فقال:** اجتمعوا أغنياؤكم وفقراؤكم، وارحلوا شتاءً إلى اليمن وصيفاً إلى الشام، فما جمعه الأغنياء؛ يُوزع بين الفقراء، فأخذوا برأيه، فائتلفت قلوبهم، وتعودوا على الرحلة، في كل سنة رحلتان: رحلة إلى اليمن شتاءً باعتبارها دافئة، ورحلة إلى الشام صيفاً، فتمولوا وذهب ما كان بهم من فقر، وعاد الأغنياء بمالهم على الفقراء، وصارت العرب تهابهم باعتبار ألفتهم واجتماعهم، وباعتبارهم أهل حرم الله وبيته^(١)، ولا تعارض بين المعنيين: الألفة والتعود، بل هما متداخلان.

وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢)، **إيلافهم هذه** بدل من إيلاف الأولى، أو توكيد لها، فقد ألفوا الرحلة، **وهي:** الارتحال وهو الركوب على الرحل، **والرحل هو:** الذي يُوضع فوق البعير، ولكن لكثرة الاستخدام صارت الرحلة هي الخروج من بلد إلى بلد لطلب الرزق أو للسياحة ونحوها، وتعودت قريش على ذلك لأن مكة صحراء لا زرع فيها، كما ذكر الله في دعاء إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ:** ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(٣) [إبراهيم: ٣٧]، فكان مصدر عيشهم هو الصيد والتجارة عن طريق الرحلة، والتجارة في مكة مُربحة؛ لأن مكة يأتي إليها الناس للحج والعمرة، وإذا كثر الطلب وقل العرض ارتفعت الأسعار فحصل الربح، وكانت تتم الرحلات التجارية عن طريق الاشتراك، حيث يُنتدب شخص منهم وتُجمع إليه الأموال؛ فيذهب بقافلة مكونة من مجموعة من الجمال ويأتي بالبضاعة من الشام أو من اليمن، وقد شارك نبينا

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢/ ٢١١).



محمد ﷺ في تلك القوافل قبل البعثة وكان مندوباً لتجارة خديجة بنت خويلد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**^(١)، وعبر هنا عن الرحلة بالمفرد، والمقصود به الجنس، وإلا فهما رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكان يقوم بها كبار التجار، ثم يتم تسليمها للتجار الصغار، مثل ما هو معروف اليوم بتجار الجملة وتجار التجزئة، وكل واحد يترزق الله من الآخر، والشتاء معروف، وهو أحد فصول السنة، فالسنة فيها أربعة فصول ذكر هنا اثنان، الصيف والشتاء، وبقي اثنان هما الربيع والخريف، فالشتاء والصيف ليسا متتابعين، بل بينهما فصل آخر، وكل فصل مدته ثلاثة أشهر، وفيها يتغير مناخ الأرض، درجة الحرارة والبرودة، وذلك كله من أجل أن يعيش الناس وفقاً لهذا المناخ؛ لأن الزراعة تحتاج درجة حرارة معينة، أحياناً شدة البرد، وأحياناً شدة الحر، وأحياناً الاعتدال، كل شيء خلقه الله وأوجده في هذا الكون فلحكمة، **لا تقل**: لماذا البرد لماذا لم يجعله حرّاً؟ لماذا لم يجعله اعتدالاً؟ الله خالق خلق هذه الحياة لحكمة، وخلق هذه الفصول لحكمة معينة، فهناك حشرات وميكروبات وفيروسات يقتلها البرد، وهناك فيروسات وحشرات وهوام مؤذية للإنسان يقتلها الحر، فالله سبحانه وتعالى يقلّب الفصول لحكمة ولغاية يعلمها وفيها مصلحة للخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، **الفاء** هنا واقعة في جواب الشرط، **والمعنى**: أنعم الله عليكم بالإلف والألفة، فالواجب عليكم أن تعبدوه،

(١) ينظر: الفصول في السيرة (ص: ٩٤).



واللام لام التعليل، **والمعنى**: إنما فعلنا بهم تلك النعمة؛ من أجل أن يُخلصوا عبادتهم لله^(١)، أو لام الأمر، **والمعنى**: ليعبدوا ربهم؛ لأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وهل فعلت قريش ذلك؟! **الجواب**: لا، بل عبدوا غير الله، وكان الواجب عليهم أن يشكروه على ذلك، **وقد أشار إلى ذلك في قوله تعالى**: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فقد نزلت في قريش، **ومثلها في قوله تعالى**: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

والمقصود بالقرية هنا مكة، والعبادة أعم من أن تعترف بأن الله موجود فقط، فقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما قال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وإنما أيضاً أن تقوم بما هو واجب عليك نحو ربك الذي خلقتك، **فلا يكفي أن تقول**: خلقتني الله، ثم تعصيه وتكفر به، ولا تلتزم بأوامره ولا تجتنب نواهيه، فهذا يعتبر من الاستخفاف به، بل كلما عرفت الله ازدادت التزاماً وعبوديةً له، فالعبادة: اعتراف، وتصديق، وإيمان، وعمل، وطاعة، وامتنال، وابتعاد عن ما حرم الله، أما قريش فقد كانت تعترف أن الله خلقها، ولكن ذهبت كل قبيلة منها وصنعت لها صنماً تعبده من دون الله!، تحت مبرر أن هذه الأصنام تُقربهم إلى الله، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى واسطة، واستخدم كلمة رب، فكأنه يُشير إلى لوازم هذه الكلمة للمخلوق وهي: أن

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو (١/ ٥١٤).



يكون عبداً له، لا عبداً لغيره، فقد خلقه ورباه وأوجده فما باله يعبد ويطيع غيره!!، وهذا: اسم إشارة إلى الكعبة، والألف واللام في البيت لتعريف العهد، فقريش والعرب ما يعرفون بيتاً إلا الكعبة، والإضافة هنا للتشريف، وفائدة ذكر البيت هنا، لأجل أن يُذكرهم بقصة حمايته، وكيف أن الله أهلك أصحاب الفيل بالطير الأبايل، وحمى بيته، فهذا البيت هو سبب عزكم ومجدكم، وهو سبب لاحترام العرب كلهم لكم، فمن أعطاكم هذه المكانة؟ إنه الله، فاعبدوه!!

ثم بين لهم بعض نعمه عليهم، فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾، الذي: اسم موصول يعود على لفظة رب، **والمعنى:** اعبدوا الله الذي أطعمكم، وهذه نعمة عظيمة، تُسمى اليوم بالأمن الغذائي، فهؤلاء الخلق كلهم من يُطعمهم؟، هذه المخلوقات والكائنات الحية التي تأكل من يُطعمها؟! إنه الله، فقد خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وأوجد وأودع فيها ما يكفيها من الأرزاق لكل من فيها من إنسان وجن وحيوان، إذن فمن أين جاء الفقر إلى الخلق؟، **الجواب:** أتى الفقر إلى الخلق من أنفسهم، إما بمنعهم حقوق الآخرين، أو بعدم أخذهم بالأسباب التي تُوصلهم إلى الرزق، **ففقر كنتاج عن أحد سببين: إما** أنك كسلان لا تأخذ بأسباب الرزق، وتعودت على الكسل والخمول، وأن تكون عالة على الآخرين، فلم تأخذ بالأسباب ولم تتوكل على الله، وقد ضرب النبي ﷺ لك مثلاً، فقال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتعود بطاناً"^(١)، فالطير في الصباح يخرج من عُشه متوكلاً على الله ويأخذ

(١) رواه ابن ماجه (١٣٩٤/٢)، برقم (٤١٦٤)، حكم الألباني: صحيح.



بالأسباب، ثم فما هي إلا ساعات ويعود إلى عشه وقد امتلأت بطنه فيُطعم صغاره، وأنت إن فعلت مثل الطير، فستجد رزقك بإذن الله.

السبب الثاني: أن يوجد شخصٌ آخر منعك رزقك، فالغني لما يمنع الزكاة؛ فقد حرم الفقير حقه، والظلمة الذين يأخذون حقوق الناس، سواءً بالسرقة أو بالربا أو بالبطش أو بالحرمان أو بالمنع، فهم سبب في وجود الفقر، وإلا فالله سبحانه وتعالى قد خلق في الأرض ما يكفي أهلها، وهناك دراسات حول الأرض الزراعية على مستوى العالم، تبين أن ربع الأرض تصلح للزراعة، ولكن المزروع منها لا يُساوي نصف الربع، ثم الذين زرعوا وجاءتهم الأقوات، يتحكمون فيها ويمنعونها عن غيرهم، ولو علمت كم هي عدد الأطنان من القمح التي ترميها أمريكا في البحر كل سنة لاستغربت، لماذا؟ حتى لا يصير سعره رخيصاً، فهم يتحكمون في الإنتاج والتصدير، يريدون فقط أن يعيشوا هم ويموت الناس جوعاً وفقرًا، ثم يتكلمون عن الإنسانية وحقوق الإنسان!! وهكذا يفعلون في باقي المواد الأساسية، فضلاً عن منعهم بعض الدول من الزراعة، انظر إلى الأراضي حول نهر النيل ونهر دجلة والفرات والأنهار الموجودة في السودان والأنهار الموجودة في العالم الإسلامي، فلو استُغلت هذه الأراضي الزراعية ما رأيت فقيراً مسلماً، ولا غير مسلم، لكن تصرف البشر الظالم هو الذي جعل الفقر يحل بالبشرية.

والشاهد من هذا أن الله سبحانه وتعالى يمتن على قريش بمنة: (الأمْن الغذائي) حيث وفره لهم وهم في ديارهم، وأرضهم ليست صالحة للزراعة،



وهذا الأمن الغذائي هو استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لما وضع زوجته وابنه فيها ثم دعا لهم ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّمَرِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فصارت ثمار الأرض كلها اليوم تأتي إلى مكة!!

ثم قال: ﴿وَأَمَانُهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾، وهذه نعمة ثانية، لأنه لا يمكن للإنسان أن يعيش في طمأنينة واستقرار وسعادة وهدوء **وعنده مشكلتان:**

الأولى: مشكلة الجوع تُورقه، **قال النبي ﷺ:** "وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع" ^(١)، فلا يدعك تنام، بل تبقى بطنك تقرر، وقد يدفعك الجوع للسرقة والغش والخداع والقتل والنهب، **وكما في الأثر:** "كاد الفقر أن يكون كفرًا" ^(٢).

والثانية: مشكلة الخوف، هو ضد الأمن، فالناس محتاجون إلى: أمن للنفوس وأمن للبطن، ويمكن أن يضاف إليه ما يُسمى اليوم بالأمن الفكري، وهو مذكور في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ^(٣)، بل هو شرط لتحقيق أنواع الأمن الأخرى، فعند تحقيق الأمن الفكري؛ سيمنحك الله أمنين آخرين: أمنٌ في الطعام والشراب، وأمنٌ في الأرواح والمنازل والأجساد، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فالأمن الشامل في الدنيا والآخرة يستحقه من لا يُشرك بالله، من كان مؤمنًا بالله هو من عبد رب هذا البيت.

(١) رواه النسائي (٢٦٣/٨)، برقم (٥٤٦٨)، وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/١٣)، برقم (٦١٨٨)، وقال الألباني: ضعيف.



فوائد وهدايات من السورة:

١- الألفة والاجتماع نعمة، وما تُعانيه البشرية اليوم من فُرقة واختلاف
نقمة.

٢- التعود والاستمرار فيما يُؤدي إلى نجاح مشاريعك من رحلة تجارية أو
زراعية نعمة؛ لأنه إذا تعودت النفوس وتمرنّت صارت منتجة.

٣- الأمن الفكري الذي يعني عبادة الله والاستقامة على طاعته وينتج عنه
أمنٌ في الأوطان وأمنٌ في الأنفس وأمنٌ في الغذاء، والصحة، فهذا كله ناتج عن
التوحيد والاستقامة، فالاستقامة تُورث النعمة، وتُورث الخير، وما تُعاني منه
البشرية اليوم من الفقر، والخلاف، والحروب، وكل المصائب، سببه الإعراض
عن الله وشرعه.

٤- حاجة البشرية اليوم إلى أن تتدبر سيرة قريش وما ذكره الله عنهم حتى لا
تتنكب الصراط، وحتى تعيش في أمنٍ واستقرارٍ في غذائها، وأوطانها، وأنفسها.
نسأل الله تعالى أن يُبصرنا جميعًا بعيوبنا وأن يرزقنا الاستقامة على دينه.



تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا
يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الماعون؛ سورة مكية ^(١)، وقيل: نصفها مكِّي ونصفها مدني ^(٢)، وترتيبها في المصحف مائة وسبعة، وعدد آياتها سبع آيات، **ومن مقاصدها** بيان أخلاق المكذبين بالدين والآخرة، تحذيرًا للمؤمنين، وتشنيعًا على الكافرين ^(٣)، وهي على قلتها في الآيات إلا أن معانيها كثيرة، والموضوعات التي تحدثت عنها مهمة، وعلاقتها بسورة قريش أنها تتحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على قريش، وأن هذه النعم لم تُشكر من بعضهم فلم يؤمنوا، فكان منهم من كذب بالدين، فجاءت هذه السورة لتبين جزاء المكذب بالدين وأوصافه.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩٣).

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: ٢٦٥٠).

(٣) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠٢).



قول الله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ ١، الهزمة للاستفهام،
والخطاب مُوجه للنبي ﷺ، ويصح أن يكون الخطاب لكل من قرأ السورة
بعده، **والرؤية قد تكون بصرية بمعنى:** أرايت بعينك من هذه صفته من الناس؛
لاشتهار أمره، ولوضوح تصرفاته في الواقع، أو تكون الرؤية قلبية، بمعنى:
أعلّمت عن حال الشخص الذي هذه صفاته، وهذا الأسلوب يسمى براعة
الاستهلال، وهو أن تبتدئ بلفظ يُلفت انتباه السامعين، والذي اسم موصول
مُفرد، يُفيد جنس من هذا وصفه، فكل من هذا وصفه داخل في المعنى، أتى
بالفعل المضارع، يكذب، الذي يُفيد الاستمرار، فحال هذا الشخص دائماً هو
التكذيب، وهي صفة مستمرة فيه لا تنقطع، والدين، المقصود به ما يتدين به
الإنسان من العقائد والشرائع والأحكام التي جاء بها محمد ﷺ، وهو الإسلام،
كما في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، أو يكون المقصود
به: الجزاء والحساب، كما في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، **أي:**
يوم الجزاء ويوم الحساب، ومن كذب بالجزاء والحساب، فقد كذب بالدين
كله، لأن الدين كل لا يتجزأ، ومن لم يؤمن بالبعث والنشور والحساب والجزاء
لا ينفعه ما عمله من أعمال الدين في الظاهر ولو أكثر منها، ولأن هذا هو الذي
كانت تُواجهه الرسل مع أقوامهم، وهو إنكار البعث والنشور، وكان عندهم
بعض الأخلاق الطيبة مثل العفة والشجاعة والكرم، وهذه كلها من الدين، فإذا
هم لا يكذبون بالدين كله، بل هم يُمارسون بعض مُفردات الدين، وإنما
مُصيبَتهم الكبرى هي عدم إيمانهم أن هذا الدين من عند الله من جهة، وأنهم لا



يؤمنون بالآخرة، فهذه هي أحد أوصاف ذلك المكذب؛ إنه لا يؤمن بالحساب والجزاء ويُنكر البعث والنشور، وهي أقبح صفة له، فأثرت عليه؛ فصار يمارس السلوكيات السيئة في الدنيا بسبب عدم إيمانه باليوم الآخر، ولا يتنبه إلى عقوبتها، ولا يتذكر أنه سيقف بين يدي الله فيحاسبه عليها، ولذلك جاءت نصوص القرآن والسنة بالربط بين الإيمان باليوم الآخر وبين كثير من الأعمال، **كما في قوله: ﴿لَنْ**

كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]، **وكما في الحديث:** "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت" ^(١)، فالإيمان بالبعث والنشور والوقوف بين يدي الله سيدفع العبد إلى الإيمان والإخلاص في العمل، وترك الكفر والشرك، ويدفعه إلى العدل وترك الظلم، ويدفعه إلى فعل الطاعات وترك المنكرات.

ثم ذكر الصفة الثانية من صفاته، فقال: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ^(٢)، وعبر بلفظ ذلك، وهو من أسماء الإشارة التي تدل على البعد، إشارة إلى أنه بعيد عن الله، وبعيد عن أخلاق المؤمنين، وعبر بالفعل المضارع (يدع)، وهو بمعنى: يدفع، وقد يكون الدفع حسياً باليد أو بغيرها، وقد يكون معنوياً بطرده ونهره وقهره، **كما في قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾** [الضحى: ٩]، **والقهر هو** نتيجة للدفع بشدة سواء دفعته بكلمات سيئة وألفاظ قاسية، أو دفعته بيدك وأخرجته من المكان الذي وجدته فيه، والألف واللام في اليتيم للجنس وليس للتعريف، ليشمل كل الأيتام، **واليتيم هو:** من مات أبوه، هذا اليتيم في البشر، فإن مات أمه أيضاً فيصير يتيماً الأبوين، وهو أشدهم يتيماً، بخلاف اليتيم في

(١) صحيح البخاري (٨ / ١١)، برقم (٦٠١٨).



الحيوان؛ فهو من ماتت أمه، لأن الأب في الحيوان ليس له علاقة بالرعاية، فاليتم فيها من ماتت أمه، وهو يتيم حقيقي فعلاً؛ لأنها من تطعمه وتسقيه، بخلاف البشر؛ لأن القوامة للرجل في البشر وعليه النفقة، والأم أيضاً عامل مساعد في ذلك، وهذا على الأغلب، وإلا فبعض الأمهات خيرٌ من بعض الآباء، حين تقومُ الأم بالتربية الحسنة لولدها، وإذا قرأت تراجم العلماء الناجحين المبدعين؛ ستجد أنهم كانوا أيتاماً، كالشافعي، وسُفيان، وغيرهم من علماء الإسلام الكبار فقد مات آباؤهم، وقامت أمهاتهم بالتربية الحسنة لهم.

ثم ذكر الصفة الثالثة من صفاته، فقال: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾،

فهذا المُكذِب بيوم الجزاء والحساب، الذي من آثار تكذيبه أنه سيء التعامل مع ضعفاء الناس، من الأيتام والمساكين، وهذا يدل على منتهى الخسة والحقارة وضعف القيم عند من يفعل ذلك، **ولذلك عبّر بقوله: ﴿وَلَا يَحْضُ﴾** ليُعطينا صورة قاتمة وسيئة عن هذا الشخص، فلا هو أعطى المسكين من ماله، ولا هو دعا غيره وشجعهم على إعطائه، فجمع بين سَوَاتين، والحض بمعنى الحثّ، **أي:** يحث غيره، لأنه أحياناً قد يكون ليس لديك شيء تُعطي المسكين، ولكن تستطيع أن تحث غيرك على إعطائه، والمسكين أحياناً تريحه الكلمة أكثر من المال، فتقول له: اصبر واحتسب، وهذه أقدار الله، ونحوها، فأنت تُعطيه أملاً في الحياة بهذه الكلمات.

وقوله: ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، وعبر هنا بأهم شيء يحتاجه المسكين،

وهو الطعام، مع أنه قد يحتاج ثياباً أو علاجاً، أو يحتاج مكاناً يسكن فيه، ولكنه



ذكر أهم شيء وهو الطعام، وأضاف الطعام إلى المسكين، وهي إضافة الاستحقاق أو الملك، **كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** [المعارج: ٢٤-٢٥] وحق السائل هو مقدار الزكاة الموجود في مال الغني، وهي في الحقيقة ملك وحق للفقير، والمسكين جاء هنا مُفْرَدًا دون أن يُذكر معه الفقير، فيدخل في معناه، فهما من المصطلحات التي إذا افرقت اجتمعت، وإذا اجتمعت افرقت، مثل الإيمان والإسلام، والمسكين أحسن حالًا من الفقير، وهو الذي عنده دخلٌ ثابت لكنه قليل لا يكفي، والفقير الذي ليس عنده دخل ثابت، **كما قال الله: ﴿أَمْ أَلْسَفِينَةٌ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾** [الكهف: ٧٩]، فسامهم مساكين وعندهم سفينة؛ لأن المقصود بها قارب، ومُشْتَرِكٌ فيها أكثر من مسكين، ودخلها لا يكفيهم جميعًا.

فهذه الأوصاف: التكذيب بالدين، ودفع اليتيم، وعدم الإحسان إليه، وترك الحظ والحث على إطعام المساكين والإحسان إليهم، هذه الثلاث الصفات كلها في الكافر.

ثم جاءت بعد ذلك بعض الصفات الأخرى وهي في المنافق، وهي في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤)، والويل: لفظٌ يُقصد منه الدعاء، أي: فهاكًا أو فبعدًا، وقيل: أن ويل وإِدٍ في جهنم، وهذا من ضمن التفسير بالمثال، **والأصل أن كلمة ويل** دُعاء بالهلاك والبُعد عن الخير.

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥)، أي: أن الويل هنا خاص بنوع معين من المصلين، وهم الذين يُصلون من المنافقين، لأن المنافق يدعي



الإسلام ويُصلي مع المؤمنين، ولكن صلاته ليست عن إيمان في قلبه، وإنما صلاة مخادعة، **كما قال:** ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَٰذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فالمصلي الذي ينسى وقت صلاته ويتشاغل عنها بالدنيا عمداً، ولا يُريد أن يقوم إليها في وقتها، فهذا حال المنافقين، **كما قال الله:** ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، **والمعنى:** أنهم يتشاغلون عن صلاتهم، ولا يهتمون بأدائها في أوقاتها كما أمرهم الله؛ لأنه لا يؤمن بالله بل يُصلي في الأوقات التي له فيها مصلحة؛ ولذلك ترى بعض المنافقين يهتم بصلاة العيد، ويحضر إليها مبكراً، لأنه يوم عيد ويريد أن يراه الناس كلهم، وهي سنة، وقد كان المنافقون في السابق لا يحضرون صلاة الفجر والعشاء، لأنها في الظلام ولا يراهم أحد، **فقال النبي ﷺ:** "لو يعلم المنافق ما في صلاة العتمة والفجر لأتوهما ولو حبوأ"^(١)، فالمنافق يصلي لأجل يراه الناس، وما دام لا يراه الناس، فما الفائدة من مجيئه، وعبر بعن هنا، ولم يقل: في، فلو قال: في صلاتهم، لدخلنا كلنا، وصرنا مُعَرَّضِينَ للويل؛ لأنه لا يسلم الواحد منا من السهو في صلاته، فمن طبيعة البشر السهو، ولذلك أمرنا أن نسجد للسهو إرغاماً للشيطان، **وقد سهى النبي ﷺ في صلاته،** فصلى ذات يوم الظهر ركعتين فسلم، فقال له ذو اليمين، وسُمي بذي اليمين لطول يديه: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟! قال: "لم تقصر ولم أنس"، ثم سأل الناس، فقالوا: صدق ذو اليمين، فقام فأكمل ركعتين، ثم سجد للسهو^(٢).

(١) رواه البخاري (١/١٢٦)، برقم (٦١٥)، بنحوه.

(٢) رواه البخاري (١/١٠٣)، برقم (٤٨٢)، بنحوه.



ثم أضاف لهم صفة ثانية قبيحة فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، حتى ولو صلّوا فهم يأتون إلى الصلاة رياءً وليس لله، وأطلق كلمة: ﴿يُرَاءُونَ﴾، لتشمل كل أعماله الصالحة: كالصلاة والصدقة وفعل الخيرات، ويُرءون في قراءة القرآن، ويُرءون في الذكر، ويُرءون في كل شيء، فكل أعمالهم رياءً وسُمة، وعبر بالمضارع ليدل على الاستمرار.

ثم أضاف لهم الصفة الثالثة، فقال: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، والماعون فُسّر بتفاسير متعددة، منها^(١): أنه ما يحتاج من أدوات البيت كالإناء والكأس، ونحوها، والمعنى: أنهم لا يُعينون أحداً بأي شيء، فالإعانة للآخرين، ولو بشيء بسيط ممنوعة عندهم، فدل ذلك على قُبْح علاقتهم بالخلق، وقُبْح علاقتهم بالخالق.

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذان الصنفان اللذان تحدثت عنهما السورة: الكفار والمنافقون، وما أكثرهم في المجتمع اليوم، لا كثرهم الله، فليحذر المسلم منهم ومن صفاتهم، وليتبه لهذه الصفات القبيحة فلا يقع فيها.

٢- أنه قد يوجد بعض هذه الصفات في بعض المؤمنين، مثل: أذية اليتيم، وأذية المسكين، والرياء والتشاغل عن الصلاة في بعض الأوقات لشهوة وليس لكفر، فأنت مؤمن، والحمد لله، تؤمن بالله واليوم الآخر، فاحرص على

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٩٦).



التخلص منها بالتوبة والاستغفار.

٣- كما تكون حريصاً في موضوع الدنيا، فتأخذ حقك منها كاملاً فكن كذلك في باب الآخرة، واحرص على تمام العمل، ولا تفرط في السنن والمستحبات، فالسنن تكمل الفروض وتحميها، وبها تحصل على الأجر العظيم والثواب الجزيل، وتجعلك في الدرجات العليا من الجنة، فمن سجد لله سجدة، رفعه الله بها درجة!!

وفقنا الله جميعاً لما يحب ويرضى.



تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ

الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

شخصية السورة:

سورة الكوثر؛ سورة صغيرة في حجمها، كبيرة في معانيها وموضوعها، تحتوي على ثلاث آيات فقط، وهي أقصر سور القرآن من حيث الكلمات وعدد الحروف مُطلقاً، فكلماتها عشر، وعدد حروفها اثنان وأربعون حرفاً^(١)، وسورة العصر أيضاً ثلاث آيات، لكن حروفها وكلماتها كثيرة، وسورة الكوثر مُختلفٌ في مكِّيَّتها ومدنيَّتها، **فجمهور المفسرين يرون** أنها مكية، وأنها نزلت رداً على العاص بن وائل، وبعض صناديد قُريش مثل أبي جهل وأبي لهب، الذين غمزوا محمداً ﷺ بسبب موت أولاده الذكور من خديجة في حياته، **وقالوا:** هذا أبتَر لا عقب له، فأنزل الله تعالى هذه السورة تسلياً لنفس النبي ﷺ، ورداً على قول هؤلاء الكفار، وأن مُبغض النبي ﷺ هو الأبتَر^(٢).

(١) ينظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٠/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٢٠، ٣٠٧).

وقال آخرون من المفسرين: بل السورة مدنية، وأنها نزلت بعد الحُدَيْبِيَّةِ، واستدلوا بما في صحيح مسلم، أن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً **أي:** نعس قليلاً، ثم أفاق ورفع رأسه مُبْتَسِماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟! قال: أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾**، فقلنا: يا رسول الله: ما الكوثر؟! قال: نهرٌ وعدني ربي سبحانه وتعالى، عليه خيرٌ كثير، وهو حوضٌ ترد عليه أمتي يوم القيامة، آيتُهُ عدد نجوم السماء، فيختلجُ العبد منهم، فأقول: أمتي، أمتي يا رب، فيقولون: ما تدري ما أحدثوا بعدك".

وفي رواية: "فأقول: سُحْقًا سُحْقًا" ^(١)، فهذا الحديث يُشير إلى أن نزول السورة كان في المدينة؛ لأن أنس بن مالك أنصاري وكان من أهل المدينة، **وقال بعض المفسرين:** نزلت مرتين: مرة وهو بمكة، ومرة وهو بالمدينة، وهذا وارد أن تنزل السورة مرتين، كما قيل في الفاتحة ^(٢)، ولكن الراجح أنها مدنية ^(٣)، لحديث أنس السابق فهو صحيح صريح في سبب النزول.

ما علاقة سورة الكوثر وما مناسبتها لسورة الماعون التي قبلها؟! سورة الماعون تحدثت عن صفات السيئين سواء كانوا كفاراً أو منافقين، واختتمت بصفة قبيحة لهم وهي: **﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾** ^(٧) [الماعون: ٧]، **أي:** يمنعون

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٧).

(٢) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٧٨).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩٨).



الشيء القليل مما يحتاجه غيرهم، فدل ذلك على طبيعة النفوس السيئة، فعوض الله رسوله والمؤمنين عن ذلك بالعطاء المطلق والخير العميم بهذه السورة، فإذا كانوا يمنعون عنك الإيمان ويمنعون عنك الخير، فقد منحك الله الخير الكثير^(١)، وسورة الضحى وسورة الانشراح وسورة الكوثر عقدٌ مترابط في بيان مكانة الرسول عند ربه سبحانه وتعالى!!

قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (إِنَّا) الدالة على العظمة، وفيها إشارة إلى عظمة العطاء بعظمة المُعطي وهو الله سبحانه، فنسب العطاء إلى نفسه، والله موصوف بالعظمة، والكاف في الخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، والعطاء هبة إلهية من الله سبحانه وتعالى، والمُعطى هو الشيء الذي أُعطي، والمستقبل للعطاء هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فعظم الله نفسه، وعظم الشيء الذي أعطاه، وهو الكوثر، وعظم رسوله المستقبل له، وافتتح الكلام بالتوكيد تنوياً بشأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر بالفعل الماضي؛ ليقول له إن عطاءنا قد تم، وأنه مستمر، ولم يعبر عنه بالاستقبال حتى لا ينتظره، وكاف المُخاطَب لشخصه، بمعنى أن فضلك عندنا كشخص عظيم، ولو قال: أعطينا الرسول أو النبي، لارتبط العطاء بصفة الرسالة أو النبوة، ولكنه خاطبه بشخصه، فدل ذلك على مكانة وعظمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند ربه سبحانه وتعالى، ولو نظرنا في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، منذ ولادته، فسنجد العطاء حاضراً في كل مرحلة من مراحل حياته، فالله سبحانه وتعالى، يُربيه ويمنحه ويهيئه ويُعطيه عطايا كثيرة كان آخرها الرسالة، ثم العروج به إلى سدرة المنتهى، ثم في الآخرة سيكون له

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٠٩).



المكانة في المحشر والمقام المحمود وهو أول من يطرق أبواب الجنة وأول من يدخلها، فهذا عطاء لم يحصل عليه أحد!!، وفوائده لا تعد، **والكوثر**: اختلف العلماء في معناه على أقوال^(١)، **ف قيل**: إنه نهر في الجنة، **وقيل**: النبوة والكتاب، **وقيل**: هو القرآن، **وقيل**: الإسلام، **وقيل**: رفع الذكر، **وقيل** غير ذلك، والصحيح أن الكوثر اسم للخير الكثير العميم المتنوع الذي لا ينقطع، ومنه النهر الذي يصب من الجنة في حوضٍ وتشرب منه أمته، ومنه النبوة والكتاب ونحوها من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم^(٢)، فهذا هو الموضوع الأول الذي تحدثت عنه الآية الأولى، وهو ما أكرم الله به نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، من العطاء، وهو في الحقيقة رد على كل من حاول أن يطعن في رسوله صلى الله عليه وسلم، قديماً وحديثاً بأي مسبةٍ أو صفةٍ ذميمة، فلا صحة لهذا الطعن، فالله تعالى قد منحه الخير الكثير الذي لا ينقطع، وغيره من الأنبياء والرسل لكل رسول منهم حوض لأمرته في الآخرة، ولكنها لا تساوي ولا تقترب من وصفٍ وعظم مكانة حوض رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فدلّت هذه الآية القصيرة على مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله، ودافعت عنه بأسلوب غير مباشر، ومن أنتم أيها الطاعنون فيه وهذا حاله مع ربه؟!..

ثم جاءت الآية الثانية، وهي مختلفة تماماً في موضوعها عن الآية الأولى، وهي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾^(٣)، والخطاب فيها أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أيها الرسول الكريم الذي منحك الله هذا الخير، وهذا الفضل، وهذه المكانة،

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٧٤).



وأعطاك هذا العطاء العظيم، فلا بد أن تقابله بمزيد من العبادة، كما في قوله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩﴾ [العلق: ١٩]، **وقوله:** ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٢٠ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٢١﴾ [الأنعام: ٢٠-٢١]، حتى قيل له: كيف تقوم الليل، وقد غفر الله لك؟، فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً" ^(١)، وهنا تأتي ثمرة التوفيق، فالله إذا أعطاك الخير الكثير، وهباً لك؛ فقابل العطاء بسلوك عملي بين يديه، عبادة وطاعة وعملاً واستقامة وأخلاقاً، وتفرغ لذلك ولا يشغلك الخير الكثير عن الاقتراب والسجود بين يدي الله، وهذا أمر يغفل عنه بعض الناس، الذين حرموا التوفيق من الله؛ فيستغلون نعمه في معصيته، كقارون الذي أُعطي المال، **فقال:** ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، فكفر، فخسف الله به الأرض، وبلعام بن باعوراء، رجل من بني إسرائيل، علمه الله آياته ^(٢)؛ فانسلك منها فصار كالكلب الذي يلهث، والعياذ بالله، فهنا تأتي ثمرة العطاء، **فكأنه يقول:** إن العبادة ثمرة للعطاء، فالله قربك وأعطاك؛ فكن أكثر شكراً له بأداء العبادة، **وذكر هنا عبادتين فقط هما:** الصلاة والنحر، وهما تُمثلان باقي العبادات، فالعبادات إما بدنية أو مالية، أو بدنية مالية، فالصلاة عبادة بدنية، والنحر عبادة مالية، **وقد قيل:** إن المقصود بالصلاة صلاة العيد، والنحر نحر الهدى ^(٣)، **والأولى أن نقول:** أن لفظ الصلاة عام ولا نحصرها في صلاة العيد ^(٤)، **والمعنى:** حافظ على الصلوات

(١) رواه مسلم (٢١٧١/٤)، برقم (٢٨١٩).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٥٧/١٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦٥٣/٢٤).

(٤) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٤٨٠/١٥).



المفروضة كلها وزِد إليها النوافل، وإنما أمره بالصلاة؛ لأنها صلة بين العبد وربّه، وكلما أراد العبد أن يقترب من الله؛ فعليه بكثرة السجود بين يديه، وفي الحديث: "أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد فاجتهدوا بالدعاء" (١)، ومن أراد الرفعة؛ فعليه بالصلاة، كما في الحديث: "إنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة" (٢)، والصلاة راحة للقلب والنفس، كما في الحديث: "أرحنا بالصلاة يا بلال" (٣)، "وكان إذا حزبه، أي: ألمه شيء، هرع إلى الصلاة" (٤)، وبها يستعين العبد على قضاء أموره، كما في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالْصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ أي: اذبح لله، وإنما عبّر بالنحر وهو لا يكون إلا للإبل، أما الغنم والبقر فيذبح ذبحاً، ليشمل النحر والذبح فذكر الأعلى يتناول ما دونه، وهذه الآية قرينة أن السورة مدنية، فصلاة العيد، ونحر الهدى، لم يُشرع ذلك إلا في المدينة، وبعض المفسرين فسر النحر، بوضع اليدين على النحر أثناء القيام للصلاة (٥)، وهذا وإن كان له وجه في اللغة لكنه ضعيف، لأن قوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ أول ما يتبادر إلى النحر الحقيقي الذي هو الذبح، كما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فهناك ترابط بين الصلاة والنُسك في آية الأنعام، وهنا

(١) رواه مسلم (٣٥٠ / ١)، برقم (٤٨٢).

(٢) رواه مسلم (٣٥٣ / ١)، برقم (٤٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٩٦ / ٤)، برقم (٤٩٨٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٣٥ / ٢)، برقم (١٣١٩)، وقال الألباني: حسن.

(٥) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢ / ٣١٨).



كذلك، وذكرَ اللام في الصلاة، ولم يذكرها في النحر؛ لدلالة الأولى عليها،
والمعنى: فصلٌ لربك وانحر له، واللام تفيد الاختصاص، أي خُص ربك
 بالصلاة وأخلص النية له، فلا تصلي لغير الله، ولا تذبح لغير الله، فإن هذا من
 الشرك، فقد كان الناس يُصلون لأصنامهم، ويسجدون لقاداتهم وأمرائهم
 وكُبرائهم، كما كان مشهوراً ذلك عند الفرس والروم، أما أنت فلتكن صلاتك
 وسجودك لله وحده لا شريك له، ولذلك حُرِّم السجود لغير الله سبحانه وتعالى،
كما في الحديث: "لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد
 لزوجها لما له عليها من حق" ^(١)، وكذلك الذبح لا يكون إلا لله، فلا تذبح لغير الله،
 وقد كان أهل الجاهلية والمشركون يذبحون لأصنامهم كما في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى
 النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، **والنصب:** ما يُنصب من الأصنام، ويُذبح لها تقرباً، فهذا هو
 الموضوع الثاني، الذي حدثنا عنه الآية الثانية وهو موضوع العبادة والتقرب إلى
 الله، وقد كان النبي ﷺ أكمل الناس عبادة، وأكثر الناس صلاةً، وأكثر الناس
 صوماً، وأكثرهم تقرباً لله بالنحر، فقد أُتيَ في حجة الوداع بالهدي فذبح منها ثلاثٍ
 وستين بدنة، ذبح بعدد سني عمره!!، وأمر الناس بذبح الباقي ^(٢).

ثم خُتمت السورة بقاعدة وحكم مطلق وهي قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾
 ﴿٢﴾، **والأبتر في الحيوان** من قُطع ذيله سواء كان ثعباناً أو حماراً أو بقرةً أو
 كلباً، **ويُسمى أبتر؛** لأن الذيل له منفعة، ويُعطي توازناً عند السرعة عند بعض

(١) رواه ماجه (١/ ٥٩٥)، برقم (١٨٥٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١٠٢٦)، برقم (٣٠٧٤)، وقال الألباني: صحيح.



الحيوانات عندما تجري، وهو وسيلة لدفع ما يؤذيه من الحشرات كالذباب والناموس ونحوه، ويُعطي منظرًا مناسبًا للحيوان، في ستر عورته، وقد ذُكر أن من ليس له من البشر ولد يُسمى أبتَر، ولكن المعنى الأشمل لكلمة الأبتَر أنه مقطوع الخير، فمن لا يوجد من ورائه خير فهو الأبتَر، بدليل أن أبا جهل كان يكره النبي ﷺ، ومعه أولاد، بل من أولاده من أسلم مثل عكرمة بن أبي جهل وصار من قواد المسلمين ومن خيرة من أسلم في فتح مكة، وكذلك أبو لهب، وكذلك غيره من كفار قريش، فتفسير الأبتَر بالذي لا ولد له غير دقيق، **فالراجح:** أن الأبتَر هو محروم الخير في الدنيا والآخرة^(١)، فيدخل فيه كل من يكره النبي ﷺ، فهو أبتَر، لا خير فيه ولن يكون من ورائه خير، وإن حصل له شيء من الرفعة في الدنيا ولكن نهايته إلى الهلاك السيء، كما سمعنا قبل فترة بكيفية هلاك المجرم الدنماركي الذي رسم النبي ﷺ رسومًا سيئة، فقد هلك بنهاية سيئة لا يتمناها أحد، وهذا حال كل من كره النبي ﷺ في كل زمان، ولو تتبعنا حال الذين يكرهون رسول الله ﷺ تحت أي مُبرر فسنجد نهايتهم سيئة وحياتهم تعيسة، فهذه الآية مُعجزة باقية إلى آخر الزمان؛ وهي خبر لا يتخلف ولا ينسخ، فمُبغضك يا محمد هو الأبتَر، وانظر إلى البلاغة العظيمة فيها فكأنها ردٌ على قولهم: هذا محمد الأبتَر، فكان الجواب عامًا، كل من يبغض رسول الله ويكرهه هو الأبتَر، ولم يقل: فلانًا وفلانًا، بل ترك الباب مفتوحًا إلى قيام الساعة لكل من انتقص رسول الله ﷺ أو أبغضه، **ولو قال:** إن أبا جهل هو

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦٥٨/٢٤).



الأبتر، أو إن فلاناً هو الأبتر؛ لانتهاى الحكم بنهايته، وهذا من بلاغة القرآن، وأنه صالح لكل زمان ومكان!!، وعند ربط أول السورة بآخرها؛ يظهر الفرق بين مكانة محمد ﷺ وبين من أبغضه، في صورة مكررة لن تنتهي!!

فوائد وهدايات من السورة:

- ١- أن الله خاطب محمداً ﷺ بشخصه، فدل ذلك على مكانته وعظمته عند ربه سبحانه وتعالى.
- ٢- أن الكوثر اسمٌ للخير الكثير العميم المتنوع الذي لا ينقطع، ومنه النهر الذي يصب من الجنة في حوضٍ وتشرب منه أمته، ومنه النبوة والكتاب ونحوها من خصائص نبينا محمد ﷺ.
- ٣- أن الله إذا أعطاك خيراً وهياً لك؛ فحوّل هذا الخير إلى سلوك عملي بين يديه، عبادة وطاعة وعملاً واستقامة وأخلاقاً، وتفرغ لذلك، ولا يشغلك الخير الكثير عن الاقتراب والسجود بين يدي الله.
- ٤- أن الأبتر هو محروم الخير في الدنيا والآخرة، ولذلك فكل من يكره النبي ﷺ فهو أبتر، أي: لا خير فيه ولن يكون من ورائه خير، وإن حصل له شيء من الرفعة في الدنيا ولكن نهايته إلى الهلاك السيء.



تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ (٦)﴾

شخصية السورة:

سورة الكافرون؛ هذه السورة العظيمة التي نزلت في مكة ^(١) في بداية البعثة النبوية، وتسمى **سورة الإخلاص** أيضاً، وتجتمع مع سورة الإخلاص، حتى **قال بعض أهل العلم:** سورة الكافرون سورة التوحيد العلمي، وسورة الإخلاص سورة التوحيد العملي، وهذه تعدل ربع القرآن وتلك تعدل ثلث القرآن، وكلاهما تتحدث عن الإخلاص والتوحيد والمُفَصَّلَة، وترسمان المنهج الذي يجب أن يسير عليه المسلم في دينه ^(٢).

وموضوعها عظيم، الملا بسات التي نزلت فيها تدل على ذلك، فإن قُرِيشاً كانت تدّعي أنها وارثة لدين إبراهيم الخليل، وصاحبة الكعبة المشرفة، وكانت

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥٠٦).

(٢) ينظر: تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٩/ ٥٧٢).



تدعي معرفتها بالله فهي لا تُتكر الخالق الرازق سبحانه، ولكنها أضافت إليها آلهة أخرى من الأصنام والأوثان، كما ذكر الله عنها ذلك بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، فلما بُعث محمدٌ ﷺ مجدداً لملّة إبراهيم - وهي الحنيفية السمحة - حاولوا معه عدة محاولات لكي يترك دينه الذي أتى به، والإبقاء على ما هم عليه من الدين المحرف، وجرى بينهم التفاوض وقدموا له أكثر من عرض!!، منها أن يُزوجوه، أو يُعطوه مالاً، أو يُعالجوه إن كان به جنون، أو أن يجعلوه ملكاً عليهم^(١)، وكل ذلك لم ينفع معه؛ لأن النبي ﷺ جاء لمهمة مُعينة، ومنها: مجيئهم إلى عمه أبي طالب، كما ذكر ذلك في السيرة^(٢)، وطلبوا منه أن يمنعه عن تسفيه الآلهة وعن الخروج عن عادات الآباء والأجداد، ولكنه ﷺ كان ثابتاً صابراً على دينه وما يدعو إليه من التوحيد وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، ولم يلتفت إلى هذه العروض واستمر في الهدف الذي أُرسل من أجله، فجاءتهم هذه الفكرة الشيطانية، وهي أن تعبّد آلهتنا سنّةً، ونعبّد إلهك سنّةً، فنحن بقايا دين إبراهيم وأنت تدّعي أنك على ملته، فالنقاط المشتركة بيننا كثيرة، فلا تلغ ديننا كله، ولا نرفض دينك كله، وظنوا أنهم بهذا العرض قد تنازلوا له وأنه سيقبل!!، والخلاصة: نحن نعترف بدينك وأنت تعترف بديننا، فتعبّد آلهتنا سنّةً ونحن نعبّد إلهك سنّةً، وبهذا نكون جمعنا شملنا ووجدنا صفنا ووجدنا الجبهة الداخلية لقريش وصرنا أمة واحدة

(١) ينظر: أعلام النبوة للماوردي (ص: ٩٩).

(٢) ينظر: التعليق على الرحيق المختوم (ص: ٦٤).



دون حروب، وكان هذا العرض قدّمته قریش للنبي ﷺ في بداية البعثة، وهو وأصحابه المؤمنون مُستضعفون في قومهم في مكة، ومع الوضع النفسي الذي كانت تعيشه العُصبة المؤمنة الأولى، وما تعانیه من تعذيب وطرْد وإيذاء، فلو كان الأمر موضوع مصلحة؛ فالمصلحة تقتضي الموافقة على هذا الطلب، لكن الموضوع دين وعقيدة، فليس فيه تنازل ولا مُداهنة ولا أنصاف حُلُول، ولا خلط بين الحق والباطل، هذا الجو العام لنزول السورة!!^(١).

وقد ورد في فضل هذه السورة أنها تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض الأحاديث التي صححها وحسنها بعض أهل العلم^(٢)، ومن فضل هذه السورة أن النبي ﷺ كان يقرأها في أكثر من صلاة، فقد كان يقرأها في سنة الفجر وفي سنة بعد المغرب^(٣)، وكان يقرأها في سنة الطواف^(٤)، حتى قال بعض أهل العلم: إنما حافظ النبي ﷺ على قراءة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد في سنة الطواف ليؤكد ويُحقق أن طوافه حول الكعبة لا يُنقص من إخلاصه لله سبحانه وتعالى، فطوافه حول بيت مخلوق قد يفهم بعض الناس أنه نوع من التعبد لغير الله، فكانت **قراءة: (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد)** في سنة الطواف لتذكير الطائف بعقيدة التوحيد، وليس على ضوء ما يعبدُه الكافرون من

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢٤ / ٣٢).

(٢) ينظر: سنن الترمذي ت شاكر (١٦٦ / ٥)، برقم (٢٨٩٤)، قال الألباني: صحيح.

(٣) رواه الترمذي ت شاكر (٢٩٦ / ٢)، برقم (٤٣١)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) رواه الترمذي ت شاكر (٢١٢ / ٣)، برقم (٨٦٩)، وقال الألباني: صحيح.



طوافهم حول الكعبة لأصنامهم أو لأحجارها وأشجارها^(١).

وافتتحت السورة بقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، قل لهم يا محمد، أي:

أبلغهم بالجواب على مقترحهم، فأنت مبلّغ عن الله لا مشرّع، وناداهم بوصفهم وهو الكفر، وهي: الصّبغة التي هي أساس المشكلة والخلاف بينه وبينهم، **والكفر في اللغة هو:** الجُحود والتغطية، ويُقال للزّارع كافر؛ لأنه يُغطي البِذرة بالتراب^(٢)، كما قال: ﴿أَعْبَبَ الْكَفَّارَ نَبَأُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]، فقريش جحدت ربها، وأشركت به -سبحانه وتعالى- غيرَه، مع أنها تعترف أن الله هو الخالق الرازق سبحانه وتعالى، والكفر نوعان: كفر أكبر مُخرج من الملة وهو الكفر الاعتقادي، وهو أنواع، وكفر أصغر لا يُخرج من الملة، هو الكفر العملي، مثل كفر النعمة.

ثم قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، **والتركيز في هذه السورة على أمرين**

رئيسيين، هما: الكفر، والعبادة، **فالكفر** قد عرفناه، وأنه أصل الخلاف، ولا بد أن يتركوه حتى ينتهي الخلاف، والعبادة؛ فقد كان الكفار لديهم عبادة، وكان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين لديهم عبادة، لكن شتان بين عبادة وعبادة، **فعبادته النبي ﷺ** عبادة شرعية سواء في نوع المعبود أو في نوع العبادة ووصفها، وعبادة الكافرين عبادة غير شرعية، سواء في نوع المعبود أو في نوع العبادة ووصفها، **والعبادة معناها في اللغة:** الخُضوع والتذلل لمن يستحق^(٣)، فتخضع

(١) ينظر: شرح بلوغ المرام (١٧٣/٦، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٧٨٦/٢).

(٣) ينظر: المخصص (٦٢/٤).



وتتذلل وتُطيع من ينفرد في الأمر والنهي، ولديه القوة والقدرة والعلم والإحاطة والحياة وسائر صفات الكمال، وهذه كلها لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، أما غير الله فما يُصَرَّف له من عبادة إنما هي مجازية وليست حقيقية، فالتذلل الذي يكون لغير الله، لن يكون بمستوى التذلل لله سبحانه وتعالى، بدليل أن هذا التذلل والخضوع مُؤَقَّت، وكما جاء في تاريخ العرب أن أحدهم كان يصنع صنماً من تمر فيسجد ويركع له، ويدعوه ويتذلل بين يديه، ولكنه عندما يجوع يأكله!!^(١)، ومثله الصنم الذي يطوفُ حوله ويُقبله ويُعطيه النذور والقرايين فإن صاحبه يخاف عليه أن يُسرق أو يُكسر؛ فيقوم على حراسته، فهذا كله يتناقض مع مفهوم العبادة!!، فالعبادة: كمال الذل مع كمال الخضوع والاستسلام لله القادر على كل شيء، الذي خلقك وأوجدك ولو شاء لذهب بك من الوجود بلحظة، فعبادة المشركين بهذا الوصف، باطلة لغةً واصطلاحاً، والعبادة في الاصطلاح: اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة^(٢)، فيشمل هذا التعبد كل الجوارح وكل الأعمال، بشرط أن يكون هذا العمل مما يُحبه الله ويرضاه، و(ما) اسمٌ موصول بمعنى الذي، وكان المشركون يعبدون آلهة متعددة، فآلهتكم التي تعبدونها، أنا لا أعبدُها لا بذاتها ولا بوصفها ولا بالهيئة التي تمارسونها، فعبادة المشركين تختلف عن عبادة المؤمنين، كما قال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

(١) ينظر: تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٤٦١).

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٥٤).



وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢)، ولا أنتم أيها الكفار عابدون الذي أعبدته بطريقة صحيحة سليمة من الشرك، لأنني أعبد الله وحده لا شريك له، وأنتم تشركون به غيره من الأصنام والأوثان!!، **وجاءت (ما)** مع الذات الإلهية، مع أن النحويين يقولون إنها لغير العاقل^(١)، **فمعنى ذلك** أن الموضوع يحتاج إلى مراجعة فيما يخص الذات الإلهية، والتعبير بأن (ما) تصلح للعالم وغير العالم أضبط، لنخرج من الإشكال.

وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥)**، هل يوجد تكرار في الآيات أم لا؟! **الجواب:** للمفسرين في ذلك قولان: **القول الأول:** من يرون أن هناك تكرار، وفائدة ذلك التحذير والتوكيد والتقدير لخطورة هذا الفعل^(٢)، **كما جاء في الحديث:** "ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكرر حتى قلنا: ليته سكت"^(٣)، وهذا وارد في لغة العرب وأساليبهم، وإن وُجد تكرار في القرآن، فله معانيه ومغازيه وحكمه البلاغية؛ لأنه كلام الله سبحانه الذي بلغ المُنتهى في البلاغة.

والقول الآخر: من يرون أنه لا تكرار، وأنه إذا اختلف الزمان فلكل آية معناها، **وقالوا:** النبي ﷺ نفى أن يعبد ما يعبدُه المشركون ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا^(٤)، فدل ذلك على براءته من الشرك وعبادة غير الله مطلقًا قبل البعثة

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (ص: ١٦١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢ / ٣٣١).

(٣) رواه البخاري (٤ / ٨)، برقم (٥٩٧٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨ / ٤٨٠).



وبعد البعثة إلى أن يتوفاه الله، وأما بالنسبة للمشركين فأخبر عنهم بعبادتهم في الحال وعبادتهم في الماضي، وترك الخبر عنهم في المستقبل؛ لأن بعض المخاطبين أسلم، فعبدوا ما يعبدُه رسول الله على الوجه الصحيح.!!

وجاء الجواب الفصل بهذا الأسلوب لما اقترحتَه قريش على رسول الله ﷺ، فلا يوجد مُواراة، ولا مجاملة، بل أعلنت المُفاصلة بين الإسلام والكفر، وبين المؤمنين والكفار، فلا التقاء، ولا أنصاف حلول.

وختمت السورة بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، لكم أيها الكفار ما تدينون به ولي ما أدين به، فديني يختلف عن دينكم، ومعبودي يختلف عن معبودكم، وعبادتي تختلف عن عبادتكم، فهذه مُفاصلة بين منهجين مُختلفين، وسمى هنا ما يفعله الكفار ديناً؛ بناءً على ما يعتقدون، **كما قال: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾** [يوسف: ٧٦]، **والحقيقة أنه لا يوجد دين صحيح إلا دين الإسلام، كما قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾** [آل عمران: ١٩] وهو الدين الحق، **كما قال: ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** [الروم: ٣٠]، **وهنا سؤال: هل قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، إقرارٌ لهم على دينهم أم ليس بإقرار؟ فمن قال: إنه إقرار، فقال: هذه الآية منسوخة بآية السيف، والصحيح أنه ليس إقراراً، وأن هذه الآية مُحكمة ولا نسخ فيها، ولكنها جاءت على صورة المُفاصلة والبراءة منه^(١)، والمعنى: دينكم باطل وتحملون مسؤوليته وعليكم حسابه، ومع ذلك لم يترك دعوتهم وإقناعهم بتركه، ولا وجه لمن يستدل بهذه**

(١) ينظر: التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: ٥٩٧).



الآية على صحة كل الأديان وإقرارها!! ولكن النبي ﷺ خاطبهم بهذا الأسلوب جوابًا على ما عرضوه عليه من دين، فلم يلتفت إليهم، وكأنه يقول لهم: دينكم مردود عليكم، ولي عملي ولكم عملكم، وهذه ألفاظٌ تُقال عند المحاجة والجدال، ولا يعني الإقرار لها، فقد استمر النبي ﷺ في التحذير من دينهم وتسفيه ما يقولون، وجرى بينه وبينهم من المعارك الشيء الكثير!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة مع قصر آياتها إلا أنها توضح لنا منهجًا فريدًا صافيًا نقيًا لا التواء فيه ولا غُموض، وهو ضرورة المفاصلة بين الحق والباطل، وترك المداينة والمُجاملة في دين الله فلا التقاء بين الحق والباطل، ولا أنصاف حلول بينهما.

٢- أن أدنى انحراف في التصور والاعتقاد ولو كان صغيرًا في بدايته؛ فإنه لن يستمر صغيرًا، بل يتوسع كل يوم ويكبر، كما في القاعدة الهندسية: "الخط الخارج عن المستقيم بشيء يسير سيكون في نهايته مبتعدًا عنه بمسافة كبيرة"، وهنا تكمن خطورة الانحراف في العقائد.

٣- ما أشبه الليلة بالبارحة؛ ما أشبه ملابسات نزول هذه السورة على محمد ﷺ بعد قول المتحاورين معه من قريش: أُعبد آلَهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فالיום يُعرض نفس المشروع بأسماء متنوعة، كما تسمعون اليوم عن الدعوة إلى الإبراهيمية، نأتي باليهودية والنصرانية والإسلام وغيرها من الأديان التي لها



أصل سماوي ونجمها في مكانٍ واحدٍ ويتعايش هذا مع هذا مع هذا، فالمسجد بجوار الكنيسة بجوار المعبد اليهودي!!، فهؤلاء الذين يقبلون مثل هذه الدعوة يجب أن يُذكروا بهذه السورة.

٤- أن مسائل العقيدة لا التقاء فيها مع الكفار، أما مسائل المُعاملات ففيها سعة، فيجوز لنا أن نتعامل مع اليهود والنصارى، والكفار والمشرّكين بيعًا وشراءً وبرًّا وإحسانًا، وهناك أشياء تفصيلية جاءت بها الشريعة يجوز فيها التعامل معهم، وعلى ضوء ذلك يصير عندنا اتساق في هذا الدين فهو دين الاجتماع، دين الإنسانية، دين السلام، دين المحبة، ودين جمع الشمل، لكن على منهج صافٍ لا خلط فيه بين الحق والباطل.



تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

شخصية السورة:

هذه السورة، تُسمى سورة النصر، وهي من أقصر سور القرآن، فعدد آياتها ثلاث آيات، لكن حروفها أكثر من حروف سورة الكوثر، وهي مدنية نزلت بعد الهجرة، **وقد سماها بعض المفسرين سورة** (إذا جاء نصر الله) ^(١)، وهذا على سبيل الوصف لها بذكر أول آية فيها، **وسماها الإمام الترمذي في سننه** بـ(سورة الفتح) ^(٢)، **وسميت** بـ(سورة التوديع) ^(٣)، وهو اسمٌ لطيفٌ جاء معبراً عما تحمله السورة من معنى، حيث أشارت إلى أنك يا محمد مُودع للحياة؛ فودّع أمتك، وقد سُمي موسم الحج الذي حج فيه النبي ﷺ بحجة الوداع لنفس المعنى، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ بهذه السورة ليُشعره باقتراب أجله، ويدعوه إلى تجديد التوحيد والاستغفار، وحمد الله سبحانه

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٢٦).

(٢) ينظر: سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤٩).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).

وتعالى على ما أعطاه، وهذه السورة مع قِصَر آياتِها ووجازة ألفاظِها، فهي تحملُ لنا البشارات والإشارات، والأوامر والتوجيهات، أما البشارات، فهي تُبشِّرُ محمداً ﷺ وأُمَّته من بعده بالنصر المُبين، سواءً كان ذلك النصر مخصوصاً بحدث مُعين وفتح مُعين، أو كان النصر المطلق بالفتوحات للمُدن والمدائن والبلدان، وأن الإسلام سيدخلها، وسيُهزَمَ الشرك، ويتراجع الكفر، وبُشِّرَت أيضاً بدخول الناس في دين الله أفواجاً، والناس اسمٌ مُطلق يشمل العرب والعجم دون تحديد، فدينُ الله شامل وعام للناس كافة، وأما الإشارات؛ فهي اقتراب أجل رسول الله ﷺ وانتهاء نزول الوحي، وانقطاع خبر السماء، وأما الأوامر والتوجيهات؛ فهي الأمر بكثرة التسبيح والحمد والثناء لله سبحانه، وكثرة الاستغفار، ولا يخلو لفظ من ألفاظ السورة من الإشارة إلى الأدب مثل: آداب النصر، وآداب الاستغفار، وآداب التوبة، وآداب التسبيح والتحميد وغيرها.

وقد ورد في فضلها مجموعة من الأحاديث، منها: أن هذه آخر سورة تامة

نزلت على قلب رسول الله ﷺ، **كما روى** مسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قال لي ابن عباس: أتدري آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً؟ قلت: نعم، **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾**، قال: صدقت ^(١).

ومنها: أنها تعدل ربع القرآن، كما ورد في الحديث عند الترمذي وحسنه جمعٌ من المحدثين ^(٢).

(١) رواه مسلم (٢٣١٨/٤)، برقم (٣٠٢٤).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (١٦٦/٥)، برقم (٢٨٩٥)، وحسنه الترمذي.



ومنها: كما في حديث عائشة أن النبي ﷺ كان: "يتأولها في ركوعه وسجوده"، فكان يقول: "سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي" ^(١).

وجه المناسبة بينها وبين السورة التي قبلها: لما ختم الله سورة (الكافرون)، بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، على سبيل المُفَصَّلة والمتاركة؛ جاءت الإشارة له في هذه السورة بالنصر ودخول الناس في دين الله، **والمعنى:** أن تركك قومك وأخذوا ديناً غير دينك؛ فإن الإسلام سيُعم البشرية، ويدخل الناس فيه أفواجا، فلا تحزن على مُفَصَّلَتِهِمْ، مع أن سورة الكافرون مكية، وهذه مدنية، إلا أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، وكان يتم بأمر من النبي ﷺ، فيقول لهم: ضعوا هذه السورة بعد تلك، من أجل أن يظهر التناسق في نهاية هذه السورة وبداية تلك السورة ^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ^(١)، إذا، ظرف زمان، ويأتي في لغة العرب على وجهين: يأتي ويُقصد به المستقبل، أو يُقصد به الماضي ^(٣)، وفي هذه السورة على أي وجهٍ أتى؟!، **الجواب:** قال جمهور من العلماء: إنه للمستقبل ^(٤)، **وقيل:** للماضي، **وقيل:** يحتمل الوجهين، فالله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾، فهل كان نصر الله قد جاء أو لا؟! فإن كان قد جاء فهي للماضي، وإن كان لم يأت فهي للمستقبل، وعندنا أمران هما: النصر،

(١) رواه البخاري (١٥٨/١)، برقم (٧٩٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣١٣/٢٢).

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب (ص: ١٢٩، ١٢٧).

(٤) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٣٧/٣٢).



والفتح، وعندنا أثر للنصر وللفتح، وهو دخول الناس وإقبالهم على الإسلام، فهل تم هذا قبل نزول السورة أم لا؟! **فمن قال:** إن السورة نزلت بعد صلح الحديبية فهي للماضي، لأن الصلح كان فتحاً مُبيناً، حيث دخل الناس في دين الله، وجاءت الوفود من كل مكان، **وإذا قلنا:** إن المقصود بالفتح فتح مكة؛ لأن دخول الناس في دين الله أفواجاً ما تم على الوجه المطلوب إلا بعد فتح مكة، فهي للمستقبل^(١).

أما إذا قلنا: إن السورة نزلت متأخرة بعد فتح مكة بزمان قريب من وفاة النبي ﷺ وقد كانت نعيّاً له وإشعاراً له بأن مهمته قد قاربت على الانتهاء، فهي للماضي، وبمنظرة فاحصة في جميع السور التي افتتحت بـ(إذا) وهي:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾. ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، سنجد أنها كلها تدل على المستقبل، إلا في سورة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾، ولكن عند التدقيق في معنى النفاق، وأنه ظاهرة مستمرة تتجدد في كل زمان ومكان؛ فقد صارت (إذا) فيها للمستقبل.

وقوله: ﴿جَاءَ﴾، أيهما أبلغ في اللفظ جاء أو أتى؟! **قد ورد التعبير بهما معاً، في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾** [يوسف: ١١٠]، **وفي قوله: ﴿أَنَّهُمْ نَصْرُنَا﴾** [الأنعام: ٣٤]، وفيه إشارة إلى أن النصر جاء بعد تعب وألم وابتلاء، فالمجيء أقوى في الدلالة من الإتيان.

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٩٢).



وقوله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ أضيف إلى الله لأنه موجد وواهبه لعباده، والنصر في لغة العرب^(١)، **يأتي بمعنى:** العون، والعطاء، ومجيء الخير، والظهور، وأما الفتح، **فقيل:** إنه غير النصر، لأنه عطفه عليه هنا^(٢)، **وفي قوله: ﴿نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾** [لصف: ١٣]، فالفتح شيء، ونصر الله شيء آخر، وهل النصر سبب للفتح؟! **قيل:** نعم، لأنه قدّم النصر على الفتح ليكون سبباً له^(٣)، **وقيل:** ليس سبباً له؛ فقد يوجد نصر ولا يوجد فتح، فالنصر معناه خضوع العدو وانهزامه، ولكن ليس كل من انهزم تفتح نفسه للإيمان، وأرضه لتحكيم الشريعة، أو يبقى على ما هو عليه من الباطل والكفر مع هزيمته؟!، فالنصر أبلغ من الفتح، والفتح إذا جاء قد يُقصد به النصر وزيادة، أو يُقصد به الهزيمة للعدو وقبول العدو لمبادئ وأفكارك، بينما النصر قد يكون أحياناً بدون فتح كما في قصة الغلام، فإنه انتصر على الملك الكافر عند قتله وقول جمهور الناس: آمنا بالله رب الغلام، فالغلام انتصر في ميدان المبادئ والعقائد، وإن قُتل أصحابه، فالنصر أعم من الظهور، فقد يكون النصر بالحجة، ونصر المبدأ، ونصر العقيدة، حتى ولو كنت مسجوناً أو مظلوماً أو ممنوعاً، فأنت منتصر على عدوك بثباتك واستمرارك على عقيدك، وهنا جمع بين النصر والفتح؛ ليشمل كل أنواع النصر: نصر المبادئ والقيم والظهور، وأيضاً استسلام العدو، وفتح البلدان والقلوب، ونشر الشريعة وتحكيمها في تلك البلدان، **وقد جاء الفتح في القرآن على ثلاث صيغ:**

(١) ينظر: المخصص (٣/ ٣٨١).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١٠).

(٣) ينظر: الباب في علوم الكتاب (٢٠/ ٥٣٨).



الأولى: وصفه بالمُبين كما في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، والمقصود به صلح الحديبية، لأن صلح الحديبية كان سبباً لفتح مكة، لأن قريش أخلت بشروط فتح الحديبية؛ فكان سبباً لفتح مكة.

والثانية: وصفه بالقرب، كما في قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر؛ حيث رجع الصحابة من صلح الحديبية وفيهم شيءٌ من الحزن، فجبر الله خواطِرهم، وهياً لهم فتح خيبر، ولم يشرك غيرهم فيها.

والثالثة: جاء الفتح مُطلقاً، كما في هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، **اختلف أهل العلم ما المقصود بالفتح هنا**، هل هو الفتح المُطلق ويشمل كل فتح، وإلا المقصود به فتح بعينه؟! فمَنهم من قال: إنه الفتح المُطلق، فيشمل فتح مكة إن كانت السورة نزلت قبله، ويشمل كل البلدان التي سيفتحها المسلمون كمِصر والشام وبلاد الفرس والمدائن وغيرها من البلدان الأخرى، **ومنهم:** من خصصه بفتحٍ من الفتوح إما مكة، وإما فتح خيبر^(١)، **وقال بعضهم** -وهذا من التفسير الإشاري عند بعض الصوفية-: إنه فتح في العلوم، أو فتح العارفين، وهذا القول ضعيف^(٢)، لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح على رسوله بالوحي والعلم من أول ما أرسل إليه، **والراجع:** أنه الفتح المُطلق^(٣).

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).



فيشمل كل البلدان، فكل بلدٌ فُتِح في الإسلام فهو داخلٌ في معنى الفتح، وقد سبق أن رجحنا أن (إذا) للمستقبل، فتكون كل الفتوحات بعدها داخلية في المعنى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(١)، الخطاب للنبي ﷺ، والألف واللام في الناس، **قيل:** أهل اليمن^(٢)، ولا بن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ كلام لطيف حول هذا المعنى، فقد أفرد هذه السورة بتفسير خاص، وفيه لفتات تربوية جيدة، **ومما قاله:** وتفسير الناس بأنهم أهل اليمن؛ لا يدل على اختصاصهم، وإنما يدل على مكانتهم^(٣)، وأنهم من أوائل من يدخلون في دين الله، ودخولهم لم يكن فيه مشقة على النبي ﷺ ولا على أصحابه، إذ أسلموا دون قتال، **وقيل:** وفود العرب، **وقيل:** العرب عموماً من عبدة الأوثان، وقيل: كل الناس ممن أسلم في عهده سواء ممن جاء من اليمن، أو من وفود القبائل الأخرى أو الأعراب المجاورين، أو من أهل البلدان الأخرى^(٤)، وهو الراجح، ودينُ الله هو الإسلام، وهو ما جاء به محمد ﷺ، كما في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، **والفوج:** في لغة العرب له عدة معانٍ، منها: التجمُّع، والتتابع، والكثرة، والسرعة^(٥)، ولا مانع أن يكون المقصود معنى اللفظ هنا شاملاً لها كلها، فقد جاء الناس مجتمعين متتابعين متكاثرين مسرعين

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦٦٧/٢٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (٦٤٣/٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥٣٢/٥).

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣٣٦/١).



إلى الدخول في الإسلام، وهذا من بلاغة القرآن، ووصفه لواقع الحال الذي كان عليه الناس في نهاية حياة النبي ﷺ وعند مجيء الوفود، فقد كانت تأتي مجموعات متكاثرة متتابعة مسرعة إلى الإسلام دون تباطؤ، والتجمع بائن ليس في مجيئهم فقط بل في تجمعهم حول رسول الله ﷺ من الناحية الجسدية والمعنوية!!

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣)، الفاء واقعة في جواب الشرط، وأداة الشرط (إذا)، وفعل الشرط: ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فإن حصل ذلك؛ فنزه الله وأثنى عليه، وأكثر من حمده، وقد جمع بين التسبيح والحمد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ليدلنا على أن التسبيح تنزيه له وتقديس عما لا يليق، والحمد ثناء ووصف له بأكمل الصفات، ثم عطف الاستغفار على التسبيح والحمد، وهذا أدب من آداب الدعاء، فالاستغفار أصله دعاء، فلا تدعو ربك إلا بعد أن تزهه وتثني عليه، فسبح الله واحمده بالثناء العظيم عليه، ثم اطلب منه المغفرة، يستجب لك!!، ثم وصف الله نفسه بأنه التواب، الذي يقبل من عاد ورجع إليه، وهنا لفظة تربوية مهمة وهي: أن الله لما أشعر رسوله ﷺ بالنصر والتمكين والفتوحات، وأعلمه بقرب أجله، دعاه إلى أن يستغفر ربه، وأن يتوب إليه، وأن يكثر من الثناء عليه سبحانه، والحكمة من أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار في هذه السورة أحد أمرين: أن بعض النفوس قد يعثر بها نوع من ضعف الصبر أو ضعف التوكل على الله، أثناء تأخر النصر ووقوع الأذى والهزائم؛ فدُعيت تلك النفس إلى



الاستغفار عن ما أصابها في تلك المرحلة، أو أن بعض النفوس قد يعترها نوع من الزهو والأشر والبطر عند حصول النصر والتمكين، وهذا في حد ذاته فعل فيه معنى المعصية والنقص، يحتاج إلى استغفار، فوجه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى ذلك.

وقد امثل رسول الله ﷺ ذلك، وأظهر تواضعه ﷺ في دخول مكة بعد فتحها، فقد دخل ولحيته تكاد تلمس رَحْلَهُ من تواضعه وشكره وثنائه لله سبحانه وتعالى، ولما ظفر بقریش واجتمعوا حوله، قال لهم: "ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟"، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(١)، فلا مجال لمجازاة الناس بأعمالهم، إنما بالعفو والسماح، وهكذا يكون حال المنتصرين المؤمنين، فالنصر الحقيقي يتمثل بالعفو عن الناس ممن ظلم وأساء، حتى تُشعر الآخرين أنك إنما فعلت ذلك معهم من أجل إصلاحهم وهدايتهم إلى الحق، وهذا واضح، ومثل هذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في قصة يوسف عليه السلام، فقد ابتلي بعدة ابتلاءات، من مؤامرة إخوانه ودخوله الجُب، ثم بيعه عبداً، ثم اتهامه في القصر، ثم سجنه، وهذه كلها ابتلاءات بالضرأ، ولكنه عندما وصل إلى المُلْك والحُكْم، ترك فرحة النصر، وفرحة تحقيق الرؤيا واللقاء بالأبوين، والتفت إلى الله بقلبه ونطق بلسانه، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٢٠٠ / ٩)، برقم (١٨٢٧٦)، وضعفه الألباني في دفاع عن الحديث النبوي (ص: ٣٢).



الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ [يوسف: ١٠١]، فالأنبياء والصالحون المُخْبِتُونَ يخافون على أنفسهم من البطر وقت النصر، لأن القلوب أثناء التعذيب والابتلاء ترجو الله وتتعلق به، ولكنها عند التمكين والنصر ربما تزهو وتتكبر وتتغطرس، فتفعل أفعالاً لا تليق، فتتحرف عن مُراد الله سبحانه وتعالى.

ولذا ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يجمع أسياءً من بدر يستشيرهم، وكان يحضر معهم ابن عباس، فكأنه بلغه منهم عدم رضاهم عن هذا التصرف، فسألهم سؤالاً حتى يُظهر لهم مكانة ابن عباس في التأويل خاصة، فقد دعا له النبي ﷺ: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل" ^(١)، فقال لهم: ما تقولون في تفسير **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾** قالوا: أخبر الله رسوله أنه نصره وفتح عليه، قال: ما تقول يا ابن عباس - وكان أصغر القوم سنًا - فقال: هذا نعي من الله لرسوله ﷺ، وأن مهمته في الحياة قد اكتملت، وهي إبلاغ الرسالة، وقد بلغت، وجاء النصر والفتح فدخل الناس في دين الله أفواجًا، فهي إيذانٌ بقرب أجله، فوافقه على هذا التأويل عمر، وأقر شيوخ بدر الذين كانوا يحضرون مجلس عمر بفقه ابن عباس وذكائه وحسن عقله ^(٢)، وقد سبق أن بعض المفسرين سماها **سورة التوديع** من هذا التأويل الذي قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) رواه أحمد، ط الرسالة (٥/ ١٥٩ - ١٦٠)، برقم (٣٠٣٢)، وإسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٠٤)، برقم (٣٦٢٧) بنحوه.



فوائد وهدايات من السورة:

١- أن هذه السورة مع قِصَر آياتِها ووجازة ألفاظِها، فهي تحملُ لنا البشارات والإشارات، والأوامر والتوجيهات.

٢- جمع هنا بين النصر والفتح؛ ليشمل كل أنواع النصر: نصر المبادئ والقيم والظهور، وأيضًا استسلام العدو، وفتح البلدان والقلوب، ونشر الشريعة وتحكيمها في تلك البلدان.

٣- أن الأنبياء والصالحين يخافون على أنفسهم من البطر عند النصر، لأن القلوب أثناء التعذيب والابتلاء ترجو الله ومتعلقة به، ولكنها عند التمكين والنصر ربما تزهو النفس وتتكبر، فتفعل أفعالًا لا تليق؛ فأمرُوا بالتسبيح والتحميد والاستغفار، دفعًا لانحراف النفس في تلك الحالة.

٤- جمع بين التسبيح والحمد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ليدلنا على أن التسبيح تنزيهٌ له وتقديسٌ عما لا يليق، والحمد ثناءٌ ووصفٌ له بأكمل الصفات، ثم عطف الاستغفار على التسبيح والحمد، وهذا أدبٌ من آداب الدعاء.

٥- أن هذه السورة نعي من الله لرسوله ﷺ، وإيذانٌ بقرب أجله، وأن مهمته في الحياة قد اكتملت، بعد إبلاغه الرسالة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.



تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾.

شخصية السورة:

سورة المسد؛ سورة مكية ^(١)، نزلت في السنة الرابعة من البعثة ^(٢) على قلب النبي ^ﷺ، وكان سبب نزولها أن النبي ^ﷺ لما أمره الله بأن يجهر بالدعوة بعد أن كان يدعو سرًا، أمره الله تعالى أن يبدأ بإنداز عشيرته الأقربين، **فقام النبي** ^ﷺ **على الصفا، ثم نادى:** يا بني عبد مناف، يا بني هاشم، حتى اجتمعوا إليه، فلما اجتمعوا إليه، **قال لهم النبي** ^ﷺ "أرأيتم لو قلت لكم: إن جيشًا وراء هذا الوادي يُريد أن يُغير عليكم، أكنتم مُصدقين؟!" قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط، فقال: "فإني رسولُ الله إليكم بين يدي عذابٍ شديد"، فقام إليه أبو لهب - وهو عمه -، **واسمه:** عبد العزى بن عبد المطلب، أخو أبي طالب، فقال له: ألهذا جمعتنا، تبا لك ^(٣)، فانفض الجمع، وتألم النبي ^ﷺ من هذا الموقف السيء من أبي لهب الذي أفسد عليه الهدف من الاجتماع، فأنزل الله سبحانه

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥١٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٩).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١١١)، برقم (٤٧٧٠) بنحوه.

وتعالى على قلب النبي ﷺ هذه السورة فأعلنها في الحال.

وقد كان النبي ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يُسلم قومه، وأن يهتدوا بهديه، وأن يُنقذهم من النار، وكان يظن أنه سيصيرُ في هذا الاجتماع شيء من المحاوراة والنقاش والإقناع لعل أحداً من القوم يُسلم؛ فيؤازره ويقف معه، ولكن كان أبو لهب عاملاً من عوامل إفشال الاجتماع، ولم يُفشل الاجتماع فقط، بل دعا على النبي ﷺ فقال له: تباً لك، أي: هلاكاً وخساراً لك يا محمد، فحكم الله عليه هو بالهلاك والخسارة الأبدية في النار، فهذه مُلابسات نزول السورة.

وهذه السورة قصيرة المباني كثيرة المعاني، فهي خمسُ آيات فقط، لكنها لخصت سيرة رجل وزوجته، وحكمت على عيشتهما بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وهذا الرجل ليس غريباً، بل هو عم النبي ﷺ، وزوجته هي أم جميل بنت حرب، أختُ أبي سفيان، وقد كان أبو لهب من أشد الناس عداوةً لرسول الله ﷺ، وهو عمه! وكانت زوجته من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وكانت تُلقِي في طريقه الأذى والشوك، وكانت تسبه وتتكلم عليه، فغار الله سبحانه وتعالى لنيبه؛ فحكمَ عليهما بالخسران المطلق، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فقد عاش أبو لهب مع زوجته فترةً من الزمن بعد نزول هذه السورة، وكان بإمكانهما أن يُسلما، ولو ظاهراً، كحال كثير من المنافقين في المدينة، كان بإمكانهما أن يُعلنا الإسلام ويدخلا فيه من باب المُغالطة والمكر والخداع، فيُقال بعد ذلك: إن القرآن ليس صادقاً فيما أخبر، ولكن سبحانه الله!، ختم الله على قلوبهما فلم يُسلما، وهلكا على الكفر، والعياذ بالله.

وقد كانت هذه الواقعة أليمة على قلب النبي ﷺ، فظلم القريب غير ظلم



البعيد، وأثره في النفس شديد، **كما قال الشاعر:**

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع السهام المهند^(١)

فقد كان ينتظر منه أن يُؤازره، كما كان أبو طالب يُؤازره ويُدافع عنه ويمنع الأذى عنه، مع كفره، ولكن أبا لهب كان أول المشاركين في الأذية وإفشال الاجتماع، فكانت النتيجة المُحزنة شديدة على قلب نبينا محمد ﷺ؛ وكانت العقوبة على أبي لهب وزوجته شديدة وعاجلة، جزاء لفعلهما القبيح، ولم يمهلهما غيرهما من الكفار، وانتصر الله لرسوله ﷺ، بهذه السورة وأذهب عنه حُزنه!!

والعلاقة بين سورة المسد وسورة النصر؛ أن الله بشر النبي ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجاً وفتح القلوب لدينه، إلا أن هناك من لا يُفتح قلبه للإسلام وهو من أقرب الناس إليه، وهو عمُّه أبو لهب، فلا تحزن عليه، فقد عوّضك الله بأفواج من الناس الذي سيدخلون في دين الله، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن من لم يُكتب له الهداية والخير، ولو كان من أقرب الناس، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهديه^(٢)!!

وابتدأت السورة بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، **الكتاب هو:**

الخسران، **والتَّباب** أبلغ من الخسران، **فمعناه:** استمرار الخسارة دنيا وآخرة.

قال أهل اللغة: تَبَّتْ مثل تَبَّتْ، تَبَّ بمعنى: خسر^(٣)، تَبَّ بمعنى: انقطع^(٤)،

(١) البيت لعدي بن زيد ينظر: عيون الأخبار (ص: ٣١٠).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/٣٢٧-٣٢٨).

(٣) ينظر: العين (٨/١١٠).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة (١/٦٢).



وقد جاء اللفظان في آيتين، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣) ﴿هُود: ٦٣﴾، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَنْبِيٍّ﴾ (١٠١) ﴿هُود: ١٠١﴾، فالتخسير هو بمعنى التتبيب، ولكن التتبيب أبلغ بمعنى خسارة مستمرة غير مُنقطعة، وهذا واضح في أن الله حكم على أبي لهب بالخسارة المُطلقة دُنياً وآخرة، وعبر باليدين هنا لأن أغلب أفعال العبد تكون بيديه عطاءً ومنعاً ورفعاً وخفضاً، أو لأنهما أداة للكسب^(١)، والمقصود بهما ذاته كلها خسرانة، بدليل قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ أي: وخسر هو كله، فعبر باليدين وأراد كل الجسم، وقيل: أنه قال له: ألهذا جمعنا تباً لك، وكان بيده شيئاً فنفضه في وجه النبي ﷺ، فجاءت العبارة بالدعاء على يديه، لأنه مارس بهما أذىً مباشراً للنبي ﷺ، وعبر عنه هنا بالكُنية ولم يذكر اسمه؛ لأنه كان مشهوراً بكُنيتِه، فالتعبير بالكُنية أوضح، وقالوا: إنه أراد تحقيره، وقالوا: لأن اسمه عبد العزى، والقرآن يتعد عن التعبيد لغير الله، فلم يُرد أن يقول: تبَّت يدا عبد العزى، حتى لا يستدل الناس بذلك وأن القرآن قد أقر التعبيد لغير الله، وقال آخرون: إنما عبر بكُنيتِه لأن كُنيتِه تتوافق مع جزائه، وهو: أنه سيدخل ناراً ذات لهب، وكُنِّي بأبي لهب لجمال وجهه، فتوافقت الكُنية مع النهاية، فكان اللهب مُلازم له دُنياً وآخرة^(٢)!! .

لماذا لم تفتتح هذه السورة، بقوله: قل، كما قال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) ﴿الكاغرون: ١﴾؟

الجواب: قال بعض أهل العلم: السر في ذلك أن سورة: (الكاغرون)،

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٤٩).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (٣٢/ ٣٥٠).



كان الدفاع فيها عن توحيد الله، فأمر الله نبيه أن يُبلغ هذا الدفاع، أما في سورة: (المسد)، ففيها دفاعٌ عن الرسول ﷺ، فقال الله: أنا أُبلغه عنك، مُباشرةً^(١)!

وهل هذا الأسلوب، أسلوب إخبار، بمعنى أنه قد حصل له التب؟!، أم أنه أسلوب إنشائي يخبر عن حاله في المستقبل؟! **منهم من قال: الجملة الأولى** إخبارية، **والثانية إنشائية، ومنهم من قال العكس:** الأولى إنشائية، والثانية إخبارية، لقوله: وتب، **أي:** قد حصل تبابه، **ومنهم من قال:** الجملتان إنشائيتان، **ومنهم من قال:** الجملتان إخباريتان، والصحيح أنه هو إخبار، **بمعنى:** أن الله قد حكم على أبي لهب بالخسران المطلق، ولن ينسخ هذا الخبر، بل يستمر حكمه إلى يوم القيامة^(٢)، فهذا الفرق بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الإخبار، فأسلوب الإنشاء يدخله النسخ، وأسلوب الإخبار لا يدخله النسخ.

ثم قال الله عنه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾^(٣)، (ما) هنا قيل: استفهامية، **وقيل:** نافية، **وقيل:** مصدرية^(٤)، ولكل لفظةٍ معناها، والراجع أنها نافية؛ لأنها بيان لعدم حصول أبي لهب على فائدة من ماله وكسبه، وعبر بالماضي لوقوع ذلك، كما في قوله ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾^(٥) [الحاقة: ٢٨]، **وقوله:** ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾^(٦) [الليل: ١١]، وعبر هنا بالمضارع لاستمرار ذلك، فاكسابه للمال بدون إيمان، ما أغنى عن صاحبه في الماضي، ولن يُغني عنه في المستقبل، والمال لفظ يشمل كل ما تمّوله الإنسان من عقار ومزارع وأنعام

(١) ينظر: المصدر السابق: (٣٢) / (٣٥١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاعر (٢٤) / (٦٧٥).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢) / (٣٥١).



وكنوز ونقد ونحوها، سواء حصل عليها بكسبه أو بالوراثة أو بالهدية أو غيرها من الوسائل، والكسب هنا أعم من أن يكون مالا، فالكسب قد يكون سلطانا أو وجهة أو مكانة، ويدخل في الكسب الأولاد الذين يتقوى بهم، **كما جاء في الحديث:** "وإن أحسن ما كسبت أيديكم أولادكم" ^(١)، **والمعنى:** أن أبا لهب خسر كل شيء بسبب تكذبه لرسول الله ﷺ، فلا الولد ولا المال ولا الجاه ولا السلطان ولا المكانة ولا الجمال الذي كان فيه ولا القرابة من النبي ﷺ، نفعه، ولن يُغني عنه ذلك شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم أخبر الله عن مصيره المحتوم، وهو النتيجة الثانية للخسران، فقال:
﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ^(٢)، السين هنا للاستقبال، **وقيل:** تُفيد التوكيد مثل سوف، بمعنى أنه سيصلى بنفسه، أو سَتُصَلِّيهِ الملائكة النار، وتدخله إلى وسطها، كما في قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ ^(٣) [المدر: ٢٦]، فيكون مقر حياته في الآخرة داخل النار، الموصوفة بذات اللهب، **أي:** الذي لا يُفارقها ولا ينقطع عنها، **والمعنى:** أن أبا لهب سيصلى نارا لا ينقطع اشتعالها، فإن كلمة ذات تدل على استمرار الوصف، **أي:** ذات لهب مستمر في الاشتعال، وهذا يعني أنه مُخلد فيها.

ثم ذكر حال زوجته، فقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ^(٤)، وإنما عدل في ذكر لفظ زوجته إلى امرأته، لوجود خلل ونقص في الحياة الزوجية، إما حسي، أو معنوي.

وقد تتبع بعض الباحثين ^(٥) الفرق بين الأسلوبين في القرآن، فأحيانا تذكر

(١) رواه ابن ماجه (٧٦٩/٢)، برقم (٢٢٩٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) ينظر: الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل المحكم، للدكتورة: رجاء بنت محمد عودة.



الزوجة بلفظ امرأة، وذلك لوجود خلل حسي؛ كأن تكون غير صالحة للحمل، كما في قوله عن إبراهيم: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود: ٧١] وقوله عن زكريا: ﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، فلما أصلحها الله له، وحملت قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فسمّاها زوجة، أو لوجود خلل معنوي؛ كأن تكون المرأة مُختلفة في الدين مع زوجها، كما في قصة نوح وزوجته، ولوط وزوجته، فلفظ الزوجة يطلق على التي تتناسق نفسياً وحسياً مع زوجها في الدين الحق والتعامل الحسن، واكتمال صفاتها من حيث إنها ودودة ولودة.

قال هنا: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾، لأنهما اجتماعاً على دين باطل وعمل خبيث، فهذه لا يصلح إطلاق لفظ الزوجة عليها، فالزوجة هي التي تُوافقك على الخير وتُعينك على الطاعة، وتشترك معها في عملٍ يؤدي إلى السكينة والراحة النفسية والاطمئنان القلبي، فتنشأ بكما أسرة صالحة، فهذا معنى الزواج، وهو آية من آيات الله، كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فعُدل عن لفظ زوجة، لأن الأصل في الزواج الاجتماع على الخير، وأن يكون كل منهما لباساً للآخر، أما هذان الزوجان فقد اجتماعاً على الشر والأذية لرسول الله ﷺ، فأبو لهب؛ مشروعه التنفير حتى لا يجتمع الناس حول رسول الله ﷺ، ولذلك استمر في مشروعه ولم يتوقف بعد نزول هذه السورة، فلم يترك النبي ﷺ وشأنه، بل إذا علم بذهابه إلى سوقٍ من الأسواق التي كانت العرب تجتمع فيها، مثل سوق عُكاظ والمجنة وغيرها فإنه يذهب وراءه، فإذا قام النبي ﷺ يدعو الناس ويقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قام أبو لهب، ليقول: لا تصدقوه فإنه كذاب،



فيقولون: من هذا؟! فيقال لهم: هذا عمُّه، فيقولون: صاحب البيت أدرى بما فيه، فلا يستجيبون له^(١)، **أما زوجته؛** فقد تحولت إلى مؤذية لشخص النبي ﷺ، وكانت تُسميه مُذمِّمًا، ولا تُسميه محمداً، وتسب مذمِّمًا، **فقال** ﷺ: "إن الله حمى اسمي من سبها"^(٢)، وكانت تبحث عن الأشواك في أماكن الاحتطاب، فتحملها وتأتي بها فتضعها في الطريق الذي بين بيته والكعبة، من أجل تؤذيه تلك الأشواك عند خروجه ليلاً أو نهاراً، وكانت أيضاً تؤذيه بلسانها بالشتم والسب، ولذلك ذكر الله عقوبتها مع زوجها، كما اجتمعا معاً في الأذية لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾، **حمالة**، قرئت بالضم والفتح، فالضم على أنها صفة للمرأة، وبالفتح على الذم لها، بفعل محذوف تقديره أذم، وهو أبلغ^(٣)، فليس معها وصف أقبح من أنها تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ، والخطب هنا المقصود به الشوك.

وقد اختلف المفسرون في معنى هذه اللفظة^(٤)، فقيل: يُقصد سيئة اللسان والكلام وتمشي بالغيبة والنميمة والسب والشتم، وقيل: حمالة الشوك وواضعته في طريق النبي ﷺ، ولا مانع من الجمع بين المعنيين، فهي صاحبة لسان سيء وقلب حاقد، وتمشي بالغيبة والنميمة، وتؤذي محمداً ﷺ وتذمه، كما سبق ذكرها في تفسير قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(٥) [الضحى: ٣]، فهي

(١) رواه أحمد، ط الرسالة (٤٠٥ / ٢٥)، برقم (١٦٠٢٣)، بنحوه، وإسناده صحيح لغيره.

(٢) رواه البخاري (١٨٥ / ٤)، برقم (٣٥٣٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٦٧٨ / ٢٤).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٥٠٣ / ٤).



صاحبة مقولة: إن شيطانك قد تركك، كما أنها كانت تُؤذيه بفعلها، وهو حمل الشوك ووضعه في طريقه! فهذا وصفها القبيح في الدنيا.

ثم ذكر وصف حالها في الآخرة، فقال: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، الجيد هو العنق، والحبل معروف، **والمسد** الذي يُمسد، **أي: يُقتل** ^(١)، فالحبل لا يصير حبلاً حتى يُقتل ويُحبك من خيوط صغيرة جداً محبوكة إلى أن يصير حبلاً قوياً، والمعنى: أنها ستدخل النار مع زوجها، وسيُوضع في عنقها حبلٌ مفتول من النار الحارقة المؤذية؛ لأن النساء غالباً تتجمل بوضع العقد على رقبتها وفي عنقها، فوضع العذاب لها في موضع التجميل، والعلاقة بين فعلها بالدنيا وعذابها بالآخرة؛ أن الحطب لما يُحمل يحتاج إلى حبل يربط به، وقد كانت تستخدم حبلاً لتربط به الشوك، وكانت تعلقه في رقبتها قبل تجميع الحطب وبعد نثره في طريق رسول الله ﷺ، **وقيل: لأنه كان معها قلادة**، وكانت تتزين بها، وقالت: سأُنْفِقُها في مُحاربة محمد، فذكر الله هذه القلادة وجعلها أحد أسباب تعذيبها في الآخرة ^(٢)، وإذا وضع الحبل في الرقبة؛ فمعناه اقتيادها به، بعد أن تغل وتربط وتُقيّد به، **كما جاء في قوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾** ^(٣٢) [الحاقة: ٣٢]، فانظر إلى بلاغة القرآن كيف يُنهي حياة امرأة بهذا الوصف في الدنيا وفي الآخرة، وفي آيتين فقط!!

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٥).



فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة جاءت تسليّة للنبي ﷺ، مع أن طبيعة المنهج القرآني في المرحلة المكية هو مُلاطفة الكفار والصفح والعفو عنهم، إلا في هذا الموقف؛ فكان شديدًا وحاسمًا على هذا الشخص وزوجته في إعلان الهلاك والخُسران لهما والحُكم عليهما بالنار، ولا مجال للتراجع في هذا الخبر؛ وذلك لقبح صنيعهما، وتحذيرًا لغيرهما من هذا السلوك القبيح!

٢- في هذه السورة بيان أن العلاقة بين الناس هي العقيدة، ولا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وأن القرابة لو كانت تنفع أحدًا لنفعت أبا لهب، وهو عم النبي ﷺ، فباللحشبي أفضل عند الله من أبي لهب الهاشمي، لأن هذا مؤمن وذاك كافر.

٣- في بداية مرحلة الدعوة كان احتياج النبي ﷺ إلى أقاربه وأعمامه ومن حوله كبيراً؛ ولكن لا مجال ولا مكان لمن سلك طريقاً غير التوحيد والاتباع ولو كان أقرب قريب، فقد حذر النبي ﷺ من ذلك أقاربه حيث قال: "يا صفية يا عمّة رسول الله اعلمي فلن أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة يا بنت محمد اعلمي فلن أُغني عنك من الله شيئاً، يا بني هاشم، لا يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، اعملوا فلن أُغني عنكم من الله شيئاً" (١).

(١) رواه مسلم (١/١٩٢)، برقم (٢٠٤).



تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾.

شخصية السورة:

سورة الإخلاص؛ سورة مكية^(١)، وُسِّمَتْ بسورة الإخلاص؛ لأنها دعت إلى إخلاص العبادة له سبحانه، أو أنها كانت خالصةً للحديث عن الله سبحانه وتعالى.

وقد جاء في فضلها أنها تعدل ثلث القرآن، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ، **والعلة** في كونها تعدل ثلث القرآن: أن القرآن احتوى على ثلاثة مقاصد رئيسية، **هي:** بيان العقائد، وبيان الأحكام التشريعية، وذكر القصص والأخبار، وهذه السورة مُختصة بالمقصد الأول، وهو الحديث عن الله أو ما يُسمى بعلم العقائد، وقد أخذ حيزاً واسعاً من ألفاظ وآيات القرآن الكريم، وهو من أوسع

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥١٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٨/ ١٣١)، برقم (٦٦٤٣).



الأقسام، وأفضلها^(١).

ومن فضلها أن النبي ﷺ كان يُصلي بها مع سورة (الكافرون) عددًا من الصلوات، مثل: ركعتي الطواف، وركعتي سُنة الفجر، فكان يقرأ في الركعة الأولى سورة (الكافرون) وفي الثانية سورة (الإخلاص)^(٢)، وكان يختم بها ركعة الوتر^(٣)، **وجاء في فضلها أيضًا:** أن رجلاً كان يُصلي ويقرأ ما تيسر من القرآن، ثم يختم القراءة في كل ركعة بسورة الإخلاص، فسأله النبي ﷺ عن فعله هذا، فقال: لأنها صفةُ الرب، وإني أحبها، فقال له النبي ﷺ: "إن حبَّها أدخلك الجنة"^(٤)، وفضائلها كثيرة.

وقد جاء في سبب نزولها: أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ، أن ينسبَ لهم ربه، فقالوا: يا محمد انسبْ لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾^(٥)، **وقيل:** إن اليهود هم الذين سأله^(٦)، فتكون السورة مدنية، **وقيل:** إن النصاري هم الذين سأله وخاصة نصاري نجران، لما أتوا إلى المدينة في عام الوفود^(٧)،

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥ / ٥٠٥).

(٢) سبق تخريجه في تفسير سورة (الكافرون)

(٣) رواه الترمذي ت شاكر (٢ / ٣٢٥ - ٣٢٦)، برقم (٤٦٢)، حكم الألباني: صحيح.

(٤) رواه البخاري (١ / ٢٦٨)، برقم: (٧٤١) ومن طريقة رواه الترمذي (٥ / ١٦٩)، برقم:

(٢٩٠١) بنحوه.

(٥) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤ / ٦٨٧).

(٦) ينظر: المصدر السابق: (٢٤ / ٦٨٨).

(٧) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢ / ٣٥٧).



والراجع الأول، وأنها نزلت بمكة، وذكرها في المدينة جاء على سبيل الاستدلال بها حين سألته اليهود أو النصارى في المدينة فأجيبوا بنفس الإجابة، وقد اعتادت البشرية أن تعبد آلهة وتنسبها، فاليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فرد الله عليهم هذا الإفك والافتراء، بأن الله لم يلد ولم يولد، **وهذه السورة تبين** الوصف الأمثل والأكمل لله سبحانه وتعالى، وقد أمر الله رسوله ﷺ بإبلاغها للناس، فقال الله له: ﴿قُلْ﴾ قل يا محمد، **أي**: أبلغ هذا القول للناس، وهذا يدل على أن القرآن الكريم كلام الله، وأنه ليس كلام محمد، بل هو وحي أوحاه الله إليه، وهو مبلغ له، ويبقى لفظ ﴿قُلْ﴾ كما هو عليه؛ حتى لو مات المأمور بالقول؛ لأن بعض الناس بسبب جهله، يقول: "ما دام قد توفي الرسول فلا داعي أن نقول: قل، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) [الفلق: ١]، وغيرها من الآيات، لأن الخطاب كان له، وقد مات، أما الآن فنقول: الله أحد!!، وهذا جهل وهراء باطل، فإن القرآن كلام الله لا يزداد فيه ولا ينقص منه، لا في عهد النبي ﷺ، ولا بعد وفاته ﷺ.

وقوله: ﴿هُوَ﴾، ضمير الشأن عند أهل اللغة، وهو يفيد الاختصاص والتعظيم، والمقصود به الله سبحانه وتعالى (١)، ولذا صرح باسمه بعده، وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً، كما في أواخر سورة الحشر، وغيرها.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾، لفظ الجلالة، **يُقال**: لفظ الجلالة؛ لما فيه من الجلال

(١) ينظر: شرح شذور الذهب للجوجري (١/ ٢٨٥).



والكمال والبهاء والمهابة، فقد منع الله التسمية به منذ أن خلق السموات والأرض، فلا تجد أحداً تجرّأ وسمى ولده باسم: الله، أو سمي نفسه الله، حتى فرعون مع طغيانه إلا أنه ما تجرّأ على أن يطلق هذا اللفظ على نفسه، واستخدم لفظ (الرب)، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، واستخدم لفظ الإله، كما في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ [لقصص: ٣٨]، ولذلك قال الله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، فلا يوجد أحد تسمى بهذا الاسم غيره سبحانه وتعالى، فهو ذو الجلال والبهاء والجمال والكمال سبحانه، ولفظ (الله) هل هو جامد أم مشتق؟! **من أهل اللغة من قال:** مشتق، ومنهم من قال: جامد، فإن كان مُشتقاً فمُشتقٌّ من ماذا؟ **الجواب:** من أَلِهَ، وهو ما تألهه وتُحبه وتعبد القلوب^(١)، واسم (الله) قد تكرر في القرآن ألفين وستمائة وتسعة وتسعين مرة، بحسب الإحصاء الإلكتروني، وعدّها الشيخ فؤاد عبد الباقي في كتابه المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ألفين وستمائة وسبعة وتسعين، فأنقص اثنتين، وهذا التكرار للفظ (الله) بدون أن يضاف إليه اللهم، أو الرب أو الرحمن أو غيرها من الأسماء والصفات الأخرى، مما يدلنا على عظمة هذا الاسم، وأنه اسم علم على الذات الإلهية، ولما قيل لسيبويه: عرّف الله، قال: الله أعرف المعارف^(٢)، فلا تقل ما الله، فهو اسم من أعرف المعارف، وإنما يُحاول من يكفر به أن يتهرب منه إلى غيره، ولذلك لما سأل فرعون موسى، قال: ﴿وَمَارِبُ الْعَلَمِينَ

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ص: ٩).

(٢) ينظر: معنى لا إله إلا الله - الزركشي (ص: ١٠٦).



﴿٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣]، وهو تهرب واضح من السؤال عن معنى لفظ (الله) لوضوح معناه في نفوس الخلق.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، ذكر هنا صفة الوجدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، وتعني: المتفرد في كل شيء، المتفرد في الذات، وفي الفعل، وفي الاسم، وفي الصفة، المتفرد في الكمال والجمال والبهاء والجلال، المتفرد في كل ما يختص به سبحانه وتعالى، ففي باب الربوبية انفردت أفعاله، فلا يشابهه ولا يشاركه فيها أحد، فهو المتفرد بجميع أفعاله من الخلق والرزق والنفع والضّر وغيرها، وفي باب الأسماء والصفات، انفردت أسماؤه وصفاته بالكمال المطلق، فلا يُشبهه أحد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وفي باب الألوهية انفرد باستحقاق العبودية من الخلق، فلا يستحق أحدُ العبادة غيره، وإن عبّد غيره فبدون حق، وعبادته باطلة، فهذه هي القضية الأولى التي ركزت عليها السورة، وهي الوجدانية، وتفصيلها في كتب العقائد.

ثم جاءت الآية الثانية تتحدث عن قضية أخرى، وهي الصمدية، فقال: ﴿اللَّهُ

الصَّمَدُ﴾ ﴿٢﴾ ومعناه الذي تصمّد إليه، وتلتجئ وتحتاجه الخلائق، ولا يستغني عنه أحد طرفة عين، فالكل قلبه مُعلق بالله، ومُحتاجٌ إلى الله، حتى هذه المخلوقات من الجمادات لا تستغني عنه، فهو الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الذي يُمسك الطير في جو السماء، و﴿هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، فالخلائق كلها تحتاج إليه، وتعيش بفطرتها مُحتاجة إلى العبودية له والتعلق به والالتجاء إليه، ولو تدنست فطرة البعض ولجأوا إلى غير



الله في وقت الرخاء، لكنهم في وقت الشدة يعودون بفطرتهم إليه من جديد، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (لقمان: ٣٢)، وهذا ما نطق به حُصَيْن والد الصحابي عمران بن حُصَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كم تعبد؟ قال: ستة! خمسة في الأرض، وواحد في السماء، فقال: لمن تلجأ وقت الشدة؟ قال: للذي في السماء^(١)، أي: الله سبحانه وتعالى، فالصمدية إذن: حاجة الخلق من جمادات وحيوانات وبشر وجن وملائكة وسائر المخلوقات إلى الله وفقرها إليه، فالذات المخلوقة فقيرة إلى ذات الخالق، ومُحتاجة إليه سبحانه، والله غني عنهم، كما قال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، وقال قتادة وغيره: الصمد؛ الذي لا يأكل ولا يشرب^(٢)، وهذا كقوله، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: ١٤)، وقيل: الصمد: السيد الذي يسود الخلق^(٣)، ويخضعون له، وهذا كله من التفسير بالمثال، والتفسير بمُطلق الحاجة من الخلق إلى الله ومُطلق الغنى من الله عن خلقه أُلِّقَ بلفظ الصمد، ولعل التسمية بسورة الإخلاص، جاء من معنى الصمدية التي تدل على الحاجة والالتجاء والفرع إلى الله والإقبال عليه سبحانه في كل شيء.

وقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، الولادة، تعني: لم يحصل أن ولد

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٥١٩)، برقم (٣٤٨٣)، وقال الألباني: ضعيف.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٦٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٩٢).



غيره، ولا وُلِدَ من غيره، واختير هذان اللفظان: لأن الوالد والمولود فيهما إشارة إلى الحاجة إلى الغير، وفيهما الترقى من صفات الضعف إلى القوة، فالولادة عملية شاقة، فيها ألمٌ واحتياج إلى المساعدة، وفيها مظنة الهلاك، وكم من ذات حملٍ تموتُ في ولادتها، وفيها معنى النقص، والمولود أيضاً يُولد ضعيفاً ويحتاج إلى من يرعاه ويُرضعه ويُربيه، حتى يقوى وينمو ويكبر، ثم يشيب ثم يضعف ثم يموت، فهي تتحدث عن العدم ومراحل وجوده ثم النهاية ومراحلها، **فمعنى الآية:** أن الله أزلني أبدي، فكل مولود ما دام جاء من العدم؛ فسيذهب إلى العدم، فقبل ما تأتي سنة كنت لا شيء يُذكر، **كما قال:** ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أما الله فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وهو الغني عن خلقه، وفي هذا ردٌ على المشركين الذين ادعوا أن عيسى ابنُ الله، وعزيراً ابنُ الله، والملائكة بناتُ الله، وكل هذا كذبٌ وافتراء، فالله لم يلد ولم يولد، **كما قال:** ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]، فالصاحبة هنا الزوجة، فمن أين يأتي الولد بدون زوجة؟!، وهذا يدل على تناقض الكفار في دعواهم!!

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، أي: لم يكن له مثل ولا نظير ولا مُشابه ولا مُكافئ، وهذا يدل على إثبات الأحدية مرة أخرى، أحدية الأسماء وأحدية الصفات، فلا يُشابهه أحد، وليس له مثل ولا نظير في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله، ولذلك جاء الشرع بتحريم بعض الأعمال التي فيها تشبيه بأفعال الله، مثل عمل التماثيل، فالذين يصنعون هذه التماثيل يبعثهم



الله يوم القيامة ويقول لهم: أحيوا ما خلقتكم^(١)، وأنى لهم ذلك؟!، فهم بفعلهم هذا يُضاهون خلق الله، ويُشابهون فعل الله، فيطألبون يوم القيامة بأن ينفخوا فيها الروح.

والذين أشركوا بالله وقعوا في الشرك لأحد سببين: الأول: إما شبّهوا المخلوقين بالخالق، أو شبّهوا الخالق بالمخلوقين، فتشبيه الخالق بالمخلوقين ينتج عنه شرك الأسماء والصفات، **مثل أن تقول:** لله يدٌ كيدي، أو وجهٌ كوجهي، فهذا تشبيه للخالق بالمخلوقين، والله ليس كمثله شيء، وليس له نظير ولا شبيه.

والثاني: تشبيه المخلوقين بالخالق، وينتج عنه الشرك في الألوهية مثل أن ترفع المخلوق إلى درجة الخالق، فتدعو المخلوق وتذبح للمخلوق، كما تذبح لله، كمن يرفع الأولياء والصالحين ويجعل منهم آلهة يعبدها ويتقرب إليها كما يتقرب إلى الله، فالشرك الذي وقع في البشرية نوعان: إما شركٌ في القصد والطلب، ومن آثاره تشبيه المخلوقين بالخالق، حيث صرفوا للمخلوق ما يُصرف للخالق من أنواع العبادات كالنذر والسجود والطواف وسائر العبادات التي لا تكون إلا لله، أو شرك في المعرفة والإثبات وهو أثر لتشبيه الخالق بالمخلوقين في أسمائه وصفاته وأفعاله، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، **فالواجب** أن نثبت له الأسماء والصفات كما يليق به سبحانه، فنقول: الله سميعٌ سمعاً يليق بجلاله، ورحيمٌ رحمةً تليقُ به، وهكذا في سائر الصفات نثبتها كلها على ما يليق به سبحانه.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣/٦٣)، برقم (٢١٠٥).



وهذه السورة على قِصَر آياتها إلا أنها تُحدثنا عن أعظم علم، وهو العلم بالله، وهي تعدلُ ثلث القرآن، أي: في الجزاء والثواب، لا في الإجزاء!!، ما الفرق بين المسألتين؟! **الجواب:** لو أن شخصاً كسلاناً قال: بدلاً من أن أشغل نفسي بقراءة ثلاثين جزءاً؛ سأقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، وتُغنيني عن قراءة القرآن كله، فهذا إن أخلص مأجور، لكنها لن تُجزئني عن قراءة المصحف كله، فلا يغتر الإنسان بأحاديث الجزاء ويُعممها في باب الإجزاء، أو أن يقول أحدهم مثلاً: أنا إن شاء الله سأذهب أصلي في الحرم المكي صلاةً واحدة بمائة ألف صلاة، فهل تُجزئني عن مائة ألف فريضة؟! **الجواب:** لا، فهذا الفهم يحتاج أن يستوعبه الناس، لأنهم من كسلهم هذه الأيام صاروا يبحثون عن الإجزاء فحسب، حتى إنك تسمع في أسئلتهم: هل يُجزئني أن أفعل كذا، فالإجزاء غير الجزاء، فالجزاء يحتاج إلى إخلاص، وإحسان ظن بالله، وإتقان للعمل، ومتابعة للسنة حتى يُكتب لك الأجر ويضاعفه، لكن الإجزاء يسقط به الواجب فقط!!

فوائد وهدايات من السورة:

١ - سورة الإخلاص نزلت في مكة، فكانت عنواناً للدعوة إلى التوحيد، وقد كانت الآلهة متعددة، تجاوزت ثلاثمائة وستين صنماً، ولكل قبيلة إله، فجاءت لتجمع الناس تحت راية التوحيد والوحدانية، والعقيدة الصحيحة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢ - من خلالها يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع الله، فأعظم أنواع العلم النافع هو العلم بالله، فتتعرف على الله من خلال: أسمائه، صفاته، أفعاله، نعمه، التفكير



في آياته الكونية أو الآيات الشرعية، فإذا تعرفت على الله ستجد أن الله سبحانه وتعالى ذو الجلال والبهاء والجمال، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، وهو الغفور الرحيم، وهو الإله البر الرحيم اللطيف، فتُحبه، فإذا أحببته؛ تعبَّدت له، وازددت قُرْبًا منه.

٣- أن الآيات التي تتحدث عن الله تمنحك أصول العبادة الثلاثة: وهي الحب والرجاء والخوف، فإذا أحببته وخِفته ورجوته فأنت تسير إلى الله بهذه الأصول الثلاثة جميعاً، وقد مثَّلها أحد أهل العلم برأس الطائر وجناحيه، فالحُب الرأس، والجناح الأيمن الرجاء، والأيسر الخوف، فهو يطير بها جميعاً، ولو قُطع رأسه لمات، ولو كُسِر أحد جناحيه سقط وفقد توازنه، فهذه هي العبادة الحقة.

٤- أن عبادة الله بالخوف فقط؛ هي عبادة الخوارج، الذين غلبوا جانب الخوف فقط، وهناك قوم يعبدون الله بالرجاء فقط، وهم المرجئة الذين غلبوا جانب الرجاء فقط، وهناك قوم من الزنادقة يقولون: نحن نعبد الله بالحب فقط، ولسنا خائفين لا من نار ولا نريد جنة، بل يقولون: نحن نعشق الله، والعشق لا يجوز مع الله، فأعلى درجات العلاقة بين العبد وربّه هي العبودية، ولو وُصف أحدٌ بأحسن وصف غير العبودية لُوصف به محمد ﷺ، كما قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، في أحسن موقف وأشرف موقف وصفه بالعبودية.

وهؤلاء الثلاثة الأصناف على ضلال في مفهوم العبادة، ولذلك فالصحيح

في مفهوم العبادة: أن تعبد الله حباً وخوفاً ورجاءً، وتجمعها الثلاثة مع بعضٍ وأنت مُتوجه إلى الله، تتوجه إليه حباً له ورجاءً فيه وخوفاً منه.!!



تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ

﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الفلق؛ سورة عظيمة، وهي سورةٌ مُختلفٌ في سبب نزولها ومكان نزولها، هل نزلت في مكة، أم نزلت في المدينة؟!، **والراجع** أنها نزلت بالمدينة^(١)، فقد ورد أن النبي ﷺ سُحر، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتين، ويخيّل إليه أن يفعل الشيء وما يفعله، فبينما هو ذات يوم نائم أتاه ملكان، ففقد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبَّ؟ قال: سُحِر، قال: ومن سَحَره؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: وبم طَبَّه؟ قال: بِمُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قال: وأين هو؟ قال: في جُفٍّ طلعةٍ تحت راعوفةٍ في بئر ذروان، والجف: قشر الطلع. والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقّي عليها، فانتبه رسول الله ﷺ فقال: "يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي"، ثم بعث علياً،

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/٥٠٧).

والزبير، وعمار بن ياسر، فتزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا الصخرة، وأخذوا الجُفَّ، وإذا فيه مُشَاطة رأسه، وأسنان مشطه، وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خِفةً حين انحلت العُقْدَةُ الأخيرة، وجعل جبريل يقول: بسم الله أريقك من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين، والله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث فنقلته؟ فقال: "أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شرًّا" (١).

تنبيه: بعض الناس ينكرون أن النبي ﷺ سُحر، لماذا؟ قالوا: لو سُحر لأثر ذلك على إبلاغ الرسالة، والجواب: أنه سُحر، ولكنه سحرٌ خاص يتعلق بعلاقته بأهله فقط، كما قالت عائشة: "كان يُخَيَّلُ له أنه يأتي الشيء ولم يأتِه" (٢)، فهذا هو الذي حصل له، وهو نوع من سحر التخيل، فكان يُخَيَّلُ إليه مثلاً أنه نام مع زوجته وهو لم ينم، وهذا التخيل ليس له أثر على الرسالة والبلاغ، وليس له أثرٌ على عقل النبي ﷺ، وإنما هو نوع من الابتلاء حصل له ليُعَلِّمَنَا كيف نتعالج منه!!

وهي سورة قصيرة المباني كبيرة المعاني، ورد في فضائلها عدة أحاديث، وتُقرأ في الصباح وفي المساء وبعد الصلوات وعند النوم وعند الرقية، وفضائلها كثيرة.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٧). ورواه البخاري (٨/ ٨٣)، برقم: (٦٣٩١)، بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٢٢)، برقم (٣٢٦٨) بنحوه.



والمقصد الأعظم للسورة هو: بيان ضرورة الالتجاء إلى الله والاستعاذة به سبحانه وتعالى من أربعة شرور يتعرض لها الإنسان في نفسه وبدنه.

والمناسبة بين سورة الفلق وسورة الإخلاص، أن الله لما ذكر في سورة الإخلاص أوصافه، ومنها: أنه الأحد الصمد الذي تصمّد إليه الخلائق، أمرهم في سورة الفلق بالاستعاذة به لحمايتهم من شرور الجن والإنس والنفوس الخبيثة والسحرة والساحرات الذين يؤذون الناس؛ فهو وحده الذي يلتجئ إليه العبد ويستجير به من هذه الشرور.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١﴾، أي: قل يا محمد: أستجير وألتجئ وأستعيذ، أستعيذ بالرب سبحانه وتعالى، عبّر هنا بالرب ليستحضر الإنسان ضعفه وحاجته إلى الله، فالرب هو المربي وهو الخالق، والإنسان هو الضعيف الذي يحتاج إلى من يُربيه ويقف بجواره ويعتني به ويرعاه، واختار من الخلق الفلق، وأضاف الرب إليه، **وفي معناه قولان للعلماء:**

الأول: أنه الصبح، كما في قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

والثاني: أن الفلق المقصود بهم الخلق كلهم^(١)، لكن القول بأن الفلق هو الصبح أرجح^(٢)، لعلاقة التناسب بين هذا اللفظ ومعناه، فالفلق هو الصبح الذي يُزال به الظلام، والشرور التي تُصيب النفس ظلامٌ وألمٌ وتعبٌ، فكان التناسق بين لفظ الفلق والاستعاذة برب الفلق، مما يتقابل ويتناقض مع الفلق، وهو من

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاکر (٢٤/ ٧٠١).



براعة الاستهلال، ويشعر بالتفاؤل، فتفاءل أيها العبد المكلوم باستعاذتك برب
الفلق، فكما فلّق الله الصبح فطار الظلام وجاء النور؛ فسيطير منك البلاء،
ويذهب عنك العناء، ويأتيك الفرح والسرور، وينشرحُ صدرك ويستضيء، كما
ينشرح اليوم ويستضيء بضوء الصباح!!.

فيستعذ الإنسان بالله رب الفلق من شرور أربعة:

الأول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٢)، وستلاحظون أن لفظة الشر مُكررة في أربع
مرات في السورة، **والشر:** نقيض الخير، فما ليس فيه خير، أو فيه خيرٌ قليلٌ
وشره كثير فهو شر، والشر مأخوذٌ من الشرر^(١)، والشرر نوعٌ من النار
المتطاير التي لو أصابت الثوب أحرقته، ولو أصابت الجسد آذته، وهو
متنوع، وهو من ضمن خلق الله سبحانه وتعالى، والصحيح أن الله لا يُنسب
إليه الشر تنزهاً وتادباً معه، وهو خالق الخير وخالق الشر، فلا يوجد في هذا
الكون شيءٌ بدون إذنه، خلافاً لما تقوله المعتزلة من أن الشر يُوجد بدون
إذن الله، ولا يعلمه الله إلا بعد وقوعه من البشر، وهذا الذي جعل أهل العلم
يُسمون المعتزلة بالثنوية، **لأن الثنوية فرقة من المجوس تعبد إلهين:** إله النور وإله
الظلمة، وهؤلاء بقولهم هذا القول يلزمهم أن هناك خالقين للكون: خالقاً للخير
وخالقاً للشر، وهذا باطل، فالله خالق كل شيء، وتفسر النصوص التي تنسب الشر
إلى غير الله، كما في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]،
وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، **وكما جاء في الحديث:**

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١١/ ١٨٦).



"والشر ليس إليك"^(١)، كل ذلك تأديباً مع الله، أو باعتبار أن الشر صادرٌ منك، وأنت سببه، أما الله فخلقه كله خيراً محظ، لكنه سيكون شراً بحسب من يقع عليه، فانظر مثلاً: المطر خيراً، ولكنه على بعض المخلوقات شراً، مثل: النمل والذر والحشرات وغيرها، حيث يهدم بيوتها، ولا تريد هذا المطر وتعتبره شراً محضاً، وهكذا بعض البشر بحسب حاله، إن كان يحتاج إليه يعتبره خيراً، وإن كان لا يحتاج إليه يعتبره شراً، وهكذا في سائر الأمور، فالله سبحانه وتعالى قد يُصيّبك بالمرض، فأنت تعتبر المرض شراً، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة قد يكون ما قدره عليك من المرض خيراً لك إن صبرت واحتسبت، فهو تكفير للذنوب والسيئات، ورفع للدرجات، فقد جاء في الحديث: "حتى الشوكة يُشاكها، يُكفر عنه من خطاياها"^(٢)، وقد اختلق المفسرون في معنى قوله: ﴿مَا خَلَقَ﴾، فقال بعضهم: المقصود به إبليس وذريته، فإنهم شر الخليقة.

وقال آخرون: بل المقصود به العموم^(٣)، أي: من شر كل مخلوق فيه شرٌ، حتى من نفسك، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يفتح الخطبة، فيقول: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا"^(٤) وكان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه أو وشركه"^(٥)، فتستعيذ بالله من شر نفسك، ومن

(١) رواه مسلم (٥٣٥ / ١)، برقم (٧٧١).

(٢) رواه البخاري (١١٤ / ٧)، برقم (٥٦٤٠) بنحوه.

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٥٠٨ / ٤).

(٤) رواه الترمذي، ت شاكر (٤٠٥ / ٣)، برقم (١١٠٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٥) رواه أبو داود (٣١٦ / ٤)، برقم (٥٠٦٧)، وقال الألباني: صحيح.



شر عملك، ومن شر خواطرك ووساوسك، خاصة إذا كانت النفس أُمارة بالسوء فشروؤها كثيرة، فتكون الاستعاذة من الشر عامة فيشمل شرور كل الخلق الصادرة منهم، بمن فيهم إبليس والنفس الأُمارة بالسوء وغيرهم، فيكون العموم في اللفظ هو الراجح^(١).

النوع الثاني من الشر المذكور في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، كرر لفظة الشر وجاء بلفظ إذا التي تفيد الظرف، والمُستعاذ منه هنا: هو الغاسق، وهو الليل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وُسُمي الليل غاسقًا، لأنه يدخل بظلامه فيُغطي نور النهار ويصير الليل غاسقًا أي: مُظلمًا، **وقال بعضهم: الغاسق؛ القمر^(٢)، وقد صح ذلك في حديث النبي ﷺ** عن عائشة لما أراها القمر، وقد اختبأ، قال: "هذا الغاسق إذا وقب"^(٣)، **ولكن أهل العلم يُرجحون:** أن المقصود بالغاسق هنا؛ الليل وأن القمر أحد أدواته^(٤)، وأحد آيات الليل، كما قال الله: ﴿فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمر أحد آيات الليل، فالغاسق هو الليل، ومطلوب من العبد أن يستعيذ برب الفلق من شر الليل إذا دخل وأقبل بظلامه، **والعلة في ذلك:** أن الليل إذا دخل بظلامه وانتشر ظلامه وسكن الناس؛ تحركت الوحوش، وتحركت الشياطين، وتحركت الحيوانات المؤذية والمفترسة،

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٨).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠٣).

(٣) رواه أحمد، ط الرسالة (٤٠/ ٣٧٩)، برقم (٢٤٣٢٣)، وقال المحقق: حديث حسن.

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠٤).



فوقت نشاطها هو الليل^(١)، وهذا مشاهد، حتى شياطين الإنس ينشط أكثرهم في الليل، فالناس ينامون وهم يسهرون وأثناء سهرهم يجري من الأذى منه لأنفسهم وللآخرين ما الله به عليم، وهم بهذا يشابهون سائر المستعاذ منهم من أهل الليل الذين ينشطون في الليل، فالحيوانات تخرج لتبحث عن صيدها في الليل، حيث خلق الله لها ما يُيسر لها عيشتها في الليل من النظر والرؤية في ظلام الليل، والبحث عن فريستها، ولأن النهار معاش للناس وحركتهم، والليل سكن لهم، وأما من يسكن في النهار من المخلوقات، فتنشط في الليل، وليس كل الليل شراً وإنما هناك أوقات أو أحوال يصدرُ بها الشر أو يقع فيها الشر في الليل، وهناك أوقات يحصل فيها خير، وخاصة في الثلث الأخير منه حيث تنزل الرحمات، وتقبل الدعوات من المُستغفرين بالأَسحار، فهذا كله خير، ولذا قيده بـ(إذا) الظرفية فاستعد من شر الليل إذا حل ظلامه!!، ومن شر الليل أن يتسلط عليك إبليس؛ فيجعلك تنام ولا تقوم إلى صلاة ولا تستغفر، فهذا كله من الأمور التي تجعل الليل محلاً للشر.

النوع الثالث من الشر، في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، لم

يُقيّد هذا الشر بـ(إذا) الظرفية، بل جعله مُطلقاً، لأن النفثات عملهن كله شر.

والنفثات هُنَّ: السواحر، جمعُ نفْثَة، وهي التي تنفث، والنفث هو: ما

يخرج من الفم من ريق مع الهواء^(٢)، فإن ذهب الريق وبقي الهواء فقط فهو

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨٢١).

(٢) يُنظر: الغريبين في القرآن والحديث (٦/ ١٨٦٦).



النفخ، **ومنه حديث:** "نهى عن النفخ في الإناء"^(١)، وفي الرقية يُفَضَّلُ أن يُكْثَرَ الهواء ويقلَّل من الريق، ليكون نفثاً، **وقد** "كان النبي ﷺ، عند النوم، يفتح فيه فيقرأ فيهما المعوذتين وقل هو الله أحد، ثم ينث فيهما، ثم يمسح بهما وجهه وما ظهر من جسده"^(٢).

وما المقصود بالنفاثات قيل: هن النساء الساحرات وخُصصن بالذكر لأن سحرهن أخطر وأخبث^(٣)، ورجَّح هذا القول ابن تيمية^(٤)، وردّه تلميذه ابن القيم، **وقال:** أن المقصود بالنفاثات هنا: الأرواح والنفوس، وكلاهما مؤنث، والنفوس الخبيثة والأرواح الخبيثة موجودة عند الرجال وعند النساء، ولا فرق بينهما^(٥)، وهذا لا شك تعليل قوي ووجيه؛ فالأرواح والأنفس الخبيثة التي يحملها الساحر، سواء كان رجلاً أو امرأة، هي التي تنثُ الهواء مع الريق، وتقول كلاماً باطلاً، تعلّمه السحرة من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولا يمنحوه القدرة على السحر إلا بعد أن يكفر، كما قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿فِي الْعُقَدِ﴾، العقد: جمع عقدة، وتكون في الخيوط والحبال

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٣٠٤)، برقم (١٨٨٨)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٤٧٣)، برقم (٣٤٠٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٧٤).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧).

(٥) ينظر: التفسير القيم لابن القيم (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).



والأشياء اللينة، لاستحالة ذلك في غيرها، **كما في الحديث:** "من أرى عينيه في المنام ما لم ترَ كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين" ^(١)، أي حبتين من شعير، وليس بفاعل، وهنا جاء الأمر بالاستعاذة منهن مطلقاً؛ لأن شرهن مُستمر، فعلى المسلم أن يستعيز بالله ويستجير به من شر النفاثات في العقد في كل الأوقات!

النوع الرابع من الشر، في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ، هذا الشر أيضاً قيّده بالظرف إذا، والحاسد هو الشخص الذي يحمل في قلبه الحسد، وهو: تمنى زوال النعمة عن الغير وتحولها إليه، أما إن كان عند غيرك نعمة فأحببت أن يكون لك مثلها مع بقاء النعمة التي عند غيرك معه؛ فهذا لا يُسمى حسداً، بل يُسمى غبطة، وقد يُطلق عليه في بعض نصوص الشرع حسداً، ولكن يقال له: الحسد الممدوح، **كما في قوله** ^{صلى الله عليه وسلم} **عليه السلام:** "لا حسد إلا في اثنتين"، **والمعنى:** لا حسد مشروع أو ممدوح إلا في اثنتين: "رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها" ^(٢)، فإذا تمنيت أن يكون لك مالا مثله؛ من أجل أن تفعل مثل فعله، أو أن تصير عالماً تُعلم الناس الخير مثله، فهذه هي الغبطة وتعني: حب التنافس في فعل الخير مع غيرك، فيكون الخير موجوداً عندك وعنده، بخلاف الحسد وهو: أن تمنى زوال النعمة عن غيرك، سواء كانت هذه النعمة في ذاته أو في ماله أو في وصفه، وتتحول إليك،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٢٤٨/١١)، برقم (١١٦٣٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه البخاري (١٠٨/٢)، برقم (١٤٠٩).



وهذا يدل على فساد النفس، وأنها نفسٌ شريرة، وهذا الشر قد يؤذي الآخرين، ولذلك أمرنا أن نستعيد بالله من الحاسد لأن نفسه شريرة وتكون الاستعاذة منه حال تنفيذ الحسد، حتى لا يصيبك بالعين، وفي هذا إشارة إلى أن الحاسد قد تقع منه العين، فيصيب بها غيره، **والإصابة بالعين حق، وهي نوعان: عينٌ حاسدة؛** وهي ناتجة من شرور في النفس، **وعينٌ مُعجبة به؛** كما حصل في عهد النبي ﷺ، أن رجلاً خلع ثيابه وذهب يغتسل، فرآه رجل فأعجب بجمال جلده؛ فقال: كأنه جلد امرأة في خدرها أو كلمة نحوها؛ فأصابه حتى سقط، **فقال النبي ﷺ: "علام يقتل أحدكم أخاه، فإذا رأى ما يعجبه، فليقل: ما شاء الله" (١)، وفي حديث آخر: "وإذا استُغسلتم فاغسلوا" (٢)،** فإذا رأيت ما يُعجبك فقل كما قال الله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فهذا يُذهب أثر الإعجاب المؤذي، أما إذا كانت النفس حاقدة أو حاسدة وتحمل الحُبث وخرجت منها العين، فهذا أخطر؛ لأن الشيطان يُرافقها، وتتحول إلى مسّ، ويُصاب الإنسان بتلبّس الجن فيه، بخلاف العين المُعجبة؛ فقد يتأثر الإنسان بها ويُصاب بالأذى، ولكن لا يتلبس به الشيطان ولا يمسه، وهنا قال: ﴿حَاسِدٍ﴾ ولم يقل: حاسدة، لأن المقصود الشخص الذي يحسد، فقد يكون رجلاً، وقد يكون امرأة، والحسد مُصيبة من المصائب، وهو مطية لكل المصائب، ولذلك قيل: أول ذنب عُصي الله به هو الحسد، ففي السماء حسد

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١١٦٠)، برقم (٣٥٠٩)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧١٩)، برقم (٢١٨٨).



إبليس لآدم فترك السجود له، وعصى أمر الله سبحانه وتعالى، فأدى به ذلك إلى أن يكفر بالله، وفي الأرض حسد قابيل لهابيل، فأدى به ذلك إلى القتل، فقتل أخاه^(١)، فالحسد دليل على فساد النفس، فترى أنها هي الأكمل والأحسن، فلا تريد خيراً لأحد أو أن يُشاركها فيه أحد، فالحاسد يحمل الأنانية والحقد، وخُبث النفس وسوء الطوية، ولو أظهر لغيره الابتسامة الصفراء، فإن وراءها المصائب، فاحذر منه، ولذلك أمرنا أن نستعيذ بالله من شر الحاسدين الحاقدين.

فوائد وهدايات من السورة:

- ١ - أهمية الالتجاء إلى الله والاستعاذة به سبحانه وتعالى من كل الشرور التي يتعرض لها الإنسان في نفسه وبدنه وماله وأحواله كلها.
- ٢ - أهمية التفاؤل، فتفاءل أيها العبد المكلوم باستعاذتك برب الفلق، فكما فلق الله الصبح فطار الظلام، وجاء النور؛ فسيطير منك البلاء، ويذهب منك العناء، ويأتيك الفرح والسرور!
- ٣ - أن الحاسد قد تقع منه العين، فيصيب بها غيره، وعلاجها بالاستعاذة من شره.

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٦٤٥-٦٤٦).



تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الناس؛ هي آخر سورة في ترتيب المصحف، وهي إحدى المعوذتين، وهي سورة مكية، **وهناك قول لبعض المفسرين** أنها نزلت في المدينة عندما سحر رسول الله ﷺ ^(١)، وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا لسورة الفلق، فقد تكون نزلت بمكة، ولما حصل للنبي ﷺ ما حصل جبريل وقال له: "ارق نفسك بهاتين السورتين" ^(٢)، فيكون من باب تكرار النزول، أو تعليمه أن يقرأ هاتين السورتين لعلاج ما أصابه، وقد أشرنا إلى بعض فضائلهما هناك، وأنهما مما يرقى به الإنسان نفسه، ويقرأهما عند النوم ودُبر الصلوات، وذلك لما فيهما من الالتجاء والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى، وقد تكرر لفظ الناس فيها خمس

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٤٠).

(٢) رواه أحمد، ط الرسالة (٣٥/ ١١٦)، برقم (٢١١٨٦)، وقال المحقق: صحيح.

مرات في ست آيات، وتكرر فيها أيضا حرف السين عشر مرات، **والسر في هذا التكرار:** أن الهمس من صفات حرف السين، وهو كذلك من صفات الشيطان، حيث يهمس في صدر الإنسان بالوسوسة، فكأن تكرار حرف السين في هذه السورة؛ إشارة إلى تكرار الوسوسة من الشيطان، والله أعلم.

ومقصد السورة؛ الاعتصام والتحصن بالله من شر الشيطان ووسوسته، ومن الشرور الخفية^(١)، حماية دين الإنسان، لأن الوسوسة تُصَبُّ في إفساد دينه، وتُلْقَى عليه الشُّبه، وتجعله يعبد غير الله، ويخاف من غير الله!!

وهذه السورة ابتدأها الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١﴾، وقد سبق معنا، أن (قل)، تفيد الأمر من الله لرسوله أن يُبلغ ما أُوحي إليه، وهذا مما يُستدل به على أن القرآن كلام الله، وأن محمداً ﷺ مُبَلِّغٌ له فقط، وأنه لا يزيد فيه ولا يُنقص منه شيئاً، كما قال الله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ٤٤﴾ ﴿لَا خَذَانَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥﴾ [لحاقة: ٤٤-٤٥]، **ومن جهة ثانية:** فإنها تُشير إلى مُهمّة من ورث هذا العلم من أُمته، وأن عليهم أن يُبلِّغوه كما سمعوه، وأن يقولوا الحق للناس، ويدلوهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وقوله: ﴿أَعُوذُ﴾، فعلٌ مضارع يدل على الاستمرار، وما أحوج الإنسان أن يكون على صلة مستمرة بربه، وأن تكون استعاذته والتجأؤه إلى الله تعالى على سبيل الاستمرار، فإن الإنسان إذا تخلف عن ذلك؛ وُكِّلَ إلى نفسه، ومن وُكِّل

(١) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠٤).



إلى نفسه هلك، وقد كان من أدعية النبي ﷺ: "ولا تكن لي إلى نفسي طرفة عين" (١).

وفي السورة ثلاث استعاذات، وهي قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)، وجاءت بثلاثة أوصاف للمُستعاذ به، وهو الله سبحانه، وهي: رب الناس، إله الناس، ملك الناس، من مُستعاذ به واحد؛ وهو شر الشيطان وأعماله، فقال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾، يعني من شر واحد هو الوسواس ثم ذكر صفاته، وفي سورة الفلق كانت الاستعاذة بوصف واحد للرب وهي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١)، وتعدّد المُستعاذ منه، فما هو السر في ذلك؟!، **الجواب: أن في سورة الفلق، كانت الاستعاذة برب الفلق من شر ما خلق؛ لأن شره يُصيبُ البدن، ويؤثر على دنيك، بينما في سورة الناس كانت الاستعاذة من أجل ألا يُصيبك الشيطان في دينك، فإن الوسوسة في القلب تجعل الإنسان يضل في دينه، فدل ذلك على أن الدين أهم من الدنيا، ولذا كان من دعائه ﷺ: "ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا" (٢)؛ لأن المصيبة إن كانت في دنيك فقد يُعرضك الله عنها خيراً، بخلاف أن تكون المصيبة في دينك، فتخسر دنيك وآخرتك!!.**

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١)، الاستعاذة هنا برب الناس، والربوبية هي: إفراد الله بأفعاله، فهو الرب، المُربي، المُنعم، المالك، الخالق، الرازق، ونحوها.

(١) رواه أبو داود (٣٢٤ / ٤)، برقم (٥٠٩٠)، وقال الألباني: حسن الإسناد.

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥٢٨ / ٥)، برقم (٣٥٠٢)، وقال الألباني: حسن.



ثم قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، وهذا يُسميه العلماء عطف بيان، لأن كل عبارة تُبين ما قبلها، والمَلِكُ هنا أبلغ من الربوبية، وقد تكون ربَّ البيت لكنك لا تملكه فقد يكون بالإيجار، فالمَلِكُ أعظم من الرب، ومَلِكِ الناس يعني المالك المُسيطر عليهم المُتمكن منهم.

ثم قال: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، وهذا عطف بيان أيضاً، والألوهية هي: إفراد الله بأفعال المكلفين، من صلاة وصيام وذبح ودعاء ونحوها، فمن كان رباً ومالِكاً للخلق؛ فهو من يستحق بأن يكون إلهاً لهم، وإضافة الرب والمَلِكِ والإله إلى الناس تفيد التشريف، وتشعرهم بأنهم مكرمين عنده، **كما في قوله:** ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، والربوبية والمَلِكِ والألوهية هي محاور التوحيد، **فإن التوحيد على قسمين:**

الأول: توحيد المعرفة والإثبات، وتكون في خلقه وفعله ومُلكه سبحانه وتعالى، ويندرج تحته توحيد الأسماء والصفات، فثبت له ما أثبتته لنفسه، ونفي عنه ما نفاه عن نفسه.

والقسم الثاني: توحيد القصد والطلب، وهو توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بأفعال المكلفين، فأتى بأنواع التوحيد كلها في هذه الاستعاذة.

قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، هذا هو المُستعاذ منه، وهو شر الوسواس، هل هناك وسواس خير؟!، **الجواب:** بالنسبة للشيطان؛ فكل وسواسه شر، وبالنسبة للنفس؛ فإن كانت نفساً صالحة، فخواتمها قد تحتوي على كثير من الخير، و﴿مِنْ﴾ هنا للبيان، **أي:** أن الشر كامن في إبليس،



والوسواس هنا المقصود به الوسوسة، وهي الصادرة إما من إبليس وإما من النفس الأمارة بالسوء، **والوسواس هو:** خاطرٌ خفي في النفس يذهب ويعود، ويكثر الوسواس في الأنفس التي تكون غافلة عن الله، وكلما غفلت عن ذكر الله وطاعته؛ كلما زادت الوسواس الجاثمة على صدرك من النفس الأمارة بالسوء ومن الشيطان وحزبه، أما المؤمن التقي الذي يكثر من ذكر الله، فقد تأتيه خواطر من الشيطان أو من النفس، ولكنها سرعان ما تذهب إذا ذكر الله، **كما قال:**

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثَمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢) [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢]، والمقصود بإخوانهم هم المنهمكون في الغفلة والانحراف، وقد أعطى الله الشيطان القدرة للوصول إلى النفس، **كما جاء في الحديث: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" (١)، وعلى المسلم أن يقاوم هذه الوسواس، ويلتجئ إلى الله في دفعها، **كما قال:** ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١) [آل عمران: ١٠١]، وذكر الله للشيطان هنا صفتين: **الصفة الهجومية** عند الغفلة؛ يهجم عليك بالوسوسة، **كما قال:** ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) [الزخرف: ٣٦]، **والصفة الدفاعية** إن ذكرت الله؛ يهرب منك، والخناس صيغة مبالغة من الخنس، وهو الهروب والاختفاء، فيهرب ويتعد عنك.**

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥)، هذا وصفٌ للشيطان، فإنه يهجم على القلوب التي في الصدور بالوسوسة، وهذه الوسوسة تختلف

(١) رواه البخاري (٧٠ / ٩)، برقم (٧١٧١).



بحسب حال الناس، فالغافل تكثرُ عنده الوسوسة ويطبق عليه الشيطان من جميع الجهات، والمؤمن التقي الذاكِر لله سبحانه وتعالى، تأتيه أحياناً ويتعد الشيطان عنه أحياناً إذا ذكر الله ويعود إليه إذا غفل، **كما جاء في الحديث:** "إذا سمع الشيطانُ النداء -أي الأذان-، هرب وله ضُراط" ^(١)، ومن هنا يقول العوام إذا أرادوا أن يصفوا شيئاً بالكثرة، يقولون: (عدد ضرط إبليس)، وذلك من كثرة ما يسمع الشيطان الأذان، فقد خلق الله الأرض كروية، وجعل مواقيت الصلاة فيها تدور كل دقيقة أو دقيقتين، فما يكاد ينتهي الأذان هنا إلا وأذن في المنطقة التي تليها وهكذا، فيستمر الأذان يلف العالم، وإبليس يهرب منه كلما سمعه، فإذا انتهى الأذان وقام الرجل يُصلي فما أن يُكبر حتى يأتي إليه؛ فيؤسوس له، ويقول له: اذكر كذا، واذكر كذا، فلا يدري العبد كم صلى، فهذا من الوسواس، وهو سبب لعدم الخشوع في الصلاة، ولذلك أرشد النبي ﷺ من يأتيه الوسواس في الصلاة، أن يستعيذ بالله من شره، ولينفث عن يساره، وقد جاء في الحديث أن أحد الصحابة قال: كنت رديف النبي ﷺ، فحصل للناقة شيء فقلت: تعس الشيطان، قال: "لا تقل تعس الشيطان، فإنك إن قلتها تعاظم، ولكن قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنه يتصاغر" ^(٢)، فالاستعاذة منه مهمة، بخلاف سب الشيطان أو لعنه، فقد لا يستفيد منها الإنسان في دفعه، بل يزداد تعاظمه، فكیده على المؤمنين ضعيف، **كما قال:** ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

(١) رواه البخاري (١/١٢٥)، برقم (٦٠٨).

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٩٦)، برقم (٤٩٨٢)، وقال الألباني: صحيح.



يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴿٩٩﴾

[النحل: ٩٩-١٠٠]، وكلما كثر الوسواس عند شخص دل ذلك على غفلته، فعليه بذكر الله ليطمئن قلبه، **كما قال:** ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالقلب الميت مأوى الشيطان، فالشياطين تسكن الأماكن الخربة، والأماكن النجسة والوسخة مثل الحمامات، فلا تجعل قلبك مأوى للشيطان، بل طهر قلبك من كل الأوساخ كالحسد والغل والحقده وسوء الظن، فهذه القاذورات هي التي تدعو الشيطان إلى قلبك فيصبح بيتاً له!!

وقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿٦﴾، بيان للمستهدفين، وهم الجن والإنس المكلفون، فالشيطان يريد أن يحرفهم عن طاعة الله وعن عبادته، وليس له علاقة بالملائكة لأنهم مفطورون على العبادة، وذكر بعض أهل العلم أن المقصود بالناس هنا الناسي، ويدخل فيه الجن^(١)، وهل يؤسوس الشيطان للجن كما يؤسوس للناس؟! **الجواب:** نعم، لأن الجن والإنس هم الثقلان وهما المكلفون بالعبادة، والشيطان يريد أن يعمل على إبعادهم عن عبادة الله، وقد وصف الله الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ ﴿١١﴾ [الجن: ١١]، فهناك جنٌ صالحون يذكرون الله ويعبدونه والشيطان يهرب منهم، وهناك جنٌ عَصَاةٌ والشيطان يُعَشِّشُ في قلوبهم ويؤسوس لهم ويجعلهم يفعلون المعصية، كما يفعل مع الإنس، مع أن الشيطان من أفراد الجن، إلا أنه شطن وبعد عن الخير، ومن كثرة شره صار صنفاً ثالثاً، **وقيل أن المعنى:** أستعيذ بالله

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٧٨).



من شر وسواس الجن الذي هو الشيطان، وشر وسواس الإنس الذين هم شياطين الإنس^(١)، **كما قال:** ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وشيطان الجن أضعف من شيطان الإنس، فشياطين الإنس اليوم أكثر ضررًا من شياطين الجن، لأنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان؛ هرب، أما شياطين الإنس فيلصص بجوارك، فلا يذهب، ومنهم جار السوء، وصديق السوء، وزميل السوء، ورفيق السوء، فهؤلاء كلهم من شياطين الإنس، وخطورتهم تكمن في أنهم رُفقة معك، ومن جنسك، ويتكلمون معك، وتراهم وتجلس معهم، بخلاف إبليس وجنده فإنك لا تراهم، **كما قال:** ﴿إِنَّهُ يَرَبِّنَا هُوَ وَقِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، والسر في إخفاء إبليس حتى نحتقره ونستصغر شأنه، ولا ننتبه له، ووصف كيد بالضعف، **كما قال:** ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فعدم رؤيتك له دليل على احتقارك له، لكن يقع في حباله ويتخيله؛ ويخاف منه، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَاءِهِ، والمقصد أن نستعيز بالله تعالى، برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس سواء كان من شيطان الإنس، أو كان من شيطان الجن؛ ولذا خُتم القرآن الكريم بهاتين السورتين العظيمتين ليكون المعنى: هذا كتابُ الله، لن تستطيعوا أن تفهموه وتدبروه إلا باستعاذتكم بالله، فاستعيزوا بالله لحماية دينكم وحماية دنياكم.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٤٠).



فوائد وهدايات من السورة:

١- أن الاستعاذة والالتجاء إلى الله تعالى يجب أن يكون على سبيل الاستمرار، فإن الإنسان إن تخلف عن ذلك؛ وُكل إلى نفسه، ومن وُكل إلى نفسه هلك.

٢- أن الوسواس: خاطرٌ خفي في النفس يذهب ويعود، ويكثر الوسواس في الأنفس التي تكون غافلة عن الله.

٣- أن القلب الميت مأوى الشيطان، فالشياطين تسكن الأماكن الخربة، والوسخة، مثل الحمامات، والأماكن النجسة، فلا تجعل قلبك نجسًا، فيكون مأوى للشيطان، بل طهر قلبك من كل النجاسات.

٤- أن شيطان الجن أضعف من شيطان الإنس، فشياطين الإنس اليوم أكثر ضررًا من شياطين الجن، لتنوع أساليب إفسادهم للخلق، فاحذر منهم واجب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس المحتويات

٥	المقدمة:
٧	تفسير جزء تبارك
٩	تفسير سورة الملك تفسير المقطع الأول من سورة الملك
٩	شخصية السورة:
١٨	تفسير المقطع الثاني من سورة الملك
٢٦	تفسير المقطع الثالث من سورة الملك
٣٣	فوائد وهدايات من السورة:
٣٥	تفسير سورة القلم تفسير المقطع الأول من سورة القلم
٣٥	شخصية السورة:
٤٤	تفسير المقطع الثاني من سورة القلم
٥٠	فوائد وهدايات من الآيات:
٥١	تفسير المقطع الثالث من سورة القلم
٦٢	فوائد وهدايات من الآيات:
٦٣	تفسير سورة الحاقة تفسير المقطع الأول من سورة الحاقة
٦٣	شخصية السورة:
٦٩	فوائد وهدايات من الآيات:
٧٠	تفسير المقطع الثاني من سورة الحاقة



- ٧٧..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ٧٨..... تفسير المقطع الثالث من سورة الحاقة
- ٨٣..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ٨٤..... تفسير سورة المعارج تفسير المقطع الأول من سورة المعارج**
- ٨٤..... شخصية السورة:
- ٩١..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ٩٢..... تفسير المقطع الثاني من سورة المعارج
- ١٠٠..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٠١..... تفسير سورة نوح تفسير المقطع الأول من سورة نوح**
- ١٠١..... شخصية السورة:
- ١٠٨..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٠٩..... تفسير المقطع الثاني من سورة نوح
- ١١٦..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١١٧..... تفسير سورة الجن تفسير المقطع الأول من سورة الجن**
- ١١٧..... شخصية السورة:
- ١٢٤..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٢٦..... تفسير المقطع الثاني من سورة الجن
- ١٣٤..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٣٥..... تفسير سورة المزمل تفسير المقطع الأول من سورة المزمل**
- ١٣٥..... شخصية السورة:
- ١٤٣..... فوايد وهدايات من الآيات:



- ١٤٤..... تفسير المقطع الثاني من سورة المزمل
- ١٥٠..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٥١..... تفسير سورة المدثر تفسير المقطع الأول من سورة المدثر**
- ١٥١..... شخصية السورة:
- ١٦٢..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٦٣..... تفسير المقطع الثاني من سورة المدثر
- ١٧١..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٧٢..... تفسير سورة القيامة تفسير المقطع الأول من سورة القيامة**
- ١٧٢..... شخصية السورة:
- ١٧٩..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٨٠..... تفسير المقطع الثاني من سورة القيامة
- ١٨٦..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٨٧..... تفسير سورة الإنسان تفسير المقطع الأول من سورة الإنسان**
- ١٨٧..... شخصية السورة:
- ١٩٥..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ١٩٦..... تفسير المقطع الثاني من سورة الإنسان
- ٢٠٤..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ٢٠٥..... تفسير سورة المرسلات تفسير المقطع الأول من سورة المرسلات**
- ٢٠٥..... شخصية السورة:
- ٢١١..... فوائد وهدايات من الآيات:
- ٢١٢..... تفسير المقطع الثاني من سورة المرسلات
- ٢١٩..... فوائد وهدايات من الآيات:



٦٥٦ ————— لطائف البيان في تفسير القرآن

٢٢١..... تفسير جزء عم

٢٢٣..... تفسير سورة النبأ

٢٢٤..... شخصية السورة:

٢٣٩..... فوائد وهدايات من السورة:

٢٤٠..... تفسير سورة النازعات

٢٤١..... شخصية السورة:

٢٥٣..... فوائد وهدايات من السورة:

٢٥٤..... تفسير سورة عبس

٢٥٤..... شخصية السورة:

٢٦٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٢٦٩..... تفسير سورة التكويد

٢٦٩..... شخصية السورة:

٢٧٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٢٧٩..... تفسير سورة الانفطار

٢٧٩..... شخصية السورة:

٢٨٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٢٨٩..... تفسير سورة المطففين

٢٨٩..... شخصية السورة:

٣٠٥..... فوائد وهدايات من السورة:



٣٠٧..... تفسير سورة الانشقاق

٣٠٧..... شخصية السورة:

٣١٧..... فوائد وهدايات من السورة:

٣١٩..... تفسير سورة البروج

٣١٩..... شخصية السورة:

٣٣١..... فوائد وهدايات من السورة:

٣٣٣..... تفسير سورة الطارق

٣٣٣..... شخصية السورة:

٣٤٣..... فوائد وهدايات من السورة:

٣٤٤..... تفسير سورة الأعلى

٣٤٤..... شخصية السورة:

٣٥٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٣٥٩..... تفسير سورة الغاشية

٣٥٩..... شخصية السورة:

٣٧٠..... فوائد وهدايات من السورة:

٣٧١..... تفسير سورة الفجر

٣٧١..... شخصية السورة:

٣٨٥..... فوائد وهدايات من السورة:

٣٨٧..... تفسير سورة البلد

٣٨٧..... شخصية السورة:



٣٩٩..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٠٠..... تفسير سورة الشمس

٤٠٠..... شخصية السورة:

٤٠٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٠٩..... تفسير سورة الليل

٤٠٩..... شخصية السورة:

٤١٦..... لفظة تربوية مهمة جداً:

٤٢٦..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٢٧..... تفسير سورة الضحى

٤٢٧..... شخصية السورة:

٤٣٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٣٩..... تفسير سورة الشرح

٤٣٩..... شخصية السورة:

٤٥٠..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٥١..... تفسير سورة التين

٤٥١..... شخصية السورة:

٤٦٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٦٣..... تفسير سورة العلق

٤٦٣..... شخصية السورة:

٤٧٦..... فوائد وهدايات من السورة:



٤٧٨..... تفسير سورة القَدَر

٤٧٨..... شخصية السورة:

٤٨٦..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٨٨..... تفسير سورة البينة

٤٨٨..... شخصية السورة:

٤٩٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٤٩٩..... تفسير سورة الزلزلة

٤٩٩..... شخصية السورة:

٥٠٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٥١٠..... تفسير سورة العاديات

٥١٠..... شخصية السورة:

٥١٧..... فوائد وهدايات من السورة:

٥١٩..... تفسير سورة القارعة

٥١٩..... شخصية السورة:

٥٢٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٢٩..... تفسير سورة التكاثر

٥٢٩..... شخصية السورة:

٥٣٧..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٣٨..... تفسير سورة العصر

٥٣٨..... شخصية السورة:



٥٣٩..... علاقة سورة العصر بالسورة التي قبلها:

٥٤٨..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٤٩..... تفسير سورة الهمزة

٥٤٩..... شخصية السورة:

٥٥٦..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٥٧..... تفسير سورة الفيل

٥٥٧..... شخصية السورة:

٥٦٦..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٦٧..... تفسير سورة قريش

٥٦٧..... شخصية السورة:

٥٧٥..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٧٦..... تفسير سورة الماعون

٥٧٦..... شخصية السورة:

٥٨٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٨٤..... تفسير سورة الكوثر

٥٨٤..... شخصية السورة:

٥٩٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٥٩٣..... تفسير سورة الكافرون

٥٩٣..... شخصية السورة:

٦٠٠..... فوائد وهدايات من السورة:



٦٠٢..... تفسير سورة النصر

٦٠٢..... شخصية السورة:

٦١٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٦١٣..... تفسير سورة المسد

٦١٣..... شخصية السورة:

٦٢٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٦٢٣..... تفسير سورة الإخلاص

٦٢٣..... شخصية السورة:

٦٣١..... فوائد وهدايات من السورة:

٦٣٣..... تفسير سورة الفلق

٦٣٣..... شخصية السورة:

٦٤٣..... فوائد وهدايات من السورة:

٦٤٤..... تفسير سورة الناس

٦٤٤..... شخصية السورة:

٦٥٢..... فوائد وهدايات من السورة:

٦٥٣..... فهرس المحتويات



لطائف البيان

في تفسير القرآن

تفسير جزي تبارك وعمه

تأليف

أستاذة ألكويت والفسير في جامعة إرب

١٥٠٠ / حيدر أباد

